

رسائل الجاحظ

المجلد الثالث

القسم الأول من
الفصول المختارة من كتب الجاحظ
إختيار الأمام مجيد الله بن حسان

تحقيق وشرح
عبد السلام محمد هارون

دار الحديث
بيروت

جمیع الحقوق محفوظة لدار البیت

الطبعة الأولى
١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

تقديم

أيدك الله ، وأسبح عليك من عظيم فضله وجبيل نعمته ، ماترضى به وتطمئن إليه . وحفظك أخصاً كريماترعى الود ، وتقيم على العهد .

وكنت قد وعدتك من قبل أن أتبع المجموعة الأولى من الرسائل ، وهي (مجموعة مكتبة داماد) ، بمجموعة أخرى لاتقل عنها قدراً إن لم تفقها ، وهي (مجموعة مختارات عبید الله بن حسان) .

وعدت عواد أن أبادر بإنجاز هذا الوعد ، مع بقاى عليه ، علم الله ، وامتداد بصرى إلى صونه ورعايته .

فلما أذن الله ، وله الحمد ، أن أنهض بإتمام تحقيق هذه المختارات ، ضاعفت شكره ، وسعيت إلى نشرها بين يديك ، لتعلم أنى على موعدى .

وقد أشرت فى مقدمة الجزء الأول من رسائل الجاحظ إلى حصر أبرز المجموعات التى حفظت بها هذه الرسائل ، وهى :

١ - مجموعة مكتبة داماد (وقد نشرتها سنة ١٣٨٤ فى جزأين بهما ١٧ كتاباً ورسالة) .

٢ - مجموعة فان فلوتن .

٣ - مجموعة الفصول المختارة لعبید الله بن حسان .

٤ - مجموعة محمد ساسى المغربى .

٥ - مجموعة ريشر .

٦ - مجموعة حسن السندي .

٧ - مجموعة يوشع فنكل .

٨ - مجموعة بول كراوس وطه الحاجري .

ولست أعيد القول فيما اشتملت عليه كل مجموعة من هذه المجموعات الثمانية ، فإنها مسطورة بالتفصيل في مقدمة الجزء الأول من الرسائل .

ولنما يعنى القول في مجموعة واحدة هي المجموعة الثالثة من هذه المجموعات ، وهي (الفصول المختارة من كتب الجاحظ) ، إذ هي الأصل الذي اعتمدت عليه في إخراج الجزأين الثالث والرابع من رسائل الجاحظ .

وقد طبعت هذه المجموعة من قبل محرقة مبتورة ، على هامش كامل الميرد بمطبعة التقدم العلمية سنة ١٣٢٣ بعناية الشيخ علي بن أحمد الهواري .

وكان الذي جداني إلى إعادة نشر هذه الفصول المختارة أمور :

أولها : ما لها من القدر الأدبي والتاريخي ، إذ أنها تشتمل على عيون من كتب الجاحظ ، هي في قمة ما أنشأه ، من حيث موضوعاتها المختلفة في الشؤون الإنسانية العامة . فهي دراسات نفسية واجتماعية ، ودينية وكلامية وجدلية ، وأدبية عالية ، وترفيهية سامية ، وإن كانت معظم كتب الجاحظ تلم بأطراف مما ذكرت ، ولكن التناول العميق لهذه الدراسات ، مما اقتصت به أفراد هذه المجموعة النادرة .

فلا ريب أن الجاحظ قد تكلم في الحاسد والمحسود في أثناء كتبه كلاماً عابراً ، ولكنه حين يخص هذا الأمر بالدراسة والقول المستفيض ، يضي لنا جميع الجوانب التي يمكن أن تحيط به ، بقدر ما يثير إعجابنا وإمتاعنا .

وهو حين يقدم دراسة عن المعلمين ، يبسطها لنا مستوعباً أقصى ما يمكن كتابته في هذا اللون الأدبي من الكتابة في طائفة عظيمة من طوائف الناس .

وحين يتكلم على النساء والمرأة يجلو صفحة عريضة من نظراته ونظرة

دنياه ، بل دنيانا نحن ، إلى نصف هذا البشر الذى يعاملنا وتعامل معه ، فى ثقة العالم وصراحة الدارس الموضوعى .

كما أن الدراسة التاريخية والسياسية فى «مناقب الترك» تطلعتنا على جوانب كانت غامضة على الكثير منا ، إذ فيها تباين نظرة الناس إلى هذا العنصر البشرى وغيره من عناصر الدولة الإسلامية فى ذلك العهد السحيق . وهى وثائق سياسية لها قدرها السياسى إلى جانب قدرها الاجتماعى والإنسانى . وهو الأمر الذى دعا أحد الأدباء^(١) إلى أن يضع كتاباً عنوانه: «الترك فى مؤلفات الجاحظ» ، وهو بحث له قدره ووزنه .

وكتابه فى «المعلمين» حملنى من قبل أن أكتب فى هذا الجانب دراسة مستفيضة نشرت فى مجلة «الكتاب» فى عدد أغسطس سنة ١٩٤٦ .

وآراء الجاحظ فى «حجج النبوة» ، و«خلق القرآن» جديرة بأن تلتى دراسة وتمحيصاً .

وكتاب «الرد على النصارى» مظهر مضىء من مظاهر الحركات الفكرية التى كانت سائدة فى أزهى العصور الإسلامية ، ونموذج رائع للجدال العلمى الرفيق مع أهل الكتاب بالتى هى أحسن .

وفى الحق أن فى كل كتاب أو رسالة فى هذه المجموعة التى بلغ تعدادها ٢٩ تسعة وعشرين كتاباً أو رسالة ، مثاراً للبحث والتأمل ، والمتعة التى لا حدود لها .

وإننا لنجد بين القدماء من يغلو فى تقدير كتب الجاحظ ، ويتجاوز حدود الوقار فيقول^(٢) : «رضيت فى الجنة بكتب الجاحظ عوضاً عن نعيمها» .

(١) هو الأديب زكريا الكتانجى . وقد نشر كتابه فى دار الثقافة ببيروت سنة ١٩٧٢ .

(٢) هو أبو محمد عبد الله بن حمود الزبيدى الأندلسى ، تلميذ السيرافى والفارسى والقالى . بغية الوعاة ٨٢٢ .

والأمر الثاني : أن النشرة الأولى لهذه المجموعة نشرة غير علمية ، وإن كان لناشرها المغمور فضل السبق في إظهارها ، وتمكين الباحث إلى قدر ما من الاستعانة بها في المجال العلمى .

وثالثها : أن بتلك النسخة المطبوعة سقطاً كبيراً تناول نحو عشر رسائل . وهو قدر كبير كان لابد من إثباته في نشرة جديدة، كتب الله لى فضل إخراجها .

وهذا السقط يبدأ من منتصف كتاب.النصارى إلى أوائل كتاب « النبيل والتبيل وذم الكبر » .

ورابعها : أن أصل النسخة المطبوعة غير معروف ، شأنها في ذلك شأن كثير مما نشر من أفراد التراث العربى وأظهرته المطابع في هذا العهد المتطلع إلى النهوض من عثرات التخلف .

وخامسها : أن مخطوطة التيمورية التي جعلتها أحد أصول التحقيق في نسختى هذه ، تنتمى إلى أصل عتيق ، ففى نهايتها نجد هذا النص :

« انتهاء الفصول التي اختارها عبيد الله بن حسان من كتب أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله . وكان الفراغ من نسخ هذه النسخة في يوم الجمعة المبارك الموافق لثلاث خلت من شهر ذى القعدة من شهر سنة ١٣١٥ خمسة عشر وثلاثمائة بعد الألف من هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم . وقد تم نسخها بيد العبد الحقير ، المعترف بالعجز والتقصير ، عبد أهل السنة والجماعة ، الخاضع لله بالدعاء والطاعة ، الراجى لطف ربه الغنى ، محمد بن عبدالله بن إبراهيم الزمرانى ، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين بمنه وكرمه ، والصلاة والسلام على خير خلقه ، والحمد لله وحده . تمت بمحمد الله وعونه وحسن توفيقه آمين .

وقد نقلت هذه النسخة المباركة من نسخة تاريخها في أوائل شهر رجب الأصم سنة ٤٠٣ ثلاث وأربعائة، كاتبها أبى القاسم (كذا) عبيد الله بن على » .

وهذه النسخة التيمورية وقربتها نسخة الأزهر المودعة برقم [٢٣١] أباطة ٦٨٣٦ كتبهما وراق واحد، هو محمد بن عبدالله بن إبراهيم الزمراني ، كتب نسخة التيمورية سنة ١٣١٥ ومن قبلها نسخة الأزهر سنة ١٣١٣ . وفي آخر نسخة الأزهر ما نصه :

« انتهاء الفصول التي اختارها عبيد الله بن حسان من كتب أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله . وكان الفراغ من نسخ هذه النسخة خامس يوم شهر محرم الحرام افتتاح سنة ٣١٣ من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل السلام وأزكى التحية ، بقلم العبد الفقير المعترف بالعجز والتقصير محمد بن عبدالله بن إبراهيم الزمراني ، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين » .

وقد رجح لدى أن هاتين النسختين منقولتان من نسخة واحدة هي التي أشار إليها الناسخ في ختام التيمورية .

لذلك ، ولأن الكاتب للنسختين وراق واحد ، ولأن التحريف والأسقاط والزيادات فيهما واحدة اعتمدت على النسخة التيمورية ، راکتفت بها عن صنوها نسخة الأزهر .

وهذه النسخة التيمورية تعد من حيث الصحة والكمال فوق نسخة المتحف البريطاني .

وعلى هذا فقد استقرت المقابلة في نشرتي هذه على ثلاثة أصول :

١ - الأصل الأول : نسخة المتحف البريطاني ، وهي أقدم الأصول الثلاثة تاريخاً ، وكتب على صدرها :

« هذا كتاب مختارات فصول الجاحظ عن عمنه ، كتب برسم خزانة الأمير الفاضل موسيو كريمير النمساوي^(١) ، بمحروسة مصر سنة ١٨٧٧ م » . وهي تقابل سنة ١٢٩٤ الهجرية .

(١) هو البارون النمساوي فون كريمير (١٨٢٨ - ١٨٨٩) . ولد في فيينا وتخرج في جامعتها ، فأرسلته دولته قسلاً لها بمصر ثم بيروت سنة ١٨٧٠ . وكان من أصحاب النشاط =

ومنها نسخة مصورة بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٤٠٦٩ وهي في ٢٩٩
لوحاً في مجلدين ، تشتمل صفحة اللوح على ١٧ سطرأ بكل سطر نحو ثمان
كلمات . وقد التزم فيها علامات الإلحاق في أسفل الصفحات اليمنى .
وقد كتبت النسخة بخط نسخي جيد مجرد من الضبط . وجاء في خاتمتها :

« انتهاء الفصول التي اختارها عبيد الله بن حسان من كتب أبي عثمان
عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله تعالى . وكان الفراغ من نسخ هذه النسخة
يوم الجمعة المبارك الثامن عشر من شهر صفر الخير من سنة ١٢٩٤ بعد
الألف من الهجرة النبوية ، على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التحية ، على
يد كاتبها الفقير عبد الله المنصوري . اللهم اغفر له ولوالديه . آمين آمين .

وقد رمزت إلى هذه النسخة في التعليقات والمقابلات بالرمز (ب)
إشارة إلى المتحف البريطاني .

٢- الأصل الثاني : نسخة المكتبة التيمورية ، وهي مودعة بدار الكتب
المصرية برقم ١٩ أدب تيمور . وكتب على صدرها :

« هذا كتاب مختارات فصول الشيخ الهمام ، العالم العلامة والبحر الفهامة ،
أبي عثمان الجاحظ ، تغمده الله برحمته ، وأسكنه فسيح جنته ، بمنه وكرمه .
آمين » .

وهي كذلك مكتوبة بالخط النسخي الجيد ، مجردة من الضبط ، إلا
ما قام به المغفور له أحمد تيمور باشا من بعض الضبط والمقابلات في الرسالة
الأولى منها ، وهي « رسالة الحاسد والحسود » . وهي مقابلات على مطبوعة
السامى في مجموع رسائله . وكذلك بعض المقابلات على تلك المطبوعة أيضاً
في رسالة الجاحظ إلى الفتح بن خاقان في « مناقب الترك وعامة جند الخلافة » .

= السامى والاستشراق . وقد ابتاعت مكتبة المتحف البريطاني مكتبته الشرقية ، كما ذكر نجيب
العتيق في كتابه المشرقون ٢ : ٦٣١ . ومن منشوراته : المنازى للواقدي بمقدمة وشرح
الجزيرية (كلكتا وبرلين ١٨٥٥ - ١٨٨٨) ، والقصيدة الحميرية لنشوان بن سعيد الحميري
(ليزيغ ١٨٦٥) .

وهي في ٢٠٨ ورقة عدد صفحاتها ٤١٧ صفحة ، بكل صفحة ٢١
واحد وعشرون سطرأ بكل سطر نحو ١١ كلمة .

وقد أشرت إلى ختام هذه النسخة فيما سبق .

ورمزت لهذه النسخة بالرمز (م) مقتبساً من التيمورية .

٣- الأصل الثالث : أصل استثنائي ، هو النسخة المطبوعة بهامش
كامل المبرد في مطبعة التقدم العلمية سنة ١٣٢٣ وعنوانها : « الفصول المختارة
من كتب الإمام أبي عثمان عمرو الجاحظ بن بحر بن محبوب الكنانى البصرى
المتوفى بالبصرة سنة ٢٥٥ هجرية ، اختيار الإمام عبيد الله بن حسان رحمه الله
ونفعنا به آمين » .

وخاتمها : « انتهت الفصول التي اختارها عبيد الله بن حسان من كتب
أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله تعالى ، والحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وآله وصحبه أجمعين » .

وهي في جزأين : الأول في ٣٩٦ صفحة ، والثاني في ٣٠١ صفحة .
وهذه النسخة بها كثير من النقص كما أشرت إلى ذلك من قبل ، ولكنها
مصححة محررة بشيء من العناية ، قام على تصحيحها مقرونة بكامل المبرد
« راجى عفو البارى ، على بن أحمد الشهير بالهوارى » .

ولا يعلم الأصل الذى طبعت منه ، ولا ريب أنه غير النسخ التي سبق
الكلام عليها ، أى النسخة الأزهرية ونسخة تيمور ، ونسخة المتحف
البريطانى .

وقد أشرت إليها بالرمز (ط) .

ولإليك فهرسها مقارناً بفهرس النسخة التيمورية ونسخة المتحف
البريطانى :

فالرقم الأول لصفحات التيمورية ، يليه رقم ألواح مصورة نسخة المتحف
البريطانى ، وبعده أرقام صفحات النسخة المطبوعة على هامش الكامل للمبرد :

مطبوعة هاشم الكاظمي	المتحف البريطاني	التيمرية	المطبعة والحسود
١٦-٢ : ١	٨- و ٢	١٣- ٢	١- المطابع والحسود
٣٠- ١٧	٨- و ١٩	٣٢- ١٣	٢- المعلمين
٩٧- ٣٠	٣١- و ١٩	٦٩- ٣٢	٣- الترتيب والتدوير
١٢٠- ٩٧	٤٩- و ٤٩	٨١- ٧٠	٤- مدح النبيل
١٣٠- ١٢٠	٥٢- و ٥٢	٨٦- ٨١	٥- طبقات العنبرين
١٦٦- ١٣٠	٦٢- و ٥٢	١٠٤- ٨٦	٥- النساء
١٧٥- ١٦٦	٨٨- و ٦٢	١٤٣- ١٠٥	٧- مناقب الترك
١١٧:٣- ٢٧٥	١٢١- و ٨٨	١٩٠- ١٤٣	٨- صحيح النبوة
١٤٨- ١١٧	١٢١- و ١٢٩	٢٠٢- ١٩٠	٩- خلق القرآن

- (١) تتر أيضاً في صدر مجموعة الساسي ٢- ١٣ بأرقام مستقلة، كما ورد في دراسات ريشتر ١٨٠- ١٨٢ .
- (٢) هو أيضاً في مجموعة ريشتر ١٠١- ١٠٨ .
- (٣) تتر في مجموعة فان فانلوتن ٨٦- ٨٦ والساسي ١٥٦- ١٤٧ وريشر ٢١٢- ٢٥٥ والسنتوي ١٨٧- ٢٤٠ وتتره مستقلاً خلال بلا في دمشق سنة ١٩٥٥ .
- (٤) السنتوي ٢٥٨- ٢٩١ وريشر ١١١- ١١٢ .
- (٥) مجموعة الساسي ١٨٦- ١٩٠ وريشر ٢٠٤- ٢٠٦ .
- (٦) أبو العنبر والنساء - مجموعة الساسي ١٦١- ١٦٩ وريشر ١٨٨- ١٩٤ والسنتوي ٢١٦- ٢٧٢ .
- (٧) سبق تتره من مجموعة دادا في ٨٦:١ . وهو في مجموعة ريشتر ٢٠٧- ٢١٠ باسم قطبان الأثر الك، ذكر لها عنوانه .
- (٨) تتر أيضاً في مجموعة ريشتر ١١٢- ١٥٩ والسنتوي ١٧- ١٥٤ . وهو في العنوان ١: باسم كتاب الحمرة في تثبيت النبوة .
- (٩) لم يتتر منه شيء إلا في هاشم الكاظمي . وانظر العنوان ١: ٩ إذا افترض إليه .

مطبوعة هاشم الكامل	المنصف البريطاني	التيورنية	الرد على الضاربي
١٨٤ - ١٤٨	١٢٩ ط - ١٥٥ ط	٢٣٦ - ٢٠٢	١٠ - الرد على الضاربي
-	١١٦ ط - ١٥٥ ط	٢٤٤ - ٢٣٦	١١ - الرد على المشبه
-	١٧٥ - و ١٦١	٢٦١ - ٢٤٤	١٢ - مقالة العثمانية
-	١٧٥ - و ١٨٥ ط	٢٧٥ - ٢٦١	١٣ - المسائل والبحرانيات في المرفقة
-	١٨٥ ط - ١٩٠ ط	٢٨٢ - ٢٧٥	١٤ - الامداد والماش
-	١٩١ ط - ١٩٤ ط	٢٨٧ - ٢٨٢	١٥ - الجلد والفرل
-	١٩٩ ط - ١٩٩ و	٢٩٣ - ٢٨٧	١٦ - الركلا
-	١٩٩ ط - ٢١٩ ط	٣١٩ - ٢٩٣	١٧ - الأوطان والبلدان
-	٢١٩ ط - ٢٢٠ ط	٣٢٠ - ٣١٩	١٨ - البلاغة والإيجاز

- (١٠) مجموعة زبير ٤٠-٢٧ ويوش نكل ١٠-٢٨ وقد أشار إليه ابن عسقلان في الجوزان ١ : ٩ بقوله « وكان على الصادي واليهود »
والكتاب يتألف في سائر، ولكن هكذا وردت تسميته مخمسة في الظهورات والظهورات .
- (١١) لم تنشر قبل . ولكن تنشر هنا في التوضيح ، وهو « في التعلية » . انظر الجزء الأول من الرسائل ٢٨٢ - ٣٠٨ .
- (١٢) نثر السمرقند خلاصتها في مجموعته ص ١ - ١٢ . وتبرأت كلمة بصحفي عبد السلام هارون . دار الكتاب العربي ١٢٧٤ - ١٩٥٥ . وانظر الجوزان ١ : ١١ .
- (١٣) لم يفتح نثر شيء منها . وهي رسائلها مما سبقه من النسخة المطبوعة على هاشم الكامل . وانظر الجوزان ١ : ٩ .
- (١٤) عسقلان من النسخة المطبوعة على هاشم الكامل أيضا . وسيق نثره من مجموعة داداد في الجزء الأول من الرسائل ١ : ٨٧ - ١٣٣ .
- (١٥) سبق في مجموعة داداد بالجزء الأول ص ٢٢٧ - ٢٧٨ . (١٦) مجموعة الساسي ١٧٠ - ١٧٢ و زبير ١٩٤ - ١٩٥ .
- (١٧) ويسمى أيضا « الأصل وحيايق البلدان » ، وهو غير كتاب « العيينة إلى الأوطان » التي سبق نثره في الرسائل بصحفيها ٢ : ٣٢٩ .
- (١٨) لم تنشر من قبل .

مطبوعة هاشم الكامل	المخطوط البريطاني	التبويرية	تفضيل النيل على الظهر
—	ظ ٢٢٧ - ٢٢٧٠	٣٢٠ - ٣٢٩	١٩ - تفضيل النيل على الظهر
١٨٤ - ١٩٩	ظ ٢٣٨ - ٢٣٧	٣٢٤ - ٣٢٩	٢٠ - النيل والنيل ودم الكبر
١٩٩ - ٢١٢	ظ ٢٣٨ - ٢٤٥	٣٥٢ - ٣٤٢	٢١ - المودة والتلقة
٢١٢ - ٢٢٠	ظ ٢٤٥ - ٢٥٠	٣٥٨ - ٣٥٢	٢٢ - استحقاق الإمامة
٢٢٠ - ٢٢٧	ظ ٢٥٠ - ٢٥٤	٣١٢ - ٣٥٨	٢٣ - استعجاز الوعد
٢٢٧ - ٢٣٨	ظ ٢٦٠ - ٢٥٤	٣٧٠ - ٣٦٢	٢٤ - تفضيل النطق على الصمت
٢٣٨ - ٢٤٦	ظ ٢٦٥ - ٢٦٠	٣٧٠ - ٣٧٠	٢٥ - صناعة الكلام
٢٤٦ - ٢٥١	ظ ٢٦٨ - ٢٦٥	٣٧٩ - ٣٧٦	٢٦ - مدح التجارة ودم عمل السلطان
٢٥١ - ٢٦٩	ظ ٢٧٨ - ٢٦٨	٣٩١ - ٣٧٩	٢٧ - القارب والتشروب
٢٦٩ - ٢٩١	ظ ٢٧٨ - ٢٩١	٤٠٧ - ٣٩١	٢٨ - استحقاق الإمامة
٢٩١ - ٣٠١	ظ ٢٩٩ - ٢٩١	٤٠٨ - ٤١٧	٢٩ - مقالة الزيدية والرافضية

- (١٩) لم تنشر من قبل .
(٢٠) لم ينشر شيئا إلا قطعة على هاشم كامل البيه .
(٢١) هي رسالة إلى أبي الفرج السمرقني ٣٠٠ - ٣١٦ . وقد سبق في ١ : ٣٢١ - ٣٢٢ .
(٢٢) السامري ١٦٨ - ١٧٨ والسمرقني ٢٤١ - ٢٦٠ .
(٢٣) ديفر ١٥٩ - ١٦٣ .
(٢٤) السامري ١٤٨ - ١٥٤ وديفر ١٨٢ - ١٨٦ .
(٢٥) السامري ١٥٥ - ١٦٠ وديفر ١٨٦ - ١٨٨ .
(٢٦) السمرقني ٢٤١ - ٢٥٩ .
(٢٧) ديفر ١٦٣ - ١٦٨ والسمرقني ٢٧٦ - ٢٥٨ .
(٢٨) السمرقني ٢٤١ - ٢٥٩ .
(٢٩) لم يسبق نشرها إلا في الفصول الأخيرة على هاشم الكامل . وقد أقر ابن الجاهلي في الحيوان ١ : ٧٠ .

جامع الفصول المختارة :

أجمعت المخطوطات والمطبوعات أن جامع هذه الفصول ومختارها هو (عبيد الله بن حسان) لم تزد على ذلك شيئاً . فليس هناك ما يدل على بلده ، ولا على نسبه ، أو ما يدل على صفته العلمية بين أهل العلم من الفقهاء ، أو المحدثين أو المؤرخين ، أو المشتغلين بعلوم العربية . وليس هناك أيضاً ما يعين مولده أو ينص على سنة وفاته .

وقد بحث ما أمكنني البحث ، وتقصيت ما أمكن التقصي ، أن أعثر له على ترجمة أو خبر فيها لدى من المراجع ، وكذا في جميع المظان ، ولاسيما تلك التي تعنى بتراجم الرجال من أهل الحديث أو الأدب أو علوم العربية ، وساءلت عنه فلم أجد له ترجمة أو خبراً .

ولكن ما لا ريب فيه أنه أديب قديم جداً ، أمكنه أن يظفر بجمهرة عظيمة من كتب الجاحظ قبل أن تبيد ويعنى عليها الزمان ، فحفظها لنا ، واستحق بذلك أن يخلد اسمه على كتب صانها وانتزعها من أكف البلى والصياع .

وإذا حاولنا أن نعرف زمنه استطعنا أن نقول : إن حياته لم تتجاوز القرن الخامس الهجري ، إن لم نقل الرابع ، أي إنه قريب عهده من عصر الجاحظ نفسه المتوفى سنة ٢٥٥ ، أي في النصف الثاني من القرن الثالث .

وهذا مستفاد مستخلص مما كتبه الوراق محمد بن عبدالله الزمراني في ختام النسخة التيمورية ، إذ نص على أنه نقل نسخته من نسخة تاريخها في أوائل شهر رجب الأصم سنة ٤٠٣ ثلاث وأربعمائة ، كاتبها أبي القاسم (كذا) عبيد الله بن علي (١) .

(١) أمكنني أن أشر على ترجمة لهذا الفاسخ القديم، فهو أبو القاسم عبيد الله بن علي بن عبدالله الرقي . قال الخطيب : سكن بغداد في درب أبي خلف من قفلية الربيع . وكان أحد العلماء بال نحو والأدب واللغة ، عارفاً بالفرائض وقسمة الموارث، وحدث شيئاً يسيراً عن أبي أحمد الفرضي كُتبت عنه وكان صدوقاً . وسأله عن مولده فقال : ولدت في سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة . ومات في يوم الخميس الثاني من شهر ربيع الآخر سنة خمسين وأربعمائة . ودفن في يومه في مقبرة باب حرب . تاريخ بغداد ١٠ : ٢٨٧ - ٢٨٨ .

ومما لا ريب فيه أيضاً أن عبيد الله بن حسان قد جمع فأحسن التأليف ،
واختار فأجاد الاختيار ، وكأنه لم يرتفع إلى القدر الذي يرتقى به إلى أن
يوضع في دائرة المترجمين الأعلام .

وأما بعد ، فهذا جهد متواضع أضمه إلى ما سبق لي من جهود . وعسى
أن أوفق فيما أستقبل من دهرى إلى أن أقوم بنشر ما لم تمسه يد التحقيق منى
من مؤلفات شيخنا الجاحظ وآثاره الحسان ، مما أفلته عوادي الزمان وصار
إلينا كنزاً وذريراً .

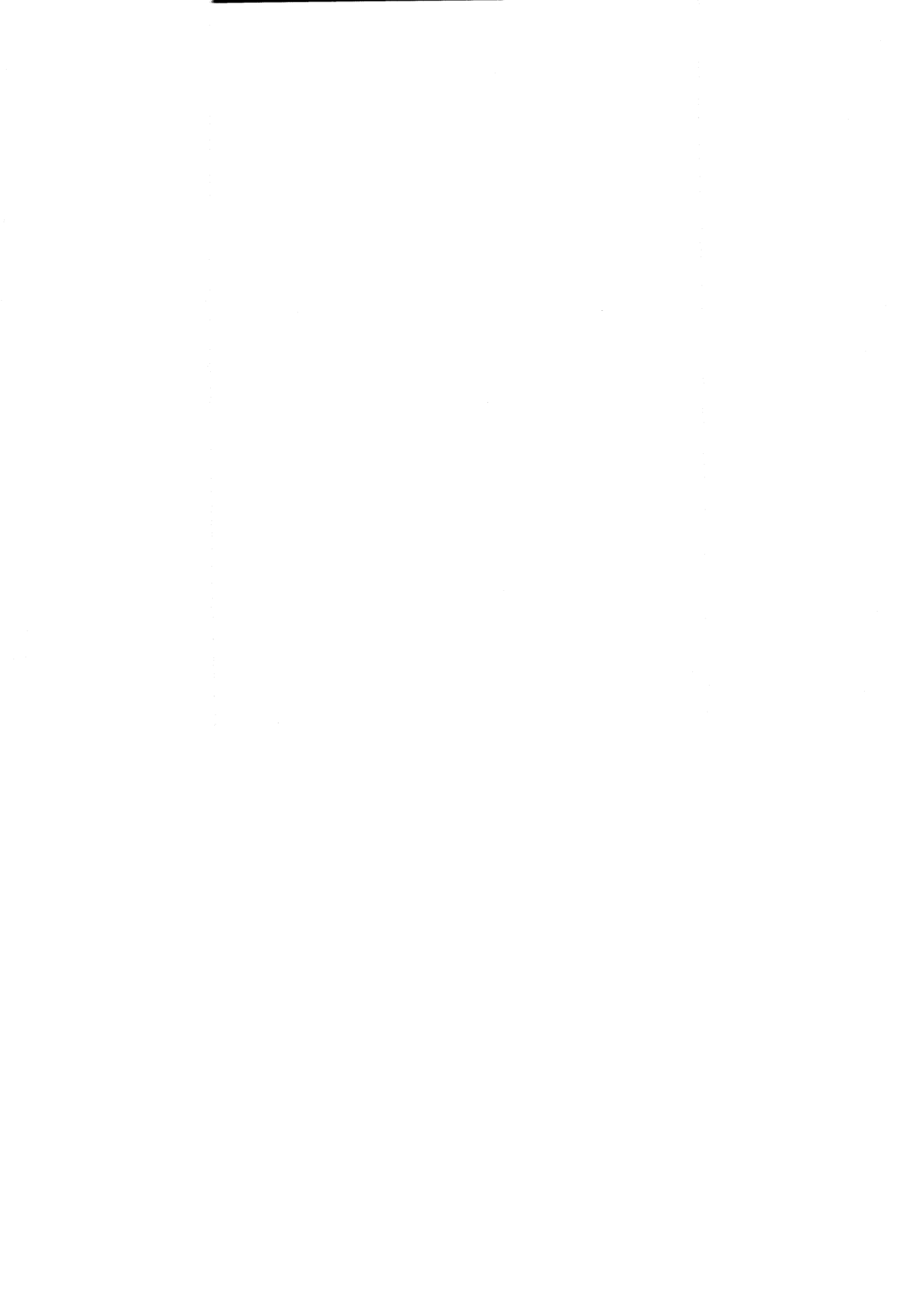
والله الموفق والمستعان .

مصر الجديدة في { أول ربيع الثاني سنة ١٤١٩ هـ }
عبد السلام محمد هارون { ٢٨ من فبراير سنة ١٩٧٩ م }

١

من كتابه في
الحائِدَ والمُحْسُودَ

(١ - رسائل الجاحظ)



سؤال الله الرحمن الرحيم

وبه تفتي

١ - فصل

من صدر كتابه
في الحاسد والحسود^(١)

وَهَبَ اللهُ لَكَ السَّلَامَةَ . وَأَدَامَ لَكَ الْكِرَامَةَ ، وَرَزَقَكَ الْاسْتِقَامَةَ ،
وَرَفَعَ عَنْكَ التَّدَامَةَ .

كتبت إلى - أيدك الله - تسألني عن الحسد ما هو؟ ومن أين هو؟
وما دليله وأفعاله؟ وكيف تُعرف أموره وأحواله^(٢)، وبم يُعرف ظاهره
ومكتومه. وكيف يعلم مجهوله ومعلومه، ولم صار في العلماء^(٣) أكثر منه
في الجهلاء؟ ولم كثر في الأقرباء وقل في البعداء^(٤)؟ وكيف دب
في الصالحين أكثر منه في الفاسقين؟ وكيف خص به الجيران من بين
جميع أهل الأوطان^(٥).

والحسد - أيقالك الله - داءٌ يَنَهَكَ الجسد ، ويُفسد الوُدَّ^(٦) ، علاجه

(١) نشرت كاملة من قبل في مجموعة رسائل الجاحظ نشرة الساسي ١٣٢٤. وقد أشرت إليها

بالرمز « مع » .

(٢) مع : « وكيف تفرقت » . وفي ب : « أموره أحواله » ، تحريف .

(٣) ب : « ولم صاروا العلماء » ، صوابه في سائر النسخ .

(٤) مع : « وقل منه في البعداء » .

(٥) مع : « من جميع الأوطان » .

(٦) م : « الرد » تحريف . وفي ط ، مع : « الأود » ، وهي بضم الواو جمع ود بالكسر

وهو الحبيب ، مثل قنح وأقح .

عَسِيرٌ^(١) ، وصاحبه ضَجِرٌ^(٢) . وهو بابٌ غامضٌ وأمرٌ متعَدَّرٌ ، وما ظهر منه فلا يُدَاوَى ، وما بطن منه فمُداوِيهِ في عَنَاءٍ . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : « دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ^(٣) مِنْ قَبْلِكُمْ : الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ » . [وقال بعض الناس لجلسائه : أَى النَّاسِ أَقْلُ غَفْلَةٌ ؟ فقال بعضهم : صاحبٌ ليلٌ ، إِنَّمَا هُمَّ أَنْ يُصْبِحَ . فقال : إِنَّهُ لَكَذَا وَلَيْسَ كَذَا . وقال بعضهم : المسافرُ ، إِنَّمَا هُمَّ أَنْ يَقْطَعَ سَفَرَهُ . فقال : إِنَّهُ لَكَذَا وَلَيْسَ كَذَا . فقالوا له : فَتَأْخِرُنَا بِأَقْلِ النَّاسِ غَفْلَةٌ . فقال : الْحَسَدُ ، إِنَّمَا هُمَّ أَنْ يَنْزِعَ اللَّهُ مِنْكَ النِّعْمَةَ الَّتِي أُعْطَاكَهَا ، فَلَا يَغْفُلُ أَبَدًا .

ويروى عن الحسن أنه قال : الحسد أسرعُ في الدِّينِ من النارِ في الحطبِ اليابس^(٤)] .

وما أُتِيَ المحسودُ من حاسده إلا من قبل فضلِ الله عنده ونعمه عليه^(٥) قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا^(٦) ﴾ .

والحسد عَقِيدُ الْكُفْرِ ، وحليفُ الباطلِ ، وضدُّ الحقِّ ، وحربُ البيانِ . فقد ذمَّ الله أهلَ الكتابِ به فقال : ﴿ وَذَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفْرًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ^(٧) ﴾ .

(١) ب : « وعلاجه عسير » م « علاجه عسير » ، وأثبتت ما في ط ، ومع .

(٢) م « ضجير » ، تحريف .

(٣) داء الأمم ، ساقطة من ب . والحديث رواه أحمد والترمذي . الجامع الصغير ١ : ٥٦٣ .

(٤) هذه التكلفة من ط ، مع .

(٥) مع : « من قبل فضل الله تعالى إليه ونعمته عليه » .

(٦) الآية ٥٤ من سورة النساء .

(٧) من الآية ١٠٩ من سورة البقرة .

منه تتولد العداوة^(١) ، وهو سببُ كلِّ قطيعة، ومُنْتَجِ كلِّ وحشة ، ومفترق كلِّ جماعة ، وقاطع كلِّ رحمٍ بين الأقرباء^(٢) ، ومُحدث التفرُّق بين القرَّناء ، ومُلْتَمِح الشرِّ بين الخلطاء^(٣) ، يكْمُن في الصدر كموثِّق النَّار في الحجر .

ولولم يدخل على الحاسد بعد^(٤) تراكم الغموم على قلبه ، واستمكان^(٥) الحزن في جوفه ، وكثرة مَصْنَعه ووسواس ضميره ، وتنغصص^(٦) عمره . وكذب نفسه ونكد عيشه^(٧) ، إلا استصغاره^(٨) نعمة الله عليه^(٩) ، وسخطه على سيده بما أفاد غيره^(١٠) . وتمنّيه عليه أن يرجع في هبته إياه ، وأن لا يرزق أحداً سواه ، لكان عند ذوى العقول مرحوماً^(١١) ، وكان لديهم^(١٢) في القياس مظلوماً . [وقد قال بعض الأعراب : ما رأيت ظالماً أشبه بمظلومٍ من الحاسد : نفسٌ دائمٌ ، وقلبٌ هائمٌ ، وحزنٌ لازمٌ^(١٣)]

(١) مع : « فته » ، ب فقط : « يتولى » .

(٢) ب : « وسخ » بإهمال الحرف الثاني ، ولعلها « سخ » بكسر السين ، بمعنى الأصل . وأثبت ما في سائر النسخ .

(٣) ب ، ط : « من الأقرباء » .

(٤) ب ، ط : « بين الخلطاء » .

(٥) م : « غير »

(٦) ب ، ط : « واستمكان » ، تحريف .

(٧) مع : « وتنغصص » .

(٨) مع : « ونكد لذاذة معاشه » .

(٩) م : « إلى » .

(١٠) ط ، م : « نعمة الله فقط ، وفي مع : « لنعمة الله عنده » ، وأثبت ما في ب .

(١١) مع : « بما أفاده الله عنده » .

(١٢) م ، ط : « مرحوماً » بالميم . وفي هامش م : « لعله مرحوماً » .

(١٣) مع : « وكان عندهم » وكذا أثبت بخط مخالف فوقها في م .

(١٤) التكلفة من ط ، مع .

والحاسد مخذول ومزور^(١) ، والمحسود محبوب ومنصور . والحاسد مغموم ومهجور ، والمحسود مَغشَى ومَزُور^(٢) .

والحسد - رحمك الله - أول خطيئة ظهرت في السموات . وأول معصية حدثت في الأرض ، حُصَّ به أفضل الملائكة فعصى ربه ، وقايسه في خلقه^(٣) ، واستكبر عليه فقال : ﴿ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾^(٤) ، فالعنه وجعله إبليساً ، وأنزله من جواره بعد كان أنيساً ، وشوّه خلقه تشويهاً ، وموّه على نبيه^(٥) تمويهاً نسي به عزم ربه . فواقع الخطيئة ، فارتدع المحسود^(٦) وتاب عليه وهدى ، ومضى اللعين الحاسد في حسده^(٧) فشقَى وعوى .

وأما في الأرض فابنا آدم^(٨) حيث قتل^(٩) أحدهما أخاه . فعصى ربه وأثكل آباه . وبالحسد طوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين .

لقد حملة الحسد على غاية القسوة^(١٠) ، وبلغ [به^(١١)] أقصى حدود

- (١) مزور ، من الوزر ، وهو الذنب والإثم ، ويقال مأزور ، أيضاً بالإبدال ، ومنه في الحديث : « أرجمن مأزورات غير مأجورات » . وفي مع : « ومأزور » على الإبدال .
- (٢) منشى : ينشأه الناس ويؤرونه . م : « مغمور ومسور » ويخط مخالفت فوقها : « منشى ومزور » كما في مع . وفي ب : « منشى ومسور » .
- (٣) مع وتليقات م : « وقايسه بخلقته » .
- (٤) من الآية ١٢ من الأعراف ، ٧٦ من سورة ص .
- (٥) ب ، ط : « على مثله » ، م : « على تمثيله » ، مع : « على أنبيائه » ولعل وجهه ما أثبت .
- (٦) ب : « فارتجع » ، وأثبت ما في سائر النسخ .
- (٧) مع ويخط مخالفت في م : « على حسده » .
- (٨) ب فقط : « فأبنا آدم » ، تحريف .
- (٩) ب ، ط : « حسد » موضع « حيث قتل » .
- (١٠) ب ، ط : « فقد حملة الحسد إلى غاية القسوة » .
- (١١) التكلفة من م ، مع .

«لعقوق ، فأنساه من رَجْمه جميعَ الحقوق»^(١) ، إذ ألقى الحجر عليه شادخاً^(٢) وأصبح عليه نادماً صارخاً .

ومن شأن الحاسد إن كان المحسود غنياً أن يويِّخه على المال فيقول^(٣) : جمعه حراماً ومنعه أثاماً^(٤) . وألب^(٥) عليه محاويج أقرابه فتركهم له خصياً^(٦) ، وأغانهم في الباطن وحمل المحسود على قطيعتهم في الظاهر وقال له^(٧) : لقد كفرُوا معروفك ، وأظهروا في الناس ذمك ، فليس^(٨) أمثالهم يُوصلون ، فإنهم لا يَشْكرون . وإن وجد له^(٩) خصماً أعانه عليه^(١٠) ظلماً، وإن كان من يعاشره فاستشاره غشه ، أو تَقَبَّل عليه معروف كفرة^(١١) ، أو دعاه إلى نصر خذله . وإن حضر^(١٢) مدَّحَه ذمَّه وإن سُئل عنه حمزه ، وإن كانت^(١٣) عنده شهادةُ كتمها ، وإن كانت منه إليه زلَّة^(١٤) عظَّمها ، [وقال :] إنَّه^(١٥)] يجب أن يعاد ولا يعود ، ويرى عليه العُقود^(١٦) .

(١) ب ، ط : « من رجمته » ، وأثبت ما في م ، وهذه العبارة ساقطة من مع .
(٢) الشلخ : الكسر والتَّهْييم . ما عدا مع : « تفادخا » ، والمعروف الفدخ ، فدخه يفدخه فدخاً : شدخه .

(٣) م ، مع : « وقال » .

(٤) الأثام ، كسحاب : الإثم والذنب . ما عدا مع : « أثاماً » .

(٥) ألهم تأليفاً : جمعهم على عدائوته . ما عدا مع : « وغب » .

(٦) خصياء : جمع خصيم ، وهو الخصم ، كالجلس بمعنى المجلس . ب ، ط : « خصياً » .

(٧) ب ، ط : « فقال » فقط .

(٨) ب ، ط : « ليس » فقط . م : « وليس » ، وأثبت ما في مع .

(٩) ط ، ب : « لم » ، صوابه في م ، مع .

(١٠) م : عليهم » ، تحريف .

(١١) ب : « أو يفصل عليه معروف كفرة » ، صوابه في سائر النسخ .

(١٢) م ، مع : « أو حضر » .

(١٣) مع : « أو كانت » .

(١٤) الزلة : الخطيئة والسقطة . ب فقط : « ذلة » تحريف .

(١٥) التكللة من مع .

(١٦) هذا ما في مع . وفي سائر النسخ : « العقود » . وكان العرب يقدمون الخرز

اترؤسائهم وماوكهم . انظر ما سيأتي في نهاية هذا الفصل ص ١٠ .

وإن كان المسعود عالماً قال : مبتدع ، ولرأيه مُتَّبِعٌ ^(١) ، حاطبٌ ليلٍ ومبتغى نَيْلٍ ^(٢) ، لا يدري ^(٣) ما حمل ، قد ترك العمل ، وأقبل على الحيل ^(٤) . قد أقبل بوجوه النَّاسِ إليه ، وما أَحْمَقَهُمْ إِذْ انْتَالُوا عليه ^(٥) . فَصَّحَّه اللهُ من عالمٍ ما أعظم بليته ^(٦) ، وأقل رَعته ^(٧) ، وأسوأ طعمته ^(٨) .

وإن كان المسعود ذا دينٍ قال : مُتَّصِعٌ يَغْزُو لِيُوصَى إليه ^(٩) ، ويحجُّ لِيُنْتَى بشئٍ عليه ^(١٠) ، ويصوم لتَقْبِلَ شهادته ^(١١) ، ويُظهِرُ النَّسْلَ لِيُودَعَ المالُ بيته ، ويقرأ في المسجد لِيَبْزُوجَهُ جارهُ ابنته . ويحضر الجنائز لتُعرَفَ شهرته .

وما لقيت ^(١٢) حاسداً قطُّ إلا تبيَّنَ لك ^(١٣) مكنونهُ بتغيُّرِ لونه وتحوُّصِ عينه ^(١٤) وإخفاء سلامه ، والإقبالِ على غيرك والإعراض

(١) أي إنه يتبع غيره في الرأي ، ليس بنى رأى . ب ، ط : « لرأيه » يسقوط الواو .

(٢) مع : « ومبتغى نيل » .

(٣) م ، مع : « ما يدري » .

(٤) ب ، ط : « فأقبل على الحيل » .

(٥) انتالوا عليه : انصبوا واتبعوا . ب : « انتالوا » صوابه في سائر النسخ .

(٦) ب : « باليته » ، صوابه في سائر النسخ .

(٧) الرعة ، كمدة : الورع والكف عن السوء والقبیح . م ، مع : « رعيته » وهي

الاسم من الرعي ، كما في اللسان (رعي ٤٢) .

(٨) الطعمة ، بالضم والكسر : وجه المكسب » .

(٩) ب ، ط : « يتصنع أن يوصى إليه » ، صوابه في م ، مع .

(١٠) ب « ويحج للئى عليه » م ، مع : « ليثني عليه » ، وأثبت ما في ط . وما بعده من

الكلام إلى « بيته » ساقط من مع .

(١١) ب ، م : « ليقبل شهادته » .

(١٢) م : « وما رأيت » .

(١٣) كلمة « لك » ساقطة من ط ، م وبدلها في ب : « لى » .

(١٤) التحوص ، من الحوص ، وهو هيبق العين وغورها . والمعروف أخواصة والتحوص

م : « وتحوص » مع : « وتحوص » ، وأثبت ما في ب ، ط .

عنك^(١) ، والاستئصال لحديثك^(٢) ، والخلاف لرأيك^(٣) .

وكان عبد الله بن أبي^(٤) ، قبل نفاقه ، نسيجاً وحيداً^(٥) لجودة رأيه ويُعد همته ، ويُبل شيمته ، وانتقياد العشيرة له بالسيادة ، وإذعانهم له بالرياسة . وما استوجب ذلك إلا بعدما استجمع له^(٦) ، وتبين لهم عقله ، وافتقدوا منه جهله^(٧) ، ورأوه لذلك أهلاً ، لما أطلق له^(٨) [حملاً . فلما بعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم وقدم المدينة ، ورأى هو عز رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٩) شَمَخَ بأنفه^(١٠) فهدم إسلامه لحسده^(١١) ، وأظهر نفاقه . وما صار منافقاً حتى كان حسوداً ، ولا صار حسوداً حتى صار حقوداً . فحُمقَ بعد اللب^(١٢) ، وجَهِل بعد العقل ، وتبوءاً الثار بعد الجنة .

(١) مع : « والإعراض عنك والإقبال على غيرك » .

(٢) ب ، ط : « والاستئصال لحديثك » ، تحريف .

(٣) بعده في مع : ولذلك قال القائل :

طال على الحاسد أحزانه فاصفر من كثرة أحزانه

دعه فقد أشعلت في جوفه ما هاج منه حر نيرانه

الغيب أشهى عنده لذة من لذة المسال لحزانه

فصار على غضابه حبله تسل من كثرة بهتانه

وقد انفردت نسخة ط بهذا الإنشاد في نهاية هذا الفصل ، كما سيأتي .

(٤) عبد الله بن أبي بن سلول ، رأس المنافقين في أول الإسلام . وسلول جذته نسب إليها .

وجده مالك بن الحارث بن عبيد بن مالك بن سالم الحلي بن غنم بن عوف بن الخزرج . وابنه عبد الله

ابن عبد الله كان من فضلاء الصحابة يدرباً ، قتل يوم الجمامة . جمهرة أنساب العرب ٣٥٤-٣٥٥ .

(٥) يقال هو نسيج وحده ، أي لا نظير له ، كما أن الثوب إذا كان كريماً لم ينسج على

متواله غيره لدقته . ط : « يسبح وحده » وكذا في أصل م . وأثبت ما في ب ، ومع .

(٦) م : « له إليه » ، ط : « لم له » ، وأثبت ما في ب ، مع .

(٧) ب : « وقد يبينهم جهله » ، والوجه ما أثبت من سائر النسخ .

(٨) التكلة من م ، مع .

(٩) ب ، م ، ط : « ورأى غيره » وصححت في م : « ورأى عز رسول الله »

وأثبت ما في مع .

(١٠) شَمَخَ بأنفه : تكبر . ما عدا مع : « تشمخ بأنفه » ، تحريف .

(١١) مع : « فحسده فهدم إسلامه » .

(١٢) اللب : العقل . ب فقط : « بعد الله » تحريف .

ولقد خطب النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة فشكاه إلى الأنصار .
فقالوا : يا رسول الله لا تُلْمَهُ (١) ، فَإِنَّا كُنَّا عَقْدْنَا لَهُ الْخَرْزَ (٢) قَبْلَ
قُدُومِكَ لِنَتَوَجَّهَ .

ولو سَلَّمَ المَخْذُولُ (٣) قَلْبَهُ مِنَ الحَسَدِ لَكَانَ مِنَ الْإِسْلَامِ بِمَكَانٍ .
وَمِنَ السُّودِّ فِي ارْتِفَاعٍ . فَوَضَعَهُ اللهُ لِحَسَدِهِ ، وَأَظْهَرَ نِفَاقَهُ (٤)
[وَذَلِكَ قَالَ الْقَاتِلُ :

طال على الحاسد أجزائسه فاصفر من كثرة أجزائه
دعهُ فقد أشعلت في جوفه ما هاج من حر نيرانه
العيب أشهى عنده لذة من لذة المال لأجزائه
فارم على غاربه حبلسه تسلّم من كثرة بهتائه (٥)]

(١) ب فقط : « لا تكله » .

(٢) خرزات الملك : جواهر تاجه . ويقال : كان الملك إذا ملك عاماً زيدت في تاجه .
خرزة ليعلم عدد سني ملكه .

(٣) يعني عبد الله بن أبي ، خذله الله . ط ، ب : « للمخذول » . سلم قلبه من الحسد :
وقاه إياد وبرأ منه .

(٤) مع : « بحسده وإظهار نفاقه » .

(٥) التكلة من ط . وقد وردت في مع قبل هذا الموضع كما سبقت الإشارة إليه في ص ٩ .
وأثبتها أحمد تيمور بخطه في هذا الموضع .

٢ - فصل

في حسد الجيران

وذلك أَنَّ الجيران - يرحمك الله - طلائعُ عليك ، وعيونهم نواظرُ إليك ، فحتى ^(١) كنتَ بينهم مُعديماً ^(٢) فأيسرت ، فبذلت وأعطيت ، وكسوت وأطعمت ، وكانوا في مثل حالك فأتضعوا ، وسلبوا النعمة وألبيسَها [أنت ^(٣)] ، فعظمت عليهم بليَّة الحسد ، وصاروا ^(٤) منه في تنغيص آخر الأبد ^(٥) . ولولا أن المحسود بنصر الله إتياه مستور ، وهو بصنعه محجوب ^(٦) لم يأت عليه يوم إلَّا كان مقهوراً ، ولم تأت ليلة إلَّا وكان عن منافعه مقصوراً . ولم يُمسر إلَّا وماله مسلوب ، ودمه مسفوك ، وعرضه بالضرب منهوك .

-
- (١) ب ، مع : « فحتى » .
(٢) معلماً ، ساقطة من ب .
(٣) التكلة من مع .
(٤) ب فقط : « وصاروا » .
(٥) م : « آخر الأبد » .
(٦) ما عدا مع : « محجور » بالراء .

٣ - فصّل منه

وأنا أقول حقاً^(١) : ما خالط الحسد قلباً إلا لم يمكنه ضبطه ، ولا قدر على تسجينه^(٢) وكفانه ، حتى يتمرد عليه بظهوره وإعلانه ، فيستعبده^(٣) ويستعبله^(٤) ، ويستنطقه لظهوره عليه^(٥) فهو أغلب على صاحبه من السيد على عبده ، ومن السلطان على رعيته ، ومن الرجل على زوجته ومن الأسر على أسيره^(٦) .

وكان ابنُ الزبير بالصبر موصوفاً ، وبالدهاء معروفاً ، وبالعقل موسوماً ، وبالمداراة منهوماً^(٧) ، فأظهر بلسانه حسداً كان أضرب عليه^(٨) أربعين سنةً لبني هاشم ، فما اتسع قلبه لكفانه ، ولا صبر على اكتنامه ، لما طالت^(٩) في قلبه طائفته^(١٠) أظهره وأعلنه ، مع صبره على المكاره ، وحمله نفسه على حثفها^(١١) ، وقلة اكتراثه والتفاته.

(١) مع : «أقول» .

(٢) التسجين : تفعيل من السجن ، أي الحبس ، والمراد الكفان . وفي اللسان : «ويجبن المم يسجنه ، إذا لم يبيته» . وأنشد :

ولا تسجين المم إن لسجنه عشاء وحله المهاري التواجيا
والكلمة بحرفة في النسخ ، فهي في ب : «تسخينه» وسائر النسخ : «تسخينه» ، والوجه ما أثبت .

(٣) ب ، ط : «فليستعبده» . وفي هاشم م : «فيستفده» ، وما أثبت من مع .

(٤) ما عدا ط : «ويستعمله» .

(٥) ب م : «لظهوره عليه» ، مع : «لظهوره عليه» ، وأثبت ما في ط وهاشم م .

(٦) ب : «على الأسيرة» م : «أسيرته» ط : «الأسير» وأثبت ما في مع .

(٧) المنهوم بالشيء : المولع به . وفي الحديث : «منهومان لا يشمان : منهوم بالمال ومنهوم بالعلم . ط فقط : «منهوماً» .

(٨) يقال أنسب فلان على غل في قلبه ، أي أضمره وأخفاه . م ، ط : «وأغلب عليه»

محرّيف . والكلام بعده إلى «اكتنامه» ساقط من مع .

(٩) م : «لما طال» .

(١٠) ما عدا مع : «طيلة»

(١١) الحثف : الهلاك . ما عدا مع : «خسفها» .

لأحجار المجانيق التي^(١) [كانت^(٢)] تمرّ عليه فتذهب بطائفة من قومه^(٣) ما يلتفت إليها .

حَدَّثْتُ بِذَلِكَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ مُشْهَرٍ^(٤) عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ صَالِحِ بْنِ حَبَّابٍ^(٥)، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: قَدْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ^(٦) حَتَّى أَدْخَلْتُهُ عَلَى ابْنِ الزُّبَيْرِ، قَالَ: أَنْتَ الَّذِي تَوْتَبِي؟ قَالَ: نَعَمْ، لِأَنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ مَنْ بَاتَ شِبَعَانًا»^(٧) وَجَارُهُ طَاوٍ^(٨). فَقَالَ لَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ: لِمَنْ قَلْتَ ذَلِكَ؟ لِإِنِّي^(٩) لَأَكْتَمُ بُغْضَكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ مُذْ^(١٠) أَرْبَعِينَ سَنَةً. فَحَسِرَ ابْنُ عَبَّاسٍ عَنْ ذِرَاعِيهِ كَأَنَّهَا عَسِيْبَا نَخْلٍ، ثُمَّ قَالَ لِابْنِ الزُّبَيْرِ: نَعَمْ فَلْيَبْلِغْ ذَاكَ مِنْكَ، مَا عَرَفْتُكَ.

ولقد أجلتُ الرأى ظهراً لبطن وفكرتُ في جوابه لابن عباس أن أجد له معنى سوى الحساد فلم أجده ، وكانت وخزة^(١١) في قلبه فلم

(١) ب : « التي » ، تحريف .

(٢) التكلة من مع .

(٣) ب ، م : « ثوبه » ، وأثبت ما في ط ، مع . وهامش م .

(٤) يضم الميم وسكون المهملة وكسر الهاء ، كما في التقريب . وهو أبو الحسن علي بن مسهر القرشي الكوفي قاضي الموصل . ذكره ابن حبان في الثقات وقال : مات سنة ١٨٩ . تهذيب التهذيب .

(٥) مع : « طلع بن حبان » . ولعله « صالح بن حبان » المترجم في تهذيب التهذيب .

(٦) كان عبد الله بن عباس رضي الله عنه قد عمى في آخر عمره ، كما عمى أبوه وجده . وقال له معاوية يوماً : ما لكم تصابون في أبصاركم يا بني هاشم ؟ فقال له : كما تصابون في بصاركم يا بني أمية ! نكت الحميان ١٨٠ - ١٨٢ .

(٧) كذا جاء مصروفاً منوناً ، وهذا بالنظر إلى أن مؤنثه شبعانة . وبالنظر إلى أن مؤنثه شبيح يمنع من الصرف ، وكلاهما مسموح . وفي مع : « شبعان » بالمنع من الصرف .

(٨) الطاوي : الجامع الخالي البطن ، كأنه طوى بطنه .

(٩) ب : « لاني » .

(١٠) م : « منذ » .

(١١) الوخزة : العلقة . ب ، م : « وخذة » بالذال ، تحريف ، وليس لوخذ مادة

في المعاجم المتداولة . وفي مع : « وخزة ثقيلة فلم يبدها له » .

يُبدلها . وفروعُ بني هاشم حول الحرم باسقة ، وعروق دَوَجاتهم بين أطباقها راسية ، ومجالسُهم من أعاليها عامرة ^(١) ، وبحورها بأرزاق العباد ^(٢) زاخرة ، وأنجمُها بالهدى زاخرة . فلَمَّا خلت البطحاء من صنايدها استقبله بما أكنَّ في نفسه ^(٣) .

والحاسد لا يغفل عن فرصته إلى أن يَأْتِيَ الموتُ على رِمته ، وما استقبلَ ابنَ عباسٍ بذلك إلا لَمَّا رأى عمرَ قَدَمه ^(٤) على أهل القَدَم ، وتَنظَّرَ إليه وقد أضاف به أهل الحرم ، فأوسعهم حُكْمًا ، وثَقَّبوا منه رأياً وفهماً ^(٥) ، وأشبعهم ^(٦) علماً وجِلماً .

(١) مع : « عامرة » .

(٢) ب ، ط : « بأوراق العباد » م : « بأوراق العباد » . والصواب من مع .

(٣) مع : « بما أكنَّ في نفسه » .

(٤) م ، ط : « لما رأى من تقدمه » .

(٥) ثقب رأيه ثقباً : نفذ . وفي قول أبي حية النخري :

ونشرت آيات عليه ولم أفسل من العلم إلا بالذي أنا ناقصه

ط : « وثقبوا » . مع : « وتمصوا » .

(٦) ب : « وأسبقهم » ط ، م : « وسبقهم » ، وأثبت ما في مع .

٤ - فصل

وكيف يصبر من استكنَّ الحسدُ في قلبه على أمانيه^(١) . ولقد كان إخوة يوسف حلماء ، وأجلة علماء ، ولدهم الأنبياء ، فلم يغفلوا عما قدح في قلوبهم من الحسد ليوسف ، حتى أعطوا أباهم الموثيق المؤكدة ، والعهود المقلدة^(٢) . والأيمان الملتظة ، إنهم له لحافظون ، وهو شقيقهم وبضعة منهم . فخالفوا العهود ووثبوا عليه بالظلم والقوة^(٣) . وألقوه في سَيَابَةِ الجُبِّ ، وجاءوا على قميصه بدمٍ كذب ، فبظلمهم يوسف ظلموا أباهم ، طمعاً أن يخلو لهم وجه أبيهم ويتفردوا بحبه^(٤) ، وظنوا أن الأيام تسليه ، وحبه لهم من بعد غمِّه^(٥) يُلهيه ، فأسالوا عبرته وأحرقوا قلبه .

وكيف لا تقرأ أعين المحسودين^(٦) بعد يوسف وقد ملكه الله خزائن الأرض ، بصبره على أذى حساده ومقابلته^(٧) إيَّاهم بالعفو والمكافأة ، وحسن العشرة^(٨) والمواخاة ، بعد إمكانه منهم^(٩) لما أتوه ممتارين ، ووفدوا عليه خائفين وهم له منكرون ، فأحسن ردهم ، وأكرم قراهم^(١٠) ،

- (١) ب : « أمانته » م : « إمانته » ط : « إمانته » ، وأثبت ما في مع .
 (٢) يقال قلده الأمر : ألزمه إياه . ما عدا مع : « المقلبة » .
 (٣) والقوة ، ساقطة من ط ، م ، مع .
 (٤) م : « وينفردوا بحبه » .
 (٥) في هامش م : « عن بعده عنه » مع : « من بعده عنه » .
 (٦) ب : « لا تفتقر » ، م : « وكيف تفتقر » ، وأثبت ما في ط ، مع . وفي ط ، م : « الحاسدين » .
 (٧) مع : « ومقاصته » . وكذلك هامش م .
 (٨) ما عدا مع : « بحسن العشرة » .
 (٩) ب فقط : « منه » تحريف .
 (١٠) ما عدا مع : « وكرم قراهم » .

فأَقْرَبُوا لَهْمَا عَرَفُوهُ بِالْإِذْعَانِ ، وَسَأَلُوهُ بَعْدَ ذَلِكَ الْغُرْفَانَ ، وَخَرُّوا لَهُ
سُجْدًا لَمَّا وَرَدُوا عَلَيْهِ وَفَدَأُ^(١) .

فَإِذَا أَحْسَسْتَ - رَحِمَكَ اللَّهُ - مِنْ صَدِيقِكَ بِالْحَسَدِ فَاقْلُبْ مَا اسْتَطَعْتَ
مِنْ مَخَالِفَتِهِ ، فَإِنَّهُ أَعُونَ الْأَشْيَاءِ لَكَ^(٢) عَلَى مَسَالِمَتِهِ . وَحَصِّنْ سِرَّكَ
مِنْهُ تَسْلِمًا مِنْ شَرِّهِ وَعَوَائِقُ ضَرُّهُ^(٣) . وَإِيَّاكَ وَالرَّغْبَةَ فِي مَشَاوَرَتِهِ ،
وَلَا يَغْتُرَنَّكَ خُدْعُ مَلَقِهِ ، وَبَيَانُ دَلَقِهِ^(٤) ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ حَبَائِلِ نِفَاقِهِ .

فَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ آيَةَ مِصْدَاقِهِ فَأَدْنِيَنَّ^(٥) إِلَيْهِ مِنْ يُهَيِّنُكَ عِنْدَهُ ،
وَيُدْمِكُ بِحَضْرَتِهِ ، فَإِنَّهُ سَيَطْهَرُ^(٦) مِنْ شَأْنِهِ لَكَ مَا أَنْتَ بِهِ جَاهِلٌ ،
وَمِنْ خِلَافِ الْمَوَدَّةِ مَا أَنْتَ عَنْهُ غَافِلٌ . وَهُوَ أَلْحُ^(٧) فِي حَسَدِهِ لَكَ مِنْ
الذُّبَابِ ، وَأَسْرَعُ فِي تَهْرِيْقِكَ^(٨) مِنَ السَّيْلِ إِلَى الْحَدُورِ^(٩) .

(١) مع : « لما قدموا عليه وفدأ » .

(٢) ب فقط : « فإنه أعون » تحريف . وكلمة « لك » من مع وهامش م .

(٣) ط فقط : « ويوائق ضره » .

(٤) الذلق : فصاحة اللسان . ما عدا مع : « زلقه » تحريف .

(٥) ب : « فدنين » تحريف ، وأثبت ما في م ، ط . وفي هامش م : « فدنس » ، وهي
ما جاءت به نسخة مع .

(٦) م فقط : « يظهر » وحورت فيها إلى « سيظهر » .

(٧) « ألح » بالحاء المهملة ، كما في الدرر الناضرة للأصبهاني ٣٦٩ . ونظيرها فيما أورده :
ألح من الخنفساء ، ومن الكلب ، ومن الحمى . وفي مع : « ألح » بالجميم ، وهو المطابق لما في
جمهرة الأمثال للمسكوي ١٨٠ حيث أورد هذه الأمثال كلها بصورة « ألح » بالجميم . وكلاهما
اقتصرت في التفسير على « ألح من كلب » واتفقا في قولها « لأنه يلح بالهزير على الناس » ،
ولا ريب في أخذ المسكوي المتوفى نحو سنة ٤٠٠ عن حزة الأصبهاني المتوفى سنة ٣٥١ ،
كما صرح بذلك المسكوي في مقدمة كتابه ص ٦ . وهذا مما يؤيد رواية « ألح » بالهملة ،
إذ يقال ألح عليه ، ولا يقال ألح عليه .

(٨) ط ، مع : « تمزيقك » .

(٩) الحدور ، بالفتح : الموضع المنحدر . ب : « الحدود » ، تحريف .

وما أحبُّ أن تكون عن حاسدك غيبياً، وعن وهمك^(١) بما في ضمير ونسباً^(٢) .
 إلا أن تكون للذللِّ محتملاً ، وعلى الدناءة مشتتلاً^(٣) ، ولأخلاق الكرام
 مجانباً ، وعن محمود شيمهم ذاهباً ، أو تكون بك إليه حاجة^(٤) قد
 صيرتكَ^(٥) لسهام الرماة هدفاً ، وعرضك لمن أَرادك غَرَضاً^(٦) .
 وقد قيل على وجه الدهر^(٧) : « الحرّة تجوع ولا تأكل بشديبها^(٨) » .
 وربّما كان الحسودُ^(٩) للمصطنع إليه المعروف أكفَرَ له وأشدَّ
 احتقاداً^(١٠) ، وأكثر تصغيراً له من أعدائه .

٥ - فصل منه (١١)

ومتى رأيت حاسداً يصوبُّ لك رأياً إن كنت^(١٢) مصيباً ، أو يرشدك

(١) وهم إلى الشيء وفيه : ذهب وهمه إليه . مع : « فهمك » .

(٢) ب : « بما في ضمير نسباً » ، صوابه في سائر النسخ .

(٣) ب : « مشتتلاً » ، صوابه في سائر النسخ .

(٤) ما عدا مع : « أو تكون بك لاجبة » .

(٥) ب : « صيرتها » ، صوابه في سائر النسخ .

(٦) ما عدا مع : « لمن أبادك » .

(٧) أي في قديم الزمان . ب : « الأرض » ، م ، ط : « العرض » ، صوابها في مع .

(٨) ب : « تأكل ثديها » وهي رواية صحيحة مثلها في المستقصى ٢ : ٢٠ : « ثديها »

بدون باء . قال الزخشي : معناه جعل ثديها ، كقوله :

• يأكلن كل ليلة إكافا •

أي ممن إكاف . والجبل ، بالضم : أجزر السائل ونحوه ويروي : « تجوع الحرّة » ، و « قد

تجوع الحرّة » : انظر الفاخر ١٠٩ والميداني ١١٠ : وجهرة العسكري ٢٦١ : ٤٩٤ .

(٩) ب ، ط : « الحسد » مع : « الحاسد » ، وأثبت ما في م .

(١٠) احتقد عليه : حقد . ط : « احتقاداً منه » . و « منه » مقحمة . وفي مع : « وأشد

اجتهاداً » ، تحريف .

(١١) منه ، ساقطة من ب .

(١٢) ب ، ط ، مع : « وإن » في هذا الموضع وتاليه ، والصواب ما في م بدون واو .

إلى صواب إن كنت مخطئاً ، أو أفصح^(١) لك بالخير في غيبته عنك^(٢) ،
أو قصر من غيبته لك^(٣) .

فهو الكلب الكلب ، والنمر النمر^(٤) والسَّم القَشِب^(٥) ، والفحل
القَطْم^(٦) ، والسَّيْل العَرَم^(٧) . إن مَلَكَ قتل وصَبَى^(٨) ، وإن مَلَكَ
عَصَى وَيَعَى . حياتك موته ، وموتك عرسه وسروره^(٩) . يصدق عليك
كل شاهد زور ، ويكذب فيك^(١٠) كل عدل مرضى . لا يحب من
الناس إلا من يُبغضك ، ولا يُبغض إلا من يحبك . عدوك بطانة
وصديقك علانية^(١١) .

وقلت : إنك ربما غلظت في أمره لما يظهر لك من بره . ولو كنت
تعرف الجليل من الرأي^(١٢) ، والدقيق من المعنى ، وكنت في مذاهيك
فطيناً نقاباً^(١٣) ، ولم تك في عيب من ظهر لك عيبه^(١٤) مرتاباً .

- (١) م : « أو أفصح لك بالخير ، في غيبة لك » مع : « أو أفصح لك في غيبته عنك » ، ب :
« أو أفصح لك بالخير في غيبته عنك » ، والوجه ما أثبت من ط .
(٢) ب ، م : « من غيبته » ، وأثبت ما في ط .
(٣) يقال نمر ينمر نمرأ ، إذا غضب وساء خلقه . ب : « والنمر والنمر » ، صوابه في
م ، ط . وفي مع : « والنمر الحرب » . وهو الذي قد كلب واشتد غضبه .
(٤) القشب : المخلوط .
(٥) القطم : الشديد الشهوة إلى الضراب .
(٦) العرم : السيل الذي لا يطاق .
(٧) وصبي ، ساقطة من ب .
(٨) ب فقط : « وسوره » ، تحريف .
(٩) ب فقط : « عليك » .
(١٠) مع : « عدوك بطانته ، وصديقك علوته » .
(١١) م فقط : « الكليل » وصحمت فوقها بالجليل .
(١٢) النقاب : بالكسر : العالم بالأشياء المبحث عنها الفطن الشديد الدخول فيها . وفي
قول أوس بن حجر :
نحج جواد أخو منقط نقساب يحدث بالفلساب
ب ، ط : « نهابا » ، صوابه في م ، مع .
(١٣) مع : « من أوضح لك عيبه » .

لاستغنيت بالرَّمز عن الإشارة ، وبالإشارة عن الكلام ، وبالسرّ عن
الجهر ، وبالحذف عن الرفع^(١) ، وبالاختصار^(٢) عن التطويل ،
وبالجُمَل عن التفصيل ، وأرحتنا من طلب التحصيل^(٣) ولكنّي أخاف
عليك أنّ قلبك لصديقك غير مستقيم ، وأن ضمير قلبك له غير
سلم^(٤) ، وإن رفعت القذى عن لحيته^(٥) ، وسويت عليه ثوبه
فوق مركبه ، وقبّلت صبيّه بحضرتيه ، وليست له ثوب الاستكانة عند
رؤيته ، واغتفرت له الزلّة^(٦) ، واستحسنّت كلّ ما يقبح من جهته^(٧) ،
وصدّقته على كذبه ، وأعنته على فجّرتيه . فما هذا العناء^(٨) ! كأنّك
لم تقرأ المعوذة ، ولم تسمع مخاطبته^(٩) نبيّه صلى الله عليه وسلم ، في
التقدّمة إليه بالاستعاذة من شرّ حاسدٍ إذا حسد .

أُتطلب^(١٠) ويحك أثراً بعد عين ، أو عطراً بعد عروس^(١١) ، أو
تريد أن تحتجّي عنباً من شوك ، أو تلتمس حلباً لبين من حائل^(١٢) .

(١) ما عدا مع : « وبالجمهر عن الرفع » .

(٢) ب ، ط ، « والاختصار » .

(٣) ب : « عن طلب التحصيل » .

(٤) ب : « أن قلبك لصديقك غير سلم له » . وفيه نقص وتخريف .

(٥) في هامش م : « عن عينه » وليست بشيء . وقد تكون : « عن جبهته » .

(٦) الزلّة ، بفتح الزاي : السقطة والخبطية . ب فقط : « الذلة » تخريف . وفي مع :
« الزلّة بعد زلته » .

(٧) مع : « من شيبته » .

(٨) ما عدا مع : « فما هذا العناء » ، ولا يقولها الجاحظ . وفي مع : « فما هذا العناء » ،

وما هذا الداء العياد » .

(٩) ب ، « ولم تسمع على مخاطبته » ، مع : « ولم تسمع مخاطبة الله تعالى لنبية » .

(١٠) ب ، م : « تطلب » .

(١١) ب فقط : « وعطراً بعد عروس » وكذلك فيما بعده « وتريد أن تحتجّي .. » .

(١٢) م : « وتلتمس » . والحائل : الناقة انقطع حملها سنة أو سنوات حتى تحمل . ب ،

ط : « من حمل » ، صوابه في م ، مع .

إِنَّكَ لِإِذْنِ أَعْيَا مِنْ بَاقِلٍ ، وَأَحْمَقُّ مِنَ الضَّبْعِ ، وَأَغْفَلٌ مِنْ هَرْمٍ (١) .

إِنَّ كُنْتَ تَجْهَلُ بَعْدَ مَا أَعْلَمْنَاكَ ، وَتَعُوجُ بَعْدَ مَا قَوْمْنَاكَ ، وَتَبْلُدُ (٢) بَعْدَ مَا ثَقَّفْنَاكَ (٣) ، وَتَضِلُّ إِذْ هَدَيْنَاكَ ، وَتَنْسَى إِذْ ذَكَّرْنَاكَ (٤) ، فَأَنْتَ كَمَنْ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ فَيُضَلُّ عَنْهُ الْمَوَاعِظُ ، وَعَمِيَ عَنِ الْمَنَافِعِ (٥) ، فَحَمٌّ (٦) عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ، وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً . فَتَعُودُ (٧) بِاللَّهِ مِنَ الْخِذْلَانِ .

إِنَّهُ لَا يَأْتِيكَ وَلَكِنْ يُنَادِيكَ (٨) وَلَا يَحَاكِيكَ وَلَكِنْ يُوَازِيكَ (٩) .
أَحْسَنُ مَا تَكُونُ عَنْدَهُ حَالًا [أَقْلٌ مَا تَكُونُ مَالًا ، وَأَكْثَرُ مَا تَكُونُ عِيَالًا .
[وَأَعْظَمُ (١٠)] مَا تَكُونُ (١١) ضَالًّا . وَأَفْرَحُ (١٢) مَا يَكُونُ بِكَ أَقْرَبَ
مَا تَكُونُ (١٣) بِالْمُصِيبَةِ عَهْدًا ، وَأَبْعَدُ مَا تَكُونُ مِنَ النَّاسِ حَمْدًا (١٤) .
فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ عَلَى هَذَا فَمَجَاوِرَةُ الْمَوْتِ ، وَمَخَالِطَةُ الزَّمَانِ :

-
- (١) الهرم : السن الذي يبلغ أقصى الكبر .
(٢) تبلى ، أي تتبدل ، يجذف إحدى التامين . م فقط : « وتبلى » .
(٢) ب فقط : « شغفناك » تحريف .
(٤) معج وحواشي م : « لما ذكرناك » .
(٥) ب فقط : « وعز من المنافع » .
(٦) ب فقط : « وعم » .
(٧) ب فقط : « وعود » .
(٨) معج : « ولكنه يناديك » .
(٩) ب : « يواذك » تحريف ، وفي معج : « ولكنه يوازنك » .
(١٠) التكلفة من معج .
(١١) ماعدا معج : « ما يكون » .
(١٢) ب فقط : « وأفرح » بالجيم ، صوابه في سائر النسخ .
(١٣) ماعدا معج : « ما يكون » ، تحريف .
(١٤) ماعدا معج : « وأبعد ما يكون » بالياء ، مع سقوط الكلمات بعدها .

والاجتنان بالجدران^(١) ، وَمَصْرُ الْمُصْرَانِ^(٢) ، وَأَكْلَ الْقِرْدَانِ^(٣) ،
أهون من معاشرته ، والاتصال بحبله .

والغزل نتيج الحسد^(٤) ، وهو رضيعه^(٥) ، وغصن من أغصانه ،
وعون من أعوانه ، وشعبة من شعبه ، وفعل من أفعاله^(٦) ، كما أنه ليس
فرع إلا له أصل ، ولا مولود إلا له مؤيد ، ولا نبات إلا من أرض ،
ولا رضيع إلا من مريض^(٧) ، وإن تغير اسمه ؛ فإنه^(٨) صفة من صفاته ،
ونبت من نباته ، ونعت من نعوته .

ورأيت الله جل جلاله ذكر الجنة في كتابه فحلاها بأحسن حليلة ،
وزينها بأحسن زينة ، وجعلها داراً أوليائه ومحل أنبيائه ، ففيها ما لا
عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر^(٩) . فذكر في
كتابه ما من به عليهم من السرور والكرامة عندما دخلوها وبيوأها لهم
فقال : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ . وَنَزَعْنَا
مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ . لَا يُسْمِعُ فِيهَا النَّبَأَ
وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾^(١٠) .

(١) ب : « والأكل بالجدران » م : « والكسل » وصحها أحمد تيمور بلفظ :
« والاجتنان » ، موافقاً ما في ط . والاجتنان : الاستتار . وفي مع : « والاكنتان بالجدران »
وهما بمعنى .

(٢) مصر المصران : استخراج ما فيها . وفي مع : « ومص المصران » .

(٣) جمع قراد بالضم ، وهو دويبة تفتس الإبل .

(٤) ب ، مع : « ينتج الحسد » .

(٥) هذا ما في مع . وفي ب ، ط : « ورضيعه » فقط . وفي م : « ورضيع رضيعه » .

(٦) بده في مع : « وحدث من أحداثه » .

(٧) مع : « إلا له مريض » .

(٨) ب فقط : « فهو » .

(٩) ب فقط : « على لب بشر » .

(١٠) الآيات ٤٥ - ٤٨ من سورة الحجر .

فما أنزلهم دارَ كرامته إلا بعد ما نزع الغلَّ والحسدَ من قلوبهم^(١) ،
ففتهنوا بالجنة ، وقابلوا إخوانهم على السرر ، وتلذذوا بالنظر في مقابلة
الوجوه لسلامة صدورهم ، ونزع الغلَّ من قلوبهم^(٢) . ولو لم ينزع ذلك
من صدورهم ويخرجهم من قلوبهم ، لافتقدوا لذادة الجنة^(٣) ، وتدائروا
وتقاضوا وتحاسدوا ، وواقعوا الخطيئة^(٤) ، ولمسهم فيها النصب ،
وأعقبوا منها الخروجَ ، لأنَّ عزَّ وجلَّ فضلَ بينهم في المنازل ، ورفع
درجات بعضهم فوقَ بعض في الكرامات^(٥) ، وسنى العظييات .

فلما نزع الغلَّ والحسدَ^(٦) من قلوبهم ظنَّ أذنانهم منزلةً فيها^(٧) ،
وأقربهم بدخول الجنة عهداً ، أنه أفضلهم منزلةً ، وأكرمهم درجةً ،
وأوسعهم داراً بسلامة قلبه^(٨) ، ونزع الغلَّ من صدره ، فقررت عينه
وظاب أكله . ولو كان غير ذلك لصاروا إلى التنغيص^(٩) في النظر
بالعيون^(١٠) ، والاهتمام بالقلوب ، ولحدثت^(١١) العيوبُ والدُّنوبُ .

وما أرى السَّلامةَ إلا في قطع الحاسد ، ولا السُّرورَ إلا في افتقار

- (١) بعده في مع : « فافتقاد الغل والحسد تهنوا بالجنة » .
(٢) مع : « بسلامة صدورهم ، ونزع الحسد والغل من صدورهم » .
(٣) م : « لذات الجنة » .
(٤) مع : « وأوقعوا الخطيئة » م : « وواقعوا الخطية » .
(٥) ب فقط : « في الدرجات » .
(٦) ب ، مع : « الحسد والغل » .
(٧) م فقط : « فيهم » .
(٨) م : « لسلامة قلبه » .
(٩) ب ، ط : « التنغيص » .
(١٠) ب فقط : « بالعيون » .
(١١) ب : « ولحدثت لهم » م : « ولحدث فيهم » ط : « وحدثت فيهم » . وأثبت ما في مع .

وجبه ، ولا الرَّاحَةَ إِلَّا فِي صَرْمٍ مداراته^(١) ، ولا الرِّيحَ إِلَّا فِي تَرْكِ مصافاته^(٢) .

فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ فَكُلْ هَنِيئاً مَرِيئاً^(٣) ، [وَنِمِ رَضِيئاً^(٤)] ، وَعَشِ فِي السُّرُورِ مَلِيئاً^(٥) .

وَنَحْنُ نَسْأَلُ اللَّهَ الْجَلِيلَ أَنْ يُصَفِّيَ كَدَرَ قُلُوبِنَا^(٦) . وَيَجْنِبَنَا وَإِيَّاكَ [دَنَاءَةَ الْأَخْلَاقِ ، وَيَرْزُقَنَا وَإِيَّاكَ^(٧)] حُسْنَ الْأَلْفَةِ وَالْإِتْفَاقِ^(٨) . وَيُحْسِنَ^(٩) تَوْفِيقَكَ وَتَسْدِيدِكَ . وَالسَّلَامَ .



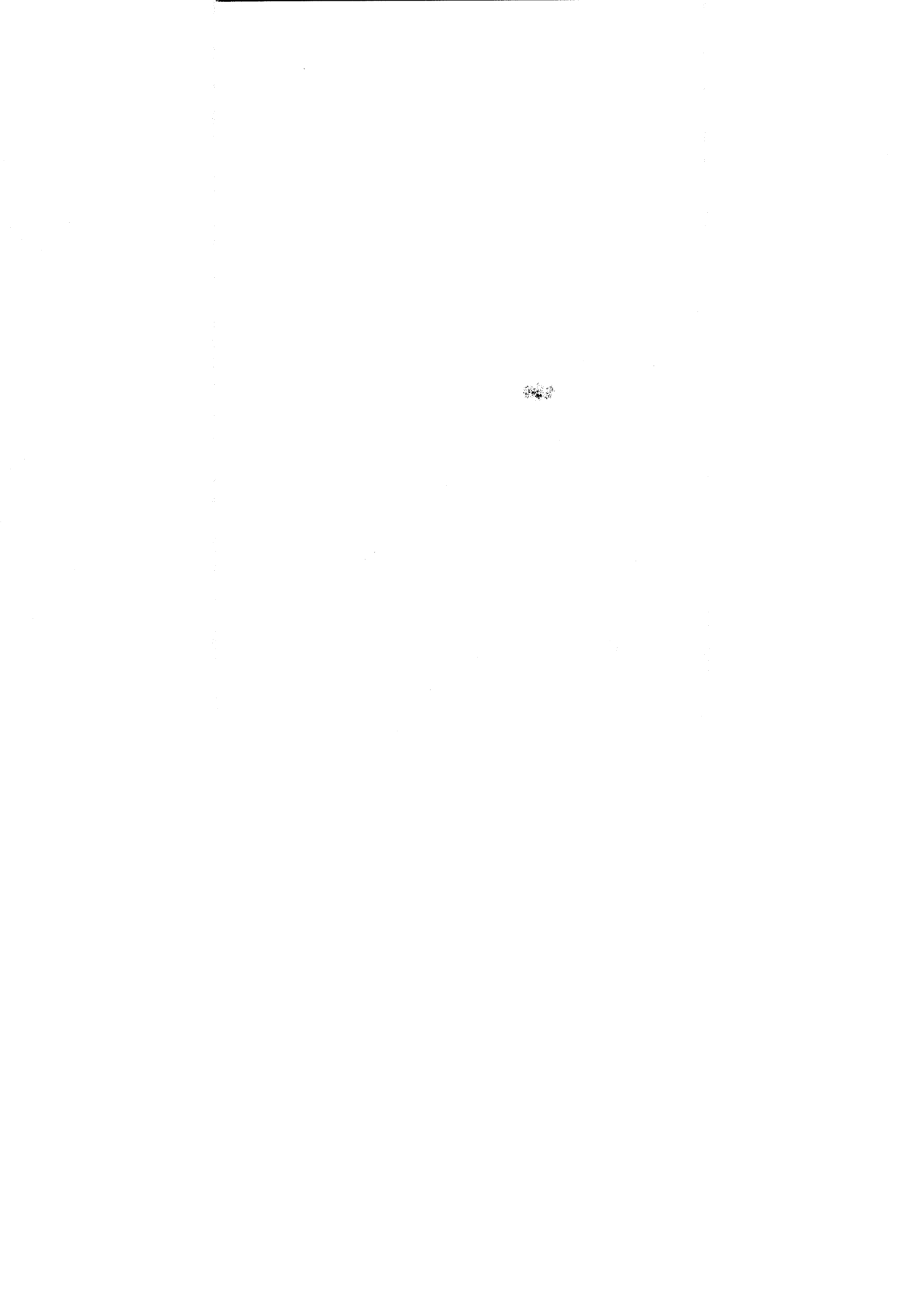
-
- (١) ب ، م : « مداوته » ، تحريف .
 (٢) ب ، م ، ط : « مكافاته » ، وأثبت ما في مع وهامش م .
 (٣) ب ، م : « فكل هنيئاً مريئاً » ، وأثبت ما في ط . وفي مع : « فكل هنيئاً واشرب مريئاً » .
 (٤) هذه من مع .
 (٥) مليئاً ، أي زماناً طويلاً . ب فقط : « مريئاً » ، تحريف .
 (٦) ما عدا مع وأسفل م : « كدر صدورنا » .
 (٧) التكلة من م ، مع .
 (٨) ب ، ط ، : « سوء الألفة والاتفاق » .
 (٩) ب ، م : « وحسن » ، وأثبت ما في ط . وفي مع : « أحسن الله » .



٢

من كتابه في

المعلمين



١ - فصل

من صدر كتابه في المعلمين^(١)

أعانك الله على سورة العَصَبِ^(٢) ، وعَصَمَكَ من سَرَفِ اذوى ،
 وصرف ما أعاركَ من القوّة إلى حبِّ الإنصاف ، ورجَّح^(٣) في قلبك إشاراً
 الأناة . فقد استعملتَ في المعلمين نوك السُّفهاء^(٤) ، وخطَّطَ الجهلاء ،
 ومُفاحِشَةَ الأبيدياء ، ومُجانبة سبيل الحكماء ، وتهكُّمَ المقتدرين^(٥) . وأمنَ
 المغترِّين . ومن تعرَّضَ للعداوة وجدها حاضرة ، ولا حاجة بك إلى
 تكلف ما كُفِّيت^(٦) .

٢ - فصل منه

ولولا الكتابُ لاختلَّت أخبار الماضين ، وانقطعت آثار الغائبين .
 وإنما اللسانُ للشاهد لك^(٧) ، والقلمُ للغائب عنك ، وللماضى قبلك
 والغابر بعدك^(٨) . فصار نفعه أعمّ ، والدواوينُ إليه أفقر .

(١) لى بحث عنوانه (الجاحظ والمعلمون) في مجلة الكتاب ، عدد أغسطس ١٩٤٦ .
 (٢) سار يسور سوراً : ثار . ب : « صورة » تحريف . م : « ثورة » ، والوجه
 ما أثبت من ط . وأُنشد في اللسان (عفا ٣٠٦) :
 عنى العفو منى تستدبى مودق ولا تنطق في سورتي حين أغضب
 وانظر لنسبة هذا البيت عيون الأخبار ٣ : ١١ / ٤ : ٧٧
 (٣) ب : « ورهح » ، والصواب من ط ، م .
 (٤) النوك ، بالضم والفتح : الحق . ب ، م : « نوك » ، صوابه في ط .
 (٥) التَّهَكُّمُ : التكبر ، والتبختر طرباً .
 (٦) ب فقط : « ما كُفِّيت منه » .
 (٧) المراد بالشاهد : الحاضر .
 (٨) المراد بالغابر هنا الباقي ، والغابر من الأضداد ، يقال لِمَاضِيٍّ ولِبَاقِيٍّ أيضاً . ب ، م :
 « والغابر » بالمهملة ، صوابه في ط .

والمليك المقيم بالواسطة^(١) لا يدرك مصالح أطرافه وسد ثغوره ،
وتقويم سكّان مملكته ، إلا بالكتاب .

ولولا الكتاب ما تمّ تدبير^(٢) ، ولا استقامت الأمور . [وقد^(٣)]
رأينا عمود صلاح الدين والدنيا إنما يعتدل في نصابه ، ويقوم على
أساسه بالكتاب والحساب^(٤) .

وليس علينا لأحد في ذلك من المنّة بعد الله الذي اخترع ذلك لنا
ودلّنا عليه ، وأخذ بنواصينا إليه ، ما للمعلمين الذين سخرهم لنا ،
ووصل حاجتهم إلى ما في أيدينا . وهؤلاء هم الذين هجوتهم وشكوتهم
وحاججتهم وفحشت عليهم ، وألزمت الأكابر ذنب الأصغر ، وحكمت
على المجتهدين بتفريط المقصرين . ورثيت لآباء الصبيان من إبطاء
المعلمين عن تحذيقهم^(٥) ، ولم ترث للمعلمين من إبطاء الصبيان
عمّا يراد بهم ، وبُعدهم عن صرف القلوب لما يحفظونه ويدرسونه .
والمعلمون أشق بالصبيان من رعاة الصّان وروّاض المهارة^(٦) .

ولو نظرت من جهة النظر علمت أنّ النعمة فيهم عظيمة سابعة ،
والشكر عليها لازم واجب .

(١) أي حاضرة الملك ، وهي في وسط البلاد غالباً .

(٢) م : « لم يتم » ط : « لما تم » .

(٣) التكلفة من م ، ط .

(٤) ب ، ط : « في الكتاب والحساب » ، وأثبت ما في م .

(٥) ط فقط : « عن إبطاء » تحريف . والتحقيق : إكساب المهارة والإتقان في العلم والعمل .

وفي جميع النسخ : « تحذيقهم » بالدال المهملة ، والوجه ما أثبت .

(٦) المهارة والمهارة ، بكسر الميم فهما : جمع مهر ، بالفم ، وهو ولد الرمكة والغرس .

٣ - فصل منه^(١)

وأجمعوا على أنَّهم لم يجدوا كلمةً أقلَّ حرفاً ولا أكثرَ رِبعاً ،
ولا أعمَّ نفعاً ، ولا أحتَّ على بيان^(٢) ، ولا أدعى إلى تبيين ، ولا أهجى
لمن ترك التفهيمَ وقصَّر في الإفهام ، من قول أمير المؤمنين على بن أبي طالب
رضوان الله عليه : « قيمة كلِّ امرئٍ ما يحسن » .

وقد أحسنَ من قال : « مذاكرة الرجال تلقيحٌ لألبابها » .

وكرهت الحكماءُ الرؤساءَ ، أصحابُ الاستنباط والتفكير^(٣) ، جودة
الحفظ^(٤) ، لمكان الاتِّكال عليه^(٥) ، وإغفال العقل من التمييز ،
حتَّى قالوا : « الجِفظُ عِدْقُ الدَّهنِ » . ولأنَّ مستعملَ الحفظ لا يكون
إلَّا مقلِّداً ، والاستنباط هو الذى يفضى بصاحبه إلى برد اليقين ، وعزَّ
الثقة .

والقضية الصحيحة والحكم المحدود : أنه متى أدام الحفظَ أضرَّ
ذلك بالاستنباط ، ومتى أدام الاستنباط أضرَّ ذلك بالحفظ ، وإن كان
الحفظُ^(٦) أشرفَ منزلة منه .

ومتى أهملَ النظرَ لم تسرع إليه المعاني^(٧) ، ومتى أهملَ الحفظَ^(٨)

(١) منه ، هنا ساقطة من ب .

(٢) الحث : الحظ . ب فقط : « ولا أحسن » ، تحريف .

(٣) م : « والتفكير » .

(٤) الكلام بعده إلى كلمة : « الحفظ » التالية ساقط من م .

(٥) ب : « لمكان اتِّكال عليه » .

(٦) ب ، م : « التحفظ » .

(٧) ب : « لم يسرع إليه المعاني » .

(٨) ب فقط : « التحفظ » .

لم تَعَلَّقْ بقلبه^(١) ، وقلَّ مُكثِّها في صدره .

وطبيعة الحفظ غير طبيعة الاستنباط . والذي^(٢) يُعَالَجَانِ به ويستعينان مَتَّفِقٌ عليه^(٣) ، [أَلَا^(٤)] وهو فراغ القلب للشيء ، والشَّهْوَةُ له ، وبهما يكون التَّام ، وتظهر الفِضْيلة^(٥) .

ولصاحب الحفظ^(٦) سببٌ آخر يتَّفَقان عليه ، وهو الموضعُ والوقت .

فأمَّا الموضعُ فأيُّهما يختاران^(٧) إذا أرادا^(٨) ذلك التَّقْوُقُ^(٩) دون اليَسْقُلِ^(١٠) .

وأما السَّاعاتُ فالأَسْحارُ دون سائر الأوقات ، لأنَّ ذلك الوقتُ قَبْلَ وقت الاشتغال ، ويعقبُ تَمَامَ الراحةِ والجَمَامِ^(١١) ، لأنَّ للجَمَامِ^(١٢) مقداراً هو المصلحة ، كما أنَّ للكَلْبِ مقداراً هو المصلحة .

٤ - فصل منه

ويُستَدَلُّ أيضاً بوصايا الملوك للمؤدِّبين في أبنائهم ، وفي تقويم

(١) في جميع النسخ : « لم يعلق بقلبه » ، والضمير راجع إلى المانع .

(٢) م ، ب « والذنين » ط : « والذنان » ، والوجه ، ما أثبت .

(٣) ب : « مشفق عليه متفق عليه » .

(٤) التكلية من ط .

(٥) ب فقط : « ويظهر الفِضْيلة » .

(٦) ب فقط : « التنحفظ » .

(٧) م ، ط : « يختار » .

(٨) م : « أراد » .

(٩) ب : « الغرق » ، م ، ط : « الفرق » ، وأرى الوجه فيما أثبت .

(١٠) ط فقط : « الشغل » . والسفل ، بضم السين وكسرهما : مقابل فوق .

(١١) الجمام كسحاب : الراحة . م ، ط : « الجمام » بالحاء المهملة ، تحريف . وفي

جميع النسخ : « وتعقب تمام » ، وأثبت ما رأيت الصواب ، كما يصح أن تكون : « ويعقب » .

(١٢) م ، ط : « للجمام » ، تحريف .

أحداً منهم ، على أنَّهم قد قلدوهم^(١) قلدوهم وأمورهم وضميرهم ببلوغ التمام^(٢) في تأديبهم . وما قلدوهم ذلك إلا بعد أن ارتفع إليهم في الحنوّ حالهم^(٣) في الأدب ، ويعد أن كشفهم الامتحان وقاموا على الخلاص .

وأنت - حفظك الله - لو استقصيت عددَ النحويين والعروضيين والقرضيين ، والحساب ، والخطّاطين ، لوجدت أكثرهم مؤدّب كبارٍ ومعلّم صغار ، فكم تظنُّ^(٤) أنّا وجدنا منهم ، من الرواة والقضاة والحكماء ، والولاة من المناكير والدهاة . ومن الحماة والكفّاة ، ومن القادة والذّادة^(٥) ، ومن الرؤساء والسّادة ، ومن كبار الكتاب والشعراء ، والوزراء والأدباء ، ومن أصحاب الرسائل والخطابة . والمذكورين بجميع أصناف البلاغة ، ومن الفُرسان وأصحاب الطعان ، ومن نديمٍ كريم . وعالمٍ حكيم ، ومن مليحٍ ظريف ، ومن شابٍ عفيف . ولا تعجّل بالقضية حتى تستوفى آخر الكتاب^(٦) ، وتبلغ أقصى العذر ، فإنك إن كنت تعمّدت تدمّمت^(٧) ، وإن كنت جهلت تعلّمت ، وما أظن من أحسن بك الظنّ إلا وقد خالف الحزم .

٥ - فصل منه

قال العلّم : وجدنا لكل^(٨) صنّف من جميع ما بالناس إلى تعلّمه

(١) قد ، ساقطة من ب .

(٢) في جميع النسخ : « بلوغ » .

(٣) ب : « حالهم » .

(٤) م : « فلم يظن » تحريف . ب : « فكم نظن » ، وأثبت ما في ط .

(٥) جمع ذائد ، وهو المدافع والرجل الحامي الحقيقة . م : « والزيادة » تحريف .

(٦) م : « حتى تستوفى آخر الكتاب » ، تحريف .

(٧) تدمم : استنكف . يقال : لو لم أترك الكذب تأمناً لتركته تدمماً . ب : « تدممت

سوايه بالذال كما في ط ، م .

(٨) ب ، ط : « كل » ، والوجه ما أثبت من م .

حاجة ، معلمين^(١) ، كعلمي^(٢) الكتاب والحساب ، والقرائض
والمقرآن ، والنحو والعروض والأشعار ، والأخبار والآثار ، ووجدنا
الأوائل كانوا يتخذون لأبنائهم من يعلمهم الكتابة^(٣) والحساب ، ثم
لعب الصوالة ، والرأي في التنبؤ^(٤) ، والمجئمة^(٥) ، والطير الخاطف ،
ورمي البنجكار^(٦) . وقبل ذلك الديوق^(٧) والتفخ في السبطانة^(٨) .
وبعد ذلك الفروسية ، واللعب بالرماح والسيوف ، والمشاولة^(٩) والمنازلة
والمطاردة ، ثم النجوم واللحون ، والطب والهندسة ، وتعلم النرد
والشطرنج ، وضرب الدفوف وضرب الأوتار ، والوقع والتفخ في أصناف المزامير .
ويأمرون بتعليم أبناء الرعيّة الفلاحة والتجارة^(١٠) ، والنبيان
والصباغة والخيطة ، والسرد والصنع^(١١) ، وأنواع الحكاية . نعم حتى
علموا البلابل وأصناف الطير الأبحان .

(١) ط : « المعلمين » .

(٢) ب فقط : « كعلم » .

(٣) الكتاب : الكتابة . م فقط : « الكتابة »

(٤) هي كذلك في الفارسية . انظر استينجاس ٣٢٧ وقد فسرها بالفوس الخفيفة : Weak bow

ولعل ما يقابلها بالعربية « المقطرة » . وفي المخصص ٦ : ٣٩ عن ثعلب : قوس مقطرة : خفيفة
متوسطة . ب : « التنبؤ » صوابه في م ، ط .

(٥) المجئمة : كل حيوان ينصب ويرى ويقتل . وفي الحديث أنه نهى عن المصورة والمجئمة

(٦) م : البنجكار « بالراء المهمله ، تحريف . وهي لفظة فارسية مكونة من كلمتين
بنج بمعنى خمسة . وكاز بمعنى العنق ولعلها حس خشيات تنصب هدفاً .(٧) في القاموس والناج أن الديوق كتنور : لمة يلعب بها الصبيان . ب : « الديوب »
وأثبت ما في ط ، م .(٨) السبطانة محرّكة ، كما في القاموس : قناة جوفاء يرى بها الطير . وفي اللسان : قناة
جوفاء مفروبة بالمقرب يرى بها الطير ، وقيل يرى فيها بسهام صفار ينفخ فيها نفعاً ، فلا تكادتفتل . وفي جميع الأصول : « الشيطار » ، صوابه ما أثبت .
(٩) يراد به حمل الأثقال ، من قوم شاول الحجر : رفعه ، فانشال . والمشوال :
حجر يشال . يقال شال به وأشاله وشاوله .

(١٠) ب ، ط : « والتجارة » ، والوجه ما أثبت من م .

(١١) السرد : الحرز في الأديم ، وهو أيضاً نسج الدروع . ب : « والصنع » بالعين المهمله
صوابه في ط ، م .

وناساً^(١) يعلمون القردود والذئبة والكلاب والطبأة المكية^(٢) والبيغاة، والسقر^(٣) وغراب البين، ويعلمون الإبل، والخيال، والبعال، والحمير، والقبيلة، أصناف المشى، وأجناس الحضر^(٤)، ويعلمون الشواهين والصفور والبوازي^(٥)، والفهود، والكلاب، وعناق الأرض، الصيد.

ويعلمون الدواب الطحن، والبخائى الجمز^(٦) حتى يرؤوضوا الهملاج واليعناق^(٧)، بالتخليع وغير التخليع^(٨)، وبالמושوع والأوسط والمرفوع.

ووجدنا للأشياء كلها معلمين.

وإنما قيل للإنسان العالم الصغير، سليل العالم الكبير^(٩)، لأن في الإنسان من جميع طبائع^(١٠) الحيوان أشكالاً، من ختل الذئب^(١١)

- (١) كذا بالنصب في جميع النسخ، بإضمار «وجدنا». وانظر ما سبق في أول هذا الفصل.
 (٢) الذي ذكره الجاحظ في الحيوان هو الغم المكية. انظر ٢/١٧٩: ٣١٦: ٧: ١٠٤: ٧
 ومنها في ذلك الغم الحبشية. انظر الحيوان ٦: ٣١٦ عند تفسير الجاحظ لقصيدة بشر بن المعتز:
 والذئب والقرد إذا عليا والقيسل والكلبسة والير
 (٣) السقر: الصقر. وانظر تعليقه ما جاء في الحيوان ٤: ٤٧. ب: «والسقل»
 م، ط: «والسل»، صوابهما ما أثبت.
 (٤) ط: «الخطوط».
 (٥) البوازي: جمع البازي. وفي جميع النسخ: «البوازين». وانظر لتعليم البوازي ما جاء في الحيوان ٤: ٤٧.
 (٦) الجمز: الوثب. م، ط: «الهمز» تحريف.
 (٧) الهملجة: حسن سير الدابة في سرعة. والمعناق: السريع، أعنتت الدابة فهي معناق وعنيق ومعناق. في الأصول: «والعناق».
 (٨) في القاموس: الخلع الأليتين، كمظم: المنفكهما، والتخليع مشيه، أى مشى الخلع.
 (٩) ب فقط: «وسليل العالم الكبير». وما أثبت من م، ط يطابق ما في الحيوان ١: ٢١٢.
 (١٠) ب، م: «طبايع» بالتسبيح.
 (١١) الختل: الخداع. وختل الذئب الصيد: تحقوله. م، ب: «حيل الذئب». وفي الحيوان: «غدر الذئب».

(٣ - رسائل الجاحظ)

ورَوَّغان الثعلب^(١)، ووثوب الأسد، وحقد البعير، وهداية القطة. وهذا كثير، وهذا باب^(٢).

ولأنه يحكى كلَّ صوتٍ بفيه، ويصوِّر كلَّ صورةٍ بيده. ثم فضَّله الله تعالى بالمنطق والرؤية^(٣) وإمكان التصرف.

وعلى أننا لا نعلم أن لأحدٍ من جميع أصناف المعلمين لجميع هذه الأصناف - كفضيلة المعلم من الناس الأحداث المنطق المنثور^(٤)، ككلام الاحتجاج والصفات، والمناقلات من المسائل والجوابات في جميع العلامات، بين الموزون من القصائد^(٥) والأرجاز، ومن المزدوج والأسجاع^(٦)، مع الكتاب والحساب، وما شاكل ذلك وواقفه واتصل به، ودَّهَب مذهبِه.

وقالوا: إنما اشتقَّ اسم المعلم من العلم، واسم المؤدب من الأدب. وقد علمنا أن العلم هو الأصل، والأدب هو الفرع.

والأدب لما تخلق وإمَّا رواية، وقد أطلقوا له اسم المؤدب على العموم.

(١) ب: «وزوغان» تحريف، وإنما يقال راغ الثعلب روغاناً. وفي أمثالهم: «أروغ من ثعلب»، و«أروغ من ثعالة». وانظر الدرر الفاهرة ٢٠٩ وجمهرة المسكرى ١: ٥٠٠ والمستقصى ١: ١٤٥ والميداني ١: ٢٩٠. والروغان: الخادعة.
(٢) الباب: الوجه. والبيات: الوجوه، وفي الأصول: «وهذا باب».
(٣) الروية: التفكير في الأمر، والفهل في الفكر. وفي جميع النسخ: «الرؤية» والوجه ما أثبت. وإلا فالرؤية مشتركة بين جميع ضروب الحيوان.
(٤) م، ب: «الأحداث هي من المنطق المنثور»، وعبارة «هي من» مقحمة لم ترد في ط.

(٥) ب: «عن القصائد»، صوابه في م، ط.

(٦) في جميع النسخ: «من المزدوج» بدون واو. والمزدوج ضرب غير الرجز، مثل له الجاحظ في البيان ٢: ١١٦-١١٧. كما أورد نماذج للأسجاع في ١: ٢٨٤-٢٩٠، وفي السبع يغلب التزام التقفية. وفي الازدواج مراعاة للتأرجح في المعاني، وقد يصحب بالتزام القافية. وفي جميع النسخ: «والأسجاع» والوجه ما أثبت.

والعلم أصل لكل خير ، وبه ينفصل الكرم من اللؤم ، والحلال من الحرام . والفضل من الموازنة بين أفضل الخيرين ، والمقابلة بين أنقص الشرين .

فلم يَغْرِضُوا لِأَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَافِ الَّتِي ^(١) اتَّخَذَ النَّاسُ لَهَا الْمَلْمُومِينَ مِنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، وَالسَّرْفِ وَالِاِقْتِنَادِ ، وَالجِدِّ وَالْهَزْلِ ، إِلَّا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِلَّا الْكِتَابَ ^(٢) وَالْحِسَابَ ، وَالشَّعْرَ ، وَالنَّحْوَ ، وَالْفَرَائِضَ ، وَالْعَرُوضَ . وَمَا بِالسَّمَاءِ ^(٣) مِنْ نَجُومِ الْاِهْتِدَاءِ وَالْأَنْوَاءِ وَالسُّعُودِ ، وَأَسْبَابِ الْأَيَّامِ وَالشُّهُورِ ، وَالْمُنَاقَلَاتِ ^(٤) .

وَيَمْتَنِعُهُمُ الْعَرَامَةُ ^(٥) ، وَيَأْخُذُهُمُ بِالصَّلَاةِ فِي الْجَمَاعَةِ ، وَيُدْرَسُهُمُ الْقُرْآنَ ^(٦) ، وَيَهْدُنُ ^(٧) أَلْسِنَتَهُمْ بِرِوَايَةِ الْقَصِيدِ وَالْأَرْجَازِ ، وَيُعَاقِبُ عَلَى التَّهَاؤُنِ ، وَيَضْرِبُ عَلَى الْفِرَارِ ^(٨) ، وَيَأْخُذُهُمُ بِالْمُنَاقَلَةِ ^(٩) ، وَالْمُنَاقَلَةَ [مِنْ ^(١٠)] أَسْبَابِ الْمُنَافَسَةِ .

لِحَقِيرِ ^(١١) بِخِلَافِ هَذِهِ السَّيْرَةِ ، وَيُضَدُّ هَذِهِ الْمَاعِلَةَ

- (١) ب ، م : « اللئى » ، صوابه في ط .
 (٢) الكتاب : الكتابة . ط فقط : « الكتابة » .
 (٣) ب : « وما السماء » ، صوابه في م ، ط .
 (٤) في القاموس : « المناقلة في المنطق : أن تحدهه ويجدثك » . وفي أساس البلاغة : « وناقله الحديث ، إذا حدثه وحدثك . وناقل الشاعر الشاعر : ناقضه » .
 (٥) العرامة ، بالمهملة : الشراسة والأذى . م : « الفرامة » . تحريف .
 (٦) يقال درسته الكتاب درساً ، وأدرسته إدراًساً ، ودرسته إياه تدريساً . وأصل الدرس التذليل ، يقال درست الكتاب أدرسه درساً ودراسة ، أى ذلته بكثرة القراءة حتى خف حفظه .
 (٧) يقال هدنوه بالقول حتى رضى وسكن . وتهدين المرأة ولدعا : تسكينها له بكلام إذا أرادت إقامته . ط فقط : « ويهديون السنهم » .
 (٨) ب فقط : « على الفرار » .
 (٩) انظر ما سبق في الحاشية الرابعة .
 (١٠) تكلة يلتئم بها الكلام .
 (١١) يبدو أن الكلام بترأ . كما يبدو أن هذه الكلمة محرفة عن «لحقيق» . وهذا في كله نطاق الدفاع عن المثل .

٦ - فصل منه

وقد ذهب قومٌ إلى أنَّ الأَدبَ حُرْفٌ^(١) ، وطلبه شُؤمٌ . وأنشد
قول الشاعر :

ما ازددت في أدبي حرفاً أسرُّ به إلا تزيّدتُ حرفاً تحته شُؤمٌ^(٢)
إِن المَقْدَمُ في حِدَقِي بصنعتِه أنى توجّهَ فيها فهو محرومٌ^(٣)

ولم نر شاعراً نال بشعره الرغائب ، ولا أديباً بلغ بأدبه المراتب ،
ذَكَرَ يُمنُ الأَدبِ ، ولا بركةَ قولِ الشعرِ^(٤) . فإذا حُرِمَ الواحدُ منهم ،
والرجلُ الشاذُّ ذَكَرَ حُرْفَ الأَدبِ^(٥) وشُؤمَ الشعرِ . وإن كان عدداً من
نال الرغائبَ أكثرَ من عددٍ من أخفق .

ومهما عيّرنا مَنْ كان في هذه الصّفة^(٦) فإننا غير مُعابرين^(٧) لأبي
يعقوب الخُرَمي^(٨) ؛ لأنّه نال بالشعر وأدرك بالأدب .

(١) الحرف ، بالضم : الحرمان ، من قولهم : رجل محارف ، أى منقوص الحظ
لا يمتلئ له . ومثله « الحرفة » بالكسر : اسم كذّك ، يقال : أدركته حرفة الأدب . ط
فقط : « خرق » ، وهو الحق .

(٢) في البيت مجازة بين الحرف والحرف بالضم .

(٣) ب فقط : « في خرق بصنعتِه » ، تحريف .

(٤) الكلام بعده إلى كلمة « الشعر » التالية ساقط من م .

(٥) في الأصول : « فإنما حرم » . والوجه ما أثبت . وفي ط فقط : « خرق الأدب » .

(٦) ط : « الصنعة » . والتصيير هنا بمعنى الموازنة .

(٧) المعابرة ، من قولهم : عابر بينهما : قدرهما ونظر ما بينهما . وفي الأصول :

« غير عابرين » .

(٨) الخرمي بالراء المهملة : نسبة إلى خريم بن عامر المري ، وكان لأبي يعقوب اتصال به
وبآله فنسب إليه . وفي جميع الأصول : « الخرمي » ، تحريف . واسمه إسحاق بن حسان بن قوهي ،
وقد ذكره البغدادي في التاريخ ٣٣٦٩ وقال : « أصله من خراسان من بلاد السند » ، وقال :
« وله مدائح في محمد بن منصور بن زياد ، ويحيى بن خالد وغيرهما . وقال أبو حاتم السجستاني :
الخرمى أشعر المولدين ، وروى عنه شيئاً يسيراً من شعره أبو عثمان الجاحظ ، وأحمد بن عبيد
ابن ناصح » وانظر لخرم الناعم قاموس الزركلي وأمثال الميداني ٢ : ٢٨١ . وكان إسحاق هذا
من العميان روى له الجاحظ شعراً يذكر فيه عماء في الحيوان ٣ : ١١٣ . وانظر نكت المغيبان ٧١
وعيون الأخبار ٤ : ٥٧ .

وليس الذى يحمل^(١) أكثر الناس على هذا القول إلا وجدان المعاني والألفاظ ، فإنهم يكرهون أن يُضيعوا باباً من إظهار الطَّرْفِ وَفَضَّلَ اللسان^(٢) وهم عليه قادرون .

٧ - فصل

وقد قالوا : الصبيُّ عن الصبيِّ أفهمُّ ، وبه أشكل . وكذلك الغافل والغافل^(٣) ، والأحمق والأحمق ، والغبيُّ والغبيُّ ، والمرأة والمرأة . قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا ﴾^(٤) . لأنَّ الناس عن النَّاسِ أفهم ، وإليهم^(٥) أسكن . فمِمَّا أعان الله تعالى به الصَّبيان ، أنْ قَرَّبَ طبائعهم ومقادير عقولهم من مقادير عقول المعلمين^(٦) .

وسمع الحجاجُ - وهو يسيرُ - كلامَ امرأةٍ من دار قومٍ ، فيه تخليطٌ وهذيان ، فقال : مجنونة ، أو ترقصُ صبياً !

ألا ترى أنْ أبلغَ الناسَ لساناً ، وأجودهم بياناً وأدقهم فطنةً ، وأبعدهم رويةً^(٧) ، لو ناضقَ طفلاً أو ناعى صبياً ، لتوتى حكايةً مقادير عقول الصَّبيان ، والشَّبَهَ لمخارج كلامهم ، وكان لا يجد بداً من أن ينصرف^(٨) عن كلِّ ما فضله الله به بالمعرفة الشريفة ، والألفاظ الكريمة . وكذلك تكون المشاكلة^(٩) بين المتفقيين^(١٠) في الصناعات .

(١) م : « وأليس » ، تحريف . ب ، م : « يجمل » ، صوابه في ط .

(٢) م ، ط : « الشأن » .

(٣) م : « العاقل والعاقل » .

(٤) الآية ٩ من سورة الأنعام .

(٥) ب ، م : « وإليه » تحريف .

(٦) ب ، ط : « العالمين » .

(٧) ب ، م : « روية » ، صوابه في ط . وانظر ما سبق في حواشئ ص ٣٤ .

(٨) ب ، م : « يصرف » ، وأثبت ما في ط .

(٩) ب ، م : « يكون مشاكلة » ، صوابه في ط .

(١٠) م : « المتقين » ، صوابه في ب ، ط .

٨ - فصل

في رياضة الصبي

وأما النحو فلا تشغل قلبه^(١) منه إلا بقدر ما يؤدّيه إلى السلامة من فاحش اللحن ، ومن مقدار جهل العوام في كتاب إن كتبه^(٢) ، وشعر إن أنشده ، وشيء إن وصفه . وما زاد على ذلك فهو مشغلة عما هو أولى به ، ومذهل عما هو أرد عليه^(٣) منه من رواية المثل والشاهد^(٤) ، والخبر الصادق ، والتعبير البارع^(٥) .

وإنما يرغب في بلوغ غايته ومجاوزة الاقتصار فيه ، من لا يحتاج إلى تعرف جسيات الأمور ، والاستنباط لغوامض التدبير ، ومصالح العباد والبلاد ، والعلم بالأركان^(٦) والقُطب الذي تدور عليه الرُحى ؛ ومن ليس له حظ غيره ، ولا معاش سواه .

وعويص النحو^(٨) لا يجزى في المعاملات ولا يُضطر إليه شيء .

(١) م ، ب : « قلبهم » ، صوابه في ط .

(٢) ط : « في كتاب كتبه » .

(٣) أرد عليه : أنفع له . وهذا الأمر لا يراد له ، أي لا فائدة له .

(٤) هذا ما في ط . وفي م ، ب : « المثل الشاهد » .

(٥) م ، ب : « والفقر البارع » ، صوابه في ط .

(٦) م : « عن » ، تحريف .

(٧) م ، ب : ط : « والعلم بالأركان » ، صوابه في م .

(٨) م ، ب : « وعويص النحو » ، صوابه في ط .

فمن الرأي أن يُعتمد به^(١) في حساب العَدِّ^(٢) دون حساب الهِنْد ، ودون الهندسة^(٣) وِغويص^(٤) ما يدخل في المساحة . وعليك في ذلك بما يحتاج إليه كُفَاة السُّلطان وِكتاب الدواوين .

وأنا أقول : إن البلوغ في معرفة الحساب الذي يدور عليه العمل ، والترقى فيه^(٥) والسبب إليه ، أُرِدُّ عليه من البلوغ في صناعة المحررين ورؤوس الخطاطين ؛ لأنَّ في أدنى طبقات الخطِّ مع صحَّة الهجاء بلاغاً . وليس كذلك حالُّ الحساب .

ثمَّ نخذ^(٦) بتعريف حجج الكتاب وتخلُّصهم باللفظ السَّهل القريب المأخوذ إلى المعنى الغامض^(٧) . وأذِقَهُ حلاوة الاختصار ، وراحة الكفاية ، وحذَّره التكلُّف واستكراه العبارة^(٨) ؛ فإنَّ أكرم ذلك كلِّه ما كان إلهاماً للسامع ، ولا يُحوج إلى التأويل والتعقُّب ، ويكون مقصوراً على معناه لا مقصراً عنه ، ولا فاضلاً عليه .

فاختر من المعاني ما لم يكن مستوراً باللفظ المتعَدِّ^(٩) ، مُفَرِّقاً في الإكثار والتكلُّف^(١٠) . فما أكثر من لا يحفل باستهلاك المعنى مع

(١) ب : « أن يصمد به » ، وأثبت ما في م ، ط .

(٢) حساب العقد : ضرب منه يكون بأصابع اليدين . وفي الحديث أنه « عقد عقد تسعين » وقد ألفت فيه كتب وأراجيز . انظر الخزانة ٣ : ١٤٧ بولاق والجوآن ١ : ٣٣ والبيان ١ : ٧٦ وفتح الباري ١٣ : ٩٥ - ٩٦ والألف المختارة من صحيح البخاري ٨٩٦ ، ٩٢٥ .

(٣) م : « ودون حساب الهندسة » .

(٤) ب ، م : « وِغويص » ، تحريف .

(٥) ب ، م : « والتوقى » ط : « والتوقى » ، والوجه ما أثبت .

(٦) ط فقط : « ثمَّ نخذ » .

(٧) ب : « الغامض » ، صوابه في م ، ط .

(٨) ب : « واستكراه العبارة » ، صوابه في م ، ط .

(٩) ب ، م : « المتعَدِّ » ، وأثبت ما في م .

(١٠) في جميع الأصول : « مفَرِّقاً » بالفاء ، والوجه ما أثبت .

بِرَاعَةِ اللَّفْظِ وَغَمُوضِهِ عَلَى السَّامِعِ بَعْدَ أَنْ يَتَسَّقَ لَهُ الْقَوْلُ^(١) ، وما زال المعنى محجوباً لم تكشف عنه العبارة . فالعنى بعد مقيم على استخفافه وصارت العبارة لغواً وظرفاً خالياً .

وشرُّ البلغاء من هياً رسم المعنى قبل أن يهتئ^(٢) المعنى ، عشقاً لذلك اللفظ ، وشغفاً بذلك الاسم ، حتى صار يجترُّ إليه المعنى جراً ، ويلزقه به إلزاقاً . حتى كأن الله تعالى^(٣) لم يخلق لذلك المعنى اسماً غيره ، ومنعه الإفصاح عنه إلا به .

والآفة الكبرى أن يكون ردى الطبع^(٤) بطيء اللفظ ، كليل الحد ، شديد العجب ، ويكون مع ذلك حريصاً على أن يُعد في البلغاء ، شديد الكلف بانتحال اسم الأدياء^(٥) . فإذا كان كذلك خفي عليه فرق ما بين إجابة الألفاظ واستكراهه لها .

وبالجملة^(٦) إن لكل معنى شريف أو وضع ، هزل أو جد^(٧) ، وحزم أو إضاعة^(٨) ، ضرباً^(٩) من اللفظ هو حقه وحظه ، ونصيبه الذى لا ينبغي أن يجاوزه أو يقصر دونه^(١٠) .

ومن قرأ كتب البلغاء ، وتصفح دواوين الحكماء ، ليستفيد

(١) م : « يتسوله القول » ط : « يتين له القول » . وأثبت ما في ب .

(٢) ب فقط : « هتئ » .

(٣) ب ، م : « كأن الله مراد تعالى » !

(٤) ب : « ردى الطبع » بالتسهيل .

(٥) ط فقط : « الأدب » .

(٦) ب : « والجملة » .

(٧) ط : « هزلاً أو جداً » .

(٨) ب ، م : « أو حزم » ، ط : « وحزم أو ضاعة » ، والوجه ما أثبت .

(٩) ط : « ضرب » ، تحريف .

(١٠) ب : « ويقصر دونه » .

المعاني ، فهو على سبيلِ صواب . ومن نظر فيها ليستفيد الألفاظ فهو على سبيل الخطأ . والخسرانُ ها هنا في وزن الرّيح هناك ؛ لأنّ من كانت غايته انتزاعُ الألفاظ^(١) حملهُ الحرصُ عليها ، والاستهتارُ بها إلى أنّ يستعملها قبلَ وقتها ، ويضعها في غير مكانها . ولذلك قال بعض الشعراء^(٢) لصاحبه : أنا أشعر منك ! قال صاحبه : ولمّ ذاك ؟ قال : لأنّي أقول البيتَ وأخاه ، وأنت تقول البيتَ وابن عمّه .

وإنّما هي رياضة وسياسة^(٣) ، والرفيق : مصلحٌ وآخرٌ مفسد^(٤) . ولا بدّ من هذانِ وطبيعةٍ مناسبة^(٥) . وسماعُ الألفاظ ضارٌّ ونافعٌ^(٦) .

فالوجه النافع : أن يدور في مسامعه ، ويغيب في قلبه^(٧) ، ويختصر^(٨) في صدره ، فإذا طال مكثها تناكحت ثم تلاقحت فكانت^(٩) نتيجتها أكرمَ نتيجة ، وثمرتها أطيبَ ثمرة ؛ لأنّها حينئذ تخرج غير مُستترقةٍ ولا مختلّسة^(١٠) ، ولا مغتصبة ، ولا دليّة على فقر ؛ إذ لم يكن القصد إلى شيء بعينه ، والاعتماد عليه دون غيره . وبَيّنَ الشّيء إذا عَشش في

(١) ب : «أنواع» م : «انتواع» ، صوابهما في ط .

(٢) هو عمر بن لجأ ، كما في مقدمة الشعر والشعراء ٩٠ .

(٣) م ، ط : «وسياحة» .

(٤) ط ، ب : «والآخر مفسد» .

(٥) الهدان : المهادة . م . ط : «هذان» مع سقوط واو «وطبيعة» من ط .

(٦) ب ، م : «غسارة ونافعة» .

(٧) يغيب : يمكث ، ومنه قولهم : «رويّد الشعر يغيب» ، أي دمه يمكث يوماً أو يومين .

م ، ط : «ويغيب في قلبه» .

(٨) هذا الصواب من ب : وفي م ، ط : «ويخيم» .

(٩) ط : «وكانت» .

(١٠) هذا الصواب من م ، ط . وفي ب : «ولا مختلّسة» .

الصدر ثم باض ، ثم فرّخ ثم نهض ، وبين أن يكون الخاطر مختاراً ، واللفظ اعتسافاً واعتصاباً ، فرق بين .

ومنى أتكلّ صاحبُ البلاغة على الهويّتى والوكال ، وعلى السرقة والاحتيال ، لم ينل طائلاً ، وشقّ عليه النزوع ، واستولى عليه الهوان ، واستهلكه سوء العادة .

والوجه الضارّ : أن يتحقّق ألفاظاً بعينها^(١) من كتاب بعينه ، أو من لفظ رجل ، ثم يريد^(٢) أن يعدّ لتلك الألفاظ قسمها من المعاني ، فهذا لا يكون إلا بخيلاً فقيراً ، وحائفاً^(٣) سروقاً ، ولا يكون إلا مستكرباً لألفاظه ، متكلفاً لمعانيه ، مضطرب التأليف منقطع النظام . فإذا مرّ كلامه بنقّاد الألفاظ وجهابذة المعاني استخفوا عقله ، وبهرجوا علمه .

ثم اعلم أنّ الاستكراه في كل شيء سميح ، وحيث ما وقع فهو مذموم ، وهو في الطّرفِ أسميح ، وفي البلاغة أقيح . وما أحسن حاله ما دامت الألفاظ مسموعة من فيه^(٤) ، مسرودة في نفسه^(٥) ، ولم تكن مخلّدة في كتبه .

وخير الكتب ما إذا أعدت النظر فيه زادك في حسنه ، وأوقفك على حدّه^(٦) .

(١) تحفظ الكتاب : استظهره شيئاً بعد شيء . م ، ط : « أن يحفظ » .

(٢) م فقط : « أن يؤيد » .

(٣) من الخيف والجور . ب : « وخائفاً بالتسهيل » .

(٤) ب : « من فهمه » ، صوابه في م ، ط .

(٥) مسرودة : منتظمة متتابعة . ب : « مسرورة » .

(٦) م : « أوقف » ب : « وأوقف » ، والوجه ما أثبت من ط .

٩ - فصل

في ذم اللواط

والذي يدلُّ على أنَّ هذه الشهوة معيبةٌ في نفسها^(١)، قبيحةٌ في عينها، أن الله تعالى وعزَّ لم يعوِّض في الآخرة بشهوة الولدان من ترك لوجهه في الدنيا شهوة العِلْمَان، كما سقى في الآخرة الخمرَ مَنْ تركها له في الدنيا، ثمَّ مدَحَ خمر الجنَّةِ بأقصر الكلام، فنظَّم به جميع المعاني المكروهة في خمر الدنيا فقال: ﴿ لَا يُصَدِّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ ﴾^(٢). كأنه تبارك وتعالى قال: لا سُكر فيها ولا خُمار^(٣).

وفي اكتفاء الرجال بالرجال والنساء بالنساء انقطاع النسل، وفي انقطاع النسل بطلان جميع الدين والدنيا. وغشيان الرجل الرجل والمرأة المرأة من المنكوس المعكوس^(٤)، ومن المبدل المقلوب؛ لأنَّ الله جلَّ ذكره إنَّما خلق الذكْرَ للأُنثى، وجعل بينهما أسباب التحابِّ وعلائق الشَّرَكَةِ، وعلل المشاكلة^(٥) وجعل الذكر طيقاً للأُنثى. وجعل الأُنثى سكناً للرجل. فقلب هؤلاء الأمرَ وعكَّسوه، واستقبلوا من اختار الله لهم بالردِّ والزُّهد فيه.

(١) م، ب: « معيبة نفسها ».

(٢) الآية ١٩ من سورة الواقعة.

(٣) الخمار، بالضم: ما أصاب من أم الخمر وصداعها وأذاها.

(٤) ب فقط: « من المنكوس والمعكوس ».

(٥) ب فقط: « المشاركة ».

١٠ - فصل

ومن المعلمين ثم من البلغاء المتأدبين^(١) : عبد الله بن المقفع ، ويكنى أبا عمرو ، وكان يتولى لآل الأهم^(٢) ، وكان مقدماً في بلاغة اللسان والقلم ، والترجمة ، واختراع المعاني وابتداع السبب . وكان جواداً فارساً جميلاً ، وكان إذا شاء أن يقول الشعر قاله ، وكان يتعاطى الكلام . ولم يكن يُحسن منه لا قليلاً ولا كثيراً . وكان ضابطاً لحكايات المقالات ، ولا يعرف من أين غر المغتر ووثق الواثق . وإذا أردت أن تعتبر ذلك ، إن كنت من خلص المتكلمين ومن النظارين ، فاعتبر ذلك بأن تنظر في آخر رسالته (الهاشمية) ، فإنك تجده جيد الحكاية لدعوى القوم ، ردى المدخل في مواضع الطعن عليهم .

وقد يكون الرجل يُحسن الصنف والصنفين من العلم ، فيظن بنفسه عند ذلك أنه لا يحمل عقله على شيء إلا تفاد به فيه^(٣) ، كالذي اعترى الخليل بن أحمد بعد إحسانه في النحو والعروض ، أن ادعى العلم بالكلام وبأوزان الأغاني^(٤) ، فخرج من الجهل إلى مقدار لا يبلغه أحد إلا بخذلان الله تعالى . فلا حرمتنا الله تعالى عصمته ، ولا ابتلانا بخذلانه .

١٠ - فصل

وهذان الشاعران جاهليان^(٥) ، بعيدان من التوليد ، وبتجوة من التكليف .

(١) ب : « ثم البلغاء المتأدبين » ، بإسقاط « من » .

(٢) انظر طرقات من أخبارهم في الأغاني ١٣ : ٥٨ .

(٣) م : « إلا تعدته فيه » ، ط : « إلا بعد به فيه » . والوجه ما أثبت من ب .

(٤) م : « المعاني » .

(٥) لم ترد هذه الكلمة في ب . والاختيار التالي مقتضب لا يمت إلى ما قبله ولا إلى ما بعده بصلة .

(٦) ب : « جاهلان » ، تحريف .

١١ - فصل

ومن خصال العبادة وإن كانت كلُّها راجحة فليس فيها شيءٌ أردَّ في عاجلٍ^(١) ، ولا أفضلَ في آجلٍ من حُسْنِ الظَّنِّ بالله تعالى وعزِّ^(٢) .

ثم اعلم أنَّ أعقلَ النَّاسِ السُّلْطَانَ وَمَنْ احتاج إلى معاملته ، وعلى قدر الحاجة إليه ينفتح له باب الحيلة ، والاهتداء إلى مواضع الحجَّة . وما أقربَ فضلِ الرَّاعي على الرعية من فضلِ السَّائِسِ على الدَّابَّةِ . ولولا السُّلْطَانُ لَأَكَلَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً ، كما أنَّه لولا المِيسِمِ لَوْتَبَّ السَّبَاغُ عَلَى السَّوَامِ^(٣) .

ودَعَى من تدرسه كتب أبي حنيفة^(٤) ، ودَعَى من قولهم : اصرِّفه إلى الصَّيارفة ؛ فَإِنَّ صِنَاعَةَ الصَّرْفِ تَجْمَعُ^(٥) مع الكِتَابِ والحسابِ المعرفة بأصناف الأموال ، ولا تجدد بُدْأً^(٦) من جِلَّةِ السُّلْطَانِ^(٧) .

ودَعَى من قول من يقول : قد كانت تُجَارِشُ تِجَاراً ؛ فَإِنْ هَذَا بَابٌ لَا يَنْقَاسُ وَلَا يَطَّرِدُ . وَمَنْ قَاسَ تِجَارَ الكَرْخِ وِبَاعَتِهِ ، وَتِجَارَ الأَهْوَازِ والبصرة ، على تُجَارِ قريش ، فقد أخطأ مواضع القياس ، وَجَهِلَ أقدَارَ العِللِ .

(١) أرد ، أى أنفع .

(٢) وأزر ، ساقطة من م .

(٣) المِيسِمِ : الرَّاعي ، أسامها إسامة : خلاها ترضى ، ومثله سامها سوماً ، والسَّوَامِ : الإبل الرعية تسوم حيث شامت ، وهو اسم جمع للسائم والسائمة ، وميمها مخففة، وضبطت في طبعة القاموس بالتشديد خطأ . وفي ب ، م : « لأتَّب السَّبَاغِ » ، صوابه في ط .

(٤) ب ، م : « من تدرسه » ط : « من تدرِس » ، والوجه ما أثبت . وانظر ما أسلفت من حاشية على « ويدرسه القرآن » في أواخر الفصل الخامس ص ٣٥ . والضمير عائد إلى العبري .

(٥) ب ، م : « يجمع » ، صوابه في ط .

(٦) ب فقط : « يدان بالياء » ، تحريف .

(٧) ب ، م : من جلة السلطان « بالجيم . والمراد أنها لها علاقة بالسلطان .

قريش^(١) قومٌ لم يزل الله تعالى يقَلِّبهم في الأرحام البريئة من الآفات^(٢) ، وينقلهم من الأصلاب السليمة من العاهات ، ويعيِّبهم لكل جسم^(٣) ، ويربيهم لكل عظيم .

ولو علم هذا القائل ما كانت قريش عليه في التجارة لعرف اختلاف السُّبُل ، وتفاوت ما بين الطرق . ولو كانت علَّتهم في ذلك كعلَّة تجار الأيِّلة^(٤) ، ومحتكرى أهل الحيرة ، لثلَّمت دقَّة التجارة في أغراضهم^(٥) ولنَهَكَ سَخف التريُّح^(٦) من مروءاتهم ، ولصعَّر ذلك من أقدارهم في صدور العرب ، ولوضع من علوهم عند أهل الشرف . وكيف وقد ارتحلت إليهم الشعراء كما ارتحلت إلى الملوك العظماء . فأسْتَوْا لهم العطية ، ولم يقصِّروا عن غاية ، فسقوا الحجيج وأقاموا القرى لزوار الله تعالى ، وهم يوادٍ غير ذى زرع . فلو أنه كان معهم من الفضل ما يبهر العقول ، ومن المجد ما تخرج فيه العيون^(٧) ، لما أصلح طبائعهم الشيء الذى يفسد جميع الأمة^(٨) . ولقد أورت ذلك صدورهم من السعة بقدر ما أورت

(١) م فقط : « وقريش » .

(٢) ب ، م : « البرية » بالتسجيل .

(٣) عياه تميمية وتميمة : هياء وأصلحه . م ، ط : « ويقيمهم » . وأثبت ما في ب .

(٤) الأيِّلة : بلدة على شاطئ دجلة البصرة ، وهى أقدم منها ، لأن البصرة مصرية في أيام عمر ، وكانت الأيِّلة حينئذ مدينة فيها مسالخ وقائد من قبل كسرى .

(٥) في جميع الأصول : « أغراضهم » بالفتح المعجمة ، وإنما يظن العرض ، بالعين المهملة أى يظن فيه ، وفي أساس البلاغة : « هذا ما يكلم الدين ويظن اليقين » .

(٦) ب ، م : « التريُّح » ط : « الريح » ، والوجه ما أثبت من الجمع بينهما . والتريُّح : طلب الريح والمكسب .

(٧) خرجت عينه حرجاً : حارت ، قال ذو الرمة :

ترداد العين إبهاجياً إذا سقرت . وتخرج العين فيها حين تنتقب

وقيل معناه أنها لا تنصرف ولا تطرف من شدة النظر . وفي جميع الأصول : « ما يخرج فيه العيون » وهو من ملح التصحيف .

(٨) ب ، م : « لما صلح » ، صوابه في ط .

غيرهم من الضيق . ولو كانت سبيلهم^(١) عند الملوك إذا وفدوا عليهم ،
أو وَرَدُوا^(٢) بلادهم بالتجارات، سبيل^(٣) غيرهم من التجار لما أوجَّهوهم
وقربوهم^(٤) ، ولما أقاموا لهم قري الملوك وحبوهم بكرامة الخاص .
وإذا كانت قريش حُمساً تَنَسَّكُ في دينها ، وتَسألُه في عبادتها^(٥)
وكان مانعاً لهم من الغارات والسبياء ، ومن وطء النساء من جهة المعنم ،
ولذلك لم يَتَدوا البنات ولا ولدت منهم امرأة غيرهم من جهة السبياء^(٦) ،
ولا زوجوا أحداً من العرب حتى يتحمس ويدين بدينهم . ولذلك لما
صاروا إلى بناء الكعبة لم يُخرجوا في بنائها من أموالهم إلا موارث
آبائهم ونسائهم^(٧) ، خوفاً من أن يخالطه شيء من حرام ، إذ كانت^(٨)
أرباح التجارات مَخوفاً عليها ذلك . فلما كانوا بوادٍ غير ذى زرع
ويحتاجون إلى الأقوات^(٩) ، وإقامة القرى ، لم يجدوا بداً من أن
يتكلفوا ما يُعيشهم ويصلح شأنهم ، فأخذوا الإيلاف^(١٠) ، ورحلوا
إلى الملوك بالتجارات . فهذا هو السبب .

(١) ب : « سليم » . تحريف .

(٢) ب : « وأوردوا » .

(٣) ب ، م : « سبيل » .

(٤) وجهه السلطان توجيهاً ، وأوجهه إيجاباً : شرفه ، وأوجهه : صادفته وجيهاً .

(٥) تناله : تنسك وتتعبد . ط : « وتناله في عبادتها » ، تحريف .

(٦) ب ، م : « وغيرهم من جهة السبياء » . والمراد لم يمتدوا على نساء غيرهم من القبائل

الأخرى فيلذن لهم .

(٧) من أموالهم ، ساقطة من ب .

(٨) ب ، م : « إذا كانت » ، والوجه ما أثبت من ط .

(٩) ب ، م : « إلى الأوقات » ، والصواب في ط .

(١٠) الإيلاف : العهد والذمام والإجارة . وكان الإخوة الأربعة : هاشم ، وعبد شمس ،
والمطلب ، ونوفل ، بنو عبد مناف ، يجيرون قريشاً بجرهم ، وكانوا يسمون المجرين . فأما
هاشم فإنه أخذ حبلًا من ملك الروم ، وأخذ نوفل حبلًا من كسرى ، وأخذ عبد شمس حبلًا من
النجاشي ، وأخذ المطلب حبلًا من ملوك حير ، فكان تجار قريش يختلفون إلى هذه الأمصار
بجبال هؤلاء الإخوة فلا يتعرض لهم .

فانظر كم بين علّتهم وعلّة غيرهم! فيسرك بعد هذا أن يتحوّل ابتك في مسلاخ صالح الزّرازيشي^(١) ، أو في طباع ابن بادام^(٢) ، أو في عقل ابن سامري^(٣) .

فإن زعموا أنّ أصحاب السلطان يعرض مكرهه فيعلموا أنّ كلّ مسافر فيعرض مكرهه^(٤) ، وقد قال بعض الحكماء : « المسافر ومتاعه على قلت إلا من حفظ الله^(٥) » ، يعنى على هلاك .

وراكب البحر أشدّ خطراً ، ومشتري طعام الأهواز أشدّ تهوراً^(٦) ، ورافع الشّراع يعرض هلكة . والمتعرض للملاحة^(٧) والمعرض لنفسه للسّباع أقلّ شفقة^(٨) . وسكان الجزائر والسواحل أحقّ بالتعرض ، وأولى بالخوف . والنهوم بالطعام الردي^(٩) ، والمدمن للشراب أشبه بأصحاب التغير^(١٠) ، والمتباري في ذلك والمتزيّد منه أحقّ بتوقع الجِدْثان وحوادث الأزمان ، قد جرت عليه عادة الدهر^(١١) وسيرة الأيام . وهذا كلّه أحقّ بالاهتمام .

(١) ب : « الذّرازيشي » ط : « الذّرايري » ، وأثبت ما في م . وأصل معنى السلاخ الجلد ، والمراد أن يكون مثله .

(٢) ط ، ب : « ابن آدم » ، وأثبت ما في م . وبإدغام ، من الأعلام الفارسية ، ويقال أيضاً بإدغام . وانظر جواهر رسائل الجاحظ ٢ : ٢٩٢ .

(٣) ب ، ط : « وفي عقل » .

(٤) ط : « يمرض مكرهه » .

(٥) الذي في البيان ٢ : ١٠٥ واللسان (قلت) : « وقال أعرابي : إن المسافر ومتاعه لعل قلت إلا ما وقى الله » . وفي جميع الأصول : « على قلة » تحريف .

(٦) التهور : السقوط ، والمراد التعرض للخطر .

(٧) في جميع النسخ : « للسلام » والوجه ما أثبت .

(٨) الشفقة : الخوف من وقوع مكرهه . ولعله يعنى أنها أكثر أمناً من التاجر الذي يستعمل السفر .

(٩) ب ، م : « الردي » بالتسجيل .

(١٠) ب : « التغير » . والتغير : جعل النفس على الغرر ، وهو الخطر والمهلكة .

(١١) سقطت كلمة « قد » من ط . وبدلها في ب : « حتى » .

وإن كنت إلى الإشفاق تذهب ، وإلى إعطاء الحزم أكثر من نصيبه ، وكيف دار الأمر فإن التاجر قد استشعر الذل ، وتغشى ثوب المذلة .

وصاحب السلطان قد تجاوز حد العز والهيبة . وإنما عيبه سكر السلطان^(١) ، وإفراط التعظيم . قد استبطن بالعز ، وظاهر بالبشر واستحكمت تجربته ، وبعدت بصيرته حتى عرف مصلحة كل مضر^(٢) ، وإصلاح كل فاسد ، وإقامة كل معوج ، وعمارة كل خرب .

ولا أعلم في الأرض أعمّ إفلاساً ولا أشد نكبةً ، ولا أكثر تحولاً^(٣) من يسر إلى عسر ، ولا رأينا الجوائح^(٤) إلى أحد أهدى منها إلى أموال الصبارة . فكيف يُفاس شأن قوم تعمهم المعاطب^(٥) بشأن قوم أهل السلامة فيهم أكثر ، والنكبات فيهم أقل .

وبعد هذا فإني أرى ألا تستكرهه فتبغض إليه الأدب ، ولا تهمله فيعتاد اللهو .

على أنني لا أعلم في جميع الأرض شيئاً أجلب لجميع الفساد من قرناء السوء ، والفراغ الفاضل عن الجمام^(٦) .

(١) هو ما يسمونه المدح بما يشبه الذم . وسكر السلطان : نشوته والشعور بالزهو . وفي اللسان : « السكر ثلاثة : سكر الشباب ، وسكر المال ، وسكر السلطان » . ط ، م : « سكر » بالشين الممجة ، تحريف .

(٢) المضر : واحد الأمصار ، للمدينة الكبيرة . ط فقط : « كل مضر » ، تحريف .

(٣) ب : « تحولاً » بالميم .

(٤) الجوائح : جمع جائحة ، وهي الشدة والنازلة العظيمة التي تحتاج المال ، أي تذهب به وفي جميع النسخ : « الجوائح » ، صوابه ما أثبت .

(٥) المعاطب : المهالك ، واحدها معطب . ب ، م : « المعاطر » بالراء ، صوابه ق ط .

(٦) الجمام ، كسحاب ، الراحة . ط فقط : « الجهاد » بحرف .

(٤ - رسائل الجاحظ)

دُرِّسَ الْعِلْمُ^(١) مَا كَانَ فَارِعًا مِنْ أَشْغَالِ الرِّجَالِ ، وَمَطَالِبِ ذَوِي
الْهِمَمِ . وَاحْتَلَى فِي أَنْ تَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أُمِّهِ . وَلَا تَسْتَطِيعُ أَنْ
يَمْحَضَكَ الْبِقَعَةَ ، وَيُصَيِّقَ لَكَ الْمُوَدَّةَ مَعَ كِرَاهَتِهِ لِمَا تَحْمِلُ إِلَيْهِ مِنْ يُقَالُ
التَّأْدِيبِ عِنْدَ مَنْ لَمْ يَبْلُغْ^(٢) حَالَ الْعَارِفِ بِفَضْلِهِ^(٣) .

فَاسْتَخْرَجَ مَكْنُونَ مَحَبَّتِهِ بَيَّرَ اللِّسَانَ ، وَبَدَّلَ الْمَالَ . وَهَذَا مَقْدَارٌ مِنْ
جَازِهِ أَفْرَطَ^(٤) . وَالْإِفْرَاطُ سَرَفٌ . وَمَنْ قَصَرَ عَنْهُ فَرَطٌ ، وَالْمَفْرُطُ
مِضْيَاعٌ^(٥) .

وَلَا تَسْتَكْتَرُونَ هَذَا كَلَّةً فَإِنَّ بَعْضَ النُّعْمَةِ فِيهِ تَأْتِي عَلَى أَعْصَافِ
النُّعْمَةِ^(٦) ، وَالَّذِي تَحَاوَلَ مِنْ صِلَاحٍ^(٧) أَمْرٌ مِنْ تَوْمَلٍ فِيهِ أَنْ يَقُومَ
فِي أَهْلِكَ مَقَامَكَ ، وَإِصْلَاحٌ مَا خُلِّفَتْ كَفَيَاؤُكَ ، لِحَقِيقِ بِالْحَيْطَةِ عَلَيْهِ ،
وَيُعْطَاؤُهُ^(٨) الْمَجْهُودِ مِنْ نَفْسِكَ .

وَقَالَ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ
الْوَارِثِينَ^(٩) ﴾ . فَعَلِمَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، فَوَهَّبَ لَهُ غُلَامًا ، وَقَالَ اللَّهُ

(١) انظر للتدريس ما مضى في حواشئ ص ٣٥ ط: « في دراسة العلم » كأن الكلام متصل بما قبله.

وهو تحريف .

(٢) ب ، م : « التأديب عنه من يبلغ » ، صوابه في ط .

(٣) أي العارف بفضل التأديب . وفي جميع الأصول : « بفضل » .

(٤) جازه : تجاوزه . وفي جميع الأصول : « من حازه » بالخاء المهملة ، تحريف .

(٥) م : « مضاع » .

(٦) كذا في جميع الأصول .

(٧) ط : « إصلاح » .

(٨) م ، ب : « ويعطاه » .

(٩) الآية ٨٩ من سورة الأنبياء .

عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَلَيْسَ الذِّكْرُ كَالْأُنْثَى ﴾ (١) .

اعلم أَنَّهُ أَعْطَاكَ وَلِدًا عَبْرَةَ عَيْنِ الْعَدُوِّ (٢) ، وَقُرَّةَ عَيْنِ الصَّادِقِ
الْوَلِيِّ . فَاحْمَدِ اللَّهَ وَأَخْلِصْ فِي الدُّعَاءِ ، وَأَكْثِرْ مِنَ الْخَيْرِ لِإِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

(١) الآية ٣٦ من سورة آل عمران .

(٢) العبرة ، بالفتح : النعمة ، وفي أساس البلاغة : يقال أراه عبر عينيه ، وإنه لينظر
إلى عبر عينيه ، أى ما يكرهه وييكئ منه . ومنه قوله يصف رجلاً قبيحاً له امرأة حسناء :
إذا ابتز عن أوصاله الثوب عندها رأته عبر عينها وما عنه مخنس
وفي جميع الأصول : « غيرة عين العدو » ، تحريف .



٣

من كتابه في
التربيع والتدوير



١ - فصل

من كتاب التزييع والتدوير^(١)

فانظر في مسألة النفوس^(٢) مع تقارب منازلها ، ولم تجاذبت عند تقارب مراتبها ، ولم تختلف الكثير واتَّفَق القليل ؟ ولم كانت الكثرة علةً للتخاذل ، والقلة سبباً للتناصر ؟ وما فرق ما بين المجازاة^(٣) والتحاسد ، وبين المنافسة والتغالب ، فإنك متى عرفت ذلك استرحت متناً ورجوتنا أن نستريحَ منك .

وكيف يعرف السبب من يجهل المسبب ، وكيف يعرف الوصل من يجهل الفصل ، وكيف يعرف الحدود من لم يسمع الفصول . بل كيف يعرف الحجة من الشبهة ، والغدر^(٤) من الحيلة^(٥) ، والواجب

(١) هذه الرسالة التي وجهها الجاحظ إلى أحمد بن عبد الوهاب ، نشرها كاملة فان فلوتن في ليدن سنة ١٩٠٣ . وتابته محمد السامى فنشرها في مجموعة رسائل سنة ١٣٢٤ هـ = ١٩٠٧ م . ثم السندي في رسائل الجاحظ سنة ١٩٣٣ . ثم نشرها محققة شارل بلا في دمشق سنة ١٩٥٥ . وقد رمزت لنسخته بالرمز (ش) .

وقد أشار إليها الحصري في بجمع الجواهر ٢٦٠ . حيث أورد فقرات من رسالة لأبي بكر الخوارزمي ، وجهها إلى بديع الزمان الهمداني ، وقال الحصري في أعقابها : « وهي طويلة جداً مر له فيها إحصان كثير . وإنما احتذى في أثرها مثال رسالة أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ لأحمد بن عبد الوهاب ، المعروفة برسالة الطول والعرض ، وتعرف برسالة التوسيع (التزييع) والتدوير ، ورسالة المفاكحات . واتباع أيضاً طريق أبي الفضل بن العميد في رسالة لابن سمكة النحوي .

ورسالة الخوارزمي نشرت كاملة في مجموعة رسائله المطبوعة بالقاهرة سنة ١٣١٢ . وفي ديوانها : « وكتب بها إلى أبي الحسن البديهي الشاعر يعيث به » . والوجه ما ذكره الحصري . وقد عثرت على بعض ردود لأحمد بن عبد الوهاب فيما يتعلق بالرسالة ، وذلك في الهوامل والشوامل لأبي حيان التوحيدي ومسكويه ، في الصفحات ٣٢٠ ، ٣٢٢ ، ٣٢٧ .

(٢) مع ، ش : « لم تسالمت النفوس » .

(٣) ب : « المجازات » م ، ط : « المجازاة » ، صوابها في مع .

(٤) هذا ما في ب ومع . وفي سائر النسخ : « والغدر » .

(٥) ب فقط : « من الجيلة » .

من الممكن، والفعل من الموسم، والمحال من الصحيح، والأسرار من المجهول ومن كبار الدلائل الخفية^(١) وما يُعلم بما لا يُعلم، وما يُعلم باللفظ دون الإشارة بما لا يعلم إلا بالإشارة دون اللفظ، وما يعلم معتمداً ولا يعلم مكيفاً ولا يعلم معتقداً^(٢). وما المستغلق الذي يجوز أن يفارقه استغلافه، والمستبهم الذي لا يفارقه استبهامه، ومن هو طائر مع العوام حيث طارت، وساقط معها حيث سقطت، مع الزاوية والرغبة عنها^(٣). قد طلبها بفضل طلبه لنفسه^(٤)، وجرى معها بقدر مناسبتها القدره. فاعرف الجنس من الصنف، والقسم من النصف، وفرق ما بين الذم واللوم، وفصل ما بين الحمد والشكر، وحد الاختيار من الإمكان، والاضطرار من الإيجاب. وسنعرّفك من جملة ما ذكرنا باباً باباً أنت إليه أحوج، وهو علينا أزد.

٢- فصل

وما في الأرض^(٥) إقرار أثبت، ودليل أوضح، وشاهد أصدق، من شاهدي عليك على ما ادّعت لنفسك من الرّفعة مع ما ظهر من حسدك لأهل الصّنع^(٦). وهل يكون كذلك^(٧) إلا فاسد الحسن ظاهر العنود^(٨)، أو جاهل بالمحال.

- (١) مع، ش: « والأسرار المجهولة من ذوات الدلائل الخفية ».
 (٢) كذا في ب، م، ط. وفي مع: « وما يعلم معتقداً ولا يعلم مكيفاً، ما يعلم مكيفاً ولا يعلم معتقداً ». وفي ش: « وما يعلم معتقداً ولا يعلم يقيناً ولا يعلم معتقداً ».
 (٣) ب، م: « ورغبة عنها ».
 (٤) مع: « قد ظلّهم بفضل ظلمه لنفسه ».
 (٥) مع، ش: « وهل في الأرض ».
 (٦) مع، ش: « لأهل الصّنع ».
 (٧) مع، ش: « وهل تكون بعد ذلك ».
 (٨) م: « العنود » بالناء، تحريف، ط: « العناد » والعنود والناد بمعنى، وهما الميل عن الحق مع العلم به.

وبعد فأنت - أبقاك الله^(١) - في يدك قياس لا يكسر^(٢) ، وجواب لا ينقطع^(٣) ، ولك حد لا يُقَلَّ وغرب لا ينثني^(٤) ، وهو قياسك الذي إليه تنسب ، ومذهبك الذي إليه تذهب : أن تقول^(٥) : وما على أن يراى الناس عريضاً وأكون في حكمهم غليظاً وأنا عند الله^(٦) تعالى طويلٌ جميل ، وفي الحقيقة مقدودٌ رشيق . وقد علموا - حفظك الله - أن لك مع طول الباد^(٧) راكبياً ، طول الظهر جالساً^(٨) ، ولكن بينهم فيك إذا قمتَ اختلاف ، وعليك لهم إذا اضطجعت مسائل .

ومن غريب ما أعطيت ، ومن بديع ما أوتيت أننا لم نر مقدوداً واسع الجفرة غيرك^(٩) ، ولا رشيقاً مستفيض الخاصرة سواك . فأنت المديد وأنت البسيط ، وأنت الطويل وأنت المتقارب .

فيا شعراً جمع الأعرىض ، ويا شخصاً جمع الاستدارة والطول . بل ما يهكم^(١٠) من أقاويلهم ، ويتعاطمك من اختلافهم ، والراسخون في العلم ، والناطقون بالفهم ، يعلمون أن استفاضة عرضك قد أدخلت

(١) مع : « وبعد أبقاك الله فأنت » .

(٢) مع ، ش : « لا ينكسر » .

(٣) م ، ط ، ب : « وجوار لا يقطع » . صوابه في مع ، ش .

(٤) ب : « لا ينثني » م : « لا ينثني » تحريف . ط : « لا ينثني » ، وأثبت ما في مع ، ش .

(٥) هذا ما في مع ، ش . وفي سائر النسخ : « أو تقول » .

(٦) ب ، م ، ط : « وأنا عند الله » .

(٧) الباد : « باطن الفخذ » وما يلي السرج من فخذ الفارس . ب ، م ، ط : « البال »

صوابه في سائر النسخ . وفي م : « أن ذلك » ، تحريف .

(٨) كلمة « طول » الأخيرة من مع ، ش .

(٩) الجفرة ، بالضم : الجوف ، وجفرة كل شيء : وسطه ومعظمه . ط فقط :

« أوسع الجفرة » ، تحريف .

(١٠) ب ، م : « بل ما يههما » ، صوابه في سائر النسخ .

الضَّيْمَ عَلَى ارْتِفَاعِ سَمِّكَ^(١) ، وَأَنَّ مَا^(٢) ذَهَبَ مِنْكَ عَرْضاً قَدْ اسْتَفْرَقَ
مَا ذَهَبَ مِنْكَ طَوِلاً. وَلَشْنِ^(٣) اِخْتَلَفُوا فِي طَوْلِكَ لَقَدْ اتَّفَقُوا فِي عَرْضِكَ^(٤) .
وَإِنْ أَكَانُوا قَدْ سَلَّمُوا لَكَ بِالرَّغْمِ^(٥) شَطِراً ، فَقَدْ حَصَلَتْ^(٦) مَا سَلَّمُوا
وَأَنْتَ عَلَى دَعْوَاكَ فَمَا لَمْ يُسَلِّمُوا .

وَلَعَمْرِي إِنَّ الْعَيُونَ لَتُخْطِئُ ، وَإِنَّ الْحَوَاسَّ لَتَكْذِبُ ، وَمَا الْحَكْمُ
الْقَاطِعُ إِلَّا لِلذَّهْنِ ، وَمَا الْاِسْتِبَانَةُ الصَّحِيحَةُ إِلَّا لِلْعَقْلِ ؛ إِذْ كَانَ زِمَاماً
عَلَى الْأَعْضَاءِ^(٧) ، وَعِيَاراً عَلَى الْحَوَاسِّ .

وَمَا يُثْبِتُ أَيْضاً أَنَّ ظَاهِرَ عَرَضِكَ مَانِعٌ مِنْ إِدْرَاكِ حَقِيقَةِ طَوْلِكَ
قَوْلُ^(٨) أَبِي دُوَادٍ الْإِيَادِيُّ فِي إِبْلِهِ :

سَوَيْتُ فَاسْتَحْشَ أَكْرَعُهَا لَا أَلِ سَيْتِي نَيٌّْ وَلَا السَّنَامُ سَنَامُ^(٩)

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيكَ مِنَ الْعَجَبِ إِلَّا أَنَّكَ أَوَّلُ مَنْ عَوَّدهَ اللهُ تَعَالَى
بِالصَّبْرِ^(١٠) عَلَى خَطَاةِ الْحَسَنِ^(١١) وَبِالشُّكْرِ عَلَى صَوَابِ الذَّهْنِ ، لَقَدْ

(١) الضَّيْمُ : الظِّلُّ وَانْتِفَاسُ الْحَقِّ . مَا عَدَا مِج ، ش : « قَدْ أَدْخَلْتَ الْمِجَّ فِي ارْتِفَاعِ
سَمِّكَ » ، تَحْرِيفٌ .

(٢) بَ فِقْطُ : « وَإِنَّمَا » ، تَحْرِيفٌ .

(٣) مَا عَدَا مِج ، ش : « وَإِنْ » .

(٤) مَا عَدَا مِج ، ش : « لَقَدْ اِخْتَلَفُوا » تَحْرِيفٌ . ب : « عَلَى رِضْكَ » م ، ط :

« عَلَى عَرْضِكَ » ، وَأَثْبِتَ مَا فِي مِج ، ش .

(٥) مَا عَدَا مِج ، ش : « بِالرَّغْمِ » .

(٦) بَ فِقْطُ : « فَقَدْ حَصَلَتْ » تَحْرِيفٌ .

(٧) بَ فِقْطُ : « إِذْ كَانَ زِمَاماً » ، صَوَابُهُ فِي سَائِرِ النُّسخِ .

(٨) ب ، م : « وَقَوْلُ » ، تَحْرِيفٌ .

(٩) دِيوَانُ أَبِي دُوَادٍ ٣٣٩ وَالْأَصْمِعِيَّاتُ ١٨٨ وَاللِّسَانُ (حَشَشٌ) . اسْتَفْتَى :

وَالنَّيُّ ، بِالْفَتْحِ : الشَّمْعُ . ط : « لَا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ » ، تَحْرِيفٌ .

(١٠) ب ، م ، ط : « بِالصَّبْرِ » ، صَوَابُهُ فِي مِج ، ش .

(١١) ب ، م : « عَلَى خَطَاةِ الْحَسَنِ » ، وَالْخَطَاءُ وَالْخَطَأُ يَمْنَى ، وَكثِيرٌ مَا يَسْتَعْمَلُ الْجَاحِظُ

« الْخَطَاءُ » بِالْمَدِّ . انظُرِ الْخِيَوَانَ ١ : ٢١٣ / ٣ : ٢٥٨ ، ٥٠٠ ، وَالْبَيَانَ ٤ : ١٦ ، ٦٧

وَرِسَالَتِ الْجَاحِظِ ١ : ٣٥٣ .

كنت في طُولك غايةً للعالمين^(١) ، وفي عرضك مناراً للْبُضْلَيْن .

وقد تظلمَ^(٢) المربوع مثلي من الطويل مثل عُمر ، ومن القصير مثل عمرو^(٣) إذ زعم^(٤) أنه أفرط في الرِّشَاقَة ونُسب إلى القضاة ، لأنَّ إفراط عرضه عُمر^(٥) الاعتدال [من طوله ، وكلاهما يحتاج إلى الاعتذار ، ويفتقر إلى الاعتدال^(٦)] .

والمربوع بحمد الله تعالى قد اعتدلت أجزاؤه في الحقيقة ، كما اعتدلت في المنظر^(٧) ، فقد استغنى بعزِّ الحقيقة^(٨) عن الاعتذار ، وبحكم الظاهر عن الاعتلال^(٩) .

وقد سبغنا من يذمُّ الطَّوَال كما سمعنا من يُزري على القصار ، ولم نَسْمَعْ أحداً^(١٠) ذمَّ مربوعاً ولا أزرى عليه ، ولا وقف عنده ولا شكَّ فيه . ومن يذمه إلَّا من ذمَّ الاعتدال ، ومن يُزري عليه إلَّا من أزرى على الاقتصاد ، ومن ينصب للصواب الظاهر^(١١) إلَّا المعاند ، ومن يُمارى في العيان إلَّا الجاهل ، بل من يُزري على أحد بتفاهم التركيب^(١٢) ،

(١) مع ، ش : « آية للسابليين » والمراد بالسابل هنا : السالك في الطريق .

(٢) ما عدا مع ، ش : « وقد تكلم » ، تحريف .

(٣) مع ، ش : « من الطويل مثل محمد ومن القصير مثل أحمد » .

(٤) مع ، ش : « إذ زعم أحمد » .

(٥) ب ، م : « عمر » بالعين المهملة ، تحريف .

(٦) ما بين الحاصرتين ساقط من ب ، لكن في ط : « ويفتقر إلى الاعتدال » .

(٧) ب فقط : « في المنظرة » .

(٨) ب ، م : « بعد الحقيقة » ، ط : « بعد الحقيقة » ، وأثبت ما في مع ، ش .

(٩) الاعتلال : بيان العلة . ما عدا مع ، ش : « الاعتدال » .

(١٠) ب ، ط : « ولم يسمع أحد » م : « ولم يسمع أحداً » ، والوجه ما أثبت من مع ، ش .

(١١) الكلام بعده إلى « أزرى على الاقتصاد ومن » ، ساقط من م .

(١٢) نصب له : عاداه وتجرده له . ط : « ومن يعيب الصواب الظاهر » ، صوابه في سائر

النسخ .

(١٣) تفاهم التركيب : أن يجري على غير استواء ، وأصله من تفاهم الأمور وتراكبها .

وبسوء التنضيد^(١) مع قول الله عز وجل : ﴿ مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاطُوتٍ ﴾^(٢) .

وبعد فأى قد أردأ^(٣) ، وأى نظام أفسد من عرض مجاوز للقدْر^(٤) ، أو طول مجاوز للقصْد . ومتى يَصْرِبِ العَرْضُ بسهمه على قدر حقه ، ويأخذ الطول من نصيبه على مثل وزنه ، خرج الجسم من التقدير ، وجاوز التعديل . فإذا خرج من التقدير تفسد ، وإذا تفسد وجاوز التعديل تباين .

ولو جاز هذا الوصف ، وحسن هذا التعت^(٥) ، كان لإبراهيم ابن السدي^(٦) [من الفضيلة^(٧)] ما ليس لأحمد بن عبد الوهاب .

وهذا كله بعد أن يصدق^(٨) على ما ادّعت لطولك في الحقيقة ، واحتججت [به^(٩)] لعرضك في الحكومة . كما أنك بإعمالك لما ينفيهِ

(١) ب فقط : « التنضيد » ، تحريف .

(٢) الآية ٣ من سورة الملك أو تبارك .

(٣) كلمة « فأى » ساقطة من ب .

(٤) ط فقط : « لقد » .

(٥) ب ، م : « حسن هذا التعت ، بلا واو قبله . ط : « من حسن التعت هذا » . تحريف

(٦) مع ، ش : « كان لقاسم التمار » . وإبراهيم بن السدي بن شاهك ، يروي عنه

الجاحظ كثيراً . وأبوه السدي بن شاهك كان يلى الجسر بن بنداوا للرشيد : انظر الجهشياري

٢٣٦ - ٢٣٧ . وقد نعت الجاحظ إبراهيم هذا بأنه « مولى أمير المؤمنين » . الرسائل ٤٧ ماسى ،

وكذلك قاسم التمار ، كان من الرجال الذين يروي عنهم الجاحظ كثيراً . انظر فهارس

الحيوان والبيان .

(٧) التكلة من مع ، ش .

(٨) ط فقط : « صدقوك » .

(٩) التكلة من مع ، ش .

العيان^(١) ، واستشهادك^(٢) لما تنكره الأذهان^(٣) ، معترض^(٤) للصدق من التكرم ، ومتحككك بألجم من المتغافل . وأى صامت لا ينطقه هذا المذهب ، وأى ناطق لا يغيره هذا القول^(٥) .

وإذا كان هذا ناقصاً لعزم المتسلم^(٦) فما طنك بعبادة المتكلف^(٧) . فأتشكك الله أن تغرى بك السفهاء ، وتنقض عزائم الحكماء^(٨) . وما أدرى - حفظك الله - بأى الأمرين أنت أعظم إنمأ ، وفي أيهما أنت أفحش ظلماً : أبتعرضك للعوام ، أم بإفسادك حكم الخواص^(٩) . وبعد فما يحوجك إلى هذا ، وما يدعوك إليه وأشباهك من القصار كثير ، ومن ينصرك منهم غير قليل^(١٠) .

٣ - فصل

وقلت : ولولا فضيلة العرض على الطول لما وصف الله تعالى وعز ، الجنة بالعرض دون الطول ، حيث يقول : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾^(١١) . فهذا برهانك الواضح^(١٢) .

- (١) ب : « يقته العيان » م ، ط : « يقته العيان » ، صوابه من مع ، ش .
 (٢) ب ، م : « واستشهادك » ، صوابه في ط ، مع ، ش .
 (٣) ما عدا مع ، ش : « لما تنكره الأذهان » ، تحريف .
 (٤) مع ، ش : « معترض » ، والوجه ما في سائر النسخ ، والمراد لا يمكن تصديقه .
 (٥) ما عدا مع ، ش : « لا يغيره هذا القول » .
 (٦) ب ، م : « قضاء لعزم » ط . : « قضاء العزم » ، والوجه ما أثبت من مع ، ش .
 (٧) مع ، ش : « بعبادة المتكلف » .
 (٨) ش : « العلماء » .
 (٩) ما عدا مع ، ش : « بتعرضك للعوام أو بإفسادك حكم الخواص » .
 (١٠) ما عدا مع ، ش : « غير دذليل » .
 (١١) من الآية ٣١ من سورة الحديد ، وأولها : « سابقوا إلى مغفرة من ربكم » . وفي ب فقط : « عرضها السموات والأرض » وهي من الآية ١٣٣ من آل عمران ، وأولها : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم » .
 (١٢) مع ، ش : « فهذه برهانك الواضحة ، ودلائك الظاهرة » .

ولو لم يكن فيك من الرضا والتسليم ، ومن القناعة والإخلاص
إِلَّا: أَنْكَ تَرَى^(١) ما عند الله خيراً لك مما عند الناس ، وَأَنَّ الطُّولَ
الْحَقُّ أَحَبُّ إِلَيْكَ مِنَ الطُّولِ الظَّاهِرِ، لَكَانَ^(٢) فِي ذَلِكَ مَا يَفْضِي لَكَ
بِالْإِنْصَافِ ، وَيَحْكُمُ لَكَ بِالتَّوْفِيقِ .

وَأَنَا - أَبِيقَاكَ اللَّهُ - أَعَشَقْتُ إِنْصَافَكَ كَمَا تُعَشِّقُ الْمَرْأَةَ الْحَسَنَاءَ^(٣) ،
وَأَتَعَلَّمُ خُضُوعَكَ لِلْحَقِّ كَمَا أَتَعَلَّمُ التَّفَقُّهَ فِي الدِّينِ^(٤) . وَلِرُبَّمَا ظَنَنْتُ
أَنَّ جَوْرَكَ إِنْصَافُ قَوْمٍ آخَرِينَ ، وَأَنَّ تَعَمُّدَكَ سَمَاحَ رِجَالٍ مُنْصَفِينَ^(٥) .

وَمَا أَظُنُّكَ صَرْتَ إِلَى مَعَارِضَةِ الْحِجَّةِ بِالشَّبْهِةِ ، وَمَقَابِلَةِ الْإِخْتِيَارِ
بِالْإِضْطِرَارِ ، وَالْيَقِينِ بِالشُّكِّ ، وَالْيَقِظَةِ بِالْحُلْمِ إِلَّا لِلَّذِي^(٦) خُصِّصَتْ
بِهِ مِنْ إِثَارِ الْحَقِّ ، وَأَهْمَتَهُ مِنْ فَضِيلَةِ الْإِنْصَافِ ، حَتَّى صَرْتَ أَحْوَجَ
مَا تَكُونُ إِلَى الْإِنْكَارِ أَدْعَى مَا تَكُونُ بِالْإِقْرَارِ ، وَأَشَدَّ مَا تَكُونُ إِلَى الْحِيلَةِ
فَقَرَأَ أَشَدَّ مَا تَكُونُ لِلْحِجَّةِ طَلِباً . غَيْرَ أَنَّ ذَلِكَ بِظَرْفٍ سَاكِنٍ ، وَصَوْتٍ
خَاضِعٍ ، وَقَلْبٍ جَامِعٍ ، وَجَأَشٍ رَابِطٍ^(٧) ، وَنِيَّةٍ جَسُورٍ ، وَإِرَادَةٍ تَامَّةٍ ،
مَعَ غَفْلَةٍ كَرِيمٍ ، وَفِطْنَةٍ عَلِيمٍ . إِنْ انْقَطَعَ خُصْمُكَ تَغَافَلْتَ ، وَإِنْ خَرِقَ^(٨)

(١) ب ، م : « أَنْكَ تَرَى » بِإِسْقَاطِ « إِلَّا » .

(٢) ب ، م ، ط : « لَكِنْ » ، تَحْرِيفٌ .

(٣) مِج ، ش : « أَمْتَشِقُ إِنْصَافَكَ كَمَا أَمْتَشِقُ الْمَرْأَةَ الْحَسَنَاءَ » .

(٤) ب فَقَطْ : « الْفَقْهُ فِي الدِّينِ » .

(٥) ب ، م : « وَأَنَّ يَمْتَدُّكَ سَمَاحَ رِجَالٍ مُنْصَفِينَ » ط : « وَأَنَّكَ يَمْتَدُّكَ سَمَاحَ رِجَالٍ

مُنْصَفِينَ » ، وَالْوَجْهَ مَا أَثْبَتَ مِنْ مِج ، ش .

(٦) ب ، م : « إِلَّا الَّذِي » .

(٧) ب فَقَطْ : « رَابِطٌ » . وَالْجَأَشُ : النَّفْسُ أَوْ الْقَلْبُ ، وَالرَّابِطُ : الثَّابِتُ الَّذِي لَا يَرْتَاغُ .

(٨) خَرِقَ يَخْرِقُ خَرَقًا : حَقَّقَ وَلَمْ يَرَفِقْ . مِج ، ش : « وَإِنْ خَرِفَ » تَحْرِيفٌ .

تَرَفَّقَتْ^(١) ، غير منحوبٍ ولا متشعب^(٢) ، ولا مدخولٍ ولا مشتركٍ ،
ولا ناقص النفس ، ولا واهن العزم ، ولا حسيدي ولا منافس ، ولا مُغالبٍ
ولا مُعاقِب^(٣) . تَقَلُّ الحزَّ^(٤) وتُصِيبُ المُنْصِلَ ، وتَقْرُبُ البعيدَ وتُظْهِرُ الخفيَّ ،
وتُمَيِّزُ الملتبس^(٥) وتُلخِّصُ المشكلَ ، وتعطي المعنى حقه من اللفظ كما
تُعطي اللفظَ حظه من المعنى^(٦) . وتُجِيبُ المعنى إذا كان حياً بلوح ،
وظاهراً يصيح^(٧) ، وتُبغضه مستهلكاً بالتعقيد ، ومستوراً بالتغريب^(٨) .

رتزعم أن شر الألفاظ ما غرَّق^(٩) المعاني وأخفاها ، وسترها^(١٠)
وعماها ، وإن راقمت سَمع العُمر ، واستألت قلبَ الرِيض^(١١) .

أعجب الألفاظ عندك مارقٌ وعذب ، وخفَّ وسهَّل ، وكان موقوفاً
على معناه ، ومقصوراً عليه دون ما سواه . لا فاضلٌ ولا مقصّر ، ولا مشترك
ولا مستغلق ، قد جمع خصال البلاغة^(١٢) ، واستوفى خلال المعرفة^(١٣) .

(١) ما عدا مع ، ش : « توفقت » ، تحريف .

(٢) مع ، ش : « ولا متشعب » بالفين المجمة .

(٣) ب ، م : « ولا متغالب ولا معاقب » ، ط : « ولا متغالب ولا متعاقب » ، وصوابهما
في مع ، ش .

(٤) الحز : « أراد به موضع الحز ، أي القطع . الفل : الكسر والضرب . ط : « يقل
الحد » ، مع ، ش : « تقل الحز » ، والوجه ما أثبت . وانظر البيان ١ : ١٤٧ . وقد ورد
هذا الفعل « تقل » وما ينده من الأفعال في ب ، م ، ط بياض الغائب : والوجه أن تكون كلها
بناء الخطاب كما أثبت من مع ، ش .

(٥) ب ، فقط : « الملتبس » .

(٦) مع ، ش : « حقه من المعنى » .

(٧) م : « يصيح » ، صوابه في سائر النسخ .

(٨) ب : « بالتغريب » ، ط : « بالتقريب » ، صوابه من سائر النسخ .

(٩) ط فقط : « ما أغرق » .

(١٠) ط فقط : « وأسرها » .

(١١) الرِيض : الذي بدئ في رياضته . وانظر البيان ١ : ٢٠٣ . ط : « المرِيض » تحريف .

(١٢) ما عدا مع ، ش : « وقد جمع خصائص البلاغة » ، والوجه ما أثبت منهما .

(١٣) ب فقط : « خلاك المعرفة » .

فإذا كان الكلام على هذه الصفة ، وأُلف على هذه الشريطة ، لم يكن اللفظ أسرع إلى السمع من المعنى إلى القلب ، وصار السامع كالمقاتل ، والمتعلم كالمعلم ، وخفت المؤنة واستغنى عن الفكرة ، وماتت الشبهة وظهرت الحجّة ، واستبدلوا بالخلاف فاقاً ، وبالمجازية موادعة ، وتبينوا بالعلم^(١) ، وتقننوا ببرّد اليقين ، واطمأنوا بثلج الصدور ، وبأن المنصف من المعانيد ، وتميّز الناقص من الوافر ، ودُلُّ الخليل^(٢) وعزّ المحصل ، وبَدَّتْ عورةُ المُبطل ، وظهرت براءة المُحقِّق .

وقلت : والناس وإن قالوا في الحسن : كأنه طاقةُ ربحان ، أو خوط آس^(٣) ؛ وكأنه قضيب خيزران ، وكأنه غصن بان ، وكأنه رمح رديني ، وكأنه صفيحة يمان^(٤) ، وكأنه سيف هندواني ، وكأنه جان ، وكأنه جدل عنان^(٥) ؛ فقد قالوا : كأنه المُشترى ، وكان وجهه ديناراً هرقل . وما هو إلا البحر ، وما هو إلا الغيث . وكأنه الشمس ، وكأنها دارة القمر^(٦) ، وكأنها الزهرة ، وكأنها ذرة ، وكأنها غمامة ، وكأنها مهابة^(٧) .

(١) ما عدا مع ، ش : « ورهبوا بالعلم » .

(٢) الخطل : العجل الأحمق . ب ، م : « ودل الخطل » بالبدال المهملة ، صوابه في سائر

النسخ .

(٣) الخوط ، بالفم : الفصن الناعم ، أو الفصن لسنة . والآس : ضرب من الرياحين ، وغضرتة دائمة أبداً ويسمو حتى يكون شجراً عظيماً ، الواحدة آسة .. مع ، ش ، : « وكأنه خوط بان » .

(٤) الصفيحة : وجه كل شئ عريض ، كوجه السيف أو اللوح أو الحجر . واليمان : السيف المنسوب إلى اليمن . ب ، م ، ط : « صفيحة يمان » تحريف . وفي مع ، ش : « صفيحة يمانية » .

(٥) يعني ما جدل من الأجنة ، صماء بالمصدر . وانظر الحيوان ٦ : ٢٦٢ ورسائل الجاحظ ٢ : ١٢١ . ما عدا مع ، ش : « جدل عيان » تحريف .

(٦) ب ، م : « وكأنه دارة القمر » .

(٧) ط فقط : « وكأنه الزهرة » ، وكأنه غمامة ، وكأنه مهابة » .

وقد نراهم^(١) وصفوا المستدير والعريض بأكثر مما وصفوا القضيبيّ الطويل^(٢).

وقلت : ووجدنا الأفلاك وما فيها ، والأرض وما عليها ، على التدوير دون التطويل ، كذلك^(٣) الورق والحَبُّ ، والنَّمر والشجر .

وقلت : والرمح وإن طال^(٤) فإن التدوير عليه أغلب^(٥) ؛ لأنَّ التدوير قائم فيه مُوصلاً ومُفصلاً^(٦) ، والطول لا يوجد فيه إلاّ مُوصلاً^(٧) . وكذلك الإنسان وجميع الحيوان .

وقلت : ولا يوجد التربيع إلاّ في المصنوع دون المخلوق ، وفيما أكره على تركيبه دون ما خلُقَ وسومَ طبيعته^(٨) .

وعلى أنّ كلَّ مُربعٍ^(٩) في جوفه مدورٌ ، فقد بان المدورُ بفضلُه^(١٠) ، وشارك الطولُ في حصّته .

ومن العجيب أنك تزعم أنك طويلٌ في الحقيقة ثم تحتجُّ للعرض والاستدارة ، وقد أضربتَ عمّا عند الله صفحاً^(١١) ، ولهجتَ بما عند الناس .

(١) ب فقط : « وقد زاه » .

(٢) القضاة : قلة الفهم ودية العظم . م ، ط : « القضيبي » ، صوابه في سائر النسخ .

(٣) ط فقط : « وكذلك » .

(٤) ما عدا مع ، ش : « والرمح وإن طالت » ، تحريف .

(٥) ما عدا مع ، ش : « عليها أغلب » .

(٦) ما عدا مع ، ش : « فيها » في هذا الموضع وثاليه ، تحريف . وفي مع ، ش :

« موصولا ومفصلا » .

(٧) مع ، ش : « إلا موصولا » .

(٨) سوم طبيعته ، بالفتح ، أى وفق طبيعته وهواها . ط فقط : « رسوم طبيعته » ، تحريف . وقد ضبطت « سوم » في ش بضم السين وتشديد الواو المكسورة سهواً .

(٩) ما عدا مع ، ش : « كل مرتفع » ، تحريف .

(١٠) م فقط : « بفضل » بالصاد المهملة .

(١١) يقال ضرب عنه صفحاً ، إذا أعرض ، كأنه ولاه صفحة وجهه . ب : « وقد

اضطربت » ، م ، ط : « وقد أضربت » ، صوابه في مع ، ش .

فَأَمَّا حَوْرَ الْعَيْنِ فَقَدْ انْفَرَدَتْ بِحَسَنِهِ ، وَذَهَبَتْ بِبِهِجَتِهِ وَوَلِجِهِ ،
إِلَّا مَا أَبَانَكَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مِنَ الشُّكْلَةِ (١) فَإِنَّهَا لَا تَكُونُ فِي اللَّقَامِ ،
وَلَا تُفَارِقُ الْكِرَامَ (٢) .

وَأَمَّا سُودَ النَّاطِرِ وَحُسْنَ الْمَحَاجِرِ ، وَهَدَبُ الْأَشْفَارِ (٣) ، وَرَقَّةَ
حَوَائِشِ الْأَجْفَانِ ، فَعَلَى أَسْصِلِ عُنُصْرِكَ وَمَجَارِي أَعْرَاقِكَ (٤) .

وَأَمَّا إِدْرَاكَكَ الشَّخْصَ الْبَعِيدَ ، وَقِرَاءَتَكَ الْكِتَابَ الدَّقِيقَ وَنَقْشَ
الْخَاتَمِ قَبْلَ الطَّائِعِ ، وَفَهْمَ الْمُشْكَلِ قَبْلَ التَّامَّلِ ، مَعَ وَهْنِ الْكَبِيرَةِ
وَتَقَادُمِ الْمِيلَادِ ، وَمَعَ تَخَوُّنِ الْأَيَّامِ وَتَنْقُصِ الْأَزْمَانِ ، فَمَنْ تَوَتَّيْنَا الْهِنْدَ ،
وَلْتَرِكَ الْجَمَاعَ (٥) ، وَمَنْ جَمِعْتِ الشَّدِيدَةَ وَطَوَّلَ اسْتِقْبَالَ الْخُضْرَةَ (٦) ،
فَأَنْتِ يَا عَمِّ حِينَ تُصَلِّحُ مَا أَفْسَدَهُ الدَّهْرُ ، وَتَسْتَرْجِعُ مَا أَخَذْتَهُ الْأَيَّامُ ،
لِكَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

عَجُوزٌ تُرْجَى أَنْ تَكُونَ فَتِيَّةً (٧)

وَقَدْ لَجِبَ الْجَنِيَابِ وَاحْتَدَوْدَبَ الظُّهْرِ (٨)

تَدَسُّ إِلَى الْعَطَّارِ سَبْعَةَ أَهْلِهَا وَلَنْ يُصَلِّحَ الْعَطَّارُ مَا أَفْسَدَ الدَّهْرُ (٩)

- (١) الشكلة ، بالضم : كهية الحمرة تكون في بياض العين . ب ، م : « المشكلة » ط :
« المشاكلة » ، صوابهما في مع ، ش .
- (٢) أنشد الجاحظ لهذا شاهداً في التريب والتنوير ٢٢ والحيوان ٣ : ٢٣٠ / ٥ : ٣٣٠ :
ولا عيب فيها غير شكلة عينها كذلك عنق الطير شكل عيونها
- (٣) الهدب في أشفار العين : طول الشعر النابت على حروفها .
- (٤) ما عدا مع ، ش : « وجائر أعراقتك » .
- (٥) ما عدا مع ، ش : « فن توتياء الهند وترك الجماع » .
- (٦) م ، ط : « الحضرة » بالحاء المهملة ، تحريف .
- (٧) نسبهما المبرد في الكامل ١٧٦ إلى شيخ من الأعراب . وذكر أبو الحسن الأفشش في
حواشيه على الكامل بعدها بيتين من القصيدة نسباً في ديوان جبران العمود « إلى الرجال بن عزرة
ابن المختار . وفي عيون الأخبار ٤ : ٤٤ : « كانت لرجل من الأعراب امرأة عجوزة ،
وكانت تفتري العطر بالخبز ، فقال » . وأنشد البيهقي . وانظر رسائل الجاحظ ٢ : ١٢٢ .
والتمثيل والمحاورة ٢١٩ . ط : « وقد يبس الجنيان » .
- (٨) الكلام بعده إلى « مريضاً موتساً » ساقط من ب .

وكيف أطمع^(١) في نزوعك^(٢) عن اللجاج وقد منعتني قبله^(٣) .
وكيف أرجو إقرارك جهراً وقد أبيته سرّاً^(٤) ، وكيف تجود^(٥) به
صحيحاً مطمئناً وقد بخلت به مريضاً مؤيساً .

وكيف يرجو بخيرك من رآك تطاول أبا جعفرٍ وتحاسينه^(٦) ، وتنافره
وتراهنه ، ثم لا تفعل ذلك^(٧) إلا في المحافل العظام ، وبحضرة كبار
الحكام ، ثم تستغرب ضحكاً من طمعه فيك^(٨) ، وتعجب الناس من
مجاراته لك^(٩) .

وأشهد لك بعد هذا أنك ستحابين^(١٠) عمراً الجاحظ وتعاقله^(١١) ،
ثم تطارقه وتطاوله^(١٢) ، وتتغنى^(١٣) مع مخارق ، وتنكر فضل
زرزب^(١٤) ، وتستجهل النظام ، وتستغبي^(١٥) قيس بن زهير ، وتستخف

(١) م ، ط : « يطع » .

(٢) م : « نزوعك » ، صوابه في سائر النسخ .

(٣) كذا في مع ، ش . وفي م : « وقد سمه قبل اللجاج » وفي ط : « وقد سقيته قبل

اللجاج » .

(٤) م ، ب : « وقد أبيته سرّاً » ، صوابه في مع ، ش .

(٥) م فقط : « يجود » تحريف .

(٦) م ، ب : « وتحاينه » ، وفي سائر النسخ : « تحاشنه » ، والوجه ما أثبت ، وهو مفاعلة
من الحسن .

(٧) كلمة « ثم » من مع ، ش فقط . ب : « لا تمقل » م : « لا يعقل » ، صوابهما
في سائر النسخ .

(٨) ب فقط : « من طمعه فيك » .

(٩) ما عدا مع ، ش : « من حاولته لك » ، تحريف .

(١٠) م ، ب : « ستحاشن » ، وفي سائر النسخ : « ستحاشن » ، والوجه ما أثبت .

(١١) أراد تباريه في العقل . ما عدا مع ، ش : « وتعاقله » .

(١٢) مفاعلة من الطرف والطول . ما عدا مع ، ش : « ثم تطارقه » وفي م : « ثم تطارقه
وتطاوله » .

(١٣) مع ، ش : « وتغنى » .

(١٤) ذكره الجاحظ في رسالة الجد والهزل ، مقروناً بالمهارة في الشطرنج . رسائل الجاحظ

١ : ٢٦٦ . وفي مع ، ش : « فضل زرزور »

(١٥) م ، ب : « وتستغبي » ، صوابه في سائر النسخ .

الأحنف بن قيس^(١) وتبارز علي بن أبي طالب ، ثم تخرج من حدّ الغلبة إلى حدّ المراء^(٢) ، ومن حدّ الأحياء^(٣) إلى حدود الموتى .

هذا وليس لك مساعد ، ولا معك شاهد واحد ، ولا رأيت أحداً يقف في الحكم عليك^(٤) ، أو ينتظر تحقيق دعواك ؛ ولا رأيت منكراً يُخليك من التائب ، ولا مؤنباً يُخليك من الوعيد ، ولا مؤعداً يُخليك من الإيقاع ، ولا مؤقماً يترى لك ، ولا شافعاً يشفع فيك .

يا عم ، لم تحمّلنا على الصدق ؟ ولم تجرّعنا مرارة الحق ؟ ولم تعرضنا لأداء الواجب ؟ ولم تستكثر من الشهود عليك ؟ ولم تحمل الإخوان على خلاف محبتهم فيك ؟

اجعل بدل ما تجني على نفسك أن تجني على عدوك ، وبدل ما يضطر الناس أن يصدقوا فيك أن تضطرهم إلى أن يمسكوا عنك .

ولا يد - يرحمك الله - لمن فاته الطول من أن يلقي بيده^(٥) ، إنما يقول^(٦) خلاف ما يجده في نفسه . فوالله إنك لجيد الهامة^(٧) ، وفي ذلك خلف لحسن القامة^(٨) .

وإنك لحسن الخط ، وفي ذلك عوض^(٩) من حسن اللفظ . وإنك

(١) وكان الأحنف معروفاً بالعلم .

(٢) المراء والمارة : المخالفة والجدال .

(٣) ب ، م : « النك » ، ط : « الفك » ، وأثبت ما في مع ، ش .

(٤) ما عدا مع ، ش : « اتفق في الحكم عليك » .

(٥) مع ، ش : « من أن يلقى بيده إلى التهلكة » .

(٦) مع ، ش : « أو أن يقول » .

(٧) ب فقط : « لجيد الهامة » ، تحريف .

(٨) مع ، ش : « خلف من حسن القامة » .

(٩) ب ، م : « وإنك لعوض » ، تحريف . ط : « وذلك عوض » . وأثبت ما في مع ، وش .

لَتَجِدُ مَقَالاً^(١) ، وَإِنَّكَ لَتُعَدُّ خِصَالًا . فَقُلْ مَعْرُوفًا فَإِنَّا مِنْ أَعْوَانِكَ ،
وَأَقْتَصِدْ فَإِنَّا مِنْ أَنْصَارِكَ . وَهَاتِ فَإِنَّكَ لَوْ أَسْرَفْتَ لَقَلْنَا قَدْ اِقْتَصَدْتَ ،
وَلَوْ جُرْتَ لَقَلْنَا قَدْ اهْتَدَيْتَ^(٢) ، وَلَكِنَّكَ تَجِيءُ بِشَيْءٍ ﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ
يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا^(٣) 》 .

لو غششناك لساعدناك ، ولو نافقناك لأغرئناك .

٣ - فصل

وقد كنتُ - أطال الله بقاءك - في الطول زاهداً ، وعن القصر
راغباً^(٤) ، وكنتُ أمدح المربوعَ وأحمد الاعتدال . ولا والله لن يقوم خبيرُ
الاعتدالِ بشرُّ قِصَرِ العُمرِ ، ولا جمالُ المربوعِ بما يَصُوتُ من منفعةِ العلمِ .
فأمَّا اليومَ فبِالْيَتَى^(٥) كنتُ أقصرَ منك وأصوى ، وأقلَ منك
وأقماً^(٦) .

وليس دُعائِي لك بطول البقاء طلباً للزيادة^(٧) ، لكن^(٨) على
جهة التعبُدِ والاستكانة ، فإذا سمعتني أقول أطال الله بقاءك فهذا المعنى
أريد ، وإذا رأيتني أقول لا أخلى الله مكانك فإلى هذا المعنى أذهب .

(١) ما عدا معج ، ش : « وإنا لتجد مقالا » .

(٢) جار عن الطريق يجوز ، إذا ماك وضل . ب ، م : « حرت » بالخاء المهملة ، صوابه
في سائر النسخ .

(٣) الآية ٩٢ من سورة مريم .

(٤) ب ، م : « وعن القصور راغباً » .

(٥) ب ، م : « فباليته » ط : « بما فليته » ، صوابهما في معج ، ش .

(٦) أفا : تسهيل أفا من القفاة ، وهي صغر الجسم . وكتبت في م ، ط : « أقي » ،

وهو مذهب جائر في الرسم . وفي معج ، ش : « وأوهى » .

(٧) م فقط : « للزيادة » . وكلمة « طلباً » ساقطة مما عدا معج ، ش .

(٨) ب : « لا لكن » م ، ط : « لكن » ، وأثبت ما في معج ، ش .

وقد زعموا، جعلت فداءك، أن كل ما طال عمره من الحيوان زائد في شدة الأركان، وفي طول العمر وصحة الأبدان، كالورشان والضباب وحمر الوحش، وكلحم النسر لمن أكله، ولحم الحية لمن استحلّه فإذا كان هذا حقاً^(١) وكان نافعاً، وكنت له مستعملاً وفيه متقدماً، وتراه رأياً، أخذنا منه بنصيب، وتعلقنا منه بسبب.

وفيك أمران غريبان، وشاهدان بديعان: جواز الكون والفساد عليك، وتعاور النقصان والزيادة إياك. وجوهرك فلكي وتركيبك أرضي. فمناك طول البقاء، ومناك دليل الفناء. وأنت علة للمتضاد^(٢) وسبب للمتناقض. وما ظنك بخلق لا تضره الإحالة، ولا يُفسده التناقض.

٤ - فصل

جعلت فداك، قد شاهدت الإنس منذ خلقوا، ورأيت الجن قبل أن يُحجّبوا، ووجدت الأشياء بنفسك خالصة وممزوجة، وأغفلاً وموسومة^(٣)، وسالمة ومدخولة، فما يخفى^(٤) عليك الحجة من الشبهة، ولا السقم من الصحة، ولا الممكن من المتنع، ولا المستغلق من المبهّم، ولا النادر من البديع، ولا شبه الدليل من الدليل.

وعرفت علامة الثقة من علامة الريبة، حتى صارت الأقسام عندك محصورة، والحدود محفوظة، والطبقات معلومة، والدنيا بحذافيرها

(١) مع، ش: « هذا الأمر حقاً ».

(٢) م فقط: « للتضارب ».

(٣) ما عدا مع، ش: « وأغفلاً موسومة »، تحريف. فإن الأغفال مالايسة عليها،

والموسومة: ذوات النبات، وهي العلامات.

(٤) ط فقط: « فافتح » بالناء.

مصورة . ووجدت السبب كما وجدت المسبب ، وعرفت الاعتلال كما عرفت الاحتجاج ، وشاهدت العلل وهي تولد ، والأسباب وهي تُصنع . فَعَرَفْتَ المصنوعَ من المخلوق ، والحقيقةَ من التَّمويه .

٥ - فصل

إِنَّكَ^(١) - جُعِلْتُ فِدَاكَ - كما أَنَّكَ لم تكن فكنت ، فكذا لا تكون^(٢) بعد أن كنت . وكما زدت في الدهر الطويل فكذا تنقص في الدهر الطويل . وكلُّ طويل فهو قصير ، وكل متناهٍ فهو قليل . فإِيَّاكَ أَنْ تَظَنَّ أَنَّكَ قَدِيمٌ فَتَكْفُرَ ، وإِيَّاكَ أَنْ تَنكَرَ أَنَّكَ مُخَدَّثٌ فَتَشْرِكَ ؛ فَإِنَّ للشَّيْطَانَ في مثلك أطماعاً لا يصيبها في سِوَاكَ ، ويجد فيك عِللاً لا يجدها في غيرك^(٣) .

٦ - فصل

وقد علمتَ أَنَّ الخَيْرَ إِذَا صَحَّ أَصْلُهُ وَكَانَ لِلنَّاسِ عِلَّةً في نَشْئِهِ ، كان في الدلالة على الحقِّ كالبيان ، وفي الشَّمَاءِ^(٤) كالسَّمَاعِ .

على أَنَّ الخَيْرَ لا يُعْرَفُ به تَكْيِيفَ الأُمُورِ^(٥) ولكن تُعْرَفُ به جُمْلُ الأَشْيَاءِ ، إِلاَّ خَبَرَكَ فَإِنَّكَ لا تحتاج إلى إشارة ولا إلى عِلَّةٍ ، ولا إلى

(١) ما عدا مع ، ش : « أنا » ، تحريف .

(٢) ب فقط : « لا يكون » ، تحريف .

(٣) ما عدا مع ، ش : « غليلا لا يجدها في غيرك » ، تحريف .

(٤) ب : « في الشفاء » ط : « في الشفاء » ، وأثبت ما في سائر النسخ .

(٥) م ، ب : « فكيف » ، صوابه في ط ، مع ، ش وهامش م .

تفسير^(١) حتى يقوم خبرك في الشفاء^(٢) وفي كيفية الشيء^(٣) مقام العيان .

وقد كنت أتعجب من محمد بن عبد الملك^(٤) وأقول : ما يقولون في رجل لم يقل قط بعد انقضاء خصومته وذهاب خصمه : لو كنت قلت كذا^(٥) كان أفضل ، أو كنت لم أقل كذا كان أمثل ! فما بال عفو أكثر من جهدكم ، وبدية أبعده من أقصى فكرتكم ؟ !
فلما رأيته علمت أنك عذاب صبه الله تعالى على كل ربيع ، ورحمة أنشأها الله لكل وضع .

فخبرني عما جرى^(٦) بينك وبين هرير في طبيعة الفلك ، وعن سباعك من أفلاطون ، ومادار بينك وبين أرسطاطليس^(٧) ، وأنى نوع اعتقدت وأنى شيء اخترت ؟ فقد أبت نفسي غيرك ، وأبت أن تتشفى^(٨) إلا بخيرك .

ولولا أني كلفت برواية الأقبول ، ومغرب معرفة الاختلاف وأنى لا أستجيز^(٩) مسألتك عن كل شيء ، وابتدأك في كل أمر ، لما سمعت من أحد سواك : ولما انقطعت إلى أحد غيرك .

(١) ما عدا مع ، ش : « إلى نفس » .

(٢) ب : « في الشفاء » ، ط : « في الشفاء » ، وأبت ما في سائر النسخ .

(٣) م فقط : « وفي كيفية إقامة الشيء » .

(٤) ما عدا مع ، ش : « من عبد الملك » .

(٥) ما عدا مع ، ش : « لو قلت كذا » .

(٦) ما عدا مع ، ش : « فخبرني ما جرى » .

(٧) ب فقط : « أرسطاطليس » .

(٨) ب : « وأنت أن تشفى » م : « وآيت أن تشفى » ، صوابها في ط ، مع ، ش .

(٩) ب : « وأنى لأستجيز » ط : « وأنى أستجيز » ، صوابها في م ، مع ، ش .

اعلم ، جُعِلْتُ فِدَاكَ ، أُنِّي لَمْ أُرِدْ بِمَزَاحِكَ إِلَّا أَنْ أَصْحَبَكَ سَيْنَكَ ،
ولا كانت غايتي فيك إِلَّا لِأَتُنَقِّعَ عِنْدَكَ . وقد كنتُ خفتُ أن لا أكونَ
وقفتُ على حده^(١) ، وأسفقتُ من المجاوزة لقدره .

والمزاح بابٌ ليس المخوفُ فيه التقصير ، ولا يكون الخطأُ فيه من
جهة النقصان . وهو بابٌ متى فَتَحَهُ فَاتِحٌ ، وطَرَّقَ لَهُ مَطْرُقٌ^(٢) ، ولم
يملك من سده [مثل^(٣)] الذي يملك من فَتْحِهِ ، ولم يخرُج بقدر ما كان
قدّم من نفسه^(٤) ، لأنّه بابٌ أصلُ بنيائه على الخطأ ، ولا يخالطه من
الأخلاق إِلَّا ما سَخُفَ . ومن شأنه التزديد ، وأن يكون صاحبه قليل
التحفظ .

ولم نَرَ شيئاً أبعدَ من شيءٍ^(٥) ولا أطولَ له صُحبة^(٦) ولا أشدَّ خلافاً
ولا أكثرَ له خُلُطَةً ، من الجدِّ والمزاح ، والمناظرة [والمراء^(٧)] .

فإن كنتُ لم أقصّر عن الغاية ، ولم أتجاوز حدَّ النهاية فَبِمَا أَعْرَفُ
من يُعْن مكالمتك ، وبركة مكالمتيك ، ومن حسن تقويمك^(٨) وجوده
تشقيفك . وإن كنتُ أخطأتُ الطريق ، وجاوزتُ المقدار ، فما كان
ذلك عن جهلٍ بفضلك ، ولا إنكارٍ لحقك ، ولكنَّ حدودَ الأشياءِ
إذا خفيتُ ، ومقاديرها إذا أشكلتُ ، ولم يكنْ مع الناظر فيها مثلُ

(١) ما عدا مع ، ش : « وقت على حده » .

(٢) م : « أو طرق له مطرق » .

(٣) التكلة من مع ، ش .

(٤) مع ، ش : « في نفسه » .

(٥) ما عدا مع ، ش : « من شر » ، تحريف .

(٦) ما عدا مع ، ش : « ولا أبعد له صحبة » ، ولكن في م : « صحبة » .

(٧) التكلة من مع ، ش .

(٨) ب ، ط : « تقويمك » ، صوابه في سائر النسخ .

تمامك ، ولا مع المتكلف لها^(١) مثلُ كمالك ، دخل عليه من الخلل بقدر عجزه ، وسلم منه بقدر نفاذه . نعم ولو كان من العلماء الموصوفين ، ومن الأدباء المذكورين .

ولمن [٢] المزاح - جعلت فداك - باب مكر وجنس خدع^(٣) يتكلم المرء^(٤) في إساءته إلى جليسه ، واستأجعه لصديقه على أن يقول «مَرَحْتُ» ، وعلى أن يقول عند المحاكمة: «عَيَّنتُ»^(٥) ، وعلى أن يقول : مَنْ يَغْضَبُ مِنَ الْمَزَاحِ إِلَّا كَرَّ الْخَلْقُ ؟ ! ومن يَرِغِبُ عَنِ الْمَفَاكِهِ إِلَّا ضَيَّقَ الْعَطَنُ ؟ !

وبعد فمتى أعدت النفس عذراً كانت إلى القبيح أسرع ، ومتى لم تُعده^(٦) كانت عنه أبطأ .

ومن أسباب الغلط فيه ومن دواعي الخطأ إليه أن كثيراً ممن تُمازحه^(٧) يضحك وإن كنت أغضبتَه ، ولا يقطع مزاحك وإن كنت قد أوجعته . فإن حَقَّدَ فِي الْحَقْدِ الدَّاءَ ، وَإِنْ عَجَلَ فَذَلِكَ الْبَلَاءُ . فإن قلت : فما أدخلك في شيء هذه سبيله^(٨) ، وهكذا جوهره وطريقه ؟ قلت : لأني حين أمنتُ عقابَ الإساءة ، ووثقت بشواب

(١) ط فقط : «ها» .

(٢) التكلة من م ، مع ، ش .

(٣) ب : «باب مكر جنس خدع» م ، ط : «نكد وجنس خدع» ، صوابها في

مع ، ش .

(٤) ب فقط : «المرء» ، تحريف .

(٥) مع ، ش : «لعبت» .

(٦) ما عدا مع ، ش : «ومتى لم تجده» .

(٧) ب : «بمازحه» ، تحريف .

(٨) السبيل : الطريق ، مذكر ويؤنث . وفي الكتاب العزيز : «قل هذه سبيل أدعو إلى

الله على بصيرة» . م فقط : «هذا سبيله» .

الإحسان ، وعلمت أنك لا تقضي إلا على العمد^(١) ، ولا تعدب^(٢) إلى على القصد ، صار^(٣) الأيمن سائقاً ، والأمل قائداً .
وأي عمل أرد ، وأي متجر أربح مما جمع السلامة والغنيمة ، والأيمن والثوية .

ولو كان هذا ذنباً كنت شريكى فيه ، ولو كان تقصيراً لكنت سببى إليه ، لأن دوام التغافل شبيه بالإهمال ، وترك التعريف يورث الإغفال ، والعمو الشائع والبشر الدائم يؤمنان من المكافأة^(٤) ، ويذهبان بالتحفظ ؛ ولذلك قال عبيدة بن جصن لعنان بن عفان : «عمر كان خيراً لى منك ، أزهبنى^(٥) فأتقانى ، وأعطانى فأغنانى» .

فإن كنت اجترأت عليك فلم أجترى^(٦) عليك إلا بك^(٧) ؛ وإن كنت أخطأت فلم أخطئ^(٨) عليك^(٩) إلا لك ؛ لأن حسن الظن بك والثقة بعفوك^(٩) سبب إلى قلة التحفظ^(١٠) ، وداعية إلى ترك التحرز^(١١) .

(١) م ، ط : « لا تقتص » ب : « لا تقصص » صوابها في معج ، ش . وفي ط : « إلا على العهد » تحريف .

(٢) ما عدا معج ، ش : « ولا تقرب » ، تحريف .

(٣) ب : « سار » ط : « ترى » ، صوابها في سائر النسخ .

(٤) ب : « المكافآت » ، تحريف .

(٥) ب : « رهى » م ، ط : « رهينى » ، صوابها في معج ، ش . وفي المعارف لابن قتيبة ١٣٢ : « فإنه أعطانا فأغنانا ، وأحشانا فأتقانا » . وفي أسد الغابة ٢٠٥٥ في ترجمة عينية : « وتزوج عفان بن عفان ابنته ، فدخل عليه يوماً فأظلم له ، فقال له عفان : « لو كان عمر ما أقدمت عليه بهذا . فقال : إن عمر أعطانا فأغنانا ، وأحشانا فأتقانا » .

(٦) ب فقط : « فلم أجتر » .

(٧) ما عدا معج ، ش : « إلا به » .

(٨) عليك ، ليست في معج ، ش . وفي م : « فلم أخط » وفي ط : « فلم أخطأ » وكلاهما صحيح . يقال خطئ ، يخطئ ، وأخطأ يخطئ ، ويسهل المضارع منها فيجزم بحذف الألف أو الياء .

(٩) ب فقط : « والثقة » ، تحريف .

(١٠) ط فقط : « قلة في التحفظ » .

(١١) م ، ط : « التجوز » .

وبعدُ فَمَنْ وَهَبَ الكَبِيرَ كَيْفَ يَقِفُ عِنْدَ الصَّغِيرِ ^(١) ، وَمَنْ لَمْ يَزَلْ يَعْضُو عَنِ العَمْدِ ^(٢) كَيْفَ يَعْاقِبُ عَلَى السَّهْوِ ؟ !

ولو كان عِظْمُ قَدْرِي هو الذي عِظَمَ ذَنْبِي لكان عِظْمُ قَدْرِي هو الذي شَفَعَ لِي . ولو اسْتَحَقَّقْتُ عِقَابَكَ بِإِقْدَائِي عَلَيْكَ مَعَ تَخَوُّفِي لَكَ ^(٣) لاسْتَوْجِبْتُ ^(٤) عَفْوَكَ عَنِ إِقْدَائِي عَلَيْكَ بِحَسَنِ ظَنِّي بِكَ ^(٥) .

على أَنِّي مَتَى أَوْجِبْتُ لَكَ العَفْوَ فَقَدْ ^(٦) أَوْجِبْتُ لَكَ الفَضْلَ ، وَمَتَى أَضَفْتُ إِلَيْكَ العِقَابَ فَقَدْ وَصَفْتُكَ بِالْإِنْصَافِ . وَلَا أَعْلَمُ حَالَ الفَضْلِ إِلَّا أَشْرَفَ مِنْ حَالِ العَدْلِ ؛ وَالحَالِ الَّتِي تَوْجِبُ لَكَ الشُّكْرَ إِلَّا أَرْفَعَ مِنَ الحَالِ الَّتِي تَوْجِبُ لَكَ الصَّبْرَ ^(٧) .

وإِنْ كُنْتُ لَا تَهْبُ عِقَابِي لِحُرْمَتِي فَهَبْهُ لِأَيَادِيكَ عِنْدِي ؛ فَإِنَّ النِّعْمَةَ تَشْفَعُ فِي النِّعْمَةِ ^(٨) .

فإِنْ لَمْ تَفْعَلْ ذَلِكَ لِلحُرْمَةِ فافْعَلْهُ لِحُسْنِ الأَحْدُوثةِ ^(٩) ، وَعُدْ إِلَى حُسْنِ العَادَةِ . وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ ذَلِكَ لِحُسْنِ العَادَةِ فَائْتِ مَا أَنْتَ أَهْلُهُ .

وَاعْلَمْ أَنِّي وَإِيَّاكَ مَتَى تَحَاكَمْنَا إِلَى كَرَمِكَ قُضِيَ لِي عَلَيْكَ ، وَمَتَى ارْتَفَعْنَا إِلَى عَدْلِكَ حَسُنَ العَفْوَ عَنِّي عِنْدَكَ .

(١) م : « يعف عن الصغير » ب ، ط : « يعف عند الصغير » ، صوابهما في مج ، ش .

(٢) م ، ب ، ط : « ولن لم يزل يعفو العمد » ، صوابه في سائر النسخ .

(٣) ش فقط : « منك » .

(٤) م : « لاستجبت » ، تحريف .

(٥) ما عداهم ، ط : « لحسن ظني بك » .

(٦) التكلفة من مج ، ش .

(٧) بعده في بعض نسخ ش : « ولا الحال التي توجب لك الصبر إلا أرفع من الحال التي

توجب العذر » .

(٨) ش فقط : « في النعمة » .

(٩) م ، ط : « لخب الأحدوثة » .

وَفَضَّلْ^(١) مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ ، وَفَرَّقْ مَا بَيْنَ أَقْدَارِنَا وَقَدْرِكَ^(٢) ،
 أَنَا نُسِيءُ وَتَغْفِرُ ، وَنُذَيِّبُ وَتَسْتُرُ ، وَنَعْرُجُ وَتُقَوِّمُ ، وَنَجْهَلُ وَتُعَلِّمُ ؛
 وَأَنَّ عَلَيْكَ الْإِنْعَامَ وَعَلَيْنَا الشُّكْرَ . وَمِنْ صِفَاتِكَ أَنْ تَفْعَلَ^(٣) وَمِنْ
 صِفَاتِنَا أَنْ نَصِفَ .

وإذا فعلت ما تقدر عليه من العقاب كنت كمن فعل ما يقدر عليه
 من التعرض ، وصرت ترغب عن الشكر كما رغبتنا عن السلم^(٤) ، وصار
 التعرض لعقوبك بالأمن باطلاً ، والتعرض لعقابك بالخوف حقاً ،
 ورغبت عن النبل والبهاء ، وعن السؤدد والسناج ، وصرت كمن يشقى
 غيظاً أو يداوي حقداً ، أو يظهر القدرة أو يحب أن يذكر بالصولة .

ولم نجدتهم - أبقاك الله - يحمدون القدرة إلا عند استعمالها في
 الخير ، ويدعون العجز إلا لما يقوت به من إتيان الجميل .

وأنتى لك بالعقاب وأنت خير كلك ، ومن أين اعتراك المنع وأنت
 أنهجت الجود لأهله^(٥) . وهل عندك^(٦) إلا ما في طبعك ، وكيف لك
 بخلاف عاداتك ؟ فلم تستكره نفسك على المكافأة وطباعها الصغ^(٧) ؟
 ولم تكذها بالمناقشة ومدّهبها المسامحة^(٨) ؟

(١) ب ، م : « وفضل » بالضاد المعجمة .

(٢) م ، ط : « قدرنا وقدرك » .

(٣) ب فقط : « تفعل » ، تحريف .

(٤) ش : « التسليم » .

(٥) أراد بين طريقه ومنهجه . والفعل بهذا المعنى لم يرد في المعاجم المتداولة .

(٦) ما عدا مع ، ش : « وهل عندك » ، تحريف .

(٧) م : « وطباع الصغ » ، تحريف . وفي مع ، ش : « وطباعك الصغ » . وأثبت

ما في ب ، ط .

(٨) بالمناقشة ، من إحدى نسخ ش . وفي سائر النسخ : « المناقشة » . والمناقشة :

استقصاء الحساب . ما عدا مع ، ش : « زومذهبها السباحة » .

سبحانَ مَنْ جَعَلَ أَخْلَاقَكَ وَفَقَّ أَعْرَاقَكَ ، وَفَعَلَكَ وَفَقَّ عَمَلَكَ ،
وَمَنْ جَعَلَ ظَنِّكَ أَكْثَرَ مِنْ يَقِينِنَا^(١) ، وَفِرَاسَتَكَ أَثْقَبَ مِنْ عِيَانِنَا^(٢) ،
وَعَفْوِكَ أَرْجَحَ مِنْ جُهْدِنَا ، وَبِدَاهَتِكَ أَجْوَدَ مِنْ تَفَكُّرِنَا ، وَفَعَلَكَ أَرْفَعَ مِنْ
وَصَفْنَا ، وَعَيْبَتِكَ أَهْيَبَ مِنْ حَضُورِ السَّادَةِ^(٣) ، وَعَيْبَتِكَ^(٤) أَشَدَّ مِنْ
عِقَابِ الظُّلْمَةِ .

وَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَكَ تَعْفُوَ عَنِ الْمُتَعَمِّدِ ، وَتَتَجَافَى عَنِ عِقَابِ الْمُصِرِّ^(٥) ،
وَتَتَغَاوَلُ عَنِ الْمُنَادِي^(٦) وَتَصْفَحُ عَنِ الْمُتَهَاوِنِ^(٧) حَتَّى إِذَا صَرْتَ
إِلَى مَنْ ذَنْبُهُ نَسِيَانٌ^(٨) وَتَوْبَتُهُ إِخْلَاصٌ ، وَهَفْوَتُهُ بِكْرٌ ، وَشَفَاعَتُهُ
الْحَرَمَةُ^(٩) ، وَمَنْ لَا يَعْرِفُ الشُّكْرَ إِلَّا لَكَ ، وَالْإِنْعَامَ إِلَّا مِنْكَ ، وَلَا الْعِلْمَ^(١٠)
إِلَّا مِنْ تَأْدِيبِكَ ، وَلَا الْأَخْلَاقَ إِلَّا مِنْ تَقْوِيمِكَ ، وَلَا يَقْصُرُ^(١١) فِي بَعْضِ
طَاعَتِكَ إِلَّا لَمَّا رَأَى مِنْ احْتِمَالِكَ ، وَلَا نَسِيَ بَعْضَ مَا يَجِبُ لَكَ إِلَّا لَمَّا
دَاخَلَهُ مِنْ تَعْظِيمِكَ - صِرْتَ تَتَوَعَّدُهُ بِالصَّرْمِ^(١٢) ، وَهُوَ دَلِيلُ كُلِّ بَلِيَّةٍ ،
وَتَسْتَعْمَلُ الْإِعْرَاضَ وَهُوَ قَائِدُ كُلِّ هَلَكَةٍ .

وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ عِتَابَكَ أَشَدُّ مِنَ الصَّرِيحَةِ ، وَأَنَّ تَأْنِيْبَكَ أَعْلَظُ مِنْ

(١) ش : « أقوى من يقيننا » .

(٢) أنقب : أضوأ وأنفذ . وهذا ما في م ، وفي سائر النسخ : « أقوى من عياننا » .

(٣) ما عدا مع ، ش : « الشاكة » . والسادة : جمع سيد .

(٤) ما عدا مع ، ش : « وعينك » ، تحريف .

(٥) ط فقط : « عذاب المصير » .

(٦) من المناوأة ، وهي المماذاة . م ، ط : « المنادي » تحريف . مع ، ش : « المبادي » ،

وأثبت ما في ب .

(٧) م ، ب : « التهادن » ، صوابه في سائر النسخ .

(٨) ما عدا مع ، ش : « شيان » .

(٩) م ، ط : « وشفته الحرمة » مع ، ش : « وشفيحه حرمة » ، وأثبت ما في ب .

(١٠) ب : « والعلم » بإسقاط « لا » .

(١١) مع ، ش : « ومن لا يقصر » .

(١٢) ما عدا مع ، ش : « صرت تتعود » . ط فقط : « بالصد » .

العقوبة ، وأنَّ مَنَعَكَ إِذَا مَنَعَتْ فِي وَزْنٍ إِعْطَاكَ إِذَا أَعْطَيْتَ ، وَأَنَّ عِقَابَكَ عَلَى حَسَبِ ثَوَابِكَ ، وَأَنَّ جِزْعِي مِنْ حِرْمَانِكَ فِي وَزْنِ سُورِي بِفَوَائِدِكَ ، وَأَنَّ شَيْنَ غَضَبِكَ كَزَيْنِ رِضَاكَ^(١) ، وَأَنَّ مَوْتَ ذِكْرِي بِانْقِطَاعِ سَبِيهِ مِنْكَ كَحَيَاةِ ذِكْرِي مَعَ اتِّصَالِ سَبِيهِ بِكَ .

وما لى^(٢) اليوم عملٌ أنا إليه أسكنُ ، ولا شفيعٌ أنا به أوثقُ ، مِن شِدَّةِ جِزْعِي مِنْ عِتْبِكَ ، وَإِفْرَاطِ هَلْغِي مِنْ خَوْفِكَ . وَلَسْتُ مِمَّنْ إِذَا جَادَ بِالصَّفْحِ وَمَنَّ بِالْعَفْوِ لَمْ يَكُنْ لِصَاحِبِهِ مِنْهُ إِلَّا السَّلَامَةَ وَالنَّجَاةَ مِنَ الْمَلَكَةِ . بَلْ تَشْفَعُ ذَلِكَ بِالْمَرَاتِبِ الرَّفِيعَةِ ، وَالْعَطَايَا الْجَزِيلَةِ ، وَالْعِزِّ فِي الْعَشِيرَةِ ، وَالْمُهَيْبَةِ فِي الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ ، مَعَ طَيْبِ الذِّكْرِ وَشَرَفِ الْعُقْبِ^(٣) ، وَمُحِبَّةِ النَّاسِ^(٤) .

وأما ذِكْرِي الْقَدَّ وَالْخَرْطُ ، وَالطُّوْلَ وَالْعَرُضَ ، وَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ فِي ذَلِكَ^(٥) مِنَ التَّنَازَعِ ، وَالتَّشَاجُرِ وَالتَّنَافُرِ^(٦) ، فَإِنَّ الْكَلَامَ قَدْ يَكُونُ فِي لَفْظِ الْجَدِّ وَهُوَ مِزَاجٌ^(٧) .

ولو استعمل الناس الدَّمَائَةَ فِي كُلِّ حَالٍ ، وَالْجِدَّ فِي كُلِّ مَقَالٍ ، وَتَرَكَوْا التَّسْمِيحَ وَالتَّسْهِيلَ وَعَقَدُوا فِي كُلِّ دَقِيقٍ وَجَلِيلٍ^(٨) ، لَكَانَ

(١) الزين : الحسن . ما عدا مع ، ش : « كذم رضاك » .

(٢) التكلة من ط ، مع ، ش .

(٣) العقب ، بالضم : العاقبة . وفي كتاب الله : « هو خير ثواباً وخير عقباً » .

(٤) مع ، ش : « ومحبة النفس » .

(٥) ب ، م : « وبيننا وبينك في ذلك » بسقوط « ما » .

(٦) مع ، ش : « والتحاكم والتنافر » .

(٧) مع ، ش : « في لفظ الجد ومعناه معنى الهزل ، كما يكون في لفظ الهزل ومعناه معنى الجله » .

(٨) مع ، ش : « وعقدوا أعناقهم في كل دقيق وجليل » .

الشَّرَّ صُراحاً خيراً لهم ، والباطلُ محضاً أَرَدَ عليهم . ولكن لكلِّ شيءٍ قَدْرٌ ، ولكلِّ حالٍ شِكْلٌ . فالصُّحُكُ في موضعه كالْبِكاءِ في موضعه ، والتبَسُّمُ في موضِعِهِ كالقُطوبِ في موضعه . وكذلك المنعُ والبَذلُ ، والعقابُ والقَمُو ، وجميعُ القبضِ والبسطِ .

فإن دَمَنا المزاجَ ففيه لعمري ما يُدْمُ ، وإن حَمَدناه ففيه ما يُحمدُ . وقَضِلَ^(١) ما بينه وبين الجِدِّ أنَّهُ الخَطأُ إلى المزاجِ أسرع ، وحالُه بحالِ السُّخْفِ أشبه . فأما أن يُدْمَ حتى يكون كالظُّلمِ ، ويُنفَى^(٢) حتى يصير كالغَدْرِ فَأَلَا^(٣) ؛ لأنَّ المزاجَ مما يكون مرَّةً حسناً ومرَّةً قبيحاً . فإذا صِرنا إلى الجِدِّ^(٤) ، ورغِبنا عن الهَزَلِ وتركنا المزاجَ ، وجلسنا للحُكْمِ^(٥) ، فقد أغناكَ اللهُ تعالى عن الحُجَّةِ ، كما سلَّمكَ من الشبهة ، ولم نكلِّفَكَ الاحتجاجَ كما نرغبُ بك عن الاعتلالِ^(٦) ، فأصبحتَ لا محتجاً ولا مَحجوجاً ، ولا أُغفلاً ولا موسوماً ، ولا مُلوماً ولا معذوراً^(٧) ، ولا فيك اختلافٌ ولا بك حاجةٌ إلى الائتلافِ .

وليس مع العيانِ وخِشَّةٌ ، ولا مع الضرورةِ وَجْمَةٌ^(٨) ، ولا دون اليقينِ وقفةٌ .

(١) ب فقط : « وقضيل » .

(٢) ما عدا مع ، ش : « ويبق » .

(٣) ب ، م : « كلا » ، صوابه في سائر النسخ .

(٤) مع ، ش : « فإذا ملنا إلى الجد » .

(٥) مع ، ش : « بحكمة » .

(٦) مع ، ش : « ولم يكلفك الاحتجاج كما نرغب بك عن الاعتدال » .

(٧) ب : « وملوماً » ، يمسقاط « لا » . وفي م : « ولا ملوماً ولا معذولا » .

(٨) الوجه من الوجوم ، وهو السكوت على غيظ أروم أو كآبة . ب فقط : « وجهه » .

وهل في تمامك ريب ^(١) حتى يُعالج بالحجة؟ وهل يردُّ فضلك
جاحد ^(٢) حتى يُثبت بالبينه ^(٣).

وهل لك خصمٌ في العلم أو نِد في الفهم ^(٤)، أو مُجَارٍ في الجُم،
أو ضدٌّ في العزم ^(٥)؟

وهل يبلُغك الحسد أو تضرك العين ^(٦)، أو تسمو إليك المنى أو
يطعمُ فيك طامع ^(٧)، أو يتعاطى شأوك باغ؟

وهل غاية الجميل إلا وصفك، وهل زينُ البليغ إلا مدحك، وهل
يأمل الشريف ^(٨) إلا اصطناعك؟ وهل يقدر الملهوف إلا غيائك ^(٩)؟
وهل للطلاب غاية سواك؟ وهل للقواني مثلٌ غيرك؟ وهل للماتح ^(١٠)
رجزٌ إلا فيك، وهل يحدو الحادي إلا بك ^(١١)؟

ولولا أن يأخذ الواصف لك بنصيبه منك، وبحصته من الصدق ^(١٢)،

(١) ما عدا مع، ش: «وهل فيك ريب».

(٢) ب: «ماد»، م، ط: «حاد»، صوابهما في مع، ش.

(٣) ب، م: «حتى تثبت بالصيغة» ط: «حتى تثبت بالصيغة» صوابهما في مع، ش.

(٤) ما عدا مع، ش: «أويد في الفهم» تحريف. والتد، بالكسر: النظر والمثل.

(٥) الهاري: الشبه، وأصله من يجرى مع غيره. ما عدا مع، ش: «أو مجاز».

تحريف.

(٦) مع، ش: «وهل يتلذذك الحسد». ب، م: «أو يضرك العين».

(٧) ما عدا مع، ش: «طامع»، تحريف.

(٨) ب، م: «يؤمل».

(٩) مع، ش: «وهل يرجو الملهوف إلا غيائك».

(١٠) كانوا يرجزون عند المنح، وهو الاستفاد من أهل البئر. ما عدا مع، ش: «وهل

للمادح»، تحريف.

(١١) ش: «أو هل»، مع، ش: «إلا بذكرك».

(١٢) ش: «من الصدق فيك».

وبسهميه من الشكر^(١) لك، لكان الإطنابُ عندهم في وصفك نَعْوًا، وكان تكلفه فضلًا .

ومَنْ هذا الذي يَصَّعُه^(٢) أن يكون دونك ، أو يَهْجَى بالتسليم^(٣) . ولم تَعُدْ^(٤) إقراره إحساناً ، وخضوعه إنصافاً ؟

وهل تقع الأبصار إلا عليك ، وهل تُصْرَفُ الإشارة إلا إليك^(٥) ؟

وأى أمرك ليس بغاية ، وأى شيء منك ليس في النهاية ؟ وهل فيك شيء يَفُوق شيئاً أو يفوقه شيء ؟ أو يقال : لو لم يكن كذا لكان [أحسن^(٦)] ، أو لو كان كذا لكان أتم^(٧) ؟

وأين الحُسْنُ الخالصُ والجمالُ الفائق . والليحُ المحضُ والحلاوةُ التي لا تستحيل ، والتمامُ الذي لا يُحِيل^(٨) ، إلا فيك ، أو عندك . أو لك أو معك ؟

لا بل أين الحُسْنُ المُصَمِّتُ والجمالُ المُفْرَدُ . والقَدُّ العجيبُ ، والليحُ المنشور والفضلُ المشهور ، إلا لك وفيك ؟

وهل على ظهرها جميلٌ حسيبٌ أو عالمٌ أديب^(٩) إلا وظلك أكبر

(١) ما عدا مع ، ش : « وشيته من الشكر » .

(٢) ط : « نصفه » .

(٣) ب : « أوهجى بالتسليم » ، تحريف صوابه ق م ، ط . وى مع ، ش : « ويمتنع بالتسليم لك » .

(٤) ما عدا مع : « أو تعد » .

(٥) ب ، م : « وهي تعرف الإشارة إلا إليك » ، وأثبت ما في ط . عل أن هذه الفقرة بتمامها لم ترد في نسخ الترييح والتلويز .

(٦) التكلة من مع ، ش .

(٧) ط فقط : « لا يحل » .

(٨) مع : « أو عالم أديب » ب ، ط ، م : « وعالم أديب » . وأثبت ما في ش .

والأريب : العاقل ذو الدعاء .

من شَخْصِه ، وظَنُّكَ أَكْثَرُ مِنْ عِلْمِه ، واسْمُكَ أَفْضَلُ مِنْ مَعْنَاهُ - وَحُلْمُكَ
أَثْبِتَ مِنْ نَجْوَاهُ ؟

ولربما رأيتُ الرجلَ حسنًا جميلًا ، وحُلُومًا مليحًا ، وعتيقًا رشيقيًا ،
وفخماً نبيلًا^(١) ، ثم لا يكون موزونَ الأعضاء ولا معتدلَ الأجزاء .

وقد تكون^(٢) أيضاً الأقدارُ مُتساويةً غير متقاربة ولا متفاوتة^(٣)
ويكون قصدًا ، ومقداراً عدلًا ، وإن كانت هناك دقائقٌ خفيةٌ لا يراها
الغبي^(٤) ، ولطائفٌ غامضةٌ لا يعرفها إلا الذكي .

فأما الوزنُ التحقُّقُ^(٥) ، والتَّعدِيلُ الصَّحيحُ ، والتركيبُ الذي
لا يفضحه التفرُّسُ ، ولا يحضره التعنُّتُ^(٦) ، ولا يتعلَّلُ جاذبه^(٧) ،
ولا يطمَعُ في التمويه ناعته^(٨) ، فهو الذي خُصِّصَتْ به دون الأنام ،
ودامَ لك على الأيام .

وكذا الحُسْنُ إذا كان حراً مُرسلاً ، وعتيقاً مُطلقاً^(٩) ، لا يتحكَّم

(١) الفخيم : العظيم القدر . وفي حديث أبي هالة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان «فخماً
مفخماً» أي عظيمًا منظمًا في الصدور والعيون . ما عدا مع ، ش : « وفخياً نبيلاً » ، ولم تعرف
المعجم الفخيم .

(٢) ب فقط : « وعاد يكون » .

(٣) التكلة من مع ، ش .

(٤) مع ، ش : « إلا الألمي » .

(٥) ب : « التحقيق » م : « التحقق » مع ، ش : « المحقق » ، وأثبت ما في ط .

(٦) ما عدا مع ، ش : « التغييب » .

(٧) الجادب : العائب . قال ذو الرمة :

فياك من خسد أسيل ومنطق رحيم ومن خلق تمبلل جادبه

يقول : لا يجد فيه مقالا ولا عيباً يعيبه به ، فيتعلل بالباطل وبالشيء يقوله وليس يعيب .

ما عدا مع : « جاذبه » بالذال المجيبة ، تحريف .

(٨) ما عدا مع ، ش : « غايته » ، تحريف .

(٩) ب فقط : « وعتيقاً مُطلقاً » ، تحريف .

عليه الدهر^(١) ، ولا يُدبِّله الزمان^(٢) ، ولا يحتاج إلى تعليق التمام ،
ولا إلى الصون والكين ، ولا إلى البنقاش والكحل^(٣) .

ولو لم يكن لحسن وجهك إلا أنه قد سهّل في العيون تسهيلاً ،
وحبب إلى القلوب تحبيبا ، وقرب إلى النفوس تقريبا ، حتى امتزج
بالأرواح وخالط الدماء ، وجرى في العروق وتمشّى في العظم بحيث
لا يبلغه السمر ولا الوهم^(٤) ، ولا السرور الشديد ، ولا الشراب
الرقيق ، لكان في ذلك المزية الظاهرة ، والفضيلة البينة .

ولو لم يكن لك إلا أننا لا نستطيع أن نقول في الجملة ، وعند
الوصف والمديحة : هو أحسن من القمر^(٥) ، وأضوأ من الشمس ،
وأبهى من الغيث ، وأحسن من يوم الجليلة^(٦) ، وأنا لا نستطيع أن
نقول في التفاريق : كأن عنقه إبريق فضة ، وكان قدمه لسان حية ،
وكان وجهه ماوية^(٧) ، وكان بطنه قبطية^(٨) ، وكان ساقه بزديّة^(٩) ،
وكان لسانه ورقة ، وكان أنفه حدسيف ، وكان حاجبه خط بقلم^(١٠) ،
وكان لونه الذهب ، وكان عوارضه البرد ، وكان فاه خاتم ، وكان

(١) ما عدا مع ، ش : « الدهن » .

(٢) ما عدا مع ، ش : « ولا يدبّله الزمان » .

(٣) المناقش : آلة النقش ، والمراد به ما ينتفخ به الشعر ، مع ، ش : « المناقش » .

(٤) مع ، ش : « السم ولا الوهم » . والسرور : الحكايات التي يسمر بها ليلا .

(٥) ط ، مع ، ش : « هو أحسن من القمر » .

(٦) يوم الحلية : يوم الزينة في الأعياد ونحوها . مع ، ش : « يوم الحلية » بالباء
الموحدة .

(٧) الماوية : المرأة . مع ، ش : « وكان عينه » .

(٨) القبطية ، بالضم : ثياب من كتان مصر بيض رقاق . ط : « قنطية » تحريف .

(٩) البرودية ، بالفتح : واحدة البردي ، وهو نبت مائي معروف يضرب به المثل في
في المضاعفة واللين .

(١٠) ب ، م : « تلم » تحريف . في ط : « قلم » وأثبت ما في مع ، ش .

جبيته جلال . وهو أطهر من الماء ، وأرق طبعاً من الهواء ، وهو أمضى
من السيل ، وأهدى من النجم - لكان في ذلك البرهان النير ، والدليل
البيّن .

وكيف لا تكون كذلك وأنت الغاية في كل فضل ، والمكّل في كل
شكّل . وأما قول الشاعر^(١) :

يزيدك وجهه حسناً إذا ما زِدْتَه نَظْراً

وقول الدمشقيين : ما تأملنا قطُّ تأليف مسجداً ، وتركيب
محرابنا وقبة مصلانا إلا آثار لنا التأمل ، واستخرج لنا التفريس ،
غرائب حسن لم نعرفها^(٢) ، وعجائب صنع لم نقيت عليها . وما ندرى
أجواهر مقطعاته أكرم في الجواهر ، أم تنضيد أجزائه في تنضيد
الأجزاء^(٣) ؟ فإن ذلك معنى مسروق متى في وصفك ، وماخوذ من
كسبي في مدحك .

والجملة التي تنق الجِدالَ ، وتقطع القيلَ والقال ، أني لم أرك
قط إلا ذكرت الجنة ، ولا رأيت أجمل الناس في عيب رؤيتك ! إلا
ذكرت النار !

ولا تعجب أيها السامع واعلم أني مقصّر . وإذا رأيت علمت أني
مقصّر . وإذا رأيت علمت أني فيما يجب له مفرط .

هو رجل طينته حرّة ، وعرقه كريم ، ومغروسه طيب ، ومنشؤه

(١) هر أبو نواس . ديوانه ١٢٥ ودلائل الإيجاز ١٩٤ ومبادئ التنصيص ١ : ٢٨
وديوان الماقي ١ : ٣٣١ .

(٢) ط فقط : « التفريس بين غرائب حسن لم نعرفها » ، تحريف .

(٣) ب فقط : « تنضيص » ، محرقة . وفي ش : « في تنضيدات الأجزاء » وفي مع : « أمجواهر
تنضيدات أجزائه في تنضيدات الأجزاء » .

محمود ، غُلِيَّيَ فِي التَّعْمَةِ^(١) ، وعاش في الغبطة ، وأزَهَقَهُ التَّأْدِيبُ ،
ولَطَّفَهُ طَوْلَ التَّفَكِيرِ^(٢) ، ونخامرهُ الأَدَبُ ، وجرى فيه ماءُ الحَيَاءِ .
فأَفْعَالُهُ كَأَخْلَاقِهِ . وَأَخْلَاقُهُ كَأَعْرَاقِهِ . وعادته كطبيعته ، وآجرهُ كأولهُ ،
تحكى اختياراتهُ التَّوْفِيقَ ، ومذاهبه التَّسْدِيدَ . لا يَعْرِفُ التَّكْلُفَ ،
ويرغَبُ عن التَّجَوُّزِ^(٣) . وينبئُ عن تركِ الإِنْصَافِ^(٤) . لا يمتنعُ عليه
معرفةُ المُبْهَمِ^(٥) ، ولا يُدَلِّجُ باستبانةِ المُشْكَلِ^(٦) . ولا يَعْرِفُ الشُّكَّ
إِلَّا فِي غَيْرِهِ ، ولا العِيَّ^(٧) إِلَّا سَمَاعاً .

فمن يطمع في عَيْبِكَ^(٨) . بل من يطمع في قدرك . وكيف وقد
أصبحتَ وما على ظهرها حَوْدٌ^(٩) إِلَّا تَعَثَّرَ بِاسْمِكَ^(١٠) ، ولا قِينَةَ إِلَّا وَهِيَ
تَغْنَى عُدْجِكَ^(١١) ، ولا فِتَاةً إِلَّا تَشْكُو تَبَارِيحَ حَبِّكَ^(١٢) ، ولا محجوبةً

(١) ب فقط : « على » ، تحريف . مع ، ش : « بالنعمة » .

(٢) مع : « وألطفه طول التفكير » ش : « وألطفه طول الفكرة » .

(٣) ما عدا مع ، ش : « التجرد » .

(٤) كلمة « ترك » من مع ، ش فقط ، وق ب : « عن الأوصاف » . م ، ط : « عن الإنصاف » .

(٥) ب ، م : « لا يمتنع عليه معروفه المبهم » صوابه في سائر النسخ .

(٦) يقال مع عليه الخبر تلحيجاً ، إذا خلطه عليه وأظهر غير ما في نفسه . ب ، م ، ط :

« ينجح باستبانته المشكل » ، تحريف . وفي مع « ولا يلتنجح باستبانة المشكل » .

(٧) ما عدا مع ، ش : « ولا ألغى » بالفين المعجمة ، تحريف .

(٨) ما عدا مع ، ش : « في عينك » ، بالنون .

(٩) الحود ، بفتح الحاء : الشابة الناعمة الحسنة الخلق . ب ، م : « جود » . ط :

« جواد » ، صوابهما في مع ، ش .

(١٠) مع ، ش : « إلا وهي تعثر باسمك » ، أراد يعثرها الاضطراب لتقع في العثار .

(١١) ما عدا مع ، ش : « إلا وهي تينى » ، وفي ط أيضاً : « تمدحك » .

(١٢) ب : « إلا وتشكو » م : « ولا فتاة تشكو إلا تباريح حبك » ، وأثبت ما في ط .

وفي مع ، ش : « إلا وهي تشكو تباريح حبك » .

إِلَّا وَهِيَ تَنْقُبُ الخُرُوقَ لِمَرْكٍ (١) ، وَلَا عَجُوزٌ إِلَّا وَهِيَ تَدْعُو لَكَ ،
وَلَا غَيْرُ إِلَّا وَقَدْ شَقِيَ بِكَ (٢) .

فكم من كبد حَرَى (٣) مُنْضَجَةٌ ، وَمَصْدُوعَةٌ مَفْرُتَةٌ (٤) . وكم
حشاً (٥) خَافِقٍ وَقَلْبٍ هَائِمٍ ، وكم عَيْنٍ سَاهِرَةٍ (٦) وَأُخْرَى جَائِدَةٌ (٧)
وَأُخْرَى بَاكِيَةٌ ؟ وكم عَبْرَى مَوْلَاهُ وَفَنَاءٍ مَعْدَبَةٍ ، قَدْ أَفْرَحَ قَلْبُهَا الحُزْنَ ،
وَأَجْمَدَ عَيْنُهَا الكَمَدَ ، وَاسْتَبَدَلَتْ بِالْحَلَى العَطَلَةَ (٨) وَبِالْأُنْسِ الوَحْشَةَ ،
وَبِالتَّكْحِيلِ المِرَّةَ (٩) ، فَأَصْبَحَتْ وَالهةً مَبْهُوتَةً (١٠) ، وَهَائِمَةً مَجْهُودَةً ،
بَعْدَ طَرْفٍ نَاصِعٍ (١١) ، وَسِنَّ ضَاحِكٍ ؛ وَبَعْدَ أَنْ كَانَتْ نَاراً تَتَوَقَّدُ
وَشُعْلَةً تَتَوَهَّجُ .

وَلَيْسَ حُسْنُكَ - أَيْتَمَّكَ اللهُ - الحُسْنَ الَّذِي تَبْقَى مَعَهُ تَوْبَةٌ ، أَوْ
تَصِحُّ مَعَهُ عَقِيدَةٌ (١٢) ، أَوْ يَدُومُ مَعَهُ عَهْدٌ (١٣) ، أَوْ يَثْبِتَ مَعَهُ عَزْمٌ .

(١) ط فقط : « تنقب » بالهاء المثناة .

(٢) ب ، ط : « شق » بالفاء ، صوابه في سائر النسخ .

(٣) ب ، م : « حسوى » ، والصواب في سائر النسخ .

(٤) مفرقة : مفتحة . ب : « ومعربة » م : « ومعربة » ط : « ومعذبة » ، صوابها

في صج ، ش .

(٥) ش فقط : « وكم من حشا خافق » .

(٦) ش فقط : « وكم من عين ساهرة » .

(٧) الجائدة : التي لا تدع . مع فقط : « جاهدة » .

(٨) كذا في جميع النسخ . وفي المراجع أن « العطلة » بالضم : اسم للتعطيل ، وهو خلو

المرأة من الخلق ، وخلو العامل من العمل .

(٩) المره : خلو العين من الكحل ، أو فسادها لتركه ، والنمت أمره ومرهاه .

(١٠) المبهوت : المنجيز ، والذي اعتزته الدهشة .

(١١) الناصع : الخالص الظاهر . في الأصول : « طرف » بالهمزة ، صوابه بالنظاء المعجمة .

(١٢) ب ، م : « أو يصح معه عقدة » ، صوابه في سائر النسخ .

(١٣) ب ، م : « عهدة » .

أَوْ يُمَهِّلُ صَاحِبَهُ لِتَثْبُتِ^(١) ، أَوْ يَتَّسِعَ لِتَسْجِيرِ^(٢) ، أَوْ يُنْهِنُهُ زَجْرَ^(٣) ،
أَوْ يَفِيدُهُ خَوْفَ^(٤) . هُوَ - أَبْقَاكَ اللَّهُ - شَيْءٌ يَنْقُضُ الْعَادَةَ^(٥) ،
وَيَمْسَخُ الْمُنَّةَ ، وَيُعْجِلُ عَنِ الرَّوِيَّةِ^(٦) ، وَيَطْوِجُ بِالْعَرَاءِ^(٧) ، وَيُنْسِي مَعَهُ
الْعَوَاقِبَ .

ولو أدركك^(٨) عمر بن الخطاب لَصَنَعَ بِكَ أَعْظَمَ^(٩) مما صنع بنصر
ابن الحجاج^(١٠) ، وَلَزَّكَ بِكَ بِأَعْظَمَ^(١١) مما ركب جَعْدَةَ السُّلَمِيِّ^(١٢) . بَلَى
لِدَعَاةِ الشُّغْلِ بِكَ إِلَى تَرْكِ التَّشَاغُلِ هِمَا ، وَالغَيْظِ عَلَيْكَ إِلَى الرَّحْمَةِ هِمَا .

(١) سج ، ش : « التثيت » .

(٢) ب ، م : « أو تتسع » .

(٣) نهيه عن الأمر فنهيه : كفه وزجره فكفت ، وأصلها نهيه ، بالتضعيف ، فأبدلت
الهاء الثانية نوناً . ما عدا سج ، ش : « أو ينهيه » ، تحريف .

(٤) ب : « خوفاً » ، تحريف . وسج ، ش : « أو يفديه خوف » .

(٥) ط فقط : « ينقض العادة » ، تحريف .

(٦) المنة ، بالضم : القوة . روى في الأمر تروية : نظروا ففكر ، والاسم التروية .
ب ، م : « عن الروية » ، صوابه في سائر النسخ .

(٧) سج ، ش : « ويطرخ » ب فقط : « بالمرى » .

(٨) ب ، م : « أدرك » .

(٩) ط فقط : « أحسن » ، ووجهها « أحسن » .

(١٠) ط فقط : « حجاج » . وهو نصر بن الحجاج بن علاط السلمي . وكان قد عشقت
فريمة بنت همام ، أم الحجاج بن يوسف ، وهي إذ ذاك تحت المفيرة بن شعبة ، فرعر
ابن الخطاب ذات ليلة فسمعها تقول :

ألا سبيل إلى خمسر فأخبرهسا أو لا سبيل إلى نصر بن حجاج

فصير عمر نصرأ إلى البصرة ، فنزل على مجاشع بن مسعود فمشق امرأته شيلة وعشقتة ،
وعرف مجاشع ذلك فأخبره من منزله ، فنزل على بعض السليبين ففرض من حبا مرضاً شديداً
فتشل به أهل البصرة فقالوا : « أدنت من المنى » . كما قيل « أصب من المنية » ، وهي فريمة
بنت همام . جهرة الأشكال ١ : ٥٨٨ والميداني ١ : ٣٧٩ والمستقصى ١١٩ .

(١١) أدرك جمدة هذا زمان الجاهلية ، وكان غزوا صاحب نساء يحدثهن ويمارسهن ،
فكن يجتمعن عنده ، فيأخذ المرأة فيمقلها ثم يأمرها بأن تمشي ، فتتمر فتقع فتكشف ، فيضاحكن
من ذلك ، ففأخذ عمر من المدينة إلى عمان . الإصابة ١٣٨ .

فمن كان عيب حُسْنِهِ (١) الإفراطَ ، [والظعن (٢)] عليه من جهة الزيادة ، كيف يرومه عاقلٌ أو يَنْتَقِضَهُ عالم .

وما نَدْرِي (٣) في أيِّ الحالين أنت أجمل ، وفي أيِّ المنزلتين أنت أكمل ، إذا فَرَقْنَاكَ أو إذا جَمَعْنَاكَ (٤) ، وإذا ذَكَرْنَا كَلِّكَ (٥) أم إذا تَأَمَّلْنَا بَعْضَكَ ؟

فَأَمَّا كَفُّكَ فهي التي لم تُخَلِّقْ إلَّا للتفصيل والتوقيع ، وهي التي يَحْسُنُ بِحُسْنِهَا كُلُّ مَا اتَّصَلَ بِهَا ، ويخْتَالُ بِهَا كُلُّ مَا صَارَ فِيهَا (٦) .

وكما أَصْبَحْنَا وما ندرى : أَلِكُؤْسُ التي (٧) في يدك أجملُ أم القَلَمُ ، أم الرُّمَحُ الذي تحمله أم المَخْصَرَةُ ، أم العِزَانُ الذي تمسكه ، أم السُّوْطُ الذي تَطْلَعُهُ ؟

وكما أَصْبَحْنَا وما ندرى أيُّ الأمورِ المُتَّصِلَةِ بِرَأْسِكَ أَحْسَنُ ، أم أيُّهَا أَجْمَلُ وَأَشْكَلُ : أَلَّلْمَةُ أم مَخَطُ اللَّحْيَةِ (٨) ، أم الإِكْلِيلُ أم العِصَابَةُ ، أم العِمَامَةُ أم القِنَاعُ أم القَلَنْسُوَّةُ ؟

وَأَمَّا قَدَمُكَ فهي التي يَعْلَمُ الجَاهِلُ كما يعلمُ العَالِمُ ، ويعلمُ البَعِيدُ

(١) ب ، م : « حسيه » بالياء .

(٢) التكلة من مع ، ش .

(٣) ب ، م : « وما ندرى » .

(٤) هذا ما في مع . وفي ب ، م ، ط : « وإذا جمعناك » . والذي في ش : « إذا فرقناك أم إذا تأملنا بعضك » . بهذا النقص .

(٥) م ، ط : « ذكرناك كلك » . ويبدله في مع : « أو إذا تأملنا بعضك » .

(٦) ب ، م : « ويخْتَالُ » بالهملة ، صوابه في سائر النسخ . وفي ب ، م : « كل من صار فيها » ، تحريف .

(٧) م ، ط : « الذي » ، صوابه في ب فإن الكأس مؤنثة . وفي مع ، ش : « الكأس في يدك » .

(٨) مخط الهيئة : خطوطها وهيئة خرطها . م ، ط : « مخط الهيئة » ، تحريف .

الأقصى كما يعلم القريب الأدنى، ^(١) أنها لم تُخلق إلا لمنبرٍ عظيم،
أو ركابٍ طريفٍ كريم.

وأما فوك ^(٢) فهو الذي لا ندرى : أي الذي تنفوه ^(٣) به أحسن،
وأي الذي يبدو منه أجمل ^(٤) : الحديث أم الشعر . أم الاحتجاج ، أم
الأمر والنهي . أم التعليم والوصف ؟

وعلى أننا لا ندرى أي السننك أبلغ . وأي بيازك أشق . أقلمك
أبلغ أم خطك . أم [لفظك] أم إشارتك أم عقيدك ^(٥) ؟ وأنت في ذلك
فوقهم - والحمد لله - وواحدهم : وأعيدك بالله تعالى ^(٦) .

وقد علمنا أن القمر ، وهو ^(٧) الذي يُضرب به الأمثال ، ويُشبه به
أهل الجمال . يبدو مع ذلك ضئيلاً ونضواً ، ويظهر معوجاً شخناً ^(٨)
وأنت أبداً قمر بدر . وفخمٌ عمر ^(٩)

ثم مع ذلك يحثرق في السّزار ^(١٠) ، ويُشاعمُ به في المحاق ، ويكون
نحساً كما يكون سعداً ، ويكون ضراً كما يكون نفعاً ، ويُقرض

(١) ب ، م : « لإياها » ، صوابها في سائر النسخ .

(٢) ما عدا ميح ، ش : « فوك » .

(٣) ب فقط : « تنفوه » ، تحريف .

(٤) ط : « تبدأ به » ب : « يبدو به » م : « تبدو به » صوابه في ميح ، ش .

(٥) التكلة من ميح ، ش .

(٦) المقيد : ضرب من الحساب يكون بأصابع اليدين ، ويقال له حساب اليد أيضاً .
وفي الحديث أنه : « عقد عقد تسعين » . وقد ألفت فيه كتب وأراجيز . انظر الخرافة ٣ : ١٤٧
والحيوان ١ : ٣٣ والبيان ١ : ٧٦ .

(٧) يعلو في ميح ، ش : « وأنت تجوز الغاية وتفوق النهاية » .

(٨) وهو ، ساقطة من ب ، وبدلها في ميح ، ش : « هو » بدون واو .

(٩) ويظهر ، ساقطة من ب ، م . والشخت : الدقيق الضئيل .

(١٠) ش : « ويجر عمر » ط : « وفخم دمر » : والذمر ، بالكسر : الشجاع ، والظروف

الغيب الموعان . وأما القمر . بالفتح ، فهو الواسع الخلق الكثير المعروف .

(١١) السرار ، بكسر السين وفتحها : آخر ليلة في الشهر ، وفيها يستقر القمر .

الكَثَّانُ ، وَيُشَجِّبُ الْأَلْوَانَ^(١) . وَيَحْمَ فِيهِ اللَّحْمَ^(٢) . وَأَنْتَ دَائِمٌ
الْيُمْنُ . ظَاهِرُ السَّعَادَةِ ، ثَابِتُ الْكَمَالِ ، شَائِعُ النُّفَعِ ، تَكْسُو مِنْ أَعْرَافِهِ .
وَمُكِّنٌ مِنْ أَشْحَبِهِ^(٣) .

وعلى أنه مَحَقَّ حُسْنَهُ المَحَاقِ^(٤) . وشأنهُ الكَلْفُ . وليس بذي
تَوْقِدٍ واشتعالٍ ، ولا خَالِصٍ ولا مُتَلَأُّيٍ . وَيَعْلُوهُ بَرْدٌ^(٥) وَيَكْسِفُهُ ظِلٌّ^(٦) .
ثم لا يُعْتَبَرُ ذَلِكَ إِلَّا عِنْدَ كَمَالِهِ . وَلِيْلَةٌ فَخْرِهِ واحْتِفَالِهِ .

وكثيراً ما يَعتَرِيهِ الصُّفَارُ^(٧) مِنْ بُخَارِ البَحَارِ . وَأَنْتَ ظَاهِرُ
التُّمَامِ ، دَائِمُ الْكَمَالِ ، سَلِيمُ الجَوْهَرِ ، كَرِيمُ العُنْصُرِ ، نَارِيُّ التَّوَقُّدِ .
هَوَائِي الدَّهْنِ^(٨) بَرِيُّ اللُّونِ^(٩) . رُوْحَانِيُّ البِدَنِ .

وإن احتججوا عليك له بالجزر والمد، احتججت عليهم بالحلم
والعلم، وبأن طاعتك اختيار . وطاعته طباغ واضطرار^(١٠) . وبأن له سيرة

(١) لم أجد في المعاجم إلا « شجب » اللازم . والشحوب : تغير اللون ، والمزال .
(٢) خم يخم بكسر عين المضارع وفتحها ، خمًا وخومًا : أنت . ط ، م : « ويختر » ووجه
هذه « يختر » بالنون والزاي ، ختر الخم أيضاً : فسد وأنتن .
(٣) ما عدا مع ، ش : « شحبة » .
(٤) الحاق بفتح المير ومنها : ليال ثلاث في آخر الشهر . ب ، م : « المحوق » ،
تحريف .

(٥) ش فقط : « يعلوه النيم » .
(٦) ب ، م : « وتكسفه ظل » . وفي مع ، ش : « ويكسوه ظل الأرض » . والكسوف
والخسوف مشتركان بين الشمس والقمر ، وإن كان الخسوف في القمر أكثر والكسوف في
الشمس أقل .

(٧) الصفار : بالضر : صفرة تملو اللون والبشرة . اللسان (صفر ١٣٤) .
(٨) ما عدا مع ، ش : « هوائى الدهر » .
(٩) برى : مسهل برى ، وبرامة اللون : صفاؤه ونقاؤه . مع ، ش : « درى اللون »
(١٠) الطباغ ، ككتاب ، والطبع والطبيعة ، كلها بمعنى السجية يجبل علينا الإنسان وغيره
ط فقط : « طبع » . وانظر الحيوان ٢ : ١٣١ / ٤ : ٤٥٢ / ٥ : ٤٨ . ورسائل الجاحظ
١ : ١٠٤ - ١١٢

قد قُصِرَ عليها ، وَمَنَازِلَ لَا يُجَاوِزُهَا ، وَلَا يُمَكِّنُهُ الْبِدَوَاتُ ^(١) ، وليس في قُوَاهُ فَضْلٌ لِلتَّصَرُّفِ ^(٢)

على أَنَّ ضِيَاءَهُ مُسْتَعَارٌ مِنَ الشَّمْسِ ، وَضِيَاؤُكَ عَارِيَةٌ عِنْدَ جَمِيعِ الْخَلْقِ ^(٣) . وَكَمْ بَيْنَ الْمُعِيرِ وَالْمُسْتَعِيرِ ، وَالتَّيْبِينِ وَالتَّحْيِيرِ ، وَبَيْنَ الْعَالَمِ وَمَا لَا خَيْرَ فِيهِ .

تُعِيرُ نَسِيمَ الْهَوَاءِ طَيْباً ^(٤) ، وَتُرَابَ الْأَرْضِ عَبَقاً .

إِنْ تَفْتَتَيْتَ فَالرَّشَاقَةَ وَالْيَلْحَ ^(٥) ، وَإِنْ تَنْسَكْتَ فَالرَّهْبَانِيَّةَ وَالْإِحْلَاصَ ^(٦) ، وَإِنْ تَرَزَّنْتَ فَتَهْلُلَانُ ذُو الْهَضَبَاتِ مَا يَتَحَلَّلُ ^(٧) .

وَطِبَاعُكَ ^(٨) - جُعِلَتْ فِدَاكَ - طِبَاعُ الْخَمْرِ ، إِلَّا أَنْكَ حَلَالٌ كُلُّكَ . وَجَوْهْرُكَ جَوْهْرُ الذَّهَبِ إِلَّا أَنْكَ رُوحٌ كَمَا أَنْتَ . وَقَدْ حَوَيْتَ خِصَالَ الْيَاقُوتِ إِلَّا مَا زَادَكَ اللَّهُ ، وَأَخَذْتَ خِصَالَ الْمُشْتَرَى ^(٩) إِلَّا مَا فَضَّلَكَ اللَّهُ بِهِ ، وَجَمَعْتَ نِجَالِ الدَّرِّ إِلَّا مَا خُصِّصَتْ بِهِ دُونَهُ . فَلَمْ يَكُنْ مِنْ كُلِّ

(١) البدوات : جمع بداة ، كما يقال قطة وقطوات . والبدوات : الآراء تظهر للمرء فيختار بعضاً ويسقط بعضاً . ط فقط : « البدار » . مع ، ش : « لا تمكته » بالناء .

(٢) ما عدا مع ، ش : « وليس في قوله » ، تحريف . وفي ط أيضاً : « فضل للتعرف » .

(٣) أي يستبهره جمع الخلق ، لاضياءهم إلا منه .

(٤) ب ، م : « يعير » ط : « يعيره » ، وفيها جميعاً : « الهوى » ، والوجه ما أثبت .

والذي في مع ، ش : « فلا زالت الأرض بك مشرقة ، والدنيا مغمورة ، ومجالس الغير مأهولة ونسيم الهواء طيباً ، وتراب الأرض عباقاً » .

(٥) ما عدا مع ، ش : « إن هبت » ، وفي ط فقط أيضاً : « فلرشاقة » .

(٦) ما عدا مع ، ش : « وإن تمكنت » .

(٧) ب : « يتحلل » ط : « يتخلل » ، صوابه في سائر النسخ . يتحلل : يتحرك ويبرح مكانه . وهو ناظر إلى قول الفرزدق في ديوانه ٧١٧ :

فادفع بكفك إن أردت بنامتنا تهلان ذا الهضبات ، هل يتحلل

(٨) أي طبك ، انظر ما سبق في حواشي ص ٩١ .

(٩) يسميه المنجمون السعد الأكبر ، لأنه فوق الزهرة في السعادة . وأضافوا إليه المعيرات الكثيرة والسعادة المنظمة . عجائب الخلوقات ٢٥ .

شيء (١) صَفَوْتُهُ وَشَرَّفُهُ ، وَلُبَابُهُ وَبَهَاؤُهُ . وَهَلْ يَصِيرُ الْقَمَرُ (٢) تَبَاحُ الْكَلْبِ (٣) ، وَهَلْ يُزْعِجُ النَّخْلَةَ سَقُوطَ الْبِعُوضَةِ ؟ ١
فَأَمَّا الْقَوْلُ فِي الْبِزَاحِ فَقَدْ بَقِيَ أَكْثَرُهُ وَمَضَى أَقْلُهُ .

وقد ذهبَ النَّاسُ فِي الْبِزَاحِ فِي مَذَاهِبَ مُتَضَادَّةٍ ، وَسَلَكُوا مِنْهُ فِي طَرَفٍ مُخْتَلِفَةٍ ، فَرَزَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ جَمِيعَ الْمِزَاحِ خَيْرٌ مِنْ جَمِيعِ الْجِدِّ ، وَزَعَمَ آخَرُونَ أَنَّ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ عَلَيْهِمَا مَقْسُومَانِ ، وَأَنَّ الْحَمْدَ وَالذَّمَّ بَيْنَهُمَا نِصْفَانِ (٤) .

وَسَنَأْتِي عَلَى جُمْلٍ هَذِهِ الْأَقَاوِيلِ ، ثُمَّ نَذَكُرُ جُمْلَةً مَا نَقُولُ إِنَّ شَاءَ اللَّهِ .

فَأَمَّا الْمُحَايِ عَنِ الْهَزْلِ وَالْمُفْضَلُ لِلْمَرْحِ فَإِنَّهُ قَالَ :

أَوَّلُ مَا أَذْكَرُ مِنْ حِصَالِ الْهَزْلِ ، وَمِنْ فَضَائِلِ الْمَرْحِ ، أَنَّهُ دَلِيلٌ عَلَى حُسْنِ الْحَالِ وَفِرَاقِ الْبَالِ ، وَأَنَّ الْجِدَّ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ فَضْلِ الْحَاجَةِ ، وَالْمَرْحَ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ فَضْلِ الْيَتَى ، وَأَنَّ الْجِدَّ نَصَبٌ (٥) ، وَالْمَرْحَ جَمَامٌ (٦) ، وَالْجِدُّ مَبْغُضَةٌ وَالْمَرْحُ مَحَبَّةٌ . وَصَاحِبُ الْجِدِّ (٧) فِي بِلَاةٍ مَا كَانَ فِيهِ ، وَصَاحِبُ الْمَرْحِ فِي رِخَاءٍ إِلَى أَنْ يَخْرُجَ مِنْهُ .

(١) ب فقه : « في كل شيء » .

(٢) ب : « ينير القمر » م : « ينير القمر » ط : « ينير الفهد » صوابه في ج ، ش والحيوان ١ : ١٣ .

(٣) ج ، ش والحيوان : « نباح الكلاب » .

(٤) م فقط : « نصفان » .

(٥) ب : « وأن النصب جد » م ، ط : « وأن النصب جد » ، صوابهما في ج ، ش .

(٦) الجمام ، كسحاب : الراحة .

(٧) ب ، م : « صاحب الجدة » ، بدون واو .

والجدُّ مؤلِّمٌ وربُّما عرَضَك لأشدُّ منه ، والمزح مُلذِّبٌ^(١) وربُّما عرَصَك لألذُّ منه . فقد شاركه في التعريض للخير والشرِّ ، وبأينته بتشجيع الخيِّر دون الشرِّ

وإنما تشاعَلَ الناس ليَفْرُغوا^(٢) ، وجَدُّوا لِيَهْزِلُوا ، كما تَدَلُّوا لِيَعْرُوا ، وكَدُّوا لِيَسْتَرِيحُوا ، وإن كان المزاح إنَّما صار معيباً ، والمزلُّ مذموماً ، لأنَّ صاحبه لا يكون إلَّا معرُضاً لمجازة الحدِّ ، ومُخاطراً عمدة الصديق .

فالجدُّ داعيةٌ إلى الإفراط ، كما أنَّ المزاح داعيةٌ إلى مجازة القدر والتجاوز للجدِّ^(٣) قاطع^(٤) بين الفريقين في جميع النوعين .

فقد ساواه المزح فيما هو له^(٥) وبأينته فيما ليس له . وإن كان المزح إنَّما صار قبيحاً لأنَّ الذي يكون بعده جدُّ ، ولم يَصِرْ الجدُّ قبيحاً لأنَّ الذي يكون بعده مزح^(٦) ، وكان^(٧) الجدُّ في هذا الوزن أقيح ، وكان المزح^(٨) على هذا التقدير أحسن ، لأنَّ ما جعل الشيء قبيحاً أقيح من الشيء ، كما أنَّ ما جعل الشيء حسناً أحسن من الشيء .

فأمَّا الذي عدَّلَ بينهما فإنَّه زعم أنَّ المزاح في موضعه ، كالجدِّ في موضعه ، كما أنَّ المنع في حقِّه كالبيذن في حقِّه .

(١) ط فقط : « مله » .

(٢) ط فقط : « ليعزوا » .

(٣) ب ، م : « والتجاوز ولجلد » ط : « والتجاوز للجد » ، صوابها في مع ، ش .

(٤) ما عدا مع ، ش : « قاطع » .

(٥) ب فقط : « فباله » .

(٦) ما بين المقتفين ساقط من ب. وروى مع ، ش : « لأن الذي بعده المزح » .

(٧) ب ، م ، ط : « كان » بدون واو .

(٨) ما عدا مع ، ش : « وكان الوزن » ، تحريف .

قال^(١) : ولكلّ شيءٍ موضعٌ ، وليس شيءٌ يصلح في كلّ موضع . وقد قسم الله تعالى الخيرة^(٢) على المعدلة ، وأجرى جميع الأمور إلى غاية المصلحة ، وقسّم أجزاء الثوبة على العزيمة والرخصة^(٣) . وعلى الإعلان والتقية ، وأمر بالمداواة كما أمر بالمبادأة^(٤) . وجوز المعارض كما أمر بالإفصاح ، وسوغ المباح كما شدّد أمر المفروض^(٥) . وجعل المباح جَمَاماً للقلوب^(٦) ، وراحة للأبدان ، وعوّناً على معاودة الأعمال ، فصار الإطلاق كالخطر ، والصبر كالشكر .

فليس للإنسان من الخيرة في الذكر شيءٌ إلاّ وله في النسيان مثله ، ولا في الفطنة شيءٌ إلاّ وله في الغفلة مثله . ولا في السراء إلاّ وله في الصراء مثله .

ولو لم يرزق الله تعالى العباد إلاّ بالصّوات محضاً . وبالصدق بختاً^(٧) ، وبمرّ الحقّ صفحاً^(٨) ، هلكت العوام . ولانتقص^(٩) أمر الخاصّ .

(١) مع فقط : « فقال » .

(٢) مع فقط : « الخير » . والخيرة : الاختيار .

(٣) مع فقط : « وعلى الرخصة » .

(٤) المبادأة : المجاهرة . مع فقط : « بالمبادأة » بالهزة ، تحريف

(٥) مع ، ش : « في المفروض » .

(٦) ما عدا مع ، في : « وجعل الحام » ، تحريف : والجم ، كسحاب : الراحة . ب :

حاماً « م : « جام » ، صوابه في سائر النسخ .

(٧) مع ، ش : « وبالصدق صرفاً » .

(٨) الصفيح : البسط .

(٩) انتقص : انتكث . ب ، م : « ولا ينقص » ط : « ولم ينقص » ، ووجهها ما أثبت .

في مع ، ش : « وانتقص » .

ولو ذَكَرَ الْإِنْسَانُ كُلُّهُ مَا أَنْبِيَهُ ^(١) لَشَقِيَ ، وَلَوْ جَدَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ
لَانْتَكَثَ ^(٢) .

وقد يكون الذُّكْرُ إِلَى الْمَلَكَةِ سُلْماً كما يكون التَّنْبِيْهُ لِلسَّلَامَةِ
سَبَباً . وَسَبِيلُ الْمَرْحِ وَالْجِدِّ كَسَبِيلِ الْمَنْعِ وَالْبِذْلِ . وَعَلَى ذَلِكَ يَجْرَى
جَمِيعُ الْقَبْضِ وَالْبَسْطِ .

فهذا وما قبله جُمْلٌ أَقْوَابِلُ الْقَوْمِ .

ونحنُ نَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ نَجْعَلَ الْمَرْحَ فِي الْجَمْلَةِ كَالْجِدِّ فِي الْجَمْلَةِ ،
بَلْ نَزْعُمُ أَنَّ بَعْضَ الْمَرْحِ خَيْرٌ مِنْ بَعْضِ الْجِدِّ ، وَعَامَّةُ الْجِدِّ خَيْرٌ مِنْ
عَامَّةِ الْمَرْحِ . وَالْحَقُّ أَنْ يُنْضَحَ ^(٣) عَنْ بَعْضِ الْمَرْحِ ، وَيُحْتَجَّ لِجَمْهُورِ
الْجِدِّ ^(٤) . وَكَيْفَ لَنَا بِذِمِّهِ ^(٥) جَمِيعَ الْمَرْحِ مَعَ مَا نَحْنُ ذَاكِرُونَ .

وقد مَرَّحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ^(٦) . وَلَا يُقَالُ : كَانَ فِيهِ
مُرَاحٌ ، وَلَا يُقَالُ مَرَّاحٌ ^(٧) . وَكَذَا الْأَثْمَةُ وَمَنْ تَبَدَّلَ ^(٨) فِي بَعْضِ الْحَالَاتِ
مِنْ أَهْلِ الْجَلْمِ وَالْوَقَارِ .

وقال عمر رضوان الله تعالى عليه : « إِنَّا إِذَا خَلَوْنَا كُنَّا كَأَحَدِكُمْ » .

وقد كان عُمَرُ عِبَوساً قَطُوباً .

(١) ط فقط : « آتيته » ، تحريف .

(٢) ما عدا مع ، ش : « ما لا تنتكث » ، تحريف .

(٣) النضج : الدفاع والذب بالحجة . م : « ينضج » ط : « ينصح » ، حرفتان .

(٤) ط : « ويمنح » .

(٥) ط : « وكيف يتم لنا بذم » م : « وكيف لنا بزم » ، صوابهما في سائر النسخ .

(٦) يده في ب ، ط : « وعلى آله » .

(٧) ط فقط : « مزح » ، تحريف .

(٨) ب ، م : « ومن تبدل لي » ، صوابه في ط . وفي مع ، ش : « ومن هزل » .

وكان زيادٌ مع كُلوْجِه وقُطوبِه^(١) ، يمازح أهله في الحَلا كما يَجِدُ في المَلأ .

وكان الحجاج مع عُنُوهُ وطُغْيانه ، وتمرّده وشدة سلطانه ، يُمَازِح أزواجه ويرقّص صبيانه . وقال له قائل^(٢) : أَمَازِح الأَميرُ أهله ؟ قال : « والله إن تَرَوْنِي^(٣) إِلَّا شيطاناً ؟ والله لربّما رأيتُنِي وإِنِّي لأَقْبِلُ رَجُلًا لِحْداهنَّ ! » .

فقد ذكرنا خَيْرَ العالمين ، وجِلَّةً من خيار المسلمين ، وجباراً عنيداً ، وكافراً لعيناً .

وبعدُ فمن حَرَمِ المزاح وهو شُعبَةُ من شعب السُّهولة ، وقَرَعَ من فروع الطَّلَاقِ . وقد أتانا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بالحنيفيَّة السُّمَّحة ، ولم يَأْتنا بالانقباض والقسوة ، وأمرنا بإفشاء السلام ، والبِشْرِ عند الملاقاة ، وأمرنا بالتواؤدِ^(٤) والتَّصافح والتَّهادي .

٧ - فصل

قد اعتذرنا^(٥) في مَعْصيتك والخلافِ على محبتك مرَّةً بالمزاح ، ومرَّةً بالنسيان ، ومرَّةً بالانكال على عَفْوِكَ وعلى ما هو أولى بك .

(١) الكلوج : التكسر وبدو الأسنان في العيوس . والقطوب : تروى ما بين العينين عند العيوس . ب ، م : « وكان زياد مع كلوحة وقطوبه » ، ط : « وكان مع زياد كلوحة وقطوبه » ، صوابهما في مع ، ش .

(٢) ب : « قائده » م ، ط : « قائده » ، صوابهما في مع ، ش . والقائل هذا هو عنيصة ابن سعيد ، كما سيأتي في الفصل الرابع من كتاب النساء .

(٣) كذا في جميع النسخ بحذف إحدى النونين ، وهو جائز في العربية . وفي المعنى في باب النون : « ونحو تأمروني يجوز فيه الفك ، والإدغام ، والنطق بنون واحدة . وقد قرئ بهن في السبعة . وعلى الأخيرة قبل النون الباقية نون الرفع ، وقيل نون الوقاية . وهو الصحيح » .

(٤) كذا بالفك في جميع النسخ ، وفي مع فقط : « بالتواؤد » .

(٥) ما عدا مع ، ش : « قد اعتدنا » .

والجملة^(١) أئنَّا لو تعمَدنا ثمَّ أصْرَرْنَا ثمَّ أنْكَرْنَا ، لكانَ في فَضْلِكَ ما يتعمَدنا^(٢) ، وفي كَرَمِكَ ما يُوجِبُ التَّعَاوُلَ عَنَّا^(٣) . فكيف وإنَّما سَهَوْنَا ثمَّ تَذَكَّرْنَا ، واعتدَرْنَا ثمَّ أَطْنَبْنَا .

فإنَّ تقبيل^(٤) ، فحفظَكَ أَصَبْتُ ، ولنفسِكَ نَظَرْتُ . وإنَّ لمْ تَقْبِلْ فَاجْهَدْ جَهْدَكَ^(٥) ، ولا أَبْقَى اللهُ عَلَيْكَ إنَّ أَبْقَيْتَ ، ولا عفا عنكَ إنَّ عَفَوْتُ . وأقولُ كما قالَ أخو بني مِنقَرٍ^(٦) :

فما بُقِيَا عَلَيَّ تَرَكَتُمَا نِيَّ وَلَكِنْ خِفْتُمَا صَرَدَ النَّبَالُ^(٧)

واللهُ لئِنَّ رَمِيَّتِي بِنَجِيلَةٍ لَأَرْمِيَنَّكَ بِكِنَانَةٍ ، ولئِنَّ نَهَضْتَ بِصَالِحِ بْنِ عَلِيٍّ لَأَهْضُنَّ بِإِسْمَاعِيلِ بْنِ عَلِيٍّ^(٨) ، ولئِنَّ صُلَّتْ عَلَيَّ بِسَلِيْمَانَ بْنِ وَهْبٍ^(٩) لَأَدْمَعَنَّكَ بِالْحَسَنِ بْنِ وَهْبٍ ، ولئِنَّ تَهَّتْ عَلَيَّ بِمَنَادِمَةِ جَعْفَرِ الْخِيَّاطِ^(١٠)

(١) سج ، ش : « وفي الجملة » .

(٢) ما عدا سج ، ش : « ما يتعمده » .

(٣) ما عدا سج ش : « التفاعل عنه » .

(٤) ب ، م : « فلم تقبل » ، صوابه في سائر النسخ .

(٥) سج ، ش : « فاجهد جهدك ثم اجهد جهدك » .

(٦) هو اللعين المنقري . الحيوان ١ : ٢٥٦ واللسان (صرد ٢٣٦ ، بن ٨٦) .

(٧) البيت من أبيات يتخاطب بها جريراً والفرزدق . والسرود : الإصافية ، والخطأ ، فهو من الأضداد . فعلى الأول يراد : خفتاً أن تصيب نبالى ، وعلى الثاني يراد : خفتاً أن تخطف نبالك . والبقيا : الاسم من قولهم : أبقيت على فلان ، : إذا أزعجت عليه ورحمته .

(٨) سج ، ش : « بأحمد بن خلف وإسماعيل بن علي . وإسماعيل هو ابن علي بن عبد الله ابن العباس . وهو عم السفاح والمنصور . ولى لأبي جعفر فارس والبصرة . المعارف ١٦٣ والطبرى ٨ : ٨٥ .

(٩) ابن وهب ساقطة من رب .

(١٠) ب ، م : « بهت » ، صوابه في سائر النسخ .

(١١) هو جعفر بن دينار الخياط ، أحد قواد المأمون والمتصم والمستعين والرائق والمتوكل . وجهه المأمون سنة ٢١٥ إلى صاحب حصن سنان في حرب الروم . كما وجهه المتصم سنة ٢٢٢ إلى الأفشين مدداً له . الطبرى ٨ : ٦٢٣ و ٢٩ : ٢٩ .

لأَئِيهِنَّ (١) عَلَيْكَ بِحِسْبَةِ (٢) وَهَبِ الدَّلَالَ (٣) .

وَأَنَا أَرَى لَكَ أَنْ تَقْبَلَ الْعَافِيَةَ ، وَتَرْغَبَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي السَّلَامَةِ .
وَاحْدَرِ الْبَغْيَ فَإِنَّ مَصْرَعَهُ وَخِيمٌ ، وَاتَّقِ الظُّلْمَ فَإِنَّ مَرَعَاهُ وَبَيْلٌ .
وَلِيَاكَ أَنْ تَتَعَرَّضَ لِلْجَرِيرِ إِذَا هَجَا ، وَلِلْفَرَزْدَقِ إِذَا فَمَّخَرَ ، وَهَرْمَتْمَةَ
إِذَا دَبَّرَ (٤) ، وَلَقَيْسَ بَيْنَ زُهَيْرٍ إِذَا مَكَرَ (٥) ، وَلِلأَغْلَبِ إِذَا كَرَّ (٦) ،
وَلِطَاهِرٍ إِذَا صَالَ (٧) . وَمَنْ عَرَفَ قَدْرَهُ عَرَفَ قَدْرَ نَخْصِيهِ ، وَمَنْ جَهِلَ
نَفْسَهُ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَ غَيْرِهِ .

وَعَلَيْكَ بِالْجَادَةِ وَدَعِ الْبَيْنَاتِ (٨) فَإِنَّ ذَلِكَ أَمْثَلُ لَكَ .

(١) ما عدا مع ، ش : « لأبيهن » .

(٢) ب : « بحسبة » . تحريف ما أثبت من م ، ط . والحسبة : الاكتفاء ، والمراد

بكتفائه لى . وفى مع تصحيح : « بحالسة » ، وفى ش : « بحسبة » .

(٣) فى البيان ٤ : ١٣ من يدعى وهبا المحتسب .

(٤) هرمئة بن أمين : قاله عباسى ، وولاه الرشيد مصر ثم أفريقية ، ثم عقد له على خراسان
ثم قاد الجيوش المأمون أيام الفتنة ، ثم حبسه حتى مات سنة ٢٠٠ . النجوم الزاهرة والطبرى
فى حوادث سنة ٢٠٠ .

(٥) قيس بن زهير سيد بنى عيس ، وكان يقال فيه « أدهى من قيس بن زهير » . جمهرة
المسكوى ١ : ٥٤٧ والميلدات ١ : ٢٥٠ والمستقصى ١ : ١٢١ .

(٦) الأغلِب بن جشم بن سعد بن جمل بن لُجيم ، العجل ، وهو أحد النعمرين ، عمر
فى الجاهلية عمراً طويلاً ، وأدرك الإسلام فأسلم وحسن إسلامه وهاجر ، ثم كان قمين توجه إلى
الكوفة مع سعد بن أبى وقاص ، فزها واستشهد فى وقعة نهاوند ، فقبره هناك فى قبور الشهداء .
وانظر أخباره فى الأغاني ١٨ : ١٦٤ - ١٦٧٩ والشعراء ٥٩٥ .

(٧) طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق بن حمزة الرستمي ، من ولد رستم بن دستان
وهم موالى خراطة فى الإسلام ولإبهم ينتمون ، وقد نديه المأمون للقاء على بن عيسى بن ماهان قائده
الأمين ، فهزم جيشه وفض جموعه سنة ١٩٥ فحينئذ سلم على المأمون بإمرة المؤمنين ، وسمى
طاهر ذا البينتين ، لأن المأمون كتب إليه لما فرغ من أمر المخلوع : يا أبا الطيب ، يمينك بين
أمير المؤمنين ، وشمالك بين قبايع يمينك بين أمير المؤمنين . التنبيه والإشراف ٣٠٠ - ٣٠١
وثمار القلوب ٢٩١ .

(٨) البينات : جمع بنية ، تصغير ابنة . وبنيات الطريق ، هى الصماب والمعاسف . يقال
للرجل فى الوعظ : ألزم الجادة ودع بنيات الطريق . وقال محمود الوراق :

تكتب بنيات الطريق وجورها فانك فى الدنيا غريب مسافر
ثمار القلوب ٢٧٨ . وفى اللسان (بنى ٩٨) أن بنيات الطريق هى الطرق الصغار تتشعب
من الجادة ، وتسمى أيضاً الترهات .

وأنت - والله يا أخى - تعلمُ علمَ الاضطرابِ وعلمَ الاختيارِ وعلمَ الأخبارِ،
أنتى ^(١) أظهرُ منك حربياً ، وألطفُ كيداً ، وأكثرُ علماً ، وأوزنُ حِلماً ،
وأخفُ روحاً ، وأكرمُ عيناً ، وأقلُّ غشاً ^(٢) وأحسنُ قدماً وأبعدُ غوراً ،
وأجملُ وجهاً ، وأنصعُ ظرفاً ^(٣) . وأكثرُ ملحاً ^(٤) ، وأنطقُ لساناً
وأحسنُ بياناً ، وأجهرُ جَهارةً ، وأحسنُ شارةً ^(٥) .

وأنت رجلٌ تشدو من العلمِ ، وتنتيف من الأخبارِ ^(٦) ، وتموه نفسك ^(٧) ،
وتعزُّ من قدرِكَ ، وتتهيبُ بالثيابِ ، وتتنبئُ بالمراكبِ ، وتتحببُ بحسنِ
اللقاءِ ^(٨) ، ليس عندك إلا ذلك . فليمُ تراجيمُ البحرِ بالجداولِ ^(٩) ،
والأجسامُ بالأعراضِ ، وما لا يتناهى بالجزءِ الذى لا يتجزأ .

فأما البادُ والقامةُ ^(١٠) ، فمن يعدلُ بينَ القناةِ والكُرةِ ، ومن يميلُ
بينَ النخلةِ والدقلِ ^(١١) ، وبينَ رَسْحِ الطحانِ وبينَ سيفِ يمان . وإنما
يكونُ التَّمييلُ ^(١٢) بينَ أتمِّ الخيرينِ وأنقصِ الشرِّينِ ، وبينَ المتقاربينِ

(١) ب ، م : « أى » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٢) الغث : الرديء من كل شيء . ب : « غشا » ش : « عيبا » ، وأثبت ما فى سائر النسخ .

(٣) الناصع : الخالص الواضح . ط فقط : « طرفا » .

(٤) الملح ، بالكسر : الحسن . يقال ملح يملح ملحوة وملاحة وملحاً ، أى حسن .

(٥) الشارة : الحسن والهيئة واللباس . ط ، مع ، ش : « إشارة » .

(٦) التنتف : الانتراج . ويقال رجل تنفة ، بضم ففتح ، ينتف من النم شيئاً ولا يستقصيه .

(٧) أصل التمويه الطلاء بالذهب أو بالفضة .

(٨) ما عدا مع ، ش : « الحسن القا » .

(٩) ما عدا مع : « البحر بالجداول » . والجدول بفتح الجيم وكسرها : النهر الصغير ،

(١٠) الباد : أصل النخلة . ب ، م : « فملك الباد والعامة » ط : « فأنك الباد والعامة »

صوابهما فى مع ، ش .

(١١) ما عدا ب : « يميل » . والتميل بين الشيئين : الموازنة بينهما . وانظر الحيوان ٢ : ٩٨ ،

١٥١ واللسان (ميل ١٦٠) . ب ، م : « النخلة » ، صوابه فى سائر النسخ . والدقل : ضرب

من النخل رديء التمر . ب ، م : « والدكل » ط : « والدكل » ، صوابهما فى مع ، ش .

(١٢) فى جميع النسخ : « التميل » ، والوجه ما أثبت .

دونَ التفاوتين . فأما الحَلُّ والعَسَل ، والحَصَاةُ والجَبَل ، والسَّمُّ والغذاءُ ، والفقْرُ والغنى ^(١) ، فهذا مما لا يخطأ فيه الذَّهن ^(٢) ولا يكذب فيه الجِس .

والخطأُ ثلاث : خطأ الجِس ، وخطأ الوَهْم ، وخطأ الرأى . كل ذلك سبيله التنبيه والتذكير ^(٣) ، والتقويم والتأنيب ^(٤) .

والعمدُ نوعٌ واحد ، وسبيله القمُّ والحظَر ، والضرب والقتل . وأوَّلُ ذلك أن يهجره صاحبُ الحكمة ^(٥) ، ولا يُطمعه في وعظٍ ولا مجالسة .

وقد رأيتَ مَنْ يعاند الحقَّ إذا كانت المعرفة عيانياً . وأنت لا ترضى بجحد العيان ^(٦) حتى تدعوَ إليه ، ولا ترضى بالدُّعاءِ إليه حتى تعادى فيه ، ولا ترضى بالعداوة حتى يكون لك في ذلك الرياسة ^(٧) ، ولا ترضى بالرياسة دون السابقة ^(٨) ، ولا بالطَّارف دون التَّالِد ، ولا بالتَّالِد دون الأعراق التي تسرى ، والمواليد التي تنبئ . ولا ترضى بأن يكون أوَّلًا حتى تكون آخرًا ^(٩) ، ولا بالمدارة دون المباداة ^(١٠) ،

(١) ب فقط : « والغنا » .

(٢) هذا ما في ب . يقال غطى غطاً غطاً ، من باب فرح . م ، ط : « يخطئ » مسهل أخطأ يخطئ . وفي مع ، ش : « يخطئ » .

(٣) م فقط : « التثنية » ، تحريف .

(٤) ب ، م : « والتأنيب » ، صوابه في سائر النسخ .

(٥) ش فقط : « أن يهجره صاحب الحكمة » .

(٦) ما عدا مع ، ش : « بحجة العيان » .

(٧) مع ، ش : « لك فيه الرياسة » ، وأثبت ما في م ، ب . وفي ط : « لك الرسالة » وهذه محرفة .

(٨) كلمة « دون » ساقطة من ط . والسابقة : السبق والتقدم .

(٩) ب : « ولا يرضى بأن يكون أولاً حتى يكون آخرًا » . ومثله في م مع البده بقوله : « ولا يرضى » . مع ، ش ، ط : « ولا ترضى بأن تكون أولاً حتى تكون آخرًا » . ولعل الوجه ما أثبت .

(١٠) المباداة : المواجهة كما سبق في

ولا بالجدال دون القتال . وحتى ترى أَنَّ التقيَّة حرام^(١) وَأَنَّ التفتير كُفْر .

وحتى لو كنت إمامَ الرافضة لقتلتَ في طرفة^(٢) ولو قُتلتَ في طرفة^(٣) هلكت الأمة، لأنك رجلٌ لا عَصَبَ لك . والإمامة^(٤) لا تصلح اليوم^(٥) في الإخوة، ولو صلحت في الإخوة^(٦) كانت تصلح في ابن العم، ثم دنت من الأرحام شيئاً^(٧) فصارت لا تصلح إلا في الولد . وفي هذا القياس أنها بعد أعوام لا تصلح^(٨) إلا ببقاء الإمام نفسه إلى آخر الأبد . وهذا هو علَّة أصحاب التناسخ^(٩) . وأنت رافضيٌّ ولم يكن هذا عندك .

فأهدِ إلى الآن من خالص التوتيا^(١٠) كما أهديت إليك باب التناسخ .

وأنت ترى القتل في حق المعاندة شهادة، وترى أَنَّ مُباينة

(١) التقية : أن يظهر أمراً وباطنه بخلاف الظاهر ، يفعل ذلك اتقاء .

(٢) ب : « لو قُلت في طرفة » ، م : « لو قُلت في طرفة » ، ط : « وكنت في طرف » ، و الصواب من مع ، ش . والمراد طرفة عين .

(٣) التكلة من مع ، ش .

(٤) ب : « والإمامة » ، م : « والإمامة » ، والصواب في سائر النسخ .

(٥) التكلة من مع ، ش .

(٦) مع ، ش : « ثم إنها دنت من الأرحام بعد ذلك » .

(٧) ب ، م فقط : « لا يصلح » ، تحريف .

(٨) مع ، ش : « المناخنة » .

(٩) ب ، م : « فأهد الآن الآن من خالين التوتيا » ط : « فأهد الآن من لبن التوتيا »

صوابهما في مع ، ش . وفي اللسان : « التوتيا معروف حجر يكتحل به » . وهو باللاتينية : (Tutia) وبالإنجليزية : (Tuty) . وقد عرفها الطبيب محمد شرف بأنها أكسيد الزنك غير النقي . قال داود : « وأصل التوتيا إما معدني يوجد فوق الألبانيا ... وإما مصنوع من الألبانيا المسحوقة » .

المتصفين في تعظيم العُتود سعادة^(١) ، وأنَّ الرِّياسة في دَفْعِ الحَقائِقِ
مَرْتَبَةٌ ، وأنَّ الإِقْرارَ بما يَظْهَرُ لِعيونِ صَبَّةٍ^(٢) ، وأنَّ الشُّهْرَةَ^(٣) بِالْمِغَالِبَةِ
رِفْعَةً .

أَظْهَرُ القَوْمِ عِنْدَكَ حِجَّةً أَرْقَمَهُمُ صَوْتاً ، [وَأَخْلَقُهُمُ^(٤)] لِلتَّوْبَةِ
أَصْلُبُهُمْ وَجْهًا ، وَأَحْسَنُهُمْ تَقِيَّةً أَقْلَهُمْ تَحْرَجًا^(٥) ، وَأَحْسَنُهُمْ إِنْصَافًا
أَشْدَّهُمْ شَعْبًا .

تَعَشَّقُ المْتَهَوْرُ^(٦) ، وَتَكَلِّفُ بِالْجَمُوحِ ، وَتُصَافِي الوَقَاحَ . والأَدِيبُ
عِنْدَكَ مَن يَعْيبُ أَحَادِيثَ الجِلساءِ ، وَاعْتَرَضَ^(٧) عَلَى نَوَادِرِ الإِخْوَانِ ،
وَغَمَزَ فِي قِصَا التَّنْذِيمِ^(٨) ، وَنَصَبَ لِلعَالِمِ ، وَأَبْغَضَ العَاقِلِ^(٩) ، وَاسْتَشْقَلَ
الظُّرَيْفَ ، وَحَسَدَ عَلَى كُلِّ نِعْمَةٍ ، وَأَنْكَرَ كُلَّ حَقِيقَةٍ .

جُعِلَتْ فِدَاكَ . إِنَّمَا أَخْرَجْتُكَ مِنْ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ^(١٠) ، وَأَوْرَدُ عَلَيْكَ
البَابَ بَعْدَ البَابِ ، [لِأَنَّ^(١١)] مِنْ شَأْنِ النَّاسِ مَلَالَةٌ الكَثِيرِ ، وَاسْتِثْقَالُ
الطَّوِيلِ وَإِنْ كَثُرَتْ مَحَاسِنُهُ وَجَمَّتْ فَوَائِدُهُ . وَإِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ يَكُونَ
اسْتِطْرَافُكَ لِلآقِ^(١٢) قَبْلَ أَنْ يَنْقُضِيَ اسْتِطْرَافُكَ لِلْمَاضِي ؛ لِأَنَّكَ مَنَى

(١) العتود ، بالضم : الميل والجرود عن القصد . ما عدا مع ، ش : « العمود » .

(٢) ما عدا مع ، ش : « بما يظهر للعيون » وفي م أيضاً : « صفة » ، تحريف .

(٣) ما عدا مع ، ش : « الشهرة » ، تحريف .

(٤) التكلة من مع ، ش .

(٥) ما عدا مع ، ش : « وأحسنهم بنية أقلهم خرجا » ، تحريف .

(٦) مع : « المتهود » ، تحريف .

(٧) ب ، م : « وأعرض » ، صوابه في سائر النسخ .

(٨) كتابة عن الغيبة . والغمز : العيب .

(٩) ب ، م : « لعائل » ، صوابه في سائر النسخ .

(١٠) م ، ط : « من موسى إلى شيء » ، تحريف .

(١١) التكلة من مع ، ش .

(١٢) مع ، ش : « التاك » .

كنت للشيء متوقِّعاً ، وله منتظر^(١) ، كان أحظي^(٢) لما يَرِدُ عليك ،
وأشهى لما يُهدى إليك . وكلُّ منتظرٍ معظَّم ، وكلُّ مأمولٍ مكْرَم .
كلُّ ذلك^(٣) رغبةٌ في الفائدة ، وصِبايةٌ بالعلم ، وكلَّفاً بالانتباس ،
وشحاً على نصيبى منك ، وصنّاً بما أوَّملهُ عندك ، ومداراةً لطباعك ،
واستزادةً من نشاطك . ولأنَّك على كلِّ حالٍ بَشَر ، ولأنَّك مُتناهى
القوَّة مدبِّر .

٨ - فصل

والعقلُ - حفظك الله - أطولُ رقدة من العين^(٤) ، وأحوجُ إلى
الشحذ من السيِّف^(٥) ، وأفقرُ إلى التَّعاهد ، وأسرعُ إلى التَّغيير ،
وأدواؤه أقتل ، وأطبأؤه أقلُّ . فمن تداركته قبل التَّفاقم أدرك أكثر
حاجته ، ومن رامه بعد التَّفاقم لم يدرك^(٦) شيئاً من حاجته .

ومن أكبر أسباب العلم كثرةُ الخواطر ، ثمَّ معرفةُ وجوبِ المطالب .
[ثمَّ^(٧)] في الخواطر الغثُّ والسَّمين ، والفاسدُ والصَّحيح ، والمسرعُ
إليك والبطيءُ عنك ، والدَّقيقُ الذى لا يكاد يُفهم ، والجليلُ الذى
لا يلقى الفهم . ثمَّ هي على طبقاتها في التَّقديم والتَّأخير ، وعلى منازلها
في التَّباين [والتَّمييز^(٨)] .

(١) مع ، ش : « منتظر أوله متوقِّعاً » .

(٢) م فقط : « أعطاً » ، حرف .

(٣) ط : « وذلك » .

(٤) ب فقط : « رقدة من العين » .

(٥) ما عدا مع ، ش : « من الشيب » ، تحريف .

(٦) ب ، م : « ولم يدرك » . والواو مقممة .

(٧) التكلة من مع ، ش .

(٨) التكلة من مع ، ش .

وللمطالِب طُرُق ، ولدرك الحقائق أبواب ، فَمَنْ أخطأها وانتظر^(١)
كان أسوأ حالاً مَنْ لم يخطئها ولم ينتظر^(٢) . وعلى قدر صحة العقل
يصحُّ الخاطر ، وعلى قدر التفريع يكون التنبه .

هذا^(٣) جماعُ هذا الكتابِ وجمهرته ، وأقسامه وجملته .

ثمَّ من أنفع أسبابه الحفظُ لما قد حُصِّل ، والتقيدُ لما وُرد ،
والانتظارُ لما لم يرد^(٤) ، وأن لا تُخلى نفسك من الفكرة إلا بقدر
جَمَامِ الطَّبيعة ، وأن تعلم أن مكان الدرس من الحفظ كما كان الحفظ
من العلم ، وأن تعرف فضل^(٥) ما بين طلب العلم للمنافسة والشهرة^(٦) ،
وبين طلبه للرغبة والرغبة ، وتعلم أن العلم لا يوجد بمكنونه ، ولا يسمح
بسره ومخزونه ، إلا لمن رغب فيه لكرم عُصْرِهِ ، وفصله لحقيقته
جوهره ، ورقعه عن التكسب ، وصانته عن التبذل . وأنه لا يُعطيك
خالص الحكمة حتى تُعطيه خالص المحبة . كان يُقال : « مَنْ شابَّ
شيب له^(٧) » .

وخصلةٌ ينبغي أن تعرفها وتقف عندها^(٨) ، وهو أن تبدأ من العلم

(١) ما عدا مع ، ش : « ونظر » .

(٢) ما عدا مع ، ش : « ولم ينظر » .

(٣) مع ، ش : « هذه » . وجماع كل شيء : مجتمع أصله ، والجامع للأشياء الشامل ما فيها

(٤) ب : « وانتظار كما لم يرد » ، صوابه في م ، ط . وفي مع ، ش : « والانتظار

لما يرد » .

(٥) الفصل : الفرق . ما عدا مع ، ش : « فضل » .

(٦) ما عدا مع ، ش : « للمنافسة والشهرة » . وفي مع ، ش : « المنافسة والشهرة »

والوجه ما أثبت .

(٧) الشوب : الخلط .

(٨) م : « وخصلة ينبغي أن يعرفها ويقف عندها وهو أن يبدأ من العلم بالمهم ويختار »

.. إلخ ، تحريف . وفي مع ، ش : « وخصلة ينبغي أن تعرفها وتصطنعها وتذكرها وتقف

عندها » .

بالمهم ، وتختار من صنوفه ما أنت أنتشط له ^(١) ، والطبيعة به أعنى ؛ فإنَّ القبول ^(٢) على قدر النشاط ، والبلوغ فيه على قدر العناية .

ثمَّ من أفضل أسبابه تخلص أخلاقه ^(٣) ، وتمييز أجناسه ، والمعرفة بأقداره ، حتى تعطى كلَّ معنى حقه من التقريب والرفعة ^(٤) ، وقسطه من الإبعاد والضعة ، حتى لا يتشاغل ^(٥) إلا بالسَّمين الثمين ، وبالخطير النفيس ، ولا تُلقي إلا العثَّ الخسيس ، والحقير السخيف . فإنَّك متى كنتَ كذلك لم تعتبرَ فضل ^(٦) ما بين النظَّرين ، ولا صرَّفَ ما بين النعتين ^(٧) .

الكيس كلُّ الكيس ، والجذُّ كلُّ الجذِّ : أن لا تعجل ولا تبطئ ، وأن تعلم أن السرعة غير العجلة ، وأن الأناة خلاف الإبطاء . وأن تكون على يقين من ذلك الحقِّ إذا وقَّيته شرطه ^(٨) ، وعلى ثقة من ثواب النظر إذا أعطيته حقه .

هذا ^(٩) جملة ما للعدر في هذه المسألة ، وجملة الحجَّة فيما قدمنا من الافتتان والإطالة . فإنَّ كُنَّا أصبنا فالصواب أردنا ، وإنَّ كُنَّا أخطأنا فما ذلك عن فسادٍ من الضمير ، ولا قلة احتفالٍ بالتقصير . ولعلَّ طبيعة

(١) ما عدا مع ، ش : « ما أنت أبسط له » .

(٢) ما عدا مع ، ش : « فإنَّ القول » ، تحريف .

(٣) ما عدا مع ، ش : « تخلص » . والتلخيص : التبيين والشرح .

(٤) ما عدا مع ، ش : « حتى يعطى كلَّ معنى حقه من التقريب والرفعة » .

(٥) ما عدا مع ، ش : « حتى لا يتشاغل » .

(٦) ش : « لم تميز فضل » ، مع : « لم تميز فضل » .

(٧) ط ، مع ، ش : « ولا فرق ما بين النعتين » . والصرف : الزيادة والفضل .

(٨) ب فقط : « أوفيته » .

(٩) مع ، ش : « هذه » .

خانت ، أو لعلّ عادةً جذبت^(١) ، أو لعلّ سهواً اعترض ، أو لعلّ
شغلاً منّع .

خفّض عليك أيها السامع ، فإنّ الخطأ كثير عام^(٢) ، وغالبٌ
مُستَوَلٍ ، والصواب قليلٌ خاص ، ومقموعٌ مُستخفٍ .

فوجّه اللائمة إلى أهلها ، وألزمها مَنْ هو أحقُّ بها ، فإنهم كثير
ومكانهم مشهور^(٣) .

اعجب من الصواب لا تعجب من الخطأ . اعجب من أنّ العجب
قد ذهب . اعجب من تعجب وفيه العجب أعجب . وكيف التعجب
والأمور كلها عجب^(٤) !؟

كنت^(٥) أتعجب من كلّ فعل خرج من العادة ، فلما^(٦) خرجت
الأفعال بأسرها من العادة صارت^(٧) بأسرها عجباً ، فبدخول كلها في
باب العجب خرجت بأجملها من باب العجب .

وقد ذكر^(٨) الله تعالى ذكره التعجب في كتابه جلّ جلاله . وقد
تعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله في زمانه ، وفي الناس

(١) مع ، ش : « أو لعلّ علة حدثت » .

(٢) ما عدا مع ، ش : « كبير عام » ، تحريف .

(٣) ما عدا مع ، ش : « ومكانك مشهور » .

(٤) هذه الفقرة كلها ليست في مع ، ش . وهي نفس ما في م ، ط . لكن في ب : « أعجب

الصواب لا تعجب وفيه العجب أعجب . وكيف التعجب والأمور كلها عجب » .

(٥) ما عدا مع ، ش : « كيف » .

(٦) ما عدا مع ، ش : « كما » .

(٧) من العادة ، ساقطة من ط . وفي ب ، م : « صارت » ، وفي ط : « وصارت » ،

تحريف .

(٨) ما عدا مع ، ش : « وقد ذكرنا » ، تحريف .

يومئذ النَّاقِصُ والوافر ، والمثوب والخالص ، والمستقيم والمعوج . وقال الله تبارك وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلِهِمْ ﴾^(١) ، وقال له^(٢) : ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾^(٣) .

واعلم أنه لم يبق من المتعجب الفاتك^(٤) إلا نصيب اللسان ، ولا من المستمع الفاتك^(٥) إلا حصّة السمع . فأما القلوب فخاوية قاسية ، وراكدة خامدة ، لا تسمع داعياً ولا تجيب سائلاً ، قد أغفلها سوء العادة^(٦) ، واستوتى عليها سلطان السكر^(٧) .

فدع عنك ما لست مثله^(٨) ، فإنّ فيها أوردته عليك شغلاً شاغلاً^(٩) ، وهما داخلاً .

اعلم أنّ الله تعالى قد مسح الدنيا بحذاقها ، وسلخها من جميع معانيها . ولو مسخها كما مسح بعض المشركين قرّة ، أو كما مسح بعض الأمم خزائير ، لكان قد بقى بعض أمورها ، وحبس عليها بعض أعراضها ، كبقية ما مع القرد في ظاهره^(١٠) من شبه الآدمي ، وبقية ما مع الخنزير

(١) الآية هـ من سورة الرعد .

(٢) له ، ساقطة من مع ، ش ، ط .

(٣) الآية ١٢ من سورة الصافات .

(٤) الفاتك : كل من يهجم على الأمور النظام غير مبال بما يفعل ، وأصل الفتك القتل مجاهرة . ما عدا مع ، ش : « القتال » .

(٥) ما عدا مع ، ش : « القتال » .

(٦) أغفلها : جعلها غافلة .

(٧) السكر : حالة بين العقل وعدمه ، وغلبة اللذة على الشباب . ما عدا مع ، ش « السكر » .

(٨) مع ، ش : « ما لست منه » .

(٩) ما عدا مع ، ش : « عليك شغلاً شاغلاً » ، تحريف .

(١٠) ب ، م : « في ظاهره » ، تحريف .

في باطنه من شبه البشري^(١) . لكنه جل ذكره مسح الدنيا مسحاً متتابعاً ، ومستقصى مستفراً ، فبين حالتيها^(٢) جميع التضاد ، وبين معنييها^(٣) غاية الخلاف .

فالصوابُ اليومَ غريب ، وصاحبه مجهول . والعجب ممن^(٤) يصيب وهو مغمور ، ويقول وهو ممنوع ، فإن صرتَ عليه عوناً مع الزمان قتلته ، وإن أمسكتَ عنه فقد وفرتَه^(٥) .

ولسنا نريد منك النصرة ولا المعونة ، ولا التأييد ولا التعزية^(٦) . وكيف أطلب منك ما قد انقطع سببه ، واجتث أصله . وقد كان يقال : « من طلب عيباً وجدّه » .

هذا في الدهر الصالح دون الفاسد . فإن أنصفتَ فقد أغربت ، وإن جرتَ فلم تعد ما عليه الزمان .

وهبَ الله لنا ولك الإنصاف ، وأعادنا وإياك من الظلم . والحمد لله كما هو أهلُه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم^(٧) .

وصلى الله على سيدنا محمد خاصة ، وعلى أنبيائه عامة ، وسلّم .

(١) م ، ط : « البشر » .

(٢) ما عدا مع ، ش : « حالهما » .

(٣) ما عدا مع ، ش : « معنيهما » .

(٤) ما عدا مع ، ش : « من » .

(٥) مع ، ش : « وفرتَه » .

(٦) م : « ولا التأييد ولا التعزية » ، تحريف .

(٧) اللع العظيم ، من ب فقط . وبدل هذا في كل من مع ، ش : « وهو حسبتنا ونم الوكيل والمعين » ، كما أن عبارة الصلاة والتسليم التالية ليست فيها .



من رسالتي
مدح النبيذ وصفة أصحابه
إلى الحسن بن وهب



فصل

من صدر رسالته إلى الحسن بن وهب^(١)

في مدح النبيذ وصفة أصحابه

أنا - أبقاك الله - الطالبُ المشغول ، والقائلُ المعذور ، فإنْ رأيتَ
خطأً فلا تنكر فإنِّي بصدده وبعرض منه ، بل في الحال التي تُوجبُه^(٢) ،
والسبب الذي يؤدي إليه . وإن سمعتَ تسديداً فهو الغريب الذي
لا نجده^(٣) . اللهم إلا أن يكون من بركة مكاتبتك ، ويؤمن مطالبتك .
ولأنَّ ذكركَ يَشحذُ الذَّهن ، ويصوِّركَ في الوهم ، ويجلِّو العقل ، وتأميلك
ينفِي الشُّغل .

ولا يُعجبني ما رأيتُ من قلةِ إطنابك^(٤) في هذا النبيذ ، وقلةِ
تلهيكِ هذا الشرابِ وأنت تجد من فضل القول وحسن الوصف
مالا يُصاب عند خطيبٍ ، ولا يُوجدُ عند بليغ . وأنت ولو ممَّشيتَ
الحَيلاء ، وحفرتَ العظماة ، وأرغبتَ الشعراة ، وأعطيتَ الخطباء ،
ليكونَ القولُ منهم موصولاً غير مقطوع ، ومبسوطاً غير مقصور ، لكنك
بعدُ مقصراً في أمره ، مفرطاً في واجبِ حقِّه . فلا تأديبَ اللهُ قبيلتَ ،
ولا قولَ الناصحِ سمعت .

(١) الحسن بن وهب بن سعيد بن عمرو بن حصين ، كاتب شاعر ، كان معاصراً لأبي تمام
والبحرئى ، ومحمد بن عبد الملك الزيات . وقد رثاه البحرئى بعد وفاته ، فوات الوفيات
١ : ٢٦٧-٢٦٩ . وفي سنة ٢٢٩ يذكر الطبري أن الخليفة الواثق ألزمه فيمن ألزمهم من الكتاب
أن يؤدي أربعة عشر ألف دينار ، كما ألزم أخاه سليمان بن وهب كاتب إيتاخ أن يؤدي أربعة عشر ألف
دينار .

(٢) ب : « يوجه » ، صوابه في م ، ط .

(٣) ط : « لا نجده » بالياء .

(٤) الإطناب : المبالغة في المدح أو الذم . والمطنب : المبالغ لكل أحد . ب : « أظانك »

تحريف ، وفيها أيضاً : « ولم يعجبني » .

(٨ - رسائل الجاحظ)

قال الله تبارك وتعالى (١) : ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (٢). وقال الأول : « استلجم النعمة بإظهارها ، واستزدد الواهب بإدامة شكره » (٣).

بل كيف أنست بالجلساء (٤) ، وأرسلت إلى الأطباء ولم يكن في قربك [منه] (٥) ما يغنيك ، وفي النظر إليه ما يشفيك ؟ ولم ملكت نفسك دون أن تهدي (٦) ، ولم رأيت الوقارَ مروءةً قبل أن تستخف (٧) ولم كان الهذيان هو الهذيان ، والسخف هو المروءة ، والتناقض هو الصحة وإلا بأي شيء خصصت (٨) ، وبأي معنى أتيت (٩) ولم لم تخلع فيه العذار ، ولم تخرج فيه عن كل مقدار (١٠).

وأى شيء أجرب جلدك وأمات حالك ، وأضعف مسرتك (١١) ، وأوحش منك رقيقك ، إلا العقوبة المخفضة ، وإلا الغضب والعقاب ، وحرمت الثواب إلا النهاؤن في أمره . وقلة الرعاية لحقه .

وكيف صارت أمراض الأمراض الأغنياء وأمراضك أمراض الفقراء إلا للمعرفى بفضله ، واستخفافك بقدره . ألا ترى أنني منقرس مفلوج ، وأنت أجرب مبسور (١٢) .

(١) بدله في ط : « سمعت قول الله تبارك وتعالى » ب تكرار « سمعت » .

(٢) الآية ١١ من سورة الضحى .

(٣) ط : « المواهب بإدامة شكرها » .

(٤) م ، ب : « أبيت بالجلساء » ، تحريف .

(٥) التكلة من م .

(٦) م ، ب : « أن تهدي » بالبدال المهملة .

(٧) ب : « تستخف » .

(٨) م ، ب : « خصصته » .

(٩) م ، ب : « أتيت » .

(١٠) م ، ب : « من كل مقدار » .

(١١) م ، ب : « وضعف مسرتك » .

(١٢) المسور : من به البواسير . والباسور : علة تحدث في المقدمة . وفي جميع النسخ :

« مستور » ، ولا وجه له .

فإن تُبِتَ فما أقرب الفرج ، وأسرع الإجابة . وسنفرغ لك إن شاء الله قريباً ، وتفليح سريعاً .

وإن أصررت وتتابعت وتماديت^(١) أتاك والله من سفلة الأدواء ، وزوى عنك من علية الأمراض ، ما يضعك موضعاً لا ارتفاع معه ، ويلزق بعقبك عاراً لا زوال له . ثم تبيع أشياخك السبية ، وتبعضهم المنمة . علم الله أنه استظرفك واستملحك ، واستحسن قَدَّك ، واسترجع عقلك ، وأحسن بك ظناً ، ورآك^(٢) لنفسه أهلاً ، ولأخاذه موضعاً ، وللأنس به مكاناً ، وأنت لاه عنه زار عليه ، متهاون به ، قد أقبلت على ديوانك تشغل بملازمته ، وتلدغ ما يجب عليك من صفاته ، والدعاء إلى تعظيمه . بل هل كنت من شيعته والذابين عن دولته ، والمعروفين بالانقطاع إليه ، والانبئات في حبله^(٣) ، إلا أن يكون عندك التقصير لحقه ، والتهاون بأمره اللازم ، ونهى الناس عنه .

ولو خرجت إلى هذا لخرجت من جميع الأخلاق المحمودة ، والأفعال المرضية . وأحسب أنك لا تعظمه ولا ترق له . ولو لم تتعصب إلا لجماله وحسنه ، ولو لم تحافظ على نقائه وعنته لكان ذلك واجباً ، وأمرأً معروفاً . فكيف مع المناسبة التي بينكما ، والشكل الذي يجمعكما . فإن كان بعضك لا يصون بعضاً وأنت لا تعظم شقيقاً ، فأنت والله من حفيظ العشيبة أبعد ، ولمعرفة الصديق أنكرو .

ولقد نعت إلى بُبك ، وأنكلتني جفاظك^(٤) ، وأفسدت عندي كل

(١) التتابع : التهافت في الشر ، والوقوع فيه . ب ، م : « تتابعت » ، صوابه في ط .

(٢) ب ، م : « وزادك » ، صوابه في ط .

(٣) الانبئات : الانقطاع . والمراد به الملازمة وتوثيق الصلة .

(٤) أكله الأمر : جملة يفقده ، يقال أكلها الله ولدها ، وأكله الله أمه ، إذا أصابها بفقدها . ب : « أتكلني » صوابه في ط ، م .

صحيح . وقد كان يقال : « لا يزال الناس بخيرٍ ما تعجبوا من العَجَب »
قال الشاعر^(١) :

وهلك الفتي أن لا يَرَّاحَ إلى النَّدى وأن لا يرى شيئاً عجيباً فيعجب
قال بكر بن عبد الله المرزوقي^(٢) : « كنا نتعجب من دهرٍ لا يتعجب
أهلُه من العجب فقد صرنا في دهرٍ لا يستحسِنُ أهلُه الحسن . ومن
لا يستحسِنُ الحسن لم يستقمح القبيح » .

وقال بعضهم : « العَجَب تركُّ التعجب من العَجَب » .
ولم أقل ذلك إلا لأن تكون به ضنيناً^(٣) ، وبما يجب له عارفاً .
ولكنك لم توفّر حقّه ولم توفّر نصيبه^(٤) .

فإن قلت : ومن يقضى واجب حقّه ، وينتهض بجميع شكره ؟
قلنا : فهل أعدرت في الاجتهاد حتى لا يُدَمَّ إلا تعجبك ، وهل
استغرقت الاعتذار حتى لا تعاب إلا بما زاد على قوتك . ولولا أنك عين
الجواد^(٥) لم نطلبه منك . ولولا ظنك^(٦) لم تحمدك عليه . ولولا معرفتك

(١) هو حارثة بن بدر الفدائي ، كما في الحيوان ٣ : ٨٠ والبيان ٣ : ٢١٩ والأغاني
٢١ : ٣١ وأما المرتضى ١ : ٣٨٨ ويقال إن حارثة قد تمثل به . ونسب في معجم البلدان
٢ : ٢٥٤ إلى عمرو بن النعمان البياض . وانظر أمالي الزجاجي ٣٠ .

(٢) بكر بن عبد الله المرزوقي : نسبة إلى مزينة ، أبو عبد الله البصري ، ثقة ثبت . مات
سنة ست ومائة . تقريب التهذيب وصفة الصفوة ٣ : ١٧١ . وفي جميع النسخ : « المرزوقي » ،
صوابه ما أثبت . وانظر الحيوان ٦ : ٥٠٨ - ٧ : ٢٠٢ ، ٢٥٤ . وليكرهذا أقوال مأثورة
في مواضع كثيرة من البيان والتبيين . وكان من النساك والزهاد من أهل البيان .

(٣) ب : « ظنينا » ، صوابه ق م ، ط .

(٤) ط : « ولم تعرف نصيبه » .

(٥) عين الجواد ، أي نفسه ، والمراد الجواد الكامل ، الجامع لأسباب السخاء ، وفي
المهاسة ١٦٩١ يشرح المرزوقي ، قول عبد العزيز بن زرارة الكلبي :

فلا أكن عين الجواد فإني على الزاد في الظلماء غير شتم
وإلا أكن عين الشجاع فإني أرد سنان الرمح غير سلم

ب : « عين الجواد » ط : « عين الجود » . والضمير في « لم نطلبه » عائد إلى النبي المفقوم
من الكلام .

(٦) م : « ضنك » .

بفضله لم نعجب من تقصيرك في حقه ، ولولا أن الخطأ فيك أفيح ،
والقبیح منك أسمح ، وهو فيك أبينُ والناسُ به أكلف^(١) ، والعيونُ
إليه أسرع - لكان كتابنا كتابَ مُطالِبة ، ولم يكن كتاب معاتبَة ،
ولشغلنا الجلمُ لك عن الحلم عليك ، والقولُ لك عن القول فيك .

وقد كنتُ أهابك بفضلي هيتي لك ، وأجترئُ عليك بفضلي
بَسْطِكَ لي ، فمنعني جِرْصُ الممنوع ، وخوفُ المُشْفِق ، وأمنُ الواثق ،
وقناعة الراضي .

وبعد فمن طلب ما لا يُجد به ، وسأل ما لا يُوهب مثله ممن يجود
بكلِّ ثمين ، ويهبُ كلَّ خطير ، فواجبٌ أن يكون من الردِّ مشفقاً ،
وبالتحج مؤقناً .

وإن كان ، أبتاك الله^(٢) ، أهلاً لأن يُمنع ، وكنتَ حفظك الله أهلاً
أن تبذل ، وجب أن تكون^(٣) باذلاً مانعاً ، وساكناً مطمئناً ، إلا أن
يكون الحرب سلباً سيجالاً ، والحالاتُ دُولاً .

ولهذه الخصال ما وقع الطلُّب ، وشاع الطمع .

فإن منعتَ فعذرُك مبسوطٌ عند من عرف قدره^(٤) ، وإن بذلتَ فلم
تعدُ الذي أنتَ أهله عند من عرف قدرك ، إلا أنه لا يجودُ بمثله إلا
غنى عند جميع الناس ، أو عاقلٌ فوق جميع الناس .

وكيف لا أطلبُ طلبَ الجريء المتهور ، وأمسكُ إمساكَ الهائب

(١) م ، ط : « فيه أكلف » .

(٢) في جميع النسخ : « أبتاه الله » ، والوجه ما أثبت .

(٣) ب ، ط : « يكون » .

(٤) ط : « قدرك » . والمراد قدر النبيذ .

الموقر. وليس في الأرض خلقٌ يُعْتَقَرُ^(١) في وصفه المحالُّ ولا يُسْتَحْسَنُ
الهدْيَانُ سواه ؟ !

على أنَّ من الهدْيَانِ ما يكون مفهوماً، ومن المحالِّ ما يكون مسموعاً^(٢).

فمن جهل ذلك ولم يعرفه، وقصّر ولم يبلغه^(٣)، فليسمع كلامَ
اللُّهْفَانِ والثُّكْلَانِ، والغَضْبَانِ والغَيْرَانِ، ومرْقَصَةِ الصَّبِيَانِ، والمُنْعِظِ^(٤)
إذا دنا منه الحَلْقِي .

حتَّى إذا استوهبك لم تهب له منه^(٥) حتَّى تدفِّق وقفة، وتطرقِ
ساعة^(٦)، ثم تستحسن وتستشير، ثم تشفع^(٧) على مُستوهبه، وتُعجِبُ
من شاريه، ثم تُطِيلُ الكتاب بالامتنان، وتُسَطِّرُ فيه بتعظيم الإنعام مع
ذكر مناقبه، ونَشْرُ محاسنه^(٨) بقدر الطاقة. وإن لم تبلغ الغاية فاعرفِ
وزنه، واشهد بطيبه، وأرخَّ ساعته^(٩)، واشهر في النَّاسِ يومه^(١٠).

وما ظنك بشئٍ لا تقدر أن تشرّد في ذكره^(١١) وتفرط في مدحه،

(١) ب، م : «يفتقر» .

(٢) ما يكون، ساقطة من ب، م .

(٣) ب فقط : «لم يبلغه» .

(٤) ب : «المنعظ» م : « والمنفط » ط : « والمتعظ » صوابها ما أثبت . والحلق :
الذي فسد عضوه فانعكس ميل شبوته . وهو من ألفاظ المولدين . وانظر شفاء الغليل ص ٧٠
والحيوان ١ : ٢٢٥ - ٣ : ١٦٦ . وفي جميع النسخ : « والحلق » ، والواو مقحمة .

(٥) ب ، م : « وحسب وأتاك أن يهب لي منه » وليس له وجه . وأثبت ما في ط .

(٦) ط : «وتطرقه ساعة» .

(٧) في جميع النسخ : «تشفع» .

(٨) ب ، م : «ويشر محاسنه» .

(٩) في جميع النسخ : «وأرح» بالخاء المهملة .

(١٠) في جميع النسخ : « واشهد » بالذال .

(١١) الشroud : الذهاب والحرب . م ، ط : « تسرد في ذكره » .

وتبصيرك واضح في لونه^(١)، مكتوب في طعمه^(٢)، موجود في رائحته^(٣)، إذ كان كلُّ ممدوح يقصُر عن مدحه وقدره، ويصغر في جنبه .
ولو لم يُستدلَّ على سعادة جنِّك، وإقبال أمرك، وأنَّ لك زىَّ صدقٍ في^(٤) العلوم، وخطأ^(٥) في الرِّزق المقسوم، وأنَّك ممن تبقَى نعمه، ويدومُ شكره، ويفهم النعمة ويُرثها^(٦)، ويدراً عنها ويستديجها^(٧)، إلَّا أنَّه وقع في قسَمك، وكان في نصيبك - لكان ذلك أعظم البرهان، وأوضح الدلالة .

بل لا نقول : إنَّه وقع اتفاقاً وغرْساً نادراً، حتَّى يكون التوفيق هو الذى قصد به، والصنع هو الذى دلَّ عليه .

ولو لم تملك غيره لكنت غنياً، ولو ملكت كلَّ شيءٍ سواه لكنت فقيراً . وكيف لا يكون كذلك وهو مُستراح قلبك، ومجالُ عقلك، ومرتعُ عينك^(٨)، وموضعُ أنسك، ومُستنبطُ لذتك، وينبوعُ سرورك، ومصباحك في الظلام . وشعارك من جميع الأقسام .

وكيف وقد جمع أهبة الجلال، ورشاقة الجلال، ووقار البهاء .

(١) في الأصول : « في كونه » .

(٢) ب : « مكتوب في طعمه » م : « مكتوب في طعمه » ط : « مكتوباً في طعمه » ، ولعل الوجه ما أثبت .

(٣) ط فقط : « موجوداً » بالنصب .

(٤) ب ، م : « ذى صدق » ، تحريف . والزى : اللباس والهبة والمنظر ، وأصله زوى ، تقول منه زويته ، والقياس زويته .

(٥) ب : « وخطأ » م : « وخطأ » ، صوابهما في ط .

(٦) رب النعمة : حفظها ورعاها . وفي الحديث : « لك نعمة تربها » . ط فقط : « تربها »

(٧) ب ، م : « ويفرعتها » ، صوابه في ط .

(٨) يرتع : يلهو ويلعب وينتم . وفي الأصول : « ومرتع عينك » ، والوجه ما أثبت .

ومنه قول المتنبى :

حشاي على جمر ذكى من الهوى وعيناي في روض من الحسن ترتع

وشرف الخير (١) ، وعزّ المجاهرة (٢) ولذّة الاختلاس ، وحلاوة
الدبيب (٣) .

وسأصف لك شرف (٤) النبيذ في نفسه ، وفضيلته على غيره ، ثم أصبف
فضل شرابك على سائر الأشربة ، كما أصبف فضل النبيذ على سائر
الأنبذة ؛ لأنّ النبيذ إذا تمثّى في عظامك ، والتبس بأجزاءك ،
ودبّ في جفنانك ، منحك صدق الحسّ ، وفراغ النفس ، وجعلك رخيّ
البال ، خلّى الذرع (٥) ، قليل الشواغل ، قدير العين ، واسع الصدر ،
فسح الهمم (٦) حسن الظنّ . ثم سدّ عليك أبواب التهم ، وحسن دوتك
الظنّ وخواطر الفهم (٧) ، وكفك مئونة الجراسة ، وآلم الشفقة ،
وخوف الخلدان ، وذللّ الطمع وكدّ الطلب (٨) ، وكلّ ما اعترض على
السُرور وأفسد اللذّة ، وقاسم الشهوة ، وأخلّ بالنعمة (٩) .

وهو الذي يردّ الشيوخ في طبائع الشبان ، ويردّ الشبان في نشاط
الصبيان ، وليس يخاف شاربه (١٠) إلاّ مجاوزة السُرور إلى الأشر ،
ومجاوزة الأشر إلى البطر .

(١) م فقط : « الخيل » ، تحريف .

(٢) ط فقط : « المجاهدة » ، والوجه في ب ، م .

(٣) أصل الدبيب المشى على هيئة ، واستعمل مع الاختلاس في معاني التوصل إلى المشوق
في خفية . وفي جميع الأصول : « التزييب » .

(٤) ب : « شرب » ، تحريف .

(٥) الذرع : الطاقة والوسع . م : « عل الذراع » تحريف ، وفي ب : « على الذرع » ،
وأثبت ما في ط .

(٦) ب ، م : « الهم » .

(٧) ب ، م : « الظنّ خواطر الفقه » .

(٨) م : « وكدّ الطلب » .

(٩) ب ، م : « واختل بالنعمة » .

(١٠) ب : « نجاة شاربه » م : « نجات شاربه » ، صوابهما في ط .

ولو لم يكن من أياديهِ ومِنِّهِ ، ومن جميل آلائهِ ونِعَمِهِ ^(١) ، إِلَّا
أَنَّكَ مَا دُمْتَ تَمْزُجُهُ بِرُوحِكَ ، وتُزَاجِجُ بَيْنَهُ وبينَ ذَمِّكَ فَقَدْ أَغْفَاكَ من
الجد ونَصَبِهِ ، وَحَبَّبَ إِلَيْكَ المَزَاحَ والفِكَاهَةَ ، وبَغِضَ إِلَيْكَ الاستِقْصَاءَ
والمحاوَلَةَ ، وَأزَالَ عَنكَ تَعَقُّبَ الجِشْمَةِ وكَدَّ المَرْوَةِ ، وصَارَ يَوْمُهُ جَمَالًا
لأَيَّامِ الفِكرَةِ ، وتَسْهِيلًا لمعاوَدَةِ الرُّويَةِ ^(٢) ، لكانَ في ذلكَ ما يوجب
الشُّكْرَ ، وَيُطِيبُ الذِّكْرَ ^(٣) . مع أَنَّ جَمِيعَ ما وصفناه وأخبرنا به عنه
يقومُ بِأيسرِ الجِرمِ ^(٤) ، وأقلِّ الثمنِ .

ثم يعطيك في السُّقْرِ ما يُعطيك في الحَضَرِ ، وسواءٌ عليك البساتينُ
والجَنَّانُ ^(٥) . وَيَصْلُحُ بالليلِ كما يَصْلُحُ بالنهارِ ، وَيُطِيبُ في الصُّحُورِ
كما يَطِيبُ في الدُّجُنِ ، وَيَلْدُّ في الصَّيْفِ كما يَلْدُّ في الشِّتَاءِ ، ويجري
مع كلِّ حالٍ . وكلُّ شيءٍ سِوَاهُ فَإِنَّمَا يَصْلُحُ في بعضِ الأحوالِ .
ويدفعُ مَضْرَّةَ الخُمَارِ ، كما يجلبُ منفعَةَ السُّرُورِ .

إِن كُنْتَ جَذَلًا [كانَ] ^(٦) يَأْرَأُ بِكَ ، وَإِن كُنْتَ ذَاهِمًا نَفَاهًا عَنكَ .
وما الغيثُ في الحرثِ بِأَنْفَعَ منه في البَدَنِ ، وما الرِّيشُ السُّخَامُ ^(٧)
بِأَدْفَأَ منه للمَقْرُورِ ^(٨) .

(١) ب ، م : « يلائه ونعمه » .

(٢) الروية : التفكير في مهل . ب ، م : « الروية » .

(٣) م ، ط : « يطيب الذكر » . والإطناب : الإطالة .

(٤) الجرم ، بالفتح : الكسب .

(٥) البستان : جنينة فيها نخيل متفرقة ، معرب . والجنة : الحديقة ذات النخل والشجر .

(٦) التكلمة من ط . والجذل : الفرح .

(٧) السخام ، كغراب : البن الحسن ، أو ما كان ليناً تحت الريش الأعلى . وفي جمع

الأصول : « السجام » ، صوابه ما أثبت .

(٨) المقرور : الذي أصابه البرد . م : « بأذى منه » تحريف .

وَيُسْتَمَرُّ بِهِ الْغِذَاءُ^(١) وَيُدْفَعُ بِهِ ثِقَلُ الْمَاءِ ، وَيُعَالَجُ بِهِ الْأَدْوَاءُ ،
وَيَحْمَرُّ بِهِ الْوَجْتَانِ ، وَيُعَدَّلُ بِهِ قِضَاءُ الدِّينِ .

إِنْ انْفَرَدَتْ بِهِ أَهْلَاكَ ، وَإِنْ نَادَمْتَ بِهِ سَوَاكَ .

ثُمَّ هُوَ أَصْنَعُ لِلسَّرُورِ مِنْ زَلْزَلِ^(٢) ، وَأَشَدُّ إِطْرَاباً مِنْ مُخَارِقِ^(٣) ،
وَقَدَرِ احْتِيَاجِهِمَا إِلَيْهِ كَقَدْرِ اسْتِغْنَائِهِ عَنْهُمَا ؛ لِأَنَّهُ أَصْلُ اللِّذَاتِ وَهِيَ
فَرْعُهُ ، وَأَوَّلُ السَّرُورِ وَنَتَاجُهُ .

وَلِلَّهِ دَرُّ أَوَّلٍ مِنْ عَمَلِهِ وَصَنَعِهِ^(٤) ، وَسَقِيًّا لِمَنْ اسْتَنْبَطَهُ وَأَظْهَرَهُ .
مَاذَا دَبَّرَ ؟ وَعَلَى أَيِّ شَيْءٍ دَلَّ ؟ وَبِأَيِّ مَعْنَى أَنْعَمَ ؟ وَأَيُّ دَفِينٍ أَثَارَ ؟ وَأَيُّ
كَنْزٍ اسْتَخْرَجَ .

وَمِنْ اسْتِغْنَاءِ النَّبِيِّدِ بِنَفْسِهِ ، وَقَلَّةِ احْتِيَاجِهِ إِلَى غَيْرِهِ ، أَنَّ جَمِيعَ
مَا سِوَاهُ مِنَ الشَّرَابِ يُصْلِحُهُ التَّلْحِجُ ، وَلَا يَطْيِبُ إِلَّا بِهِ .

وَأَوَّلُ مَا يُثَنَّى عَلَيْهِ بِهِ ، وَيُذَكَّرُ مِنْهُ^(٥) ، أَنَّهُ كَرِيمُ الْجَوْهَرِ ، شَرِيفُ
النَّفْسِ ، رَفِيعُ الْقَدْرِ ، بَعِيدُ الْهَمِّ . وَكَذَلِكَ طَبِيعَتُهُ الْمَعْرُوفَةُ^(٦) وَسَجِيَّتُهُ
الْمُوصُوفَةُ . وَأَنَّهُ^(٧) يَسُرُّ النُّفُوسَ وَيَحْبِبُّ إِلَيْهَا الْجُودَ ، وَيَزِينُ لَهَا
الْإِحْسَانَ ، وَيَرْغَبُهَا فِي التَّوَسُّعِ ، وَيُورِثُهَا الْغِنَى ، وَيَنْفِي عَنْهَا الْفَقْرَ ،

(١) م : « ويستمرى » بالتسبيل .

(٢) زلزلة ، بفتح الزايم : مفرغ ضارب بالعود يضرب به المثل ، وإليه تصاف بركة
زلزلة ببغداد ، تعلم على إبراهيم الموصل ، وله أخبار مع هارون الرشيد مذكورة في الأغاني .
(٣) مخارق : أحد كبار المنعنين في الدولة العباسية ، غنى هارون والمأمون والأمن والمصم
والواثق . وأخباره مسببة في الأغاني .

(٤) ب : « أول من صنعه » ، فقط .

(٥) م ، ط : « ماثنى عليه به » وفي ط أيضاً : « ونذكر منه » .

(٦) طبيعته ، ساقطة من ب ، م .

(٧) ب ، م : « وأن » .

وَيَمْلُؤُهَا عِزًّا ، وَيَعِدُّهَا خَيْرًا ، وَيَحْسِنُ الْمَسَارَةَ ^(١) ، وَيَصِيرَ بِهِ النَّبْتُ
خَضِيْبًا وَالْجَنَابُ مَرِيْعًا ^(٢) ، وَمَاهُوْلًا مُعْشَبًا .

وليس شىءٌ من المأكول والمشروب أجمع للطرفاء ، ولا أشد نالفاً
للأدباء ، ولا أجلب للمؤيدين ، ولا أدعى إلى خلاف الممتين ^(٣) ،
ولا أجدر أن يُستدام به حديثهم ويُخرج مكنونهم ، ويطول به مجلسهم ،
منه .

وإن كلَّ شرابٍ وإن كان حلا وراقاً ^(٤) ، وصفا ودقاً ، وطاب
وعذب ، وبرد ونقح ^(٥) ، فإن استطابتك لأول جرعة منه أكثر ^(٦) ،
ويكون من طبائع أوقع . ثم لا يزال في نقصانٍ إلى أن يعود مكروهاً
وبليّة ^(٧) ، إلا النبذة ، فإن القدح الثاني أسهل من الأول ، والثالث
أيسر ^(٨) ، والرابع ألدُّ ، والخامس أسلس ، والسادس أطرب : إلى أن
يُسَلِّمَكَ ^(٩) إلى النوم الذى هو حياتك ، أو أحد أفواتك ^(١٠) . ولا خير
فيه إذا كان إسكاره تغلباً ، وأخذُه بالرأس تعسفاً ، حتى يُميت الحسَّ

(١) م فقط : « السارة » .

(٢) المرعي : الخصب ، يقال مكان مرع ومرعي : خصيب مرع ناعم . قال الأعشى :
سلس مقلسه أسب — سل عسده مرع جنسابه

ب ، م : « مربعان ، صوابه في ط .

(٣) في الأصول : « الممتين » ، ولا وجه له .

(٤) ط ، م : « وإن حلا ورق » .

(٥) النفاخ : الماء العذب البارد الذى يتفخ العطش ، أى يكسره برده . وفي جميع

الأصول : « ونفخ » ، والوجه ما أثبت .

(٦) م : « الأول جرعه منها » . وفي ب ، م . « كثر » ، وفي ط : « لأول جرعة

مسا كثير » . والوجه ما أثبت .

(٧) ب فقط : « ورية » ، تحريف .

(٨) ب فقط : « أسر » .

(٩) في جميع الأصول : « يسلك » ، ولا وجه له .

(١٠) ب : « وأحد أفواتك » .

بحدّته ، ويَصْرَعُ الشارب بسوّته^(١) ، ويورث البُهرَ بكِظّته ، ولا يسرى في العروق لِعَلّظته^(٢) ، ولا يجرى في البدن لُرُكوده ، ولا يدخل في العُمق ولا يدخل الصّميم .

ولا والله حتّى يغازل العقل ويعارضه ، ويدغدغه ويخادعه^(٣) ، فيسره ثم يهزه^(٤) ، فإذا امتلاً سروراً وعاد ملكاً محبوباً ، خاتله السكر وراوَعَه ، وداراه وما كرهه ، وهازلَه وغانَجَه . وليس كما يعتصب السكر^(٥) ، ويعتسف الداذي^(٦) ، ويفترس الزّبيب ؛ ولكن بالتفتير والعُمز ، والحيلة والخُتل^(٧) ، وتحبيب النوم ، وتزيين الصّمت .

وهذه صفة شرابك إلّا ما لا نُحيط به^(٨) ، ونعوته تتبدّل^(٩) إلّا ما يقبح منها الجهل به .

وخير الأُشربة ما جمع المحمود من خصالها وخصال غيرها . وشرابك هذا قد أخذ من الخمر دبيبها في المفاصل^(١٠) ، وتمشّيها في العظام ولونها الغريب ؛ وأخذ بَرْدَ الماء ورقّة الهواء ، وحركة النار ، وحُمرة

(١) ب ، م : « ويسرخ » بالسّين ، تحريف . وسورة الشراب : تناوله للرأس ووثوبه فيه .

(٢) ط : « لعلّظته » .

(٣) الدغدغة : حركة في نحو الإبط أو البطن أو الأخص يحدث عنه انفعال .

(٤) م : « ويسره ثم يهزه » .

(٥) السكر ، بالتحريك : الخمر نفسها .

(٦) الداذي : شراب يتخذ من نبت له عنقود مستطيل ، وحبه كحب الشعير ، طيب الرائحة جيد الإسكار . قال :

شربنا من الداذي حتى كأننا ملسوك لئسا بر العراقين والبحر

(٧) في جمع النسخ : « والحيل » ، والوجه ما أثبت .

(٨) ب ، م : « إلّا ما لا يحيط به » .

(٩) ب ، م : « ويبت بتبدل » ، ط : « ونعوته بتبدل » ، والوجه ما أثبت .

(١٠) م ، ط : « زينتها في المفاصل » ، صوابه في ب . وفي ب أيضاً : « فقد أخذ » .

خَدَكَ إِذَا حَجَلْتِ ، وصفرة لونك إِذَا فَرَعْتِ ، وبياض عارضيك إِذَا
ضججت (١) .

وحسبي بصفاتك عوضاً من كلِّ حَسَنٍ ، وخلفاً من كلِّ صالحٍ .
ولا تعجب أن كانت نهايةَ الهمةِ وغايةَ المُنْيةِ ؛ فَإِنَّ حُسْنَ الوجوهِ إِذَا
وافق حُسْنَ القوامِ وشُدَّةَ العقلِ ، وجودةَ الرأى ، وكثرةَ الفضلِ (٢)
وسَمَةَ الخُلُقِ ، والمُغْرَسَ الطَّيِّبَ والنصابَ الكريمَ ، والطَّرْفَ الناصعَ (٣) ،
واللِّسَانَ الفَخْمَ (٤) والمُخْرَجَ السَّهْلَ والحامِثَ المُؤَيَّقَ ، مع الإشارةِ
الحَسَنَةِ والنَّيْلِ فِي الجِلْسَةِ ، والحركةَ الرَّشِيقَةَ واللَّهْجَةَ الفصيحَةَ ،
والنَّمْهَلَ فِي المَحَاوِرَةِ (٥) والمُزَرَ عِنْدَ المُنَاقَلَةِ (٦) ، والبَدْيَ البديعِ والفكرِ
الصحيحِ ، والمعنىَ الشريفِ ، واللفظَ المحذوفِ ، والإيجازَ يَوْمَ الإيجازِ
والإطنابَ يَوْمَ الإطنابِ (٧) ، يَقُلُ الحَرَ (٨) وَيُصِيبُ المَقْصِلَ ، ويبلغُ بالعمو
ما يقصُرُ عَنْهُ الجَهْدُ ، كانَ أَكْثَرَ لِنُضَاعَفِ الحُسْنِ ، وأحَقَّ بالكمالِ .
والحمد لله .

وإنَّ التاجَ بهي (٩) وهو في رأسِ الملوكِ أسمى ، والياقوتَ الكريمِ حَسَنٌ
وهو في جيدِ المرأةِ الحسناءِ أحسنُ ، والشَّعْرَ الفَاخِرَ حَسَنٌ وهو من في

(١) العارض : جانب الوجه ، وصفحة الفم ؛ وهما عارضان . ط : « وبياض عارضك »
بالإفراد .

(٢) في جميع الأصول : « الفعل » .

(٣) م ، ط : « والطرف الناصع » صوابه في ب . وانظر ما سبق في ص ١٠٠ .

(٤) ط فقط : « المعجم » .

(٥) في جميع النسخ : « المجاوزة » الوجه ما أثبت .

(٦) المناقلة : مراجعة الكلام في صلب وتنازع . والهد : سرعة في الكلام والقراءة .

وفي جميع الأصول : « والمز » بالزاي ، تحريف .

(٧) المراد باليوم هنا الوقت . ب : « يزم » بالهمز في هذا الموضع وسابقه ، تحريف .

(٨) يقل : يكسر ويضرب . ب ، م : « يقل » بالفتحة ، تحريف .

(٩) ب ، م : « التاج بهي » .

الأعرابي أحسن . فإن كان من قول المنشد وقريضه ، ومن نخبه وتحبيره ، فقد بلغ الغاية وأقام النهاية .

وهذا الشراب حسن وهو عندك أحسن ، والهدية منه شريفة وهي منك أشرف .

وإن كنت قدرت أنني إنما طلبته منك لأشربه أو لأسقيه ، أو لأهبيه ، أو لأتحسأه في الخلا ، أو أدبره في الملا^(١) أو لأنافس فيه الأكفأ ، واجترت زيادة الخلطاء^(٢) ، أو لأبتذله لعيون الندماء ، أو أعرضه لنوائب الأصدقاء فقد أسأت في الظن ، وذهبت من الإساءة في كل فن^(٣) ، وقصرت به فهو أشد عليك ، ووضعته منه^(٤) فهو أضر بك .

وإن ظننت أنني إنما أريده لأطرف به معشوقه^(٥) ، أو لأستميل به هوى ملك ، أو لأغسل به أوصار الأفتدة^(٦) . أو أداوي^(٧) به خطايا الأشربة ، أو لأجلو به الأبصار العليلة ، وأصلح به الأبدان الفاسدة ، أو لأتطوع به على شاعر مُفلق^(٨) أو خطيب مضقع ، أو أديب مُدقع ، ليقتق لهم المعاني^(٩) ، وليخرج المذاهب ، وليما في جانبهم من

(١) ب فقط : « أو أدبر في الملا » . والملا : المتسع من الأرض .

(٢) الاجترار : الاجتناب والاجتناب . ب ، م : « واختر » ط : « واختر » والوجه ما أثبت . وانظر الحيوان ٦ : ١٣ ورسائل الجاحظ ١ : ١٠٢ . والخلطاء : جمع خليط ، وهو الصاحب ، والجار المصافي . ب ، م : « الفطا » ط : « الخلط » ، والصواب ما أثبت .

(٣) ب ، م : « عن » ، صوابه في ط .

(٤) ب ، م : « ووصفت منه » .

(٥) الإطراف : الإحاطة ، أطرفه بالشيء : أتخفه به . ب ، م : « لأطرف » صوابه بالطاء المهملة كما في ط .

(٦) الوضر : الدرر والوسخ ، جمه أوصار . ط : « وضر الأفتدة » .

(٧) م ، ط : « أو أداوي » ، صوابه في ب .

(٨) المفلق : الذي يأتي بما يجب من الشعر . م : « مفلق » ، تحريف .

(٩) في جميع الأصول : « ليفيق » ، والوجه ما أثبت .

الأجر ، وفي أعناقهم من الشكر^(١) ، ولينفضوا^(٢) ما قالت الشعراء في الحمد ، وليرتجعوا ما شاع لهم من الذكر^(٣) ؛ فإني أريد أن أضع من قدرها ، وأن أكسر من بالها^(٤) ، فقد تاهت وتيه بها . أو لأن أنفءال برؤيته^(٥) وأتبرك بمكانه ، وآتس بقربه ، أو لأشني به الظماء^(٦) ، أو أجعله إكسير أصحاب الكيمياء^(٧) ، أو لأن أذكرك كلما رأيتك ، وأدعبك كلما قابلته^(٨) أو لأجتلب به اليسر^(٩) وأنفي العسر . ولأنه والفقّر لا يجتمعان في دار ، ولا يقينان في ربيع . ولأن تعرف^(١٠) به حسن اختيارك ، وأتذكر به جودة اجتهائك^(١١) . أو لأن أستدل به على خالص حبك ، وعلى معرفتك بفضلي ، وقيامك بواجب حقّي - فقد أحسنت في الظنّ ، وذكرت من الإحسان في كلّ فن . بل هو الذي أصونته صيانة الأعراض . وأغار عليه^(١٢) غيرة الأزواج .

- (١) في جميع الأصول : « وفي أعناقهم من الشكر » ، والسواب ما أثبت .
(٢) النفس : الاستقصاء . ب : « ولينفضوا » ط : « ولينفضوا » ، صوابها في م .
(٣) ط : « وليرتجعوا ما شاع لهم من الذكر » ، تحريف .
(٤) البال : القلب ، والنفس ، والخاطر ، والأمل .
(٥) ب ، م : « إلى رؤيته » .
(٦) الظماء : مصدر ظمى يظمأ ظمأ وظماء وظماء . ب : « الظماء » ط : « الظمان » .
(٧) الإكسير : مادة مركبة كان القدماء يزعمون أنها تحول المدن الرخيص إلى ذهب ، وشراب في زهمهم يطيل الحياة ، معرب . ويسمى أيضاً حجر الفلاسة . انظر استينجاس ٨٩ .
(٨) ب ، م : « وأدعبك كلما قابلته » ، صوابه في ط .
(٩) ب : « أو لأجتلب » بالحاء المهملة . وفي م : « اليسرى » موضع « اليسر » .
(١٠) ب فقط : « أو لأتعرّف » .
(١١) الاجتهاد ، بالجيم : الاختيار والاصطفاء . وفي الكتاب العزيز : « هو اجتهابكم وما جعل عليكم في الدين من حرج » ، « شاكرأ لأنعمه اجتهاد وهداه إلى صراط مستقيم » .
(١٢) غار يغار غيره : ثارت نفسه لإبداها زينتها وعاسنها لغيره ، أو لانصرافها عنه إلى آخر . م فقط : « وأغبر » ، تحريف .

واعلم أنك إن أكثرت لي منه خرجتُ إلى الفساد ، وإن أقلتَ
أقسمت على الاقتصاد ،

وأنا رجلٌ من بني كنانة ، وللخلافة قرابة ، ولي فيها شُعبة^(١) ،
وهم بعد^(٢) جنسٌ وعصبة ، فأقلُّ ما أصنعُ إن أكثرتَ لي منه أن أطلبُ
المُلْك ، وأقلُّ ما يصنعون بي أن أنفى من الأرض . فإن أقلتَ فإنك الولدُ
الناصح ، وإن أكثرتَ فإنك الغاشُّ الكاشح . والسلام .

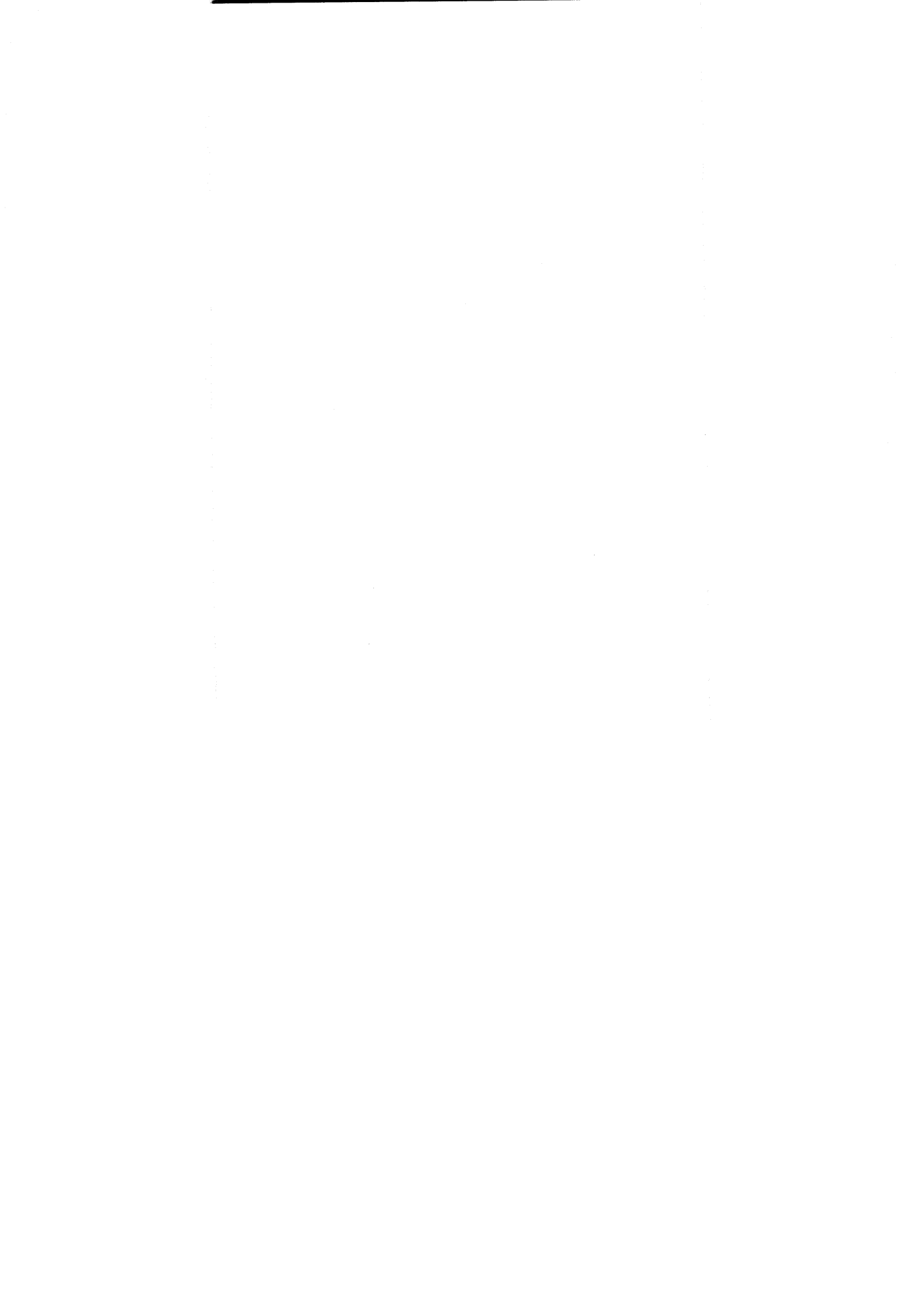
(١) ب : « وفيها شعبة » .

(٢) ب : « أبعد » ، تحريف .

٥

من كتابه في

طبقات المعنّين



فصل

من صدر كتابه في طبقات المغنين

ثم إننا وجدنا الفلاسفة المتقدمين في الحكمة، المحيطين بالأمر
معرفة، ذكروا أن أصول الآداب التي منها يتفرع العلم لنوى الأبواب
أربعة:

فمنها النجوم وبروجها، وحسابها الذي يعرف به^(١) الأوقات
والأزمنة، وعليها مزاج الطبائع وأيام السنة.

ومنها الهندسة وما اتصل بها من المساحة والوزن والتقدير، وما أشبه
ذلك.

ومنها الكيمياء والطب اللذان بهما صلاح المعاش وقوام الأبدان،
وعلاج الأسقام، وما يتشعب من ذلك.

ومنها اللحن ومعرفة أجزائها وقسمها، ومقاطعها ومخارجها ووزنها،
حتى يستوى على الإيقاع ويدخل في الوتر وغير ذلك مما اقتصرنا من
ذكره على أسائه وجمله، اجتناباً للتطويل، وتوخيها للاختصار. وقصدنا
للأمر الذي إليه انتهينا، وإيأه أردنا. والله الموفق وهو المستعان.

ولم يزل أهل كل علم فيما خلا من الأزمنة يركبون منهاجه،
ويسلكون طريقه، ويعرفون غامضه، ويسهلون سبيل المعرفة بدلائله،
خلاً الغناء، فإنهم لم يكونوا عرفوا علله وأسبابه ووزنه وتصاريفه،
وكان علمهم به على الهاجس وعلى ما يسمعون من الفارسية والهندية^(٢)

(١) ب، م: « بها »، صوابه في ط.

(٢) ب فقط: « والفهلندية ».

إلى أن نظر الخليل البصري في الشعر ووزنه ، ومخارج ألفاظه ، وميز ما قالت العرب منه ، وجمعه وألفه ، ووضع فيه الكتاب الذي سباه العروض ، وذلك أنه عرض جميع ما روي من الشعر وما كان به علماً ، على الأصول التي رسمها ، والعلل التي بينها ، فلم يجد أحداً من العرب خرج منها ، ولا قصر دونها . فلماً أحكم وبلغ منه ما بلغ ، أخذ في تفسير النغم واللحن ، فاستدرك منه شيئاً ، ورسم له رسماً احتذى عليه من خلفه ، واستتمه من عني به^(١) .

وكان إسحاق بن إبراهيم الموصلي أول من حذا حذوه ، وامتلأ هديه ، واجتمعت له في ذلك آلات لم تجتمع للخليل بن أحمد قبله^(٢) ، منها معرفته بالغناء ، وكثرة استماعه إياه وعلمه بحسنه من قبيحه ، وصحيحه من سقيمه .

ومنها جذفه بالضرب والإيقاع ، وعلمه بوزنها . وألف في ذلك كتباً معجبة ، وسهل له فيها ما كان مستصعباً على غيره ، فصنع الغناء بعلم فاضل ، وحذق راجح ، ووزن صحيح ، وعلى أصل مستحکم له دلائل صحيحة واضحة ، وشواهد عادلة^(٣) . ولم نر أحداً وجد سبيلاً إلى الطعن عليه والعيب له .

وصنع كثير من أهل زمانه أغاني كثيرة بهاجس طبعهم^(٤) والاتباع لمن سبقهم ، فبعض أصاب وجه صوابه^(٥) ، وبعض أخطأ ، وبعض قصر في بعض وأحسن في بعض .

(١) ط : « واستمد من عني به » .

(٢) ب ، م : « قبلها » صوابه في ط .

(٣) ب ، م : « وشواهد عادلة » .

(٤) ب فقط : « بها حيس طبعهم » .

(٥) ب ، م : « وجهل صوابه » .

ووجدنا لكل دهر دولة للمغنين يحملون الغناء عنهم ، ويُطارحون به فتيانَ زمانهم ، وجوارى عصرهم . وكان يكون في كل وقتٍ من الأوقات قومٌ يتنادمون ، ويستحسنون الغناء ، ويميزون رديه من جيده ، وصوابه من خطائه (١) ، ويجمعون إلى ذلك محاسنَ كثيرةً في آدابهم وأخلاقهم ، وروايتهم وهيئاتهم (٢) ، فلم نجد هذه الطبقة دُكرُوا . ووجدنا ذكر الغناء وأهله باقياً .

وخصصنا في أيامنا وزماننا بفتية أشرف (٣) ، وخلانٍ نظاف ، انتظم لهم من آلات الفتوة وأسباب المروءة ما كان محجوباً عن غيرهم ، معدوماً بين سواهم ، فحملنى الكلف والمودة لهم (٤) والسرور بتخليد فخرهم (٥) وتشديد ذكرهم والحرص على تقويم أودى ذى الأود منهم حتى يلحق بأهل الكمال في صناعته ، والفضل في معرفته ، على تمييز طبقة طبقة منهم ، وتسمية أهل كل طبقة بأوصافهم ، وآلاتهم وأدواتهم ، والمذاهب التي نسبوها إليها أنفسهم ، واحتملهم إخوانهم عليها . وخلطنا جداً بهزل ، ومزجنا تقريباً بتعريض (٦) ، ولم نرد بأحد ممن سمينا سوءاً ، ولا تعمداً نقداً (٧) ولا تجاوزنا حداً .

ولو استعملنا غير الصدق لفضلنا قوماً وحاببنا آخرين . ولم نفعل

(١) الخطاء ، كسحاب : الخطأ . ط : « خطه » . والجاحظ يميل إلى استعمال المدود .
 (٢) م : « وروايتهم » ب : « ومروايتهم » ، والوجه ما أثبت من ط . والرواء : المنظر ، والمنظر الحسن .
 (٣) م : « بقتة » .
 (٤) م ، ط ، ساقفة من ب .
 (٥) م ، ب : « بتجلية فخرهم » .
 (٦) التفرغ : التأنيب والتعنيف . ب : « تقريباً » بالفاء ، م ، ط « تعريفاً » ، صوابها مأثبت . والتعريض : الذم الذي لا يصرح به .
 (٧) م ، ب : « صحا »

ذلك ؛ تجنباً للحيف^(١) ، وقصداً للإنصاف^(٢) . وقد نعلم أن كثيراً منهم سيُبالغ في الذم ، ويحتفل في الشتم^(٣) ، ويذهب في ذلك غير مذهبنا .

وما أيسر ذلك فيما يجب من حقوق القِتيان وتفكيههم ، والله حسيبٌ من ظلم ، عليه نتوكل وبه نستعين ، وهو ربُّ العرش العظيم .

ولم نَقصد في وصف مَنْ وصفنا من الطبقات التي صنّفنا منهم ، إلا لمن أذركنا من أهل زماننا ممن حصل بمدينة السلام ، إذ مَنْ خرج عنها ونزع إلى الفتوة بعد التوبة ، وإلى أخلاق الحداثة بعد الحنكة^(٤) ، وذلك في سنة خمس عشرة ومائتين^(٥) . فرحم الله امرأً أحسن في ذلك أمرنا^(٦) ، وحذاً فيه حدونا ، ولم يعجل إلى ذمنا ، ودعا بالمغفرة والرحمة لنا .

وقد تركنا في كلِّ بابٍ من الأبواب التي صنّفنا في كتابنا ، فُرْجاً^(٧) لزيادة إن زادت ، ولإحقاق إن لحقت ، أو نابتة إن نبتت . ومَنْ عسى أن ينتقل به الجِدُّ من مرتبته إلى ما هو أعلى منها ، أو يعجزُ به القصور عمّا هو عليه منها إلى^(٨) ما هو دونها ، إلى مكانه الذي إليه نَقَلَهُ ارتفاعُ درجةٍ أو انحطاطها ، ومَنْ لعلنا نصير إلى ذكره ممن

(١) م ، ط : « تعيباً » .

(٢) ط : « بل قصداً للإنصاف » .

(٣) ط : « ويحتفل في الشتم » .

(٤) الحنكة والحنك ، بضم الحاء فهما : التجربة والبصر بالأمور .

(٥) هذا تسجيل للسنة التي تم فيها أو بعدها تأليف هذه الرسالة .

(٦) ب : « من أحسن في ذلك أمرنا » .

(٧) الفرج : جمع فرجة ، والمراد الفراغ الذي يكتب فيه . ب فقط : « فرحاً »

بالحاء المهملة ، تحريف .

(٨) إلى ، ساقطة من ب .

عَزَبَ عَنَّا ذِكْرُهُ ، وَأُنْسِينَا اسْمَهُ ، وَلَمْ يُحِطْ عَلْمُنَا بِهِ ، فَنَصِيرُهُ فِي مَوْضِعِهِ ، وَتُلْحِقُهُ بِأَصْحَابِهِ .

وليس لأحد أن يثبت شيئاً من هذه الأصناف إلا بعلمنا^(١) ، ولا يستبد بأمرٍ فيه دوننا . ويُوردُ ذلك علينا فتمتحنه^(٢) ، ونُعرفه^(٣) بما عنده ، ويصير إلى ترتيبه في المرتبة التي يستحقها ، والطبقة التي يحتلها .

فلما استتب لنا الفراغُ مما أردنا من ذلك حَظَرَ ببالنا كثرة العيابين من الجهالِ برَبِّ العالمين ، فلم نَأْمَنُ أَنْ يُسْرِعُوا^(٤) بِسَمِّهِ رَأْيَهُمْ وَخِفَتِهِ أَحْلَامَهُمْ إِلَى تَقْضِي كِتَابِنَا وَتَبْدِيلِهِ ، وَتَحْرِيفِهِ عَنِ مَوْضِعِهِ ، وَإِزَالَتِهِ عَنِ أَمَاكِنِهِ الَّتِي عَلَيْهَا رَسَمْنَا ، وَأَنْ يَقُولَ كُلُّ امْرئٍ مِنْهُمْ فِي ذَلِكَ عَلَى حَالِهِ ، وَيَقْدِرُ هَوَاهُ^(٥) وَرَأْيَهُ ، وَمُوَافَقَتَهُ وَمُخَالَفَتَهُ ، وَالْمِيلَ فِي ذَلِكَ إِلَى بَعْضٍ ، وَالذَّمَّ لَطَبِقَةِ وَالْحَمْدَ لِأُخْرَى ، فَيُهَيِّجُونَا كِتَابِنَا ، وَيُلْحِقُوا بِنَا مَا لَيْسَ مِنْ شَأْنِنَا .

وأحببنا أن نأخذَ في ذلك بالحزم ، وَأَنْ نَحْتَاطَ فِيهِ لِأَنْفُسِنَا وَمَنْ ضَمَّهُ كِتَابِنَا ، وَتُبَادِرَ إِلَى تَفْرِيقِ نَسْخِ^(٦) مَتْنِهَا وَتَصْيِيرِهَا فِي أَيْدِي الثَّقَاتِ وَالْمُسْتَبْصِرِينَ ، الَّذِينَ^(٧) كَانُوا فِي هَذَا الشَّأْنِ ، ثُمَّ خْتَمُوا ذَلِكَ

(١) ط : « بعلمنا » ، تحريف .

(٢) في جميع الأصول : « فيمتحنه » ، والوجه ما أثبت .

(٣) في جميع الأصول : « ويعرفه » بالياء .

(٤) ب فقط : « فلم نأمن من أن يسرع » ، سواه في سائر النسخ .

(٥) في جميع النسخ : « ولقدرو هواه » .

(٦) في جميع النسخ : « نسخة » .

(٧) الذين ، ساقطة من ب ، م .

بالعزلة والتوبة منه ، كصالح بن أبي صالح ، وكأحمد بن سلام ، وصالح مولى رشيدة^(١) .

ففعلنا ذلك وصيرناه أمانة في أعناقهم ، ونسخةً باقية في أيديهم ، ووثقنا بهم أمانة ومُستودعين^(٢) وحَفَظَةً غيرَ مضيعين ولا متهمين . وعلّمنا أنهم لا يدعون صيانة ما استودعوا ، وحَفَظَ ما عليه اتُّمِنُوا .

فإن شيب^(٣) به شوبٌ يُخالِفه ، وأُضيفَ إليه^(٤) ما لا يلائمه ، رجعنا^(٥) إلى النسخة المنصوبة ، والأصول المخددة عند ذوى الأمانة والثقة ، واقتصرنا عليها ، واستعلينا بها على المبطلين^(٦) ، ودفعنا بها^(٧) إدغال المدغلين ، وتحريف المحرفين ، وتزويد المتزئدين ، إن شاء الله .

ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

-
- (١) لم أجد ترجمة لأحد هؤلاء الثلاثة ، ولم يرد لهم ذكر فيما سبق من مكتبة الجاسط .
 (٢) ب ، م : « وأمانة ومستودعين » ، صوابه في ط .
 (٣) ط : « إذا شيب » م : « فإن شئت » ، صوابها في ب .
 (٤) إليه ، ساقطة من ب ، م .
 (٥) في جميع النسخ : « وجعلنا » .
 (٦) ب ، م : « به على المبطلين » .
 (٧) ب ، م : « به » .

٦

من كتابه في

النساء



١ - فصل

من صدر كتابه في النساء

إنَّنا لما ذكرنا في كتابنا هذا الحبَّ الذي هو أصلُ الهوى ، والهوى الذي يتفرَّع منه العشق، والعشق الذي يهيم له الإنسانُ على وجهه أو يموتُ كمدأ على فراشه . وأوَّل ذلك إدخالُ الضَّيم على مروءته ، واستشعارُ الدَّلَّة لمن أطاف بعشيقته .

ولم نُطَنِّب مع ذلك في ذكر ما يتشعَّب من أصل الحبِّ من الرَّحمة والرِّقَّة ، [وحبِّ الأموال النَّفيسة والمراتب الرفيعة^(١)] ، وحبِّ الرعيَّة للأئمة ، وحبِّ المُصطَنع لصاحب الصَّنِيعَة ، مع اختلاف مواقع ذلك من النفوس ، ومع تفاوت طبقاته في العواقب ، احتجنا إلى الاعتذار من ذكر العشق المعروف بالصَّبابة ، والمخالفة على قوَّة العزيمة ، لنجعل^(٢) ذلك القادر جنةً دون من حاول^(٣) الطَّعن على هذا الكتاب ، وسَخَفَ الرَّأى الذي دعا إلى تأليفه ، والإشادة بذكره^(٤) . إذا كانت الدنيا لا تنفك من حاسدٍ باغٍ . ومن قاتلٍ متكلف ، ومن سامعٍ طاعن ، ومن مُنافسٍ مقصِّر . كما أنَّها لا تنفك من ذى سلامةٍ متسلِّم ، ومن عالمٍ متعلِّم . ومن عظيم الخطر حسن المحضر ، شديد المحاماة على حقوق الأدياء . قليل التسرع إلى أعراض العلماء .

وإنما العشقُ اسمٌ لِمَا فَضَّلَ عن المقدار الذي أسمه حبٌّ . وليس

(١) التكلمة من م ، ط .

(٢) ب ، م : « ليجعل » .

(٣) ب ، م : « ما حاول » .

(٤) ب ، م : « والإشارة بذكره » ، صوابه في ط .

كلُّ حبٍّ يسمَّى عشقاً، وإنما العشق اسمٌ للفاضل عن ذلك المقدار، كما أنَّ السَّرْفَ اسمٌ لما زاد على المقدار الذي يُسمَّى جوداً، والبُخْلَ اسمٌ لما نقص عن المقدار الذي يسمَّى اقتصاداً، والجبنَ اسمٌ لما قَصَرَ عن المقدار الذي يسمَّى شجاعةً .

وهذا القول ظاهرٌ على ألسنة الأدباء، مُستعملٌ في بيان الحكماء . وقد قال عروة بن الزبير: ^(١) « والله إني لأعشق الشرف كما تُعشق المرأة الحسناء » .

وذكر بعضُ الناس رجلاً كان مُدَقِّعاً محروماً، ومنحوس الحظُّ منوعاً، فقال: ما رأيت أحداً عَشِقَ الرِّزْقَ عِشْقَهُ، ولا أَبْغَضَهُ الرِّزْقَ بُغْضَهُ ! فذكر الأولُ عِشْقَ الشَّرْفِ، وليس الشَّرْفُ بامرأة، وذكر الآخر عشق الرزق والرزق اسمٌ جامعٌ لجميع الحاجات .

وقد يستعمل الناس الكناية ^(٢)، وربما وضعوا الكلمة بدل الكلمة، يريدون أن يَظْهَرَ المعنى ^(٣) بألین اللفظ، إما تَنوِيهاً وإما تَفْضِيلاً ^(٤)، كما سَمَوْا المعزول عن ولايته مَصْرُوفاً، والمنهزم عن عدوه مُنْحَازاً . نَعَمْ، حتَّى سَمَى بعضهم البخيل مقتصداً ومصلحاً ^(٥)، وسَمَى عامل الخراج المتعدى بحق السلطان مستَقْصياً ^(٦) .

(١) م : « وقال عروة » فقط .

(٢) ط : « الكتابة » ، صوابه في سائر النسخ .

(٣) م فقط : « يظهروا المعنى » .

(٤) في جميع الأصول : « إما تنوينا وإما تفصيلاً » ، والوجه ما أثبت . والتنويه : الإظهار والإشادة والتعريف .

(٥) م : « أو مصلحاً » .

(٦) في جميع الأصول : « مستقصياً » بالعين ، والوجه ما أثبت . والاستقصاء : بلوغ الغاية القصوى .

ولما رأينا الحبُّ من أكبر أسبابِ جماعِ الخير ، ورأينا البُغض من أكبر أسبابِ الشر ، أَحْبَبْنَا^(١) أَنْ نذكر أبوابَ السَّببِ الجالبِ للخير ، ليفرق بينه وبين أبوابِ السببِ الجالبِ^(٢) للشر حتى نذكر أصولهما وعللهما الداعية إليهما ، والموجبة لكونهما .

فتملأنا شأن الدنيا فوجدنا أكبر تزيينها وأكمل لذاتها ، ظفر المحبِّ بحبيبه ، والعاشقِ بطلبته^(٣) ، ووجدنا شقوة الطالب المُكْدِي وعَمَّهُ ، في وزن سعادة الطالب المُتَّجِحِ وسروره ، ووجدنا العشق كلما كان أرسخ . وصاحبه به أكلف ، فإنَّ موقع لذة الظفر منه أرسخ ، وسروره بذلك أبهج . فإنَّ زعم زاعم^(٤) أنَّ موقع لذة الظفر بعدوه المرصد أحسن من موقع لذة الظفر من العاشق الهائم بعشيقته^(٥) .

قلنا : إننا قد رأينا الكرام والحلماء ، وأهل السُودد والعظماء ، ربَّما^(٦) جادوا بفضلهم من لذة شفاء العَيْطِ ، ويعدون ذلك زيادةً في نُبُلِ النفس ، ويُعدون بالقدْر . ويجودون بالنفيس من الصامت والناطق ، وبالثمين من العُرُوض^(٧) . وربَّما خرج من جميع ماله ، وآثَرَ طيبَ الذِّكْرِ على الغنى واليسر . ولم نَرَ نفسَ العاشقِ تسخو بمعشوقه ، ويجود بشقيقة نفسه^(٨) لوالدٍ ولا لولدٍ بارٍّ ، ولا لذى نعمةٍ سابقة^(٩) يخاف سلبها ، وصرف إحسانه عنه بسببها .

(١) ط : « اجنينا » ، صوابه في ب ، م .

(٢) ما بين المقفين ساقط من ب .

(٣) الطلب والطلبية ، بكسر الطاء فيما : ما يطلبه العاشق وهوواه ، الأخيرة عن الغيباني . وفي جميع النسخ : « بطلبه » .

(٤) ب : « لعشيقته » ، صوابه في م ، ط .

(٥) ب : « وربما » ، صوابه في م ، ط .

(٦) العرُوض : الأمتة ، سوى الدراهم والدنانير فإنها عين ، واحدها عرض ، بالفتح .

(٧) ب : « لشقيقة نفسه » ، تحريف ب : « بعشيقته نفسه » ، وأثبت ما في ط .

(٨) السابقة : الكاملة الوافية . ب فقط : « السابقة » بالعين المهملة ، تحريف .

ولم نر الرجال يَهْبُونَ للرجال إلا ما لا بالَ به^(١) ، في جَنَب ما يهبون للنساء . حتَّى كَأَنَّ العِطْرَ والصَّبِغَ^(٢) ، والخِضَابَ والكحلَّ ، والنَّتْفَ والقَصَّ ، والتَّحْذِيفَ والحلْقَ ، وتجويد الثَّيابَ وتنظيفها ، والقيامَ عليها وتعهدُها ، يمَّا لم^(٣) يتكلَّمُوهُ إلا هُنَّ ، ولم يتقدَّموا فيه إلا من أجهَلنَّ ، وحتَّى كَأَنَّ الحِيطَانَ الرَّفِيعَةَ ، والأبوابَ الوثِيقَةَ ، والسُّتُورَ الكثِيفَةَ^(٤) ، والخِضْبَانَ والطَّوُورَةَ ، والخُشُوعَةَ والحواضِينَ لم تُتَّخَذْ^(٥) إلاَّ للضُّوْنِ هُنَّ ، والاحتفاظُ بما يجب من حفظ النِّعْمَةِ فيهنَّ .

٢ - فصل منه

وباب آخر : وهو أنَّنا لم نجد أحداً من الناس^(٦) عَشِيقَ والمدَّيِّهِ ولا وُلَدَه ، ولا من عَشِيقٍ مرآكِبَه ومنزِلَه ، كما رأيناهم يموتون من عَشِيقِ النِّسَاءِ الحرامِ . قال الله تعالى : ﴿ زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْثِ^(٧) ﴾ . فقد ذكر^(٨) تبارك وتعالى جملةً أصنافٍ ما خوَّفهم من كرامته ، ومنَّ عليهم من نعمته ، ولم نَرَ النَّاسَ^(٩) وَجَدُوا بشيءٍ من هذه الأصنافِ وَجَدَهُم بالنِّسَاءِ . ولقد قدَّم ذكرهنَّ في هذه الآية على قدر تقدُّمهنَّ في قلوبهم .

- (١) ب ، م : « يهبون » في هذا الموضع وتاليه ، صوابه في ط : والاتهاد : يقول الهبة ، ولا وجه له هنا . وفي ب ، م أيضاً : « إلا بما لا بال له » ، صوابه في ط .
 (٢) ب : « والصبغ » ، صوابه في م ، ط .
 (٣) ب ، م : « ما لم » ، صوابه في ط .
 (٤) السُّتُور : جمع سِتْر ، بالكسر . ب فقط : « والسطور » ، تحريف .
 (٥) ب ، م : « لم يتخذ » ، ط : « لم يتخذن » ، والوجه ما أثبت .
 (٦) كلمة « الناس » ساقطة من ب ، م ثابتة في ط .
 (٧) الآية ٤١ من سورة آل عمران .
 (٨) ب : « فقد دك » ، صوابه في م ، ط .
 (٩) ب : « ولم ير الناس » ، وأثبت ما في م ، ط .

فإن قال قائل : فقد نجد الرجلَ الحليمَ ، والشَّيخَ الرُّكَّينَ ، يسمع الصُّوتَ المُطْرَبَ من المعنى المصيبِ ، فينقلُه ذلك إلى طَبَعِ الصَّبِيانِ ، وإلى أفعالِ المجانينِ ، فيشقُّ جيبه ، وينقُضُ حُبوتَه ، ويقدِّي غيره ^(١) ، ويرقُصُ كما يرقُصُ الحدُّثُ الغريرُ ، والشابُّ السَّقِيه . ولم نجد أحداً فعلَ ذلك عند رؤية معشوقه .

قلنا : أمَّا واحدةٌ فإنَّه لم يكن ليدعَ التَّشاغَلَ بِشَمِّها وبرشفيها ، واحتضانها ، وتقبيلِ قدميها ، والمواضع التي وطئتُ عليها ^(٢) ، ويتشاغَلَ بالرقصِ المباينِ لها ، والصراخِ الشاغلِ عنها . فأما حلُّ الحُبوةِ ، والشَّدُّ حُضراً عند رؤية الحبيبة ^(٣) فإنَّ هذا مما لا يحتاج إلى ذكره ^(٤) ، لوجوده وكثرة استعماله له ، فكيف وهو إن خلا بمشوقه لا يظنُّ ^(٥) أنَّ لذةَ الغناءِ تشغله ^(٦) بمقدار العُشْرِ من لذته ، بل ربَّما لم يخطر له ذلك الغناءُ على بال .

وعلى أنَّ ذلك الطربَ مجتازٌ غير لايث ^(٧) ، وظاعنٌ غير مقيم ، ولذَّةُ المتعاشقينِ راكدةٌ أبداً ^(٨) مقيمة غير طاعنة .

وعلى أنَّ الغناءَ الحسنَّ من الوجوهِ الحسنِ والبَدَنِ الحسنِ ، أحسن ،

(١) ب : « ويقدي » م : « ويقدي » ، صوابهما ق ط .

(٢) ق جميع النسخ : « عليه » تحريف .

(٣) الحضر ، بالضم : أصله عدو الفرس . ب : « والشَّدُّ حُضراً » م : « والشَّدُّ حُضراً » .
وقى ط : « والصراخ عند رؤية الحبيبة » ، صوابه ما أثبت .

(٤) ب ، م : « مما لا يحتاج إلى ذكره » .

(٥) ب ، م : « فكيف وإن هو خلا بمشوقه فظن » ، صوابه ق ط .

(٦) ب : « يشغل » م : « تشغل » ، والوجه ما أثبت من ط .

(٧) ب : « ثابت » .

(٨) ب ، م : « راكدة لا بد » .

والغناء^(١) التسهى من الوجه الشهى والبدن الشهى أشهى . وكذلك الصوت
الناعم الرخيم من الجارية الناعمة الرخيمة .

وكم بين أن يُفدى إذا شاع فيك الطربُ مملوكك ، وبين أن يفدى
أمتك^(٢) ؟

وكم بين أن يُسمعُ الغناء من فم تشتهى أن تُقبله^(٣) ، وبين
فم تشتهى أن تُصرفَ وجهك عنه .

وعلى أن الرجال دخلاء على النساء في الغناء ، كما رأينا رجالاً
ينوحون ، فصاروا دخلاء على النوائح .

وبعد . فأما أحسن وأملح^(٤) ، وأشهى وأغنج ، أن يغنيك فحل
ملتفت اللحية ، كئ العارضين ، أو شيخ منخلع الأسنان ، مغضن
الوجه ، ثم يغنيك إذا هو تغنى بشعر ورقاء بن زهير :

رأيتُ زهيراً تحت كلِّ خالدٍ فاقبلتُ أسعى كالعجول أبادر^(٥)

أم تغنيك جارية كأنها طاقه ترجس . أو كأنها ياسينية ، أو كأنها
خرطت من ياقوتة ، أو من فضة مجلوة^(٦) ، بشعر عكاشة بن محصن^(٧) :

(١) ب : والغنى « تحريف ما في م ، ط .

(٢) كذا وردت « يفدى » بالياء في جميع النسخ ، ولها وجهها .

(٣) ب ، م : « يشتهي أن يقبله » صوابه في ط .

(٤) ب ، م : « وبعد فأتما » ، صوابه في ط .

(٥) كناية الجرجاني ٣٥ . وانظر الشعر ومقتل زهير بن جذيمة النبسي ، الأغاني .

١٠ - ١١ - ١٥ .

(٦) انظر نحو هذا الكلام للهمة بن أشرس مع المأمون في زهر الآداب ٦٠٩

(٧) كذا . وعكاشة بن محصن صحابي لم يؤثر عنه شعر . انظر الإصابة ٥٦٢٦ هـ . وإنما الشعر
لكعكاشة بن عبد الصمد العمى البصرى ، وهو شاعر مقل من شعراء الدولة الملاحية . وأخوه
أبو المذافر العمى شاعر أيضاً . وبنوالم : قوم زلوا ببني تميم بالبصرة أيام عمر بن الخطاب
فأسلموا وغزوا مع المسلمين وحسن بلاؤهم ، فقال لهم الناس : أتم وإن لم تكونوا من العرب ،
إخواننا وبنوالم ، فغزوا بذلك فصاروا في جملة العرب .

من كَفَّ جاريةً كأنَّ بَنَاتِهَا مِنْ فَضَّةٍ قَدْ طُرِفَتْ عُنَابًا^(١)
وكأنَّ يُمَانَهَا إِذَا نَطَقَتْ بِهِ أَلَقَّتْ عَلَى يَدِهَا الشُّبَالِ حَسَابًا^(٢)

٣ - فصل منه

فَأَمَّا الْغِنَاءُ الْمَطْرَبُ فِي الشَّعْرِ الْغَزَلِ فَإِنَّمَا ذَلِكَ مِنْ حَقَقِ النِّسَاءِ .
وإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ تَعْنَى^(٣) بِأَشْعَارِ الْغَزَلِ وَالتَّشْبِيبِ^(٤) ، وَالْعِشْقِ ،
وَالصَّبَابَةِ بِالنِّسَاءِ اللَّوَاتِي فِيهِنَّ نَطَقَتْ تِلْكَ الْأَشْعَارُ ، وَمِنْ شَبَّ الرَّجَالِ ،
وَمِنْ أَجْلِهِنَّ تَكَلَّفُوا الْقَوْلَ فِي النَّسِيبِ^(٥) .

وبعد ، فكلُّ شَيْءٍ وَطِئُهُ ، وَشِكْلُهُ وَوَيْفُهُ ، حَتَّى تَخْرُجَ الْأُمُورُ
موزونة معدلةً ، ومتساوية مُخْلِصَةً^(٦) .

= وفي النقااض ٣٦٠ أن نبي العم ، هم مرة بن مالك بن حنظلة . والبيتان بدون نسبة في الأمل
١ : ٣٢٠ وحاسة ابن الشجرى ٢٦٠ ونسبا في الأغاني ٣ : ٧٣ وسميط الأمل ٥٢٦ ، وزهر
الأداب ٦٠٩ ونهاية الأرب ٥ : ١١٤ إلى عكاشة العمى . ونسبا في العقد ٦ : ٧٤ إلى عكاشة بن
الحصين خطأ . وقبلهما في سميط الأمل :

هبوا فقد عذب النسيم وطايا والدهر يذهب بالنعم ذهابا
حشوا على حسن الصبح فقد نضا نور الصباح من الدجى جلبابا
وقبلهما في الأغاني ثلاثة أبيات هي والبيتان خمسة ، في صوت من المائة المختارة :
ياليلة جمعت لنا الأحبابا لوشتت دام لنا النعم وطايا
بتنا نسفاها شولا فرقفا تدع الصبح بعقله مرتابا
حراء مثل دم الفزال وتارة عند المزاج تخالها زربابا
(١) يقال طرفت الجارية بناتها ، إذا خضبت أطراف أصابعها بالحناء . وهذا البيت ساقط

من م .
(٢) في الأمل وابن الشجرى : « نطقت بها » . وفي نهاية الأرب : « نطقت به » كما
هنا . وفي العقد والزهر : « إذا ضربت بها » . وفي ب ، م : « على يده الشمال » صوابه في
ط وحاسة ابن الشجرى . وفي جميع النسخ : « حبابا » وصوابه في جميع المراجع . وفي الأمل
والعقد ونهاية الأرب : « تلقى على يدها الشمال » ، وفي زهر الآداب : « تلقى على الكف الشمال » .
(٣) ب فقط : « نعى » .
(٤) ب ، م : « والتشبيب » ، صوابه في ط .
(٥) ط : « في التشبيب » .
(٦) ب : « متساوية مخلصه » .

ولو أنّ رجلاً من أدمتِ الناس وأشدّهم تلخيصاً لكلامه ، ومحاسبة لنفسه^(١) ، ثم جلس مع امرأةٍ لا تُزَنُّ بمَنطق^(٢) ، ولا تعرف بحسن حديث^(٣) ، ثم كان يعشقها ، لتَنائجَ بينهما من الأحاديث ، وتَلَفُحَ بينهما^(٤) من المعاني والألفاظ ، ما كان لا يجري بين دَغْفَلِ ابن حنظلة^(٥) ، وبين ابن لسان الحُمْرة^(٦) . وإنّما هذا على قدر^(٧) تَمَكُّنِ العَزَلِ في الرِّجْلِ .

٤ - فصل منه

والمرأة أيضاً أرفعُ حالاً من الرجل في أمور . منها : أنّها التي تُحَطَّبُ وتُرَادُ ، وتُعشَقُ وتُطَلَّبُ ، وهي التي تُفَدَى وتُحَمَى . قال عَنبَسَةَ بن سعيد^(٨) للحجاج بن يوسف : أَيْقَدِي الأميرُ أهله ؟ . قال : والله إن تعدونني إلا شيطاناً ، والله لربّما رأيته أُقبِلَ رجلٌ إحداهن !

(١) م : « لكلامه ومحاسنه » فقط . وفي جميع النسخ : « محاسنه » بالنون ، والوجه ما أثبت .

(٢) زنه بالخير أو بالمال ، أو بالعلم زنا ، وأزنه إزنانا : ظنه به . ب ، م : « لا يزن بمَنطق » .

(٣) ب ، م : « ولا يعرف بحسن حديث » .

(٤) ب : « والتلفح بينهما » . والذي في ط : « ما كان الناتج بينهما من الأحاديث والمتلفح بينهما من المعاني والألفاظ إلا ما كان يجري بين دغفل بن حنظلة » .

(٥) ودغفل هذا هو دغفل بن حنظلة بن زيد الشيباني الذهلي النسابة الخطيب . أدرك الرسول الكريم ولم يسع منه . غرق في يوم دولا ب في قتال الخوارج سنة ٧٠ . الإصابة ٢٣٩٥ وابن التميمي ١٣١ والمعارف ٢٢٢ والاشتقاق ٢١١ وتاريخ الإسلام للذهبي ٢ : ٢٨٧ . وانظر أخباره وأقواله في البيان والتبيين .

(٦) في جميع النسخ : « وبين بشار بن الحُمْرة » ، والوجه ما أثبت . وابن لسان الحُمْرة هذا هو عبيد الله بن الحسين ، أو ورقاء بن الأشعر ، كما في القاموس والمعارف ٢٣٣ . وهو أعرابي من بني تميم الله بن ثعلبة ، وكان من علماء زمانه ، قال ابن قتيبة : « وكان أنسب العرب وأعظمهم بصراً » . دخل الكوفة وعليها المنيرة بن شعبة ، فسأله المنيرة عن طبائع قبائل من العرب ، وعن خلق النساء ، فأجاب أجوبة ممتعة ، سردها أبو الفرج في الأغاني ١٤ : ١٣٨ .

(٧) ب : « على قدر » ، صوابه في م ، ط .

(٨) هو عنبسة بن سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أبية ، كان من جلساء الحجاج ، كما في الاشتقاق ٧٩ وجمهرة ابن حزم ٨١

٥ - فصل منه

وإنَّمَا يملك المولى من عبده بدنه ، فأما قلبه فليس له عليه سلطان .
والسلطانُ نفسه وإن ملك رقابَ الأمة^(١) ، فالناس يختلفون في جهة
الطاعة ، فمنهم من يطيع بالرغبة ، ومنهم من يطيع بالرهبة ، ومنهم
من يطيع بالمحبة ، ومنهم من يطيع بالديانة .

وهذه الأصناف ، وإن كان أفضلها طاعة الديانة فإن تلك المحبة
ما لم يمازجها هووى لم تقو^(٢) على صاحبها قوة العشق . وفي الأثر
المستفيض والمثل السائر : « إن الهوى يُعمى ويصم » ؛ فالعشق يقتل .

٦ - فصل منه

وَمَا يُستدلُّ به على تعظيم شأن النساء أن الرجل يُستحلف بالله
الذى لا شيء أعظم منه ، وبالمشي إلى بيت الله ، وبصدق ماله ، وعنت
رفيقه . فيسهل ذلك عليه^(٣) ، ولا يأنف منه . فإن استُحلف بطلاق
امرأته تربد وجهه^(٤) ، وطار الغضب في دماغه ، ويمتنع^(٥) ويعصى ،
ويغضب ويأبى ، وإن كان المُحلف سلطاناً مهيباً ، ولو لم يكن يحبها^(٦) ،
ولا يستكثر منها ، وكانت نفسها قبيحة المنظر ، دقيقة الحسب ،
خفيفة الصداق ، قليلة النسب .

ليس ذلك إلا لما قد عظم الله من شأن الزوجات في صدور الأزواج^(٧) .

(١) رقاب ، ساقطة من ب .

(٢) في جميع الأصول : « لم يقو » ، ومرجع الضمير إلى المحبة .

(٣) م : « فيسهل عليه ذلك » .

(٤) يزيد : احمر حرة فيها سواد عند الغضب . ب : « تزيد » م : « يزيد » ، صوابهما
في ط .

(٥) في جميع الأصول : « ويمتنع » .

(٦) ب : « ولم يكن محبها » .

(٧) ب : « الرجال » .

٧- فصل منه في ذكر الولد

وباب آخر : وهو أنّ لو خَيْرْنَا رجلاً بين الفقر^(١) أَيّام حياته ، وبين أن يكون ممتعاً بالباه أَيّام حياته ، لاختار الفقر الدائم مع التمتع الدائم .

وليس شيء مما يُحدث الله لعباده من أصنافٍ يُعييه وضروبٍ فوائده ، أبقى ذكراً ، ولا أجلاً خطراً^(٢) من أن يكون للرجل ابنٌ يكون وليّ بناته ، وسائر عورة حرّمه ، وقاضى دينه ، ومُحى ذكره ، مخلصاً في الدعاء له بعد موته ، وقائماً بعده في كلّ ما خلّفه مقام نفسه .

فمن أقلّ أسفاً على ما فارق ، ممن خلّف كافياً مجرباً ، وحائطاً من وراء المال موقراً ، ومن وراء الحرم حامياً ، ولسلفه في الناس مُحبباً . وقال رجلٌ لعبد الملك بن مروان ، وقد دُكرَ ولدُه له^(٣) : « أراك الله في بنيك ما أرى أباك فيك ، وأرى بنيك فيك ما أراك في أبيك ! » .

ونظر شيخٌ وهو عند المهلب إلى بنيه قد أقبلوا فقال : « آنس الله بكم لاجتكم ، فوالله إن لم تكونوا أسباباً نُبوة^(٤) إنكم أسباب ملّحة » .

وليسق التّعمة في الولد المحي^(٥) ، والخلف الكافي ، بصغيرة .

(١) ب : « الفقراء » ، تحريف .

(٢) ط : « ولا أجل خطراً » .

(٣) ب : « ولسفه ذكر ولد له » بهذا النقص والتحريف . والإكمال والتصحيح من م ، ط ، مع زيادتي لكلمة « وقد » . وفي البيان ٢ : ١٤٥ : « وقال مديني لعبد الملك بن مروان ودخل عليه بنوه » . على أن الخبر قد روي في مجالس ثعلب ٢٢٧ في قصة دخول الوفود إلى الوليد بن يزيد حين يابغ لابنيه الحكم وعثمان .

(٤) ب فقط : « نبوة » بتقديم الباء .

(٥) ب ، م : « الهوى » صوابه في ط . والمراد المحي لذكر والده .

٨ - فصل منه

وباب آخر : وهو أَنَّ الله تعالى خلق من المرأة ولدًا من غير ذكر ، ولم يخلُق من الرِّجُل ولدًا من غير أنثى . فخصَّ بالآيةِ العجيبة والبرهان المنيرِ المرأة دون الرِّجُل ، كما خلق المسيح في بطن مريمٍ من غير ذكر .

٩ - فصل منه في ذكر القربات

وأما أنا فإني أقول : إنَّ تباغض الأقرباء عارضٌ دخيل ، وتحابُّهم واطدُّ أصيل ، والسَّلامة من ذلك أعمُّ ، والتَّناصر أظهر ، والتَّصادق في المودَّة أكثر . فلذلك القبيلة تنزلُ معاً وترحلُ معاً ، وتُحارب من ناوأها معاً ، إلَّا الشاذَّ النادر ، كخروج غنيٍّ وباهلة من غطفان ، وكنزول عيسى في بنى عامر ، وما أشبه ذلك^(١) . وإلَّا فإنَّ القرابة يدٌ واحدة على من ناوأهم^(٢) ، وسيفٌ واحد على من عاداهم^(٣) ، وما صلاحُ شأنِ العشائر إلَّا يتقارب سادتهم في القادر ، وإنَّ تفاوتوا^(٤) في الرِّياسة والفضل ، كما قال^(٥) في الأثر المستفيض : « لا يزال النَّاسُ بخير ما تفاوتوا ، فإذا تقاربوا هلكتوا » .

وحالُ العامَّة في ذلك كحالِ الخاصَّة .

١٠ - فصل منه

وقضيةٌ واجبة : أنَّ الناس لا يُصلحهم إلَّا رئيسٌ واحد ، يجمع شملهم ، ويكفيهم ويحميهم من عدوهم ، ويمنع قلوبهم من ضعيفهم .

(١) ذلك ، من ط فقط .

(٢) م : « ناوى لهم » ، تحريف .

(٣) م : « من عادلم » ، تحريف .

(٤) م ، ب : « وإن يتفاوتوا » .

(٥) كذا . والوجه « قيل » .

وقليل له نظام ، أقوى من كثيرٍ تَشَرَّ (١) لا نظام لهم ، ولا رئيسٍ عليهم .
 إذ قد علم الله (٢) أَنَّ صلاحَ عامَّةِ البهائمِ في أن يجعل لكلِّ جنسٍ (٣) منها
 فجلاً يُوردها الماءُ ويُصليدها ، وتتبعه إلى الكَلأ ، كالعَيرِ في العانة (٤) ،
 والفحل من الإبل في الهجمة (٥) ، وكذلك النحلُ العسالة (٦) ،
 والكراسي (٧) ، وما يحمى الفرسُ الحصانُ الحُجورَ في المروج (٨) ،
 فجعل منها رءوساً متبوعة ، وأذناناً تابعة .

ولو لم يُقيمِ اللهُ للنَّاسِ الوَزَعَ من السُّلطان ، والحُماة من المُلوكِ وأهلِ
 الحِياطة عليهم من الأئمة - لعادوا تَشَرَّ (٩) لا نظامَ لهم ، ومُستكَلِبينَ
 لا زاجرَ لهم ، ولكانَ من عَزَّ بَرَّ (١٠) ، ومنَ قدرَ قهرَ ، ولما زال اليُسْرُ
 راكداً ، والهَرَجُ ظاهراً ، حتَّى يكونَ التغابُنُ واليَوارُ (١١) ، حتَّى تنظمَسَ

- (١) النشر ، بالتحريك : القوم المنفردون لا يجمعهم رئيس . وهذه الكلمة ساقطة من ط .
 (٢) ط : « الله سبحانه وتعالى » .
 (٣) ب : « في كل جنس » .
 (٤) العانة : القطيع من حمر الوحش . وانظر لعير العانة الحيوان ١ : ١١٠ ، ١٩٥ /
 ٧ : ١٤١ . وفي جميع النسخ : « العانة » ، صوابه ما أثبت .
 (٥) في الأصول : « والفحل في الإبل » . وفي ط أيضاً : « والهجمة » ، والوجه
 ما أثبت .
 (٦) انظر الحيوان ١ : ١٩ / ٣ : ٣٢٩ / ٥ : ٤١٧ .
 (٧) الحيوان ٣ : ٣٢٨ ، ٤٠٦ / ٥ : ٤١٩ .
 (٨) الحُجور : جمع حجر ، بالكسر ، الفرس الأثني . ويقال في جمعه أحجار وحجورة
 أيضاً . وانظر الحيوان ٧ : ١٤١ .
 (٩) انظر للنشر ما سبق قريباً في هذه الصفحة . ب : « نشرا » ط : « نثرا » ، صوابهما في م .
 (١٠) ب : « من عز يزله غير » ، صوابه في م ، ط . وانظر جبهة العسكري ٢ : ٢٨٨
 والفاخر ٨٩ والميداني ٢ : ٢٣٥ والمستقصى ٢ : ٣٥٧ واللسان (بز) . ومعناه من غلب
 سلب . قاله جابر بن رلان السبسي لما أقرع النعمان يوم يؤسه بينه وبين صاحبيه ، ففرعهما
 فخل سبيله .
 (١١) التغابن : أن يفن القوم بعضهم بعضاً . ب : « التغاني » ، صوابه في م ، ط .

منهم الآثار^(١) ؛ ولكانت الأتعام طعاماً للسباع ، وكانت عاجزة عن حماية أنفسها ، جاهلة بكثير من مصالح شأنها .

فوصلَ اللهُ تعالى عجزها بقوةٍ من أحوَجَه إلى الاستمتاع بها ، ووصلَ جاهلها بمعرفةٍ من عرف كيف وجه الحيلة في صَوْنِها والدِّفاعِ عنها .

وكذلك فرض على الأئمة أن يحوطوا الدهماء^(٢) بالجراسة لها ، والذبياد عنها^(٣) ، ويرد قوتها عن ضعيفها^(٤) ، وجاهلها عن عالمها ، وظالمها عن مظلومها ، وسفيعها عن حليمها .

فلولا السائس ضاع المسوس ، ولولا قوة الراعي هلكت الرعية^(٥) .

١١ - فصل منه

وانفرادُ السيد بالسيادة كانفراد الإمام بالإمامة . وبالسَّلامة من تنازع الرؤساء تجتمع الكلمة ، وتكون الألفة ، ويصلح شأن الجماعة . وإذا كانت الجماعة انتهت الأعداء ، وانقطعت الأهواء^(٦) .

١٢ - فصل منه

ولسنا نقول ولا يقول أحدٌ ممن يعقل : إنَّ النساءَ فوق الرجال ، أو دونهم بطبيعةٍ أو طبقتين ، أو بأكثر^(٧) ، ولكننا رأينا ناساً يُزرون عليهم أشدَّ الزرابة ، ويحتقرونهنَّ أشدَّ الاحتقار ، ويبخسونهنَّ أكثرَ حقوقهنَّ .

(١) ب ، م : « ينطس » ، وفي ب : « منه الآثار » ، صوابه في م ، ط .

(٢) ب : « أن يحيط الدهماء » ط : « أن يحوطها » م : « أن يحوط الدهماء » ، والوجه ما أثبت .

(٣) في الأصول : « والذبيادة عنها » ، صوابه ما أثبت . والذبياد والذود : الدفاع .

(٤) ب : « وترد » ، م ، ط : « ويرد » ، والوجه ما أثبت .

(٥) ب : « هلكت الرعية » .

(٦) ب ، م : « وانقطع الأهواء » .

(٧) ب ، م : « إلا بأكثر » ، صوابه في ط .

ولئن من العجز أن يكون الرجل لا يستطيع توفيرَ حقوقِ الإباء والأعمام إلا بأن ينكر حقوق الأمهات والأخوال ، فلذلك ذكرنا جملة ما للنساء من المحاسن .

ولولا أن ناساً يفخرون بالجلد وقوة المنة ، وانصراف النفس عن حب النساء ، حتى جعلوا شدة حب الرجل لأميته ، وزوجته وولده ، دليلاً على الضعف ، وباباً من الخور ، لما تكلفنا كثيراً مما شرطناه في هذا الكتاب .

١٣ - فصل منه

كما نحب أن يخرج هذا الكتاب تاماً ، ويكون للأشكال الداخلية فيه جامعاً ، وهو القول فيما للذكور والإناث في عامة أصناف الحيوان ، وما أمكن من ذلك ، حتى يحصل ما لكل جنس منها^(١) من الخصال المحمودة والمذمومة . ثم يجمع بين المحاسن منها والمساوى ، حتى يستبين لقارئ الكتاب نقصان المفضول من رجحان الفاضل ، بما جاء في ذلك من الكتاب الناطق ، والخير الصادق ، والشاهد العدل ، والمثل السائر . حتى يكون الكتاب عربياً أعرابياً ، وسنياً جماعياً ، وحتى يجتنب^(٢) فيه العويص والطرق المتوعرة ، والألفاظ المستنكرة ، وتلزيق التكلفين^(٣) ، وتلفيق أصحاب الأهواء من المتكلمين ، حتى نظرنا^(٤) لمن لا يعلم مقادير ما استخرتها الله من المنافع ، وغشأها من البرهانات^(٥) ، وألزمها من الدلالة عليه ، وأنطقها به من الحججة له .

(١) منها ، ساقطة من م ، ط .

(٢) ب : « وحتى يجب » صوابه في م ، ط .

(٣) في اللسان : « الملقق - بتشديد الزاي - : الشيء ليس بالهكم » .

(٤) ب ، م : « نظر » ، ط : « نظرا » ، والوجه ما أثبت .

(٥) ط فقط : « البراهين » .

فمنع من ذلك فرط الكِبَر^(١) ، وإفراط العِلَّة ، وضعف المُنَّة ،
وانحلال القوة .

فلما^(٢) وافق هذا الكتابُ منَّا هذه الحال ، وألقى^(٣) قلوبنا على هذه
الأشغال ، اجتنبنا أن نقصد من جميع ذلك إلى فرق ما بين الرجل
والمرأة .

فلما اعتزمنا على ما ابتدأنا به وجدناه قد اشتمل على أبواب يكثر
عدددها ، وتبعد غايتها ، فرأينا ، والله الموفق ، أن نقتصر^(٤) منه على
ما لا يبلغ بالمستمع إلى السَّامة ، وبالمألوف إلى مجاوزة القدر .

وليس ينبغي لكتب الآداب والرياضات أن يحمل أصحابها على
الجِدِّ الصَّرف ، وعلى العَقْلِ المحض ، وعلى الحقِّ المرِّ ، وعلى المعاني
الصَّعبة ، التي تستكيد النفوس ، وتستفرغ المجهود .
وللصبر غاية ، وللاحتال نهاية .

ولا بأس بأن يكون الكتاب موشحاً ببعض الهزل . وعلى أن الكتاب
إذا كثُر هزله سَخف ، كما أنه إذا كثُر جدُّه ثَقُل .

ولا بد للكتاب من أن يكون فيه بعض ما ينشط القارئ ، وينفي
التعاس عن المستمع . فمن وجد في كتابنا هذا بعض ما ذكرنا ، فليعلم
أن قصدنا في ذلك إنما كان على جهة الاستدعاء لقلبه ، والاستماله
لسمعه وبصره . والله تعالى نسأل التوفيق .

(١) في جمع الأصول : « الكبوة » ، وجهه ما أثبت .

(٢) ب ، م : « فلما » .

(٣) في جمع الأصول : « وألقى » بالفتح .

(٤) ب : « أن اقتصر منه » .

١٤ - فصل منه في ذكر العشق

ورجلان من الناس لا يَعشَقَانِ عَشِقَ الأعراب :

أحدهما الفقير المُدَقِّع ، فَإِنَّ قلبه يُشغَلُ عن التَّوَعُّلِ فيه وبلوغِ أَقصاه .

والملكُ الضَّخْمُ الشَّانُ ، لَأَنَّ في الرِّياسة الكبرى ، وفي جوازِ الأمرِ وَنفاذِ النَّهي ، وفي مِلْكِ رِقَابِ الأُمَمِ ، ما يُشغَلُ شَطْرَ قُوَى العقل عن التَّوَعُّلِ في الحب ، والاحتراقِ في العشق .

١٥ - فصل منه

كثيراً ما يعتري العُشَّاقَ والمحبِّينَ غير المُحْتَرِّقِينَ^(١) ، كالرَّجُلِ تكون له^(٢) جاريةٌ وقد حَلَّتْ من قلبه مَحَلًّا ، وَتَمَكَّنَتْ منه تَمَكُّنًا ، ولا يجتثُّ أصلَ ذلك الحبِّ الغَضْبَةُ تعرض ، وكثرةُ التَّأْدَى بالخلافِ يكون منها ، فيَجِدُ^(٣) الفترة عنها [في^(٤)] . بعضُ هذه الحالات التي تعرض ، فيُظَنُّ أَنَّهُ قد سلا ، أو يُظَنُّ أَنَّهُ في عَزَائِهِ عنها^(٥) على فقدها مُحْتَمِلًا ، فيبيعها^(٦) . إن كانت أمة ، أو يطلقها^(٧) . إن كانت زوجة ، فلا يَنْشَبُ ذلك الغضبُ أَنْ يزول ، وذلك الأذى أَنْ يُنسى ، فتتحرَّكُ له الدَّفَائِنُ^(٨) ، ويُسْمِرُ ذلك الغرْسُ ، فيُتْبِعُها قلبه ، فإِذَا أَنْ يسترجعَ

(١) ب : « المحترِّقِينَ » بالفاء .

(٢) ب ، م : « لا يحبب » ، صوابه في ط .

(٣) ط فقط : « فيوجد » .

(٤) ليست في الأصول .

(٥) ط : « فظنن » و « أو نظن أنه » ، صوابه في ب ، م . والعزاء : الصبر . ب :

« في غزاية عنها » م ، ط : « في عزاية عنها » ، والوجه ما أثبت .

(٦) م ، ط : « مبيها » ، صوابه في ب .

(٧) م ، ط : « أو طلاقها » .

(٨) ب : « فيتحرك له الدفائن » .

الأمّة من مُبتاعها ، بأضعافِ ثمنها ، أو يسترجع الزوجة بعد أن نُكِّحَتْ . فإنَّ تصبّرَ وأمكنته الصّبر لم يزلْ معدّباً ، وإنَّ أطاع هواه واحتمل المكروه فهذا هو العقابيل والنكس^(١) .

فليحدّر الحازمُ الفترَةَ في حبِّ حبيبه ، والغضبَةَ التي تُنسيه عواقبَ أمره .

١٦ - فصل منه

. قال إبراهيم بن السندي^(٢) : حدّثنى عبد الملك بن صالح^(٣) قال :
 بنا عيسى بن موسى^(٤) قد خَلَا بنفسه^(٥) ، وهو قد كان
 استكثر من النساءِ حتّى انقطع ، إذ مرّت به جارية^(٦) كأنّها جانٌّ ،
 وكأنّها جدلُ عنان^(٧) ، وكأنّها جمّارة ، وكأنّها قُصيبُ فُضة ، فتحرّكت
 نفسه ، وخاف أن تخذله قوّته ، ثم طمع في القوّة^(٨) لَطُولَ التُّرك ،
 واجتماع الماء ، فلمّا صرّعها ، وجلس منها ذلك المجلس خطر على باله
 لو عجزَ كيف يكون حاله^(٩) ؟ فلما فكّر فترّ ، فأقبلَ كالمخاطب لنفسه
 فقال : إنَّك لتجلسني هذا المجلس ، وتحمليني على هذا المركب ، ثم

- (١) العقابيل : بقايا العلة والمشق والمرض ، الواحد عقبول وعقبولة . والنكس ،
 بالضم : عود المرض بعد النقه . وفي الأصول : « العقابيل » ولا وجه له .
 (٢) إبراهيم بن السندي ، سبقت ترجمته في ص ٦٠ . ب : « بن السندي » م ، ط : « بن
 السبيدي » ، صوابهما ما أثبت .
 (٣) انظر البيان والتبيين ١ : ٣٣٤ .
 (٤) هو عيسى بن موسى بن محمد بن عبد الله بن العباس ، أحد ولاة العباسيين وقوادهم .
 وأبوه موسى هو أخو السفاح والمنصور . انظر المعارف ١٦٥ .
 (٥) ب ، م : « قد خل بنفسه » تحريف .
 (٦) ب : « إذ مرت جارية » .
 (٧) أي عنان مجدول . وانظر الحيوان ٦ : ٢٦٢ ورسائل الجاحظ ٢ : ١٢١ .
 (٨) ط : « في لقوة » .
 (٩) ب : « عن عجز كيف يكون حاله » ، تحريف .

تَخَذَلْنِي هَذَا الْخِذْلَانَ^(١) وَتَغَشَّيْنِي مِثْلَ هَذَا الذُّلِّ ، وَلَوْلَا خَيْرَةُ الْحِجَلِ^(٢) لَمْ أَسْتَعْمَلْ مَا لَا يَقْتُلُ ! وَذَلِكَ أَنَّهُ حِينَ رَأَى أَنَّ أَيْلَعَ الْحِيلِ فِي تَوْهِيمِهَا أَنَّ الْعَجْزَ لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِهِ أَنْ يَقُولَ لَهَا : تَعَرَّضِينَ لِي وَأَنْتِ تَقِيلُ ، ثُمَّ لَا تُرْجِحِينَ بَادِيَكُمْ^(٣) ، وَلَا تَسْتَهْدِفِينَ لِسَيْدِكَ ، وَلَا تُعِينِينَ عَلَى نَفْسِكَ ، حَتَّى كَأَنَّكَ عِنْدَ عَبْدِ يُشْبِهُكَ ، أَوْ سُوقَةٍ لَا يَقْدِرُ إِلَّا عَلَى مِثْلِكَ^(٤) . أَمَّا لَوْ كُنْتُ^(٥) مِنْ بَنَاتِ مَلُوكِ الْعَجَمِ لِأَنَّكَ سَيِّدُكَ عَلَى أَجُودِ صَنَعَةٍ ، وَعَلَى أَحْسَنِ طَاعَةٍ ، إِذْ كُلُّ رَجُلٍ يَنْبَسِطُ لِلتَّمَتُّعِ مَعَ التَّفَقُّلِ^(٦) .

١٧ - فصل منه

وَلَمْ أَسْمَعْ وَلَمْ أَفْرَأْ فِي الْأَحَادِيثِ الْمَوْلُودَةَ ، فِي شَأْنِ الْعُشَاقِ ، وَمَا صَنَعَ الْعَشِيقُ فِي الْقُلُوبِ وَالْأَكْبَادِ وَالْأَحْشَاءِ ، وَالزَّفَرَاتِ وَالْحَنِينِ ، وَفِي التَّنْدِيلِيهِ^(٧) وَالتَّوَلِّيهِ^(٨) ، مَتَى تَسْتَعْرِ الدَّمْعَةَ^(٩) ، وَمَتَى يُورِثُ الْعَيْنَ الْجَمُودَ^(١٠) .

- (١) ب ، م : « لتجلسني » و « وتحملي » ، و « تحفلي » ، والصواب في ط . واجتماع نون الرفع مع نون الوقاية يجوز فيه حذف أحدهما أو إبقاؤهما معاً مع الفك ، ومع الإدغام ، كما في المعنى ٣٨٠ . قال : « ونحو تأمروني يجوز فيه الفك ، والإدغام ، والنطق بنون واحدة » .
- (٢) ب ، م : « خيرة الحجل » بالخاء المعجمة ، تحريف .
- (٣) البادان : باطن الفخذين ، وما بين الرجلين ، ومنه قول الدهناء بنت مسحل : « إني لأرخي لك بادي » . اللسان (بدا ٤٦) . ب : « لا ترجين » بالخاء المعجمة ، ط ، م : « لا ترجين » ، والصواب ما أثبت . وفي ط أيضاً « يادلك » ، صوابه في ب ، م .
- (٤) ب : « على ملكك » م : « على ملك » ، صوابهما في ط .
- (٥) لو ، ساقطة من ب ، م .
- (٦) ب : « يبسط » م : « تنبسط » ، صوابهما في ط . وفي ب أيضاً : « مع التفقل » .
- وفي ط : « للمتمتع » ، تحريفان .
- (٧) دمه الحب تدلياً : حيره وأدهشه ، فهو مدله . وكذا وهو توليها : حيره وأذهب عقله . وفي م ، ط : « التذلية والتولية » ، صوابهما في ب .
- (٨) في جميع الأصول : « ومتى » ، والوجه حذف الواو . وفي ب فقط : « الدمع » ، تحريف .
- (٩) جمود العين : قلة دمها . ب ، م : « متى يورب » ، والوجه ما أثبت . وفي ط : « ومتى يعترى » .

١٨ - فصل منه

ونحن وإن رأينا أن فَضَلَ الرَّجُلِ على المرأة ، في جملة القول في الرجال والنساء ، أكثرَ وأظهر ، فليس ينبغي لنا أن نقصّر في حقوق المرأة . وليس ينبغي لمن عظم حقوق الآباء أن يصغر حقوق الأمهات ، وكذلك الإخوة والأخوات ، والبنون والبنات . وأنا وإن كنت أرى أن حقَّ هذا أعظم فإنَّ هذه أرحم .

١٩ - فصل من احتجاجة للإمام^(١)

قال بعض من احتجَّ للعلّة التي من أجلها صار أكثر الإمام أحظى عند الرجال من أكثر المهيّرات^(٢) : أن الرجل قبل أن يملك الأمة قد تأمل كلَّ شيء منها وعرفه ، ما خلا خطوة الخلوة ، فأقدم^(٣) على ابتياعها بعد وقوعها بالموافقة . والحرّة إنما يُستشار في جمالها النساء ، والنساء لا يُبصرون من جمال النساء وحاجات الرجال وموافقتهن قليلاً ولا كثيراً . والرجال بالنساء أبصر . وإنما تعرف المرأة من المرأة ظاهر الصفة ، وأما^(٤) الخصائص التي تقع بموافقة الرجال فإنها لا تعرف ذلك .

وقد تُحسِن المرأة أن تقول : كأنَّ أنفها السيف ، وكانَّ عينها عينُ غزال ، وكانَّ عنقها إبريق فضة ، وكانَّ ساقها جُمارة^(٥) ، وكانَّ شعرها

(١) م فقط : « في الإمام » .

(٢) المهيرة : التي تعطي المهر من الحرائر .

(٣) ب فقط : « فأقبل » .

(٤) ب : « فأما » .

(٥) ب فقط : « وكانَّ » . والجار : شحم النخل ، تشبه به الساق في اللون والبياض . وفي الحديث : « كأنَّ أنظر إلى ساقه في غرزه كأنها جُمارة » .

العناقيد، وكان أطرافها المداي^(١)، وما أشبه ذلك :
وهناك^(٢) أسباب أخر بها يكون الحب والبغض .

٢٠ - فصل منه

وقد علم الشاعر وعرف الواصف ، أن الجارية الفائقة الحسن
أحسن من الظبية ، وأحسن من البقرة ، وأحسن من كل شيء تشبه به ،
ولكنهم إذا أرادوا القول شبهوها بأحسن ما يجدون .

ويقول بعضهم : كأنها الشمس ، وكأنها القمر ! والشمس وإن
كانت هبة فإنما هي شيء واحد ، وفي وجه الجارية الحسناء وخلقها
ضروب من الحسن الغريب والتركيب العجيب .

ومن يشك أن عين المرأة الحسناء أحسن من عين البقرة ، وأن
جيدها أحسن من جيد الظبية ، والأمر^(٣) فيما بينهما متفاوت ، ولكنهم
لو لم يفعلوا هذا وشبهه لم تظهر بلاغتهم وفطنتهم .

٢١ - فصل منه

ورأيت أكثر الناس من البصراء بجواهر النساء^(٤) ، الذين هم
جهايدة هذا الأمر ، يقدمون المجدولة^(٥) ، والمجدولة من النساء تكون
في منزلة بين السمينة والمشوقة .

ولا بد من جودة القدد ، وحسن الخراط ، واعتدال المنكبين ،

(١) أطرافها ، أي أطراف أصابعها . والمداي بكسر الراء وفتحها : جمع مدري
ومدراة ، وهي شيء يعمل من حديد أو خشب على هيئة سن من أسنان المشط . تشبه به في الدقة .

(٢) ب : « هناك » بدون واو .

(٣) الواو ساقطة من ب .

(٤) ب : « لجواهر النساء » .

(٥) ب ، م : « المجدولة » . في هذا الموضع وتاليه ، تصحيف .

واستواء الظَّهر ، ولا بدَّ من أن تكون كاسية العظام ، بين الممتلئة والقضيفة .

وإنَّما يريدون بقولهم : مجدولة^(١) ، جودة العَصَب ، وقيلة الاسترخاء ، وأن تكون سليمة من الزوائد والفضول .

وكذلك قالوا : حُمصانة وسيفانة^(٢) ، وكأنَّها جانُّ ، وكأنَّها جدلُ عنان^(٣) ، وكأنَّها قضيبيُّ خيزران .

والتثني في مَشِيها أحسنُّ ما فيها ، ولا يمكن ذلك الضخمة والسمينة ، وذات الفضول والزوائد .

على أنَّ النَّحافة في المجدولة^(٤) أعمُّ ، وهي بهذا المعنى أعرف^(٥) ، تُحَبَّبُ على السَّمان الضخام^(٦) ، وعلى المشقوقات والقِصاف^(٧) ، كما يحَبَّبُ هذه الأصناف على المجدولات^(٨) .

ووصفوا المجدولة بالكلام^(٩) المنثور فقالوا : « أعلها قضيبي ، وأسفلها كثيب » .

(١) ب ، م : « مجدولة » ، تصحيف ما في ط .

(٢) الحمصانة ، بفتح الحاء وضمها : الضامرة البطن . والسيقانة : الطويلة المشققة الضامرة . ب : « خصانه » ، صوابه في م ، ط . وفي ط : « سيقانة » ، صوابه بالغاء كما في ب ، م .

(٣) انظر الحاشية ٧ من ص ١٥٥ .

(٤) ب ، م : « المجدولة » في هذا الموضع وتاليه ، والصواب في ط .

(٥) بعدها في جميع النسخ : « ولم أر المجدولة أم وهي بهذا المعنى أعرف » ، وهو تكرار لما سبق .

(٦) ب ، م : « تجيب على أصحاب السمان الضخام » ، وأثبت ما في ط .

(٧) القضيفة : الدقيقة النحيفة لأن هنال . ب ، م : « أصحاب المشقوقات والقِصاف » .

(٨) ب : « كما يجيب » ، وأثبت ما في م ، ط . وفي ب ، م أيضاً : « أصناف المجدولات » ، صوابه في ط .

(٩) ب : « المجدولة » م : « المجدولة » ، صوابه في ط .



٧

من رسالتي

مناقب التُّرك وعامة جُند الخِلافة

(١١ - رسائل الجاحظ)



فصل من صدر رسالته إلى الفتح بن خاقان (١)
في مناقب الترك وعامة جنود الخلافة (٢)

وَفَقَّكَ اللهُ لِرُشْدِكَ (٣) ، وَأَعَانَ عَلَى شُكْرِكَ (٤) ، وَأَصْلَحَكَ وَأَصْلَحَ
عَلَى يَدَيْكَ ، وَجَعَلْنَا وَإِيَّاكَ مَنْ يَقُولُ بِالْحَقِّ وَيَعْمَلُ بِهِ ، وَيُؤَثِّرُهُ ، وَيَحْتَمِلُ
مَا فِيهِ مِمَّا قَدْ يَصُدُّ عَنْهُ (٥) ، وَلَا يَكُونُ حَظُّهُ مِنْهُ (٦) الْوَصْفَ لَهُ ،
وَالْمَعْرِفَةَ بِهِ ، دُونَ الْحَثِّ عَلَيْهِ ، وَالْإِنْقِطَاعِ إِلَيْهِ ، وَكَشَفِ الْقِنَاعِ فِيهِ (٧) ،
وإِيبِصَالِهِ إِلَى أَهْلِهِ ، وَالصَّبْرِ عَلَى الْمَحَافِظَةِ فِي أَنْ لَا يَصِلَ إِلَى غَيْرِهِمْ ،
والتَّشْبِثِ فِي تَحْقِيقِهِ لَهُمْ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُعَلِّمِ النَّاسَ لِيَكُونُوا عَامِلِينَ
دُونَ أَنْ يَكُونُوا عَامِلِينَ ، وَإِنَّمَا عَلَّمَهُمْ لِيَحْمِلُوا (٨) ، وَبَيَّنَّ لَهُمْ لِيَتَّقُوا (٩) التَّوَرُطَ
فِي وَسْطِ الْخَوْفِ ، وَالْوُقُوعِ فِي الْمَضَارِّ ، وَالتَّوَسُّطِ فِي الْمَهَالِكِ . فَلِذَلِكَ
طَلَبَ النَّاسَ التَّيْبِينَ (١٠) .

- (١) الفتح بن خاقان هذا هو وزير المتوكل العباسي . وكان أديباً شاعراً فصيحاً بارع الذكاء . وكانت له خزائن كتب حافلة ، وله مؤلفات منها : كتاب اختلاف الملوك ، وكتاب الصيد والجراح ، وكتاب الروضة والزهر . وتقل مع المتوكل سنة ٢٤٧ .
وهو غير الفتح بن محمد عبيد الله بن خاقان ، صاحب قلعة العقيان . انظر فهرست ابن النديم ١٦٩ - ١٧٠ وفوات الوفيات ٢ : ١٥٣ - ١٥٤ .
- (٢) نشرت كاملة في ليدن ١٩٠٣ م بمناية فان فلوون ، كما نشرها الساسي في مجموع رسائله سنة ١٣٢٤ هـ = ١٩٠٧ م كما نشرت في رسائل الجاحظ بتحقيق سنة ١٣٨٤ هـ = ١٩٦٤ م . وقد رمزت للأولى هنا بالرمز (ن) وللثانية بالرمز (م) .
- (٣) في جميع الأصول : « وأرشدك » ، وأثبت ما في معج والرسائل ١ : هـ هارون .
- (٤) ط ، م : « وأعانك على شكره » .
- (٥) ب : « يصدر عنه » ، وأثبت ما في م ، ط . وفي معج والرسائل : « مما قد يصده عنه »
- (٦) منه ، ساقطة من الأصول ، ثابتة في معج والرسائل .
- (٧) معج فقط : « عنه » .
- (٨) ب ، ط : « ليحملوا » ، صوابه في سائر النسخ .
- (٩) ب : « ليتقوا » صوابه في م ، ط والرسائل . وبعد هذه الكلمة في معج فقط : « وتلوف الوقوع في المضار ، والتورط في المهالك ، طلب الناس التبيين » .
- (١٠) م ، ط فقط : « التبيين » .

ولحبِّ السَّلامَةِ من المَلَكَةِ ، والرَّغْبَةِ في المنفَعَةِ احتملوا^(١) يُثَقِّلُ
التَّعلمَ ، وتَعَجَّلُوا مَكْرُوهُ المَعَانَاةِ^(٢) .

ولقَلَّةِ العَامِلِينَ وكثرةِ الوَاصِفِينَ قال الأَوَّلُونَ : العَارِفُونَ أَكْثَرُ
من الوَاصِفِينَ ، والوَاصِفُونَ أَكْثَرُ من العَامِلِينَ .

وإنَّمَا كَثُرَتِ الصِّفَاتُ وَقَلَّتِ الموصُوفَاتُ لِأَنَّ ثَوَابَ العَمَلِ مُوجِبٌ ،
وَاحْتِمَالٌ مَا فِيهِ مَعَجَلٌ .

وقد أعجبتني ما رأيتُ من شَغَفِكَ^(٣) بطاعةِ إمامك ، واحتجاجك
لتدبيرِ خليفتك ، وإشفاقك من كلِّ خَلَلٍ يدخله وإنْ دَقَّ ، ونالَ
سُلْطَانَهُ^(٤) وإنْ صَغُرَ ، ومن كلِّ أَمْرٍ خَالَفَ هواه وإنْ خَفِيَ مكانه ،
وجانبَ رضاه وإنْ قَلَّ ضرره . ومن تخوُّفِكَ^(٥) أَنَّ يَجِدَ^(٦) المُنَاوِلَ إليه
متطَرِّقاً ، والعدوَّ عليه متعلقاً ؛ فإنَّ السُّلْطَانَ لا يَنْفِكُ من مُتَاوِلٍ نَاقِمٍ ،
ومن مَحْكُومٍ عليه سَاخِطٍ ، ومن مَمزُولٍ^(٧) عن الحِكمِ زَارٍ ، ومن متعطلِّ
متصَفِّحٍ ، ومن مُعْجَبٍ برأيه ، ذِي شَطَطٍ في بَيَانِهِ ، مُوَلِّعٍ بتهجينِ
الصُّوَابِ ، وبِالاعتراضِ على التَّدْبِيرِ ، حَتَّى كَأَنَّهُ رَائِدٌ لجمِيعِ الأُمَّةِ ،
ووكيلٌ لسكَّانِ جميعِ المَمْلَكَةِ ؛ يَضَعُ نَفْسَهُ في مواضعِ الرُّقَبَاءِ ، وفي
مواضعِ التَّصَفِّحِ على الخلفاءِ والوُزَرَاءِ . لا يَعْذِرُ وإنْ كَانَ مَجَازُ العُدْرِ
ظَاهراً ، ولا يَقِفُ فيما يَكُونُ للشُّكِّ محتتملاً ، ولا يَصْدُقُ بِأَنَّ الشَّاهِدَ

(١) ب فقط : « احتمل » .

(٢) مع والرسائل : « مكروه المعاناة » .

(٣) ب فقط : « شغفك » .

(٤) ط فقط : « ونول سلطانه » .

(٥) ب ، م : « وإن تخونك » ، صوابه في سائر النسخ .

(٦) في جميع الأصول : « أن تجد » ، صوابه في مع والرسائل .

(٧) مع والرسائل : « معدول » بالدهال ، وله وجهه .

يرى ما لا يرى الغائب ، وأنه لا يعرف مصادر الرأي من لم يشهد
موارده ، ومُسْتَدْبِرَه من لم يعرف مُسْتَقْبَلَه .

ومن محرومٍ قد أضعفه الجرمان ، ومن لئيمٍ قد أفسدته الإحسان ،
ومن مستبطنٍ قد أخذ أضعاف حقه ، وهو لجهله بقدره ، ولضيق
ذريعه ، وقلة شكره ، يظن أن الذي يقبى له أكثر ، ولحقه أوجب .

ومن مستزيدٍ لو ارتجع السلطان سالف أيامه البيض عنده ،
ويعتمه السالفة عليه ، لكان^(١) لذلك أهلاً ، وله مستحقاً . قد غره
الأمل^(٢) ، وأبطره دوام الكيفية ، وأفسده طول الفراغ .

ومن صاحب فتنة^(٣) خامل في الجماعة ، رئيس في الفرقة نعان في الهرج ،
قد أقصاه عز السلطان^(٤) ، وأقام صغوه ثقاف الأدب^(٥) ، وأدله الحكم
بالحق^(٦) ، فهو مغيظ لا يجد غير التشنيع^(٧) ، ولا يتشفي بغير
الإرجاف ، ولا يستريح إلا إلى الأمان^(٨) ، ولا يأنس إلا بكل مرجف
كذاب ، ومفتون مرتاب ، وخارص لا خير فيه ، وخالف لا غناء عنده ،
يريد أن يسوى بالكفاة ، ويرفع فوق الحماة ، لأمر ما سلف^(٩) له ،
ولإحسان كان من غيره^(١٠) ، وليس ممن يرب قديم مجد^(١١) ، ولا يحفل

(١) ب ، م : « ولكن » ، صوابه في سائر النسخ .

(٢) ب ، مع ورسائل الجاحظ : « الإملاء » .

(٣) ط : « للفتنة » .

(٤) وكذا في مع . وفي رسائل الجاحظ : « قد أقصاه السلطان » .

(٥) الصغو ، بالكسر والفتح : الميل . وفي جميع النسخ : « صغره » ، صوابه في مع .

(٦) ب ، م : « الحلم بالحق » وفي ط « الجهل بالحق » ، صوابهما في مع ورسائل

الجاحظ .

(٧) ب : « التشيع » ، صوابه في م ، ط ، مع ورسائل الجاحظ .

(٨) ب : « إلا بالأمان » .

(٩) ب : « لا يسلف له » م ، ط : « لا أب سلف له » ، صوابهما في رسائل الجاحظ .

وفي مع : « لأمر سلف له » .

(١٠) ط فقط : « وإحسان كان من غيره » .

(١١) ط : « يربه قديم مجد » . مع ورسائل الجاحظ : « يرب قديماً مجد » .

بُدروس شرف^(١) ، ولا يَفْصِلُ بين ثواب [المحتسبين ، وبين الحفظ
لأبناء^(٢)] الْمُحْسِنِينَ .

وكيف يعرف فَرَقَ ما بين حَقِّ الذَّمَامِ^(٣) وَثَوَابِ الكِفَايَةِ مَنْ
لا يعرف طبقاتِ الحقِّ في مراتبه ، ولا يَفْصِلُ بين طبقاتِ الباطلِ^(٤)
في منازلِهِ .

ثم اعلم^(٥) بعد ذلك أَنَّكَ بذنوبك بدأتَ في تعظيمِ إمامك ، والحفظِ
لمناقبِ أنصارِ خليفتك^(٦) ، وإيَّاهَا حُطِّتَ بحياطتك^(٧) لأشباعِهِ ،
واحتجاجك لأوليائه ، ونعم العون أنت ، إن شاء الله ، على ملازمةِ الطَّاعَةِ ،
والموازاةِ على الخيرِ^(٨) ، والكفايةِ لأهلِ الحقِّ .

وقد استدلتُّ بالذي أرى من شدةِ عنيتك^(٩) وَقَرَطِ اكتراثك ،
وتفقدك لأجناسِ الأعداءِ^(١٠) ، وبحثك عن مناقبِ الأولياءِ - على أَنَّ
ما ظَهَرَ من نُصْحِكَ أُمَّمٌ في جَنْبِ ما بَطَّنَ من إخلاصك^(١١) . فأمْتع

(١) ط : « ولا يخفى به ردوس شرفا » صوابه في سائر النسخ .

(٢) التكلة من معج والرسائل .

(٣) الذمام ، بكسر الهمزة ، والحق والحرمة ، وكل حرمة تلزمك إذا ضيغها الذمة .

ب : « فوق ما بين حق الزمام » ، تحريف .

(٤) ب فقط : « المبطل » ، تحريف .

(٥) معج والرسائل : « ثم أعلمني » .

(٦) ب : « والحفظ بمناب أبنصار خليفتك » ، صوابه في سائر النسخ .

(٧) في الأصول : « لحياطتك » ، وأثبت ما في معج والرسائل .

(٨) ب فقط : « والموازنة » ، تحريف .

(٩) من ، ساقطة من ب ، م . وكلمة « شدة » من معج والرسائل .

(١٠) في الأصول : « ولقدك » ، صوابه في معج والرسائل . وفي معج والرسائل :

« لأخاير الأعداء » . والأخاير : جمع جمع لقبير ، كما في اللسان .

(١١) الأهم : اليسير . وأنشد ياقوت في معجم البلدان :

تسألني برامتين سلجماً يا هند لو سألت شيئاً أما

جاء به الكرى أو تيجا

الله بك خليفته ، ومَنَحنا وإِيَّاكَ محبته ، وأَعَاذنا وإِيَّاكَ من قَول الزُّور ،
والتقَرُّبِ بالباطل ، إِنَّه حميدٌ مَجِيدٌ ، فَعَالَ لما يريد .

وذكرت أَنَّكَ جالستَ أَخلاطاً من جُندِ الخلافة ، وجماعاتٍ من
أبناءِ الدَّعوة ، وشيوخاً من جِلَّةِ الشَّيعة^(١) ، وكُهوَلاً من أبناءِ رجال
الدولة ، المنسوبين إلى الطاعة والمُناصحة ، ومحبةِ الدُّيُوتنة^(٢)
دون محبةِ الرِّغبة والرَّهبة ، وأنَّ رجُلًا من عُرُض تلك الجماعة^(٣)
ارتجل الكلام ارتجالاً مستبداً ، وتفردَ به تفردٌ مُعجَب ، وأنه تحسَّف
المعاني وتهجَّم على الألفاظ^(٤) . فزعم أنَّ جندِ الخلافة اليومَ على خمسة
أقسام : خُراسانيٌّ ، وتُركيٌّ ، وموَلِيٌّ ، وعربيٌّ ، وبنويٌّ^(٥) ، وأنه أكثرُ حمداً
الله وشكراً على إحسانه ومِنَّته ، وعلى جميعِ أبايديه ، وسبوغِ نِعَمه^(٦) ،
وعلى شُمولِ عافيته ، وجزيلِ مواهبه ، حين أَلَّف على الطاعة هذه

(١) الجملة : جمع جليل ، وهو ذو الخطر والثأن . وفي الأصول : « من جملة الشيعة » ،
وأثبت ما في معج والرسائل .

(٢) الدينونة : الطاعة ، من الدين بالكسر . وهذا ما في م . وفي ب : « ومحبة الدينوية » ،
وفي ط والرسائل : « والمحبة الدينية » . وفي معج : « والمناصحة الدينية . والدينونة لم ترد في
المعاجم المتداولة . وفي اللسان (كيون) : « قال الفراء : العرب تقول في ذوات البهائم ما يشبه
زغت وسرت : طرت طيرة ، وحلت حيدة ، فيما لا يحصى من هذا الضرب .
فأما ذوات الواو مثل قلت ورضت فإنهم لا يقولون ذلك . وقد أتى عنهم في أربعة أحرف ،
منها الكينونة من كنت ، والديمومة من دمت ، والهنونة من الهواع ، والسليودة من سدت » .
(٣) ب ، م : « الجملة » ، وأثبت ما في ط ومعج والرسائل . ويعدده فيهما : « ومن
حاشية تلك الجملة » .

(٤) في جميع الأصول : « وتهكّم » بالكاف ، صوابه في معج والرسائل .
(٥) البنوي : نسبة إلى واحد الأبناء . ويقال أيضاً « أبناوي » نسبة إلى الجمع ، وهم قوم
أرسلهم كسرى مع سيف بن ذي يزن حين جاء يستنجد على الحبشة ، فنصروه وملكوا اليمن
وتديروها ، وتزوجوا في العرب فقتل لأولادهم الأبناء ، وغلب عليهم هذا الاسم ، لأن أهمياتهم
من غير جنس آبايهم . اللسان (بنو) والتنبية والإشرف ٤٢١ . ويبدو أن جميع الذين اجتمعوا
الحروب من الفرس إلى جزيرة العرب كان العرب يسمونهم الأبناء . وفي جميع الأصول :
« وبنوني » ، صوابه في معج والرسائل .
(٦) معج والرسائل : « وسايغ نعمه » .

القلوب المختلفة، والأجناس المتباينة، والأهواء المتفرقة، وأنتك اعترضت على هذا التكلم المستبد، وعلى هذا القائل المتكلف الذي قسم هذه الأقسام، وخالف بين هذه الأركان، وفصل بين أنسابهم. وأنتك أنكرت ذلك عليه أشد الإنكار، وقدمته أشد القُدْع.

وزعمت أنهم لم يخرجوا من الاتفاق، أو من شيء يقرب من الاتفاق^(١)، وأنتك نفقت^(٢) التباعد في النسب، والتباين في السبب.

وقلت: بل أزعم أن الخراساني والتركي أخوان، وأن الحيز واحد، وأن حكم ذلك الشرق^(٣)، والقضية على ذلك الصنع^(٤) متفق غير مختلف، ومتقارب غير متفاوت، وأن الأعراق في الأصل إن لا تكن^(٥) كانت راسخة، فقد كانت متشابهة، وحدود البلاد المشتمة عليهم إن لا تكن^(٦) متساوية فإنها متناسبة، وكلهم خراساني في الجملة، وإن تميزوا ببعض الخصائص، وافترقوا ببعض الوجوه.

وزعمت أن اختلاف التركي والخراساني ليس كاختلاف ما بين الرومي والصقلبي، والزنجي والحبشي، فضلاً على ما هو^(٧) أبعد جوهراً، وأشد خلافاً، بل كاختلاف ما بين المديري والوبري، والبدوي والحصري، والسهلي والجيلي، وكاختلاف ما بين من نزل البطون وبين

(١) أو من شيء يقرب من الاتفاق، ساقط من م، ط، وإن كان قد ورد بهامش م بخط مخالف.

(٢) مع والرسائل: « وأنتك أنكرت ».

(٣) ب فقط: « الشرف » بالفاء، صوابه في سائر النسخ.

(٤) ط: « والقضاء » بدل « القضية ». وفي م: « ذلك الصنع »، تحريف.

(٥) ط: « إذا لم تكن » مع: « إن لم تكن راسخة ».

(٦) مع: « إن لم تكن ».

(٧) مع والرسائل: فضلاً عما هو.

من نزل النجود^(١) ، وبين من نزل الأغوار^(٢) .

وزعمتَ أنَّ هولاءَ وإن اختلفوا في بعض اللُّغة ، وفارقَ بعضهم بعضاً في بعض الصُّورة^(٣) ، فقد نجد أنَّ عَلِيًّا تَمِيمٌ^(٤) ، وسُقَلَى قَيْسٌ ، وَعَجَزٌ هَوَازِنٌ^(٥) ، وفصحاءَ الحجاز ، خلافَ لُفَّةٍ حَمِيرٍ^(٦) وسكَّانٍ مَخَاليفِ البِمن ، وكذلك الصُّورة والصُّورة ، والشَّائِلُ والشَّائِلُ ، والأَخلاقُ والأَخلاقُ . وكلُّهم مع ذلك عربيٌّ خالصٌ غير مَشُوبٍ ، ولا مُمَلَّحٍ ولا منذَرٍ^(٧) ولا مزَلَّجٍ^(٨) . ولم يختلفوا كاختلاف ما بين

(١) النجود : جمع نجد ، وهو ما غلظ من الأرض وارتفع واستوى ، والجمع أنجد ، وأنجاد ، ونجاد ، ونجود ، ونجد . ب ، ط : « البحر » تحريف ، صوابه في م مع أژ تصحيح ، وكذا في مع والرسائل .

(٢) الأغوار : جمع غور ، وهو ما انخفض من الأرض . ب : « الأهواز » م : « الأغوار » ، صوابهما في ط ، مع والرسائل .

(٣) ب : « وقارب بعضهم بعضاً وبعض الصورة » ، صوابه في م ، ط ، مع والرسائل ، لكن في ط : « وبعض الصورة » تحريف .

(٤) مع والرسائل : « فقد تخالفت عليا تميم » . وعليها تميم ، أو عالية تميم هم بنو عمرو بن تميم ، وهم بنو المهيم والمنبر ومازن ، كما في اللسان (علا ٣٢٦) . وفي الصاحبي ٢٨ والمزهر ١ : ٢١١ : « أفصح العرب عليا هوازن وسقلى تميم » . وفي البرهان للزركشى : ٢٨٣ : « وأما سقل تميم فبنو دارم » . وهم بنو دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة ابن تميم .

(٥) في الصاحبي ٢٨ والمزهر ١ : ٢١٠ : « العجز من هوازن ، وهم الذين يقال لهم عليا هوازن ، وهم خمس قبائل أو أربع ، منها سعد بن بكر ، وجشم بن بكر ، ونصر بن معاوية ، وثقيف » . وفي اللسان : « عجز هوازن : بنو نصر بن معاوية ، وبنو جشم بن بكر ، كأنه آخرهم » . ويبدو أن الوصف بالعليا والسقلى راجع إلى الموقع الإقليمي . فعليا تميم : من يسكنون العالية ، وهي ما ولى الحجاز وتهامة . وسفلام : من يسكنون السافلة ، وهي ما ولى العراق . وتمامي كلها مشهود لها بالفصاحة .

(٦) مع والرسائل : « وهي في أكثرها على خلاف لفة حير » .

(٧) الملهج : المهجين ، وهو العربي المولود من أمة . والمذرع : الذي أمه عربية وأبوه عربي . وأنشد :

إذا باهل عنده حنظلية لها ولد منه فذاك المذرع

وفي جميع النسخ : « ولا مربوع » ، صوابه في مع والرسائل وهامش م .

(٨) المزلاج : الدعي ، والمزلق بالقوم وليس منهم ، كأنهم يزجلونه عن أنسابهم لعدم أصالته . ب فقط : « مزنج » ، صوابه في م ، ط ومع والرسائل .

فَحَطَّانَ وَعَدْنَانَ ، مِنْ قَبْلِ مَا طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهِ تِلْكَ التَّرْبَةَ مِنْ خِصَائِصِ الْغَرَائِزِ ، وَمَا قَسَمَ لِأَهْلِ كُلِّ جَزِيرَةٍ مِنَ الشُّكْلِ وَالصُّورَةِ ، وَمِنَ الْأَخْلَاقِ وَاللُّغَةِ .

فإن قلت : وكيف صار أولادهما جميعاً عربياً ، مع اختلاف الأبوة ؟ قلنا : إن الجزيرة لما كانت واحدة فاستووا^(١) في التربة وفي اللغة ، وفي الثنائيل والهمة ، وفي الأنث والحمية ، وفي الأخلاق [والسجية^(٢)] ، فسبكوا سبكاً واحداً ، تشابهت الأجزاء وتناسبت الأخلاق^(٣) ، حتى صار ذلك أشد تشابهاً في باب الأعم والأخص ، وفي باب الوفاق والمباينة^(٤) من بعض الأرحام ، وجرى عليهم حكم الأنفاق في الحسب^(٥) ، وصارت هذه الأسباب ولادة أخرى حتى تناكحوا عليها ، وتصاهرُوا من أجلها . وامتنعت عدنان قاطبة من مناكحة بني إسحاق ، وهو أخو إسماعيل ، وجادوا^(٦) بذلك في جميع الدهر لبني قحطان^(٧) .

ففي إجماع الفريقين على التناكح والتصاهر ، ومنعهما ذلك جميع الأعم ، ككسرى^(٨) فمن دونه ، دليل على أن النسب^(٩) عندهم متفق ، وأن هذه المعاني قد قامت عندهم مقام الولادة والأرحام الماسة .

(١) ط فقط : « استوا » بدون فاء .

(٢) التكلة من معج والرسائل .

(٣) ب ، م : « وتباينت الأخلاق » ، ط : « وتباينت الأخلاق » ، صوابها في معج والرسائل .

(٤) في الأصول : « وفي باب الوفاق وفي البنية » ، صوابه في معج والرسائل .

(٥) في الأصول : « وفي الحسب » ، والوجه حذف الواو كما في معج والرسائل .

(٦) جادوا ، أي سمحوا . وفي الأصول : « وجازوا » ، صوابه في معج والرسائل .

(٧) في الأصول : « وكفى قحطان » ، وأثبت ما في معج والرسائل .

(٨) ب فقط : « كسرى » .

(٩) ب ، م : « دليل على النسب » ، تحريف .

وزعمت أنه أراد الفرقة والتَّحْزِيبَ^(١) ، وأنك أردت الألفة والتقريب^(٢) .

ثم زعمت أيضاً أن البَنَوِيَّ^(٣) خُرَاسَانِيٌّ ، وأنَّ نسب الأبناء نسب آبائهم ، وأنَّ حُسْنَ صنيعِ الآباءِ ، وقَدِيمَ فَعَالِ الأجدادِ ، هو حَسَبُ الأبناءِ ، وأنَّ الموالِيَّ بالعربِ أشبهُ ، وإليهم أقرب ، وبهم أَمْسٌ ؛ لِأَنَّ السَّنَةَ^(٤) قد نقلت الموالِيَّ إلى العربِ في كثيرٍ من المعاني ، لأنهم عربٌ في المدعى ، وفي العاقلة ، وفي الورثة^(٥) . وهذا تأويلُ قوله^(٦) : « مَوَالِيَّ القومِ منهم^(٧) » . و « الولاءُ لِحِمَّةٍ كُلِّحِمَّةِ النَّسَبِ^(٨) » .

ثم زعمت أنَّ الأتراكَ قد شاركوا القومَ في هذا النَّسَبِ ، وصاروا من العربِ بهذا السَّببِ ، مع الذي بانوا به من الخلالِ ، وحُبُّوا به من شَرَفِ الخصالِ .

علَّ أنَّ ولاءَ الأتراكِ للبابِ قريشِ ، ولِمُصَاصِ عبدِ منافِ ، [وهم^(٩)] في سرِّ هاشمٍ ، وهاشمٌ مَوْضِعُ العِذارِ من خَدِّ الفرسِ ، ومحلُّ العِقدِ

(١) التحزيب : أن يجعلهم أحزاباً و فرقة . ب : « والتخريب » م : « والتخويف » ط : « والتحزب » ، صوابه في مع والرسائل .

(٢) ط فقط : « والتقرب » .

(٣) في الأصول : « البنوي » صوابه في مع والرسائل . وانظر ما سبق في صفحة ١٦٧ .

(٤) ب ، م : « الشبه » ط : « النسبة » صوابهما مع والرسائل .

(٥) في الأصول : « الرأية » ، وأثبت ما في مع والرسائل .

(٦) مع : « قوله عليه الصلاة والسلام » .

(٧) ويروي : « من أنفسهم » . الجامع الصغير ٩١٢٤ . وأخرجه البخاري عن أنس .

(٨) أخرجه الطبراني عن عبد الله بن أبي أوفى ، والحاكم والبيهقي عن ابن عمر . الجامع الصغير ٩٦٨٧ .

(٩) التكلفة من رسائل الجاحظ .

من لَبَّةِ الكَمَابِ^(١) . وهو^(٢) الجوهـر المكنونُ ، والدَّهَبُ المصنَّى ، وموضع المُنْحَة من البيضة^(٣) ، والعين في الرأس^(٤) ، والرُّوح من البدن . وهم الأَنْفُ المَقْدَمُ ، والسَّنَامُ الأَكْوَمُ ، والطَّيْنَةُ البيضاء ، والدَّرَّةُ الزهراءُ ، والرُّوضَةُ الخضراءُ ، والدَّهَبُ الأَحْمَرُ .

فقد شاركوا العرب في أنسابهم ، وفَضَلوهم بهذا الفضل الخاص الذي لا يبلغه فضل وإن بَرَعَ ، بل لا يُعْشَرُه شَرَفٌ وإن عَظُمَ ، ولا مَجْدٌ وإن قَدُمَ . فرَعِمَتْ أنَّ أنساب الجميع متقاربةٌ غير متباعدة ، وعلى حسب ذلك التَقَارُبِ تكون الموازرة والمكائفة^(٥) ، والطاعة والمُنَاصَحة ، والمحبة للخلفاء والأئمة .

وذكرت أنه ذكرَ جُملاً من مفاخر هذه الأجناس ، وجمهرة من مناقب هذه الأصناف ، وأنه جمع ذلك وفَصَله ، وأجملَه وفسره ، وأنه ألغى ذِكْر الأتراك فلم يعرَض لهم^(٦) ، وأضربَ عنهم صفحاً فلم يُخَيَّرَ عنهم ، كما أخبرَ عن^(٧) حُجَّة كلِّ جيل ، وعن بُرْهان كلِّ صنف . فذكرَ أنَّ الخراساني يقول : نحنُ النُّقباءُ ، وأبناءُ النُّقباءِ ، ونحن النُّجباءُ وأبناءُ النُّجباءِ ، ومِنَّا الدعاة قبل أن تظهر نقابة^(٨) ، أو تُعرف

(١) في رسائل الجاحظ : « الكاعب » ، وما سواه . يقال جارية كعاب ومكعب ، وكاعب : نهد ثديها . واللبة بالفتح ، واللبب بالتحريك : موضع القلادة من الصدر .
(٢) وهو ، ليست في رسائل الجاحظ . كما أن وجهها « وهم » .
(٣) حمة البيضة وبجها : ما في جوفها من صفرة . ب فقط : « الحمة » تحريف .
(٤) مع فقط : « من الرأس » .
(٥) المكائفة ، بالنون : المعاونة ، ومثلها المكائفة ، بالناء ، كما في المعجم الوسيط .
ب ، م : « والمكائفة » . صوابها في ط ومع . وفي رسائل الجاحظ : « والمكائفة » بالناء .
(٦) ط فقط : « بهم » .
(٧) ط فقط : « حير » .
(٨) النقيب : العريف على القوم المقدم عليهم ، الذي يتعرف أخبارهم وينقب عن أحوالهم . والنقابة بالفتح المصدر ، وبالكسر الاسم .

نَجَابَةٍ ، وَقَبِيلَ الْمَغَالِبَةِ وَالْمَبَادِئِ^(١) ، وَقَبْلَ كَشْفِ الْقِنَاعِ وَزَوَالِ التَّقِيَّةِ .
وَبِنَا زَالَ مُلْكُ أَعْدَائِنَا عَنْ مُسْتَقَرِّهِ ، وَثَبَّتَ مُلْكُ أَوْلِيَانِنَا فِي
نَصَابِهِ ، وَبَيَّنَّ ذَلِكَ مَا قُتِلْنَا وَشُرُّدْنَا ، وَنُهَكْنَا ضَرْباً وَطَلَباً ، وَبُضِعْنَا
بِالسُّيُوفِ الْخُدَادِ ، وَعُدُّبْنَا بِأَلْوَانِ الْعَذَابِ .

وَبِنَا شَفَى اللهُ تَعَالَى الصُّدُورَ ، وَأَدْرَكَ النَّارَ ، وَمَنَا الْإِثْنَى عَشَرَ
النُّقْبَاءَ ، وَالسَّبْعُونَ النُّجَبَاءَ . وَنَحْنُ الْخَنْدَقِيَّةُ وَأَبْنَاءُ الْخَنْدَقِيَّةِ^(٢) ،
وَنَحْنُ الْكُفَيْيَّةُ وَأَبْنَاءُ الْكُفَيْيَّةِ^(٣) ، وَمَنَا الْمُسْتَجِيبَةُ ، وَمِنَ^(٤) بَهْرَجِ التَّيْمَةِ ،
وَمَنَا نَيْمِ خِزَانَ^(٥) ، وَأَصْحَابِ الْجَوَّزِيِّينَ^(٦) ، وَمَنَا الزُّغَنْدِيَّةَ^(٧) ،
وَالْأَزَادْمَرْدِيَّةَ^(٨) .

وَنَحْنُ فَتَحْنَا الْبِلَادَ ، وَقَتَلْنَا الْعَدُوَّ بِكُلِّ وَادٍ ، وَنَحْنُ أَصْلُ هَذِهِ الدَّوْلَةِ ،
وَمَنْبَتِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ ، وَأَصْحَابُ هَذِهِ الدَّعْوَةِ ، وَمِنْ عَيْنِنَا هَبَّتْ هَذِهِ الرِّيحُ .
وَالْأَنْصَارُ أَنْصَارَانِ : الْأَوْسُ وَالخَزْرَجُ ، نَصَرُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ فِي أَوَّلِ الزُّمَانِ ، وَأَهْلُ خُرَاسَانَ نَصَرُوا وَرَثَتَهُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ ،
عَدَانَا بِذَلِكَ آبَاؤُنَا ، وَعَزَّوْنَا بِهِ أَبْنَاعُنَا ، وَصَارَ لَنَا نَسَباً لَا تُعْرَفُ إِلَّا بِهِ ،
وَدِيناً لَا نُؤَالِي إِلَّا عَلَيْهِ .

(١) في الرسائل : « والمباراة » وبالراء .

(٢) الخندقية : أصحاب الخنادق أيام نصر بن سيار ، كما سيأتي في أول ص ١٧٦ .

(٣) ط فقط : « الكفئية وأبناء الكفئية » .

(٤) م ، ط : « منا » وفي ط والرسائل بعده : « بهرج التيمية » وفي مع : « بهرج التيمية » .

(٥) ط فقط : « نيم خزان » .

(٦) ب ، م : « الجوزتين » . وفي ط : « الحوزتين » ، وأثبت ما في مع والرسائل .

(٧) زغند ، في الفارسية بمعنى صوت الحيوان الوحشي . وسيأتي في ص ١٧٩ : « ولنا الأصوات التي تسقط الخيال » .

(٨) الأزاد مردية : اسم كان يطلق على طبقة الأشراف من الفرس . انظر مقال الدكتور كراوس في مجلة الثقافة العدد ٢٢٤ . ب : « والأذامردية » م : « والأزادردية » ط : « والأمزاردية » ، صوابه في مع والرسائل .

فَمَنْ نَحْنُ عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَمِنْهَا جَرِّ غَيْرِ مُشْتَرِكٍ ، نُعْرَفُ بِالشَّيْعَةِ ،
وَنُذَيِّينَ بِالطَّلَاعَةِ ، وَنُقْتَلُ فِيهَا ، وَتَمُوتُ عَلَيْهَا . سَيَانَا مَوْصُوفٌ ، وَلِبَاسُنَا
مَعْرُوفٌ ، وَنَحْنُ أَصْحَابُ الرَّايَاتِ السُّودِ ، وَالرَّوَايَاتِ الصَّحِيحَةِ^(١) ،
وَالْأَحَادِيثِ الْمَأْتُورَةِ ، وَالَّذِينَ يَهْدِمُونَ مَدُنَ الْجَبَابِرَةِ ، وَيَنْتَزِعُونَ الْمُلْكَ
مِنْ أَيْدِي الظُّلْمَةِ . وَفِينَا تَقَدَّمَ الْخَبِيرُ ، وَصَحَّ الْأَثَرُ . وَجَاءَ^(٢) فِي الْحَدِيثِ
صَفَةُ الَّذِينَ يَفْتَحُونَ عَمُورِيَّةَ^(٣) ، وَيُظْهِرُونَ عَلَيْهَا^(٤) ، وَيَقْتُلُونَ
مَقَاتِلَهَا^(٥) ، وَيَسْتَبُونَ ذُرَارِيَهَا ، حَيْثُ قَالُوا فِي نَعْتِهِمْ : «شُعُورُهُمْ شُعُورُ
النِّسَاءِ ، وَثِيَابُهُمْ ثِيَابُ الرَّهْبَانِ » . فَصَلِّقُ الْفِعْلُ الْقَوْلُ ، وَحَقَّقَ الْخَبِيرُ
الْعِيَانُ .

وَنَحْنُ الَّذِينَ ذَكَرْنَا ، وَذَكَرَ بِلَاعَنَا^(٦) إِمَامُ الْأَثَمَةِ ، وَأَبُو الْخَلَائِفِ
الْعَشْرَةِ^(٧) مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ ، حِينَ أَرَادَ تَوْجِيهَ الدُّعَاةِ إِلَى الْآخِاقِ ، وَتَفْرِيقِ
شَيْبَعَةَ فِي الْبُلْدَانِ :

- (١) فِي الْأَصُولِ : « فِي الرَّوَايَاتِ الصَّحِيحَةِ » ، وَأَثْبَتَ مَا فِي مَجِّ وَالرَّسَائِلِ .
(٢) ب ، ط : « جَاءَ » بِدُونِ وَاو .
(٣) عَمُورِيَّةٌ ، بِتَشْدِيدِ الْمِيمِ الْمَضْمُومَةِ وَالْيَاءِ : بَلَدَةٌ فِي الرُّومِ فَتَحَهَا الْمُتَعَصِّمُ الْعَبَّاسِيُّ سَنَةَ ٢٢٣ .
وَهَذَا الْفَتْحُ قِصَّةٌ عَجِيبَةٌ مَذْكُورَةٌ فِي كِتَابِ التَّارِيخِ . وَفِيهِ يَقُولُ أَبُو تَمَّامٍ :
يَا يَوْمَ وَقَعَتْ عَمُورِيَّةٌ انْصَرَفَتْ عَنْكَ الْمُنَى حِفْلًا مَعْسُولَةَ الْحَلِيبِ
(٤) عَلَيْهَا ، سَاقِطَةٌ مِنْ م .
(٥) كَذَا فِي مَجِّ وَالرَّسَائِلِ وَم . وَفِي ب : « مَقَاتِلَهَا » وَفِي ط : « مَقَاتِلَتَهَا » .
(٦) ب ، م : « بِلَادِنَاهُ » ، صَوَابِيهِ فِي ط .
(٧) يَمِينُ خَلْفَاءِ الْعَبَّاسِيِّينَ الْعَشْرَةَ الَّذِينَ أَدْرَكَ الْجَاحِظُ آخِرَهُمْ ، وَهُوَ الْخَلِيفَةُ الْمُتَوَكَّلُ . وَهُم
عَلِ الْوَلَاءِ : أَبُو الْعَبَّاسِ السَّفَّاحُ ، وَأَبُو جَعْفَرِ الْمَنْصُورُ ، ثُمَّ الْمُهْتَدِيُّ ، وَالْهَادِي ، وَالرَّشِيدُ ،
وَالْأَمِينُ ، وَالْمَأْمُونُ ، وَالْمُتَعَصِّمُ الَّذِي كَانَ يُسَمَّى « الْخَلِيفَةُ الْمُنْمَنُ » ، لِأَنَّهُ الثَّامِنُ مِنْ خَلْفَاءِ بَنِي
الْعَبَّاسِ ، أَوْ لِأَنَّهُ مَاتَ عَنْ مِثْلَانِيَّةِ بَيْنِ وَنَحْمَاقِ بَنَاتٍ ، وَخَلَفَ فِي بَيْتِ الْمَالِ ثَمَانِيَةَ آلَافِ أَلْفِ دِينَارٍ ،
وَثَمَانِيَةَ آلَافِ أَلْفِ دَرَاهِمٍ ، كَمَا ذَكَرَ الْمَسْعُودِيُّ فِي التَّنْبِيهِ وَالْإِشْرَافِ ٣٠٧ . ثُمَّ تَأَسَّسَهُمُ الْخَلِيفَةُ
الْوَائِقِيُّ ، وَالْمَأْمُونُ الْخَلِيفَةُ الْمُتَوَكَّلُ الْمُقْتُولُ بِالْجَعْفَرِيَّةِ مِنْ سَرْمَنِ رَأَى سَنَةَ ٢٤٧ .
وَقَدْ تَوَالَى بَعْدَ هَؤُلَاءِ الْخَلَائِفِ الْعَشْرَةَ مِنَ الْعَبَّاسِيِّينَ ٢٦ خَلِيفَةً كَانَ آخِرُهُمُ الْمُسْتَعَصِمُ بَاطِنُ
الَّذِي قَتَلَهُ هَوْلَاكُو مَلِكُ الْتَرْتَرِ حِينَ اسْتَوْلَى عَلَى بَنْدَادِ سَنَةَ ٦٥٦ .

«أما البصرة وسوادها فقد غلب عليها عثمان ، وصنائعُ عثمان ، فليس بها من شيعتنا إلا القليل .

وأما الكوفة وسوادها فقد غلب عليها عليٌّ وشيعةُ عليٍّ ، فليس بها من شيعتنا إلا القليل .

وأما الشام فشيعة بني مروان ، وآل بني سفيان .

وأما الجزيرة فخارجةٌ ، وحروريةٌ ومارقة .

ولكن عليكم هذا الشرقي فإن هناك^(١) صدوراً سليمة ، وقلوباً باسلة ، لم تُفسدْها الأهواء ، ولم تُخامرْها الأدواء ، ولم تعتقْها البدع ، وهم مَيِّظُونَ^(٢) مَوْتُورُونَ . وهناك العدة والعدة ، والعناد والنجدة^(٣) .

ثم قال : « وأنا أتفاءلُ إلى حيث ما تطلع^(٤) » .

فكنا خيرَ جنديٍّ لخيرِ إمام ، وصدقنا ظنَّه ، وثبتنا رأيه ، وصوبنا فراسته .

وقال مرةً أخرى : « إنَّ أمرنا هذا شرقيٌّ لا غربيٌّ ، ومُقبِلٌ غيرُ مدبرٍ ، يطلعُ كطلوعِ الشمس ، ويمتدُّ على الآفاق امتدادَ النهار ، حتَّى يَبْلُغَ^(٥) حيث ما تبلغه الأخفاف^(٦) ، وتناله الحوافر^(٧) .

قالوا : ونحن قتلنا الصحصحية^(٨) ، والدالقية^(٩) ، والدكوانية ،

(١) ط فقط : « هناك » .

(٢) ط فقط : « منيطون » ، صوابه في سائر النسخ .

(٣) ب : « ما نطلع » ، تحريف . والمراد : حيثما تطلع الشمس . وفي مع : « حيث يطلع النهار » ، وفي الرسائل : « حيث يطلع منه النهار » .

(٤) في الأصول : « حتَّى تبلغ » ، صوابه بالياء كما في مع والرسائل .

(٥) أي أخفاف الإبل . ب ، م : « الإخفاف » ، صوابه في ط ، مع والرسائل .

(٦) الصحصحية : نسبة إلى صحصح ، وكان أحد المتكلمين . انظر الحيوان ٣ : ٣٩٥ والبخلاء ٤ والطبرى في حوادث سنة ١٢٢ . وفي الأصول : « الصحصحة » ، صوابه في مع والرسائل .

(٧) م ، ب : « الدالقية » بالفاء . وبدله في الطبرى : « الدكوانية » .

والرأشدية . ونحن أصحاب^(١) الخنادق ، ونباتة بن حنظلة^(٢) ، وعامر ابن ضبارة^(٣) ، وأصحاب ابن هبيرة . فلنا قديم هذا الأمر وحديثه ، وأولُه وآخره^(٤) .

ومنا قاتل مروان .

ونحن قوم لنا أجسام وأجرام ، وشعور وهام ، ومناكب عظام ، وجباه عراض ، وقصّر غلاظ^(٥) ، وسواعد طول .

ونحن أولد للذكورة ، وأنسل بعولة ، وأقل صوي وضولة ، وأقل إتاما^(٦) ، وأنتق أرحاما^(٧) ، وأشد عصباً ، وأتم عظاماً . وأبداننا أحمل للسلاح ، وتجنفنا أملاً للعيون^(٨) .

(١) يده في مع والرسائل : « أيام نصر بن سيار ، وابن جديع الكرمانى ، وشيبان بن سلمة الحارثى » . وابن جديع هذا هو على بن جديع الكرمانى ، كما في حواشى رسائل الجاحظ ١٧ : ١ .

(٢) ب : « ونباته بن حنظلة » ، م : « ونباته » صوابهما في ط ، مع والرسائل . وفيهما : « ونحن أصحاب نباتة بن حنظلة » . وكان نباتة هذا والياً على جرجان . وانظر جهمرة ابن حزم ٢٨٢ . وهو نباتة بن حنظلة بن ربيعة بن عبد قيس بن ربيعة بن كعب بن عبد الله بن أبي بكر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة . وانظر خبر مقتله في تاريخ الطبرى سنة ١٣٠ . (٣) كان عامر بن ضبارة هذا من قواد ابن هبيرة . وانظر الاشتقاق ٢٨٩ ، ٢٩٠ وجهمرة ابن حزم ٢٥٤ . وفي الأصول : « بن ضبابة » صوابه بالراء كما في مع والرسائل والتنبية والإشراف ٢٨٣ والطبرى ٧ : ٤٠٥ . قتله قحطبة بن شبيب الطائى بأصبهان في حروب أبي مسلم الخراسانى سنة ١٣١ .

(٤) في الطبرى أن قاتل مروان بن محمد ، هو رجل من أهل البصرة يقال له المنفود ، طعنه وهو لا يعرفه فصرعه ، فصاح صائح : صرح أمير المؤمنين ! وابندروه ، فسبق إليه رجل من أهل الكوفة كان يبيع الزمان فاحتر رأسه . انظر حوادث سنة ١٣٢ .

(٥) القصر ، بالتحريك : جمع قصرة ، وهى أصل العنق . وبه فسر ابن عباس قوله تعالى : « إنها ترى بشر كالقصر » في قرآته بفتح الصاد .

(٦) الإتام : أن تلد المرأة الثين في بطن .

(٧) أنتق أرحاماً ، أى أكثر ولادة . والمرأة ناتق ، لأنها ترى بالأولاد رميةً . والنق : الرمي والنفض .

(٨) في الأصول ومع وأصل الرسائل ١ : ١٨ : « وأخفافنا » . والوجه ما أثبت . وانظر حواشى الرسائل . والتجنف ، بفتح التاء وكسرها : ما جليل به الفرس من سلاح وآلة تقيه الجراح في الحرب . وانظر ص ١٧٨ .

ونحن أكثر مادّةً ، وأكثر عدداً وعدّةً ، ولو أنّ بأجوج ومأجوج
كأثروا^(١) من وراء النهر منّا لظهوروا عليهم بالعدّد .

فأمّا الأيّدُ وشبدةُ الأسر فليس لأحدٍ بعد عادٍ وثمودَ والعمالقةِ
والكنعانيين مثل أيدنا وأسرنا .

ولو أنّ خيولَ الآفاق ، وفرسانَ جميعِ الأطراف جُمِعوا في حلبِةٍ
واحدة لكنّا أكثر في العيون ، وأهول في الصدور .

ومتى رأيتَ مواكبنا وفرساننا وبنودنا التي لا يحملها^(٢) غيرنا
علمت أنّنا لم نُخلقْ إلّا لقلبِ الدُول ، وطاعةِ الخلفاء ، وتأييدِ السُلطان .

ولو أنّ أهلَ تبت ، ورجالَ الزابج^(٣) ، ورجالَ وفرسانِ الهند^(٤) ،
وحلبِةِ^(٥) الروم ، هَجَمَ عليهم هاشم بن أشتاخنج^(٦) لَمّا امتنعوا من
طرحِ السلاح ، والحربِ في البلاد .

ونحن أصحابُ اللّحي ، وأربابُ النهي ، وأهلُ الجلمِ والحجّاجِ^(٧) ،
وأهلُ النّخانةِ في الرأى^(٨) ، والبعلِ من الطّيش .

(١) كأثروهم : باروهم في الكثرة . م فقط : « كثروا » ، تحريف .

(٢) م ، ب : « يحمله » ، صوابه في ط ، مع والرسائل .

(٣) الزابج ، يفتح الباء وكسرهما : جزيرة في أقصى بلاد الهند في حدود الصين . وفي

الحيوان ٧ : ٣٣٠ : « يزعم تجار التبت من قد دخل الصين والزابج » . وفي الأصل ، وهو

هنا ب فقط : « الزنج » إذ لم ترد « رجال الزابج » في كل من م ، ط .

(٤) هذا ما في ط . وفي ب ومع والرسائل : « وفرسان الهند » ، وفي م : « وفرسان

ورجال الهند » .

(٥) الخلبية ، بالفتح : جماعة الخليل في السبائي ، والمراد هنا الفرسان .

(٦) كان قد عصى وخالف في إفريقية ، فقتله أبو جعفر المنصور سنة ١٥٢ هـ في

الطبري .

(٧) كتبت في م ، ط : « الحجى » بالياء : والكلمة واوية بمعنى العقل واللفظة ، يقال

حاجيته فحجوته .

(٨) نخانة الرأى : قوته وجزالته . ب : « النجاة » م ، ط : « النجاة » ، صوابها

في مع والرسائل .

(١٢ - رسائل الجاحظ)

ولسنا كجند الشام المتعزّمين للجرم، والمتنهكين لكلّ محرّم .
 ونحن نأس لنا أمانة، وقينا عنة . ونحن نجمع بين النزاعة
 والقناعة، والصبر على الخدمة، وعلى التخيير، وتبعه الشقة (١)

ولنا الطبول المهولة والبؤود العظام (٢)
 ونحن أصحاب التجافيف والأجراس (٣) ، والبازفكند (٤) ،
 واللبود الطوال، والأعماد المعقفة (٥) ، والقلائس الشاشية (٦) ، والخيول
 الشهيرة (٧) ، ولنا الكافركويات (٨) ، والطرزينات في الأكنف (٩) ،
 والخناجر في الأوساط .

(١) جمع الجبيل (١) إيقاده في ثمر العود ، وأصل معناه التجميع . مع ورسائله ، « عند
 بمة الشقة » .

(٢) وكذا في مع . لكن في الرسائل : « ولنا الطبول المهولة العظام والبؤود » . والبؤود
 جمع بئد ، وهو العلم الكبير ، فارس معرب .

(٣) نظير التجافيفت لما يقضى في ص ١٧٣ ، « الجاحظ » .

(٤) مع ورسائل : « والبازفكند » . وفي البيان ١ : ٤ - ٣ : ١١٥ : « بازفكند »
 أيضاً . وضبطت في أصل نسخ البيان بفتح الزاى وضم الياء المنناة وفتح الكاف . وفي هامشها :
 « بازفكند : نوع من الثياب ، فارسية » . ويبدو أنه كساء يلق على الكتف . وباز في الفارسية
 بمعنى الكتف .

(٥) الأعماد جمع عمود وهو جنس السيف . في الأصول : « والأعمدة » ، صوابه
 في مع ورسائل ، والمعقفة : المعوجة ، وذلك لإعوجج السيوف التي تشتمل عليها . ب :
 « والمعقفة » والواو مقحمة : ب في ط : « والحقفة » وفي م : « والمعقفة » ، صوابها ما أثبت

(٦) نسبة إلى الشاش وهو نسج رقيق من القطن يصبغ به الجروح ، ويستخدم أيضاً
 لغة للامة ، ولفظ مولد . ب ، م : « الشبسية » صوابه في ط ومع ورسائل .

(٧) الشهيرة ، بالكسرة كما في اللسان والقاموس . وذكر ابن منظور أنه ضرب من
 البراذين . وزاد صاحبنا اللسان أنه بين البراذين والمقرف من الخيل .

(٨) جمع كافركوب ، وفي هامش ل من نسخ البيان أن كافركوب هي المقرعة .

(٩) الطرزينات : جمع طرزين ، وهو فأس تستعمل في القتال عند الفرس ، مركب من
 « زين » بمعنى الفأس ، و « زين » بمعنى السرج ، ولعله سمى بذلك لالتزام وضعه بجانب السرج .
 استرجاس ٢٧٠ والمغرب ١٩٤ والألغاز الفارسية لأدى شير ١١١ .

ولنات تعليق السيوف وجُسنُ الخِلْسَةِ على ظهور الخيل، ولنا الأصوات
 التي تُتمسِّطُ الحبال، وبأبوابها ^(١)، وأبوابها ^(٢)، وأبوابها ^(٣)، وأبوابها ^(٤)،
 وليلس في الأرض صناعةً غريبةً ^(٥)، من أدبها وحكمة وحسابها
 وهندستها، وإزئفاعها بناءً وصنعةً ^(٦)، وفوقها ورؤية متنظرات فيها،
 الخراسانية، إلا فراغت فيها الرؤساء ^(٧)، وبها وليأت فيها العُلَماءُ ^(٨)،
 ولنا صنعة السِّلَاحِ الخُزْبِ ^(٩)، وثقيلنا ^(١٠)، ودربة اللججالة
 والمشاولة ^(١١)، وللكر بعد الفز مثل التَّبوق ^(١٢)، أو التزو على الخيل صغاراً،
 ومثل الطَّبْطابِ والصَّوَالِجَةِ كِبَاراً ^(١٣)، فم ربي المُجْتَمِعَةِ ^(١٤)، والبرجاش ^(١٥)،
 والطناب الخاطف ^(١٦)، فنحن أحنُّ بالأفرة، وأول يشرف المنزلة

قلت: وزعم أن العربي يقول: إن تكبير القرية ^(١٧) تستحق بالانحساب
 (١) في الأصول: «عراقية ولا حجازية» وهو تحريف ساق إلى تحريف. والوجه
 ما أتت من مع والرسائل في «الطَّبْطابِ» والرسائل ^(١٨)، والوجه
 (٢) مع والرسائل: «وإيقاع وصنعة»
 (٣) (فرع فادن فلاناً: علاه) وفاقه في الأصول: «فرغت منها الرؤساء»، صوابه
 في مع والرسائل: «الفرغ فلان فلاناً»
 (٤) بهم: «فهم» في مع والرسائل: «أول يشرف المنزلة»
 (٥) في مع والرسائل: «الوجه»
 (٦) العبارة هنا موجزة إيجازاً شديداً. وانظر الرسائل ٧: ٢٠٣.
 (٧) المشاركة: أن يتناول بعضهم بعضاً عند القتال بالرمح أو السيف، أو
 (٨) في البيان: «الديوي لعبة يلعب بها الصينيان، ويروى في «وق القاموس»: «لعبة معروفة»
 (٩) الطَّبْطاب، بالفتح: مضرب الكرة. والصَّوَالِج: المحجن، أي العصا المبرجة
 الطرف، ويستخدمها الفرس لعب بالكرة وهم على ظهور الخيل. إستينجاس ٧٩٦. واللفظ مبرب
 من الفارسي «شوجان». والجمع صوالجة. في مع والرسائل: «والصَّوَالِج الكيانه» ويبدو أن
 ما هنا هو الوجه لأنه ما يقابل «صغاراً» السابقة لها، في مع والرسائل: «الفرغ فلان فلاناً»
 (١٠) (٩): «المجتمعة ما يجتمع من الحيوان للرحم، والقتل رب يقبض فيه الحيوة» بحرفية
 (١١) (١٠): «الفرغ فلان فلاناً»
 الفارسية ١٨ ومجمع إستينجاس ١٧٠. واللفظ فارسي، رب «م» و«ن» والبرجاشية «ط»
 «والبرجاشية» بحرفية مع والرسائل: «فرغ فلان فلاناً»
 (١٢) (١١) مع والرسائل: «الطخاف»
 (١٣) ب: «القرية» تحريف. وفي ط: «القرى»، وأتت باني م، مع والرسائل.

الثابتة ، والأرحام الشابكة ، وبالقِدْمة^(١) ، وبطاعة الآباء والعشيرة ،
وبالشُّكر النافع ، والمديح الباقى^(٢) ، وبالشعر الموزون الذى يبقى بقاء
الدهر ، ويلوح ملاح نجم ، ويُشَدُّ ما أهل بالحج ، وما هبَّت الصُّبا ،
وما كان للزَّيت عاصر . وبالكلام المنشور ، والقول الماثور ، وبصفة
مُخرج الدولة ، والاحتجاج للدعوة ، وتقبيد المآثر ، إذ لم يكن ذلك
من عادة العجم ، ولا كان يحفظ ذلك معروفاً لسوى العرب ، ونحن
نرتبطها بالشعر المقتنى ، ونقيدها بحفظ الأُميين^(٣) الذين لا يتكلمون^(٤)
على الكتب المدونة ، والخطوط المطرسة^(٥) .

ونحن أصحاب التفاخر والتناظر ، والتنازع فى الشرف ، والتحاكم
إلى كلِّ حَكَمٍ مُتَّعٍ ، وكاهنٍ سَجَّاعٍ^(٦) .

ونحن أصحاب^(٧) التعابير بالمشالب ، والتفاخر بالمناقب .

ونحن أحفظ لأنسابنا ، وأرعى لحقوقنا^(٨) ، وتقبيدها^(٩) أيضاً
بالمنثور المرسل ، بعد الموزون المعدل ، بلسانٍ أمضى من السنان ، وأرهف

(١) م : وبالقُدومة « صوابه فى ب ، ط ومع والرسائل .

(٢) فى جميع الأصول : « والمديح الباقى » ، صوابه فى مع والرسائل . وفيهما : « والمديح
الكافى » .

(٣) ب : « الأُميين » ب : « الأُميين » مع تشديد الميم ، صوابه فى ط ومع والرسائل .

(٤) ط فقط : « لا يتكلمون » ، تحريف .

(٥) التطريس ، كما فى القاموس : إعادة الكتابة على المكتوب .

(٦) السجَّاع : الذى يستعمل السجع ، وهو الكلام المقف ، أو الكلام الذى له فواصل ،
وكان ذلك من دأب الكهان ، كما زاء فى سيرة ابن هشام من أقوالهم . وفى جميع الأصول وكذلك

مع : « مجاع » بالشين المعجمة ، صوابه فى رسائل الجاحظ ١ : ٢٢ ،

(٧) ب : « ونحن بنا » ، وأثبت ما فى م ، ط . وفى مع والرسائل : « ولنا » .

(٨) ط فقط : « وأدعى حقوقنا » .

(٩) م فقط : « وتقبيد » .

من السيف الحسام ، حتّى نذكرهم ما قد درس رسمه ، ونعفا أثره .
وبين القتال من جهة الرغبة والرّهبة فرق . زليس المرق في الحفاظ كمن
هذا فيه حادث^(١) . وهذا باب يتقدّم التالّد القديم الطارف الحديث^(٢)

وطُلاب الطوائل رجالان : سيجستاني وأعرابي . وهل أكثرُ النقباء
إلا من صميم العرب ، ومن صليبة هذا النسب ، كتابي عبد الحميد
قحطبة بن شبيب الطائي^(٣) ، وأبي محمد سليمان بن كثير الخزاعي^(٤) ،
وأبي نصر مالك بن الميثم الخزاعي^(٥) ، وأبي داود خالد بن إبراهيم
الذهلي ، وكتابي عمرو لاهز بن قريظ المرسي^(٦) ، وأبي عتيبة موسى

(١) ط فقط : « كن هذى فيه حادثا » .

(٢) ب فقط : « والطارف الحديث » تحريف .

(٣) قحطبة بن شبيب الطائي ، صحب أبا مسلم الخراساني ، في اثني عشر رجلا من النقباء
اختارهم له أبو محمد الصادق ، فكان شريكاً لأبي مسلم في إقامة الدعوة العباسية بخراسان ، وقاد
جيوش أبي مسلم فكان مظفراً . ومات غرقاً في الفرات سنة ١٣٢ حين بدأت الخلافة العباسية .
انظر الطبري في حوادث سنة ١٠٠ ، وسنة ١٣٢ . ط : « كعبه الحميد بن قحطبة » ، صوابه
في سائر النسخ ومع والرسائل .

(٤) كان سليمان بن كثير الخزاعي أحد النقباء الاثني عشر من دعاة الدولة العباسية وأنصار
أبي مسلم ، ولكن أبا مسلم شك في أمره وأمر بضرب عنقه في سنة ١٣٢ . الطبري ٧ : ٤٥٠
وإبن الأثير ٥ : ٤٣٧ .

(٥) أبو نصر هذا : أحد النقباء ، وكان المنصور قد أمر بقتله بعد قتله لأبي مسلم ،
ولكنه أظهر من الطاعة والتصح ما غير رأى المنصور فيه ، فن عليه واستتمله على الموصل . وذلك
في سنة ١٣٧ . الطبري وإبن الأثير .

(٦) لاهز بن قريظ ، بالظاء المعجمة كما في الطبري وإبن الأثير ورسائل الجاحظ .
وفي الأصول : « بن قريظ » بالطاء المهملة . وفي معج : « بن طريز » ، صوابهما ما أثبت .
ونسبته من الجمهور ٢١٤ : لاهز بن قريظ بن سري بن الكاهن بن زيد بن عضية بن أمري القيس .
كان من وجوه أهل دعوة بني العباس وحضر أبو مسلم عنقه صبراً لأنه قرأ بحضرة نصر بن سيار :
« إن الملأ يأمرون بك ليقتلوك فاخرج إلى لك من الناصحين » ، ففهمها نصر وهرب . فنسبته
« المرقي » هي إلى أمري القيس . وفي الأصول ومعج : « المرقي » ، تحريف . وما بعده من
الكلام إلى : « ومن كان يجرى » ساقط من ط .

ابن كعب المرزبي^(١) ، وأبي سهل القاسم بن مجاشع المرزبي^(٢) . ومن
كان يجرى مجرى النقباء ولم يدخل فيهم ، [مثل^(٣)] مالك بن الطواف^(٤)
المرزبي^(٥) .

وبعد ، فمن هذا الذي باشر قتل مروان^(٦) ، ومن هزم ابن هبيرة ،
ومن قتل ابن صبارة ، ومن قتل ثباتة بن حنظلة ، إلا عرب الدعوة ،
والصميم من أهل الدولة ؟ ومن فتح السند إلا موسى بن كعب ، ومن
فتح إفريقية إلا محمد بن الأشعث ؟

وقلت : وقال : ويقول المولى^(٧) لنا النصيحة الخالصة ، والمحبة
الرائحة . ونحن موضع الثقة عند الشدة ، وعمل المولى^(٨) من تحت موجبة
لمحبة المولى من فوق ، لأن شرف مولاة راجع إليه ، وكرمه زائد في
كرمه ، وخموله مسقط لقدره ، ويؤده^(٩) أن حصال الكرم كلها
اجتمعت فيه ، لأن ذلك كلها^(١٠) كان مولاة أكبر وأشرف وأظهر ،
كان هو بها أشرف وأنبيل ، ومولاة أسلم لك صدراً ، وأود ضميراً ،
وأقل حسداً .

- (١) في الطبري ٧ : ٣٨٠ : « ومن تبع موسى بن كعب أبو عيينة » كما في مع ،
لأبو عيينة ياتوا كما هنا . وكما في الرسائل . ولاهز بن قزيط ، والقاسم بن مجاشع ، كلهم من
بنى امرئ القيس « ب : « المرزبي » م : « المرزبي » تحريف والصواب « المرزبي » نسبة إلى امرئ القيس .
(٢) ب : « المرزبي » م : « المرزبي » ، صوابهما أثبت . وانظر الخواص السابقة .
(٣) التكملة من مع والرسائل .
(٤) م : « الطراف » وفي الطبري : « بن طريف » وفي ابن الأثير : « بن طراف » ،
وجعلنا نسبه « الحراساني » .
(٥) في مع : « المرزبي » وفي ط والرسائل : « المرزبي » .
(٦) أنظر ما سبق في ص ١٧٦ س ٤ :
(٧) ب فقط : « المولى » ، تحريف .
(٨) ب فقط : « المولى » ، تحريف .
(٩) ب : « ويؤده » م : « ويؤده » ، صوابه في سائر النسخ .
(١٠) مع والرسائل : « لأنه كلها » .

وَبَعْدُ ، فَالْوَلَاءُ لِحِمَّةٍ كَلِمَةُ النَّسَبِ ^(١) ، فَقَدْ صَارَ لَنَا النَّسَبُ الَّذِي
يَصُوبُهُ الْعَرَبِيُّ ^(٢) . وَلَنَا الْأَصْلُ الَّذِي يَفْتَخِرُ بِهِ الْعَجَمِيُّ .

قَالَ : وَالصَّبْرُ ضَرْبٌ ، فَأَكْرَمَهَا كُلُّهَا الصَّبْرُ عَلَى إِفْشَاءِ السَّرِّ ،
وَالْمَوْلَى فِي هَذِهِ الْمَكْرَمَةِ مَا لَيْسَ لِأَحَدٍ ، وَنَحْنُ أَحْصَيْنَا مَدْخِلًا ، وَأَلْطَفْنَا فِي
الْخِدْمَةِ مَسْلُوكًا . وَلِنَا مَعَ الطَّاعَةِ وَالْخِدْمَةِ ، وَالْإِخْلَاصِ وَحُسْنِ التَّنْبِيَةِ ،
خِدْمَةُ الْأَنْبِيَاءِ لِلْآبَاءِ ، وَالْآبَاءِ لِلْأَجْدَادِ ^(٣) ، وَهُمْ بِمَوْلَاهُمْ أَنْسٌ ،
وَبِنَاحِيَّتِهِمْ أَوْثَقٌ ، وَبِكِفَايَتِهِمْ أَسْرٌ .

وَقَدْ كَانَ الْمَنْصُورُ ، وَمُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ ، وَعَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، يَخْضَعُونَ
مَوْلَاهُمْ بِالْمَأْكَلَةِ وَالْبَسْطِ وَالْإِيناسِ ، لَا يُبْهِرُجُونَ الْأَسْوَدَ لِسَوَادِهِ ،
وَلَا الدَّمِيمَ لِدِمَامَتِهِ ، وَلَا ذَا الصَّنَاعَةِ لِذِنَابَتِهَا . وَيُوصُونَ بِحِفْظِهِمْ
أَكْبَارَ أَوْلَادِهِمْ ، وَيَجْعَلُونَ لِكَثِيرٍ مِنْ مَوْتَاهُمْ الصَّلَاةَ عَلَى جَنَائِزِهِمْ ^(٤) ،
وَذَلِكَ بِحَضْرَةِ مِنَ الْعَجُومَةِ ، وَبَنِي الْأَعْمَامِ وَالْإِخْوَةِ .

وَيَتَذَكَّرُونَ إِكْرَامَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِزَيْدِ بْنِ خَارِثَةَ
مَوْلَاهُ ، حِينَ عَقَدَ لَهُ يَوْمَ مُؤْتَةِ عَلَى بَجَلَةَ بَنِي هَاشِمٍ ، وَجَعَلَهُ أَهْبِيرَ كُلِّ
بَلَدٍ ^(٥) يَطُؤُهَا .

وَيَتَذَكَّرُونَ حَيْبَ الْأَسَامَةِ بْنِ زَيْدٍ ، وَهُوَ الْحَيْبُ ابْنُ الْحَيْبِ . وَعَقَدَ لَهُ
عَلَى عُظْمَاءِ الْمُهَاجِرِينَ وَأَكْبَارِ الْأَنْصَارِ .

(١) مع : « وبعد فقالوا : لالحمة كلمة النسب » ، تحريف : (١)

(٢) ب : « تقول به العربي » م : « تقول به العربي » ط : « تقول به العربي » ، صوابه

من مع والرسائل : « تقول به العربي » ، تحريف : (٢)

(٣) في جميع النسخ : « والأجداد للأجداد » ، والوجه ما أثبت من مع والرسائل : (٣)

(٤) ط فقط : « ويجعلون الكثير من موتاهم في الصلاة على جنازتهم » . (٤)

(٥) ب فقط : « بلد » ، تحريف : « بلد » ، تحريف : (٥)

ويتناكرون صنيعه بسائر مواليه كَأبي أَنَسَةَ^(١) وشُقْرَانَ^(٢) ، وفلان وفلان .

قالوا : ولنا صاحب الدولة : أبو مسلم عبد الرحمن بن مسلم ، وأبو سَلَمَةَ حَفْصُ بن سليمان . وأبو مسلم مولى الإمام . وعليهما دارت رحى الدولة ، وتمَّ الأمرُ وأتسق نظام الملك .

قالوا : ولنا من رؤوس^(٣) النُّبِيَاءِ : أبو منصور مولى خُرَاعَةَ ، وأبو الحكم عيسى بن أُعَيْنِ مولى خُرَاعَةَ ، وأبو حمزة عَمْرُو بن أُعَيْنِ^(٤) مولى خُرَاعَةَ ، وأبو النّجْمِ عمران بن إِسْمَاعِيلِ^(٥) مولى آل أبي مَعِيْطٍ^(٦) .

فلنا مناقب الخُرَاسَانِيَّةِ ، ولنا مناقبُ الموالى في هذه الدَّعْوَةِ . ونحن منهم وإليهم ، ومن أَنفُسِهِمْ ، لا يلمع ذلك مسلم . ولا ينكره مؤمن . خدمناهم كباراً ، وحملناهم على عواتقنا صغاراً .

هذا مع حقِّ الرِّضَاعِ والخُؤُولَةِ ، والنُّشُوءِ فِي الكُتَّابِ ، والنَّقْلِيبِ فِي تلكِ العِرَاصِ التي لم يبلغها إِلَّا كُلُّ سَعِيدِ الجَدِّ ، وجيهِ فِي الملوكِ . فقد شارَكْنَا العَرَبِيَّ فِي فخره ، والخُرَاسَانِيَّ فِي مجيذه ، والنبويَّ فِي فضلِهِ^(٧) ، ثم تفرَّدْنَا بما لم يشاركونا فيه ، ولا سابقونا إليه^(٨) .

(١) اختلف في اسمه ، فقبل أَنَسَةَ أَيضاً ، كما في الإصَابَةِ ٢٨٥ . وكان حبشياً كما في جوامع السيرة لابن حزم ١١٤ . وكان يأذن على النبي صلى الله عليه وسلم . ومات في خلافة أبي بكر .
(٢) شقران ، يقال كان اسمه صالح بن عدى . وكان حبشياً أهداه عبد الرحمن بن عوف إلى رسول الله . الإصَابَةِ ٣٩١١ . وهو أحد من دلى رسول الله في قبره . جوامع السيرة ٢٦٥ . وذكر ابن هشام في السيرة ١٠١٨ أنه تولى صب الماء عليه في غسله .

(٣) فقط : « رؤساء » .

(٤) في الأصول : « عمر بن أعين » ، صوابه في مع الرسائل والطبرى ٦ : ٥٦٢ »

(٥) في الأصول : « عامر بن اسماعيل » ، صوابه في مع الرسائل والطبرى ٦ : ٥٦٢ :

(٦) ط فقط : « مولى أبي معيط » ، صوابه في سائر النسخ .

(٧) النبوي : نسبة إلى الأبناء ، كما سبق في ١٦٧ ط : « والنبوي » ، صوابه في سائر النسخ .

(٨) مع الرسائل : « ولا سبقونا إليه » ، وهو الوجه .

قالوا : ونحن أشكلُ بالرعية ، وأقربُ إلى طباع الدهماء ، وهم (١)
بنا آنس ، وإلينا أسكن ، وإلى لقائنا أحن . ونحن بهم أرحم ، وعليهم
أعطف ، وبهم أشبه . فمن أحنُّ بالأثرة ، وأولى بحسن المنزلة ممن هذه
الخصال له ، وهذه الخلال فيه .

وقلت : وذكرت أن النبي قال : نحن أصلُ خراساني (٢) ، وهو
مخرج الدولة ، ومطلع الدعوة ، ومنها نجم هذا القرن ، وصبأ هذا
الناب ، وتفجر هذا النبع ، واستفاض هذا البحر ، حتى ضرب الحنُّ
بجرانه (٣) ، وطبق الآفاق بضياته ، فأبرأ من السقم القديم ، وشفى من
الداء العضال ، وأغنى من العيلة ، وبصر من العمى .

وهذه بغدادُ وهي مستقرُّ الخلافة ، والقرارُ بعد الجولة (٤) ، وفيها
بقية رجال الدعوة ، وأبناء أبناء الشيعة (٥) ، وهي خراسان العراق ،
وبيتُ الخلافة (٦) وموضعُ المادة .

وأنا أعرقُ (٧) في هذا الأمر من أبي ، وأكثر تردداً فيه من جدِّي ،
وأحنُّ بهذا الفضل من المولى والعربي .

ولنا بعدُ في أنفسنا مالا يُنكر من الصبر تحت ظلال السيوف

(١) م فقط : « وما » .

(٢) ب ، م : « أصل » ، صوابه في ط . وفي مع والرسائل : « أنا أصلُ خراسان » .

(٣) ضرب بجرانه : استقر وثبت . وأصل الجران باطن عنق البعير . فإذا برك واستقر
قبل ألقى جرانه .

(٤) ب ، م ، مع والرسائل : « الجولة » ، وهي بالهاء المهملة المفتوحة : التحول
والانتقل . وما هنا من ط .

(٥) مع والرسائل : « وأبناء الشيعة » .

(٦) بعده في الأصول : « وفيها بقية رجال الدعوة » ، وهو تكرر لما سبق .

(٧) ب ، ط : « أعرف » ، صوابه في م ، مع والرسائل .

القصار ، والرماح الطوال ، ولنا معانقة الأبطال عند تحطم القنا ،
وانقطاع الصفائح^(١) ، ولنا الواجأة بالسكاكين ، وتلقى الخناجر
باليون .
ونحن حماة المستلحم ، وأبناء المضايق ، ونحن أهل الثبات عند
الجولة ، والمعرفة عند الخيرة^(٢) ، وأصحاب المشهرات^(٣) ، ووزينة
العساكر وحل الجيوش^(٤) ، ومن يمشى في الرُمح ، ويختال بين الصقيين ،
ونحن أصحاب الفتك والإقدام ، ونسبنا الله صفة ،
ولنا بعد التسلق ونقب المدن ، والتقم على طباط السيوف^(٥) ،
وأطراف الرماح ، ورضخ الجنادل ، وهشم العمد ، والصبر تحت
الجراح^(٦) ، وعلى جبر السلاح^(٧) ، إذا طار قلب الأعرابي ، وساء ظن
الخراساني .
ثم الصبر تحت العقوبة ، والاحتجاج عند المسألة ، والنجاع العقل ،
وصحة الطرف ، وثبات القدمين ، وقلة التكنف بجبل العمايين^(٨) ،

(١) الصفائح : جمع صفحة ، وهي السيف الغريفي .
(٢) في الأصول ، مع : « الخيرة » ، صوابه في الرسائل .
(٣) المشهرات : الخلل الفاخرة الموسومة بالمشهرة لحسبها ، كما في الفائق الرظري ،
عند حديث عمر : « وقد إليه عامله من اليمن وعليه حلة مشهرة » : ط فقط : المشهرات .
(٤) الحل يكسر الحاء وضمها : جمع حلية ، بالكسر ، وهي كل ما حليت به امرأة أوسيفاً
ونحوه ، ب : فقط : « والحل الجيوش » ، تعريف .
(٥) الطبات : جمع طبة ، وهي حد السيف والخنجر وما أشبه ذلك . وفي فقط : « طبة » ،
وهو خطأ .
(٦) في الرسائل : « على الجراح » .
(٧) يقال أجره الرمح إجراراً ، إذا طمنه به فطن وهو مجرأ .
(٨) التكنف : التميل والتقلب . أو الثباتان : خشيتان يفتح بينهما الرجل فيجهد . انظر
اللسان (عقب) وحى المجتنبين .

وَأَجِدُ مِنْ الْإِقْرَارِ (١) ، وَقَوْلَهُ الْمَخْضُوعُ لِلذَّهْرِ ، وَالْمَخْضُوعُ عِنْدَ خُضُوعِ
 الزُّوَارِ (٢) ، وَوَجْهَاءُ الْأَقَارِبِ وَالْإِخْوَانِ . وَلَنَا الْقِتَالُ عِنْدَ أَبْوَابِ الْخُنَادِقِ
 وَرَعْوَسِ الْقَنْاطِرِ (٣) . وَنَحْنُ الْمَوْتُ الْأَحْمَرُ عِنْدَ أَبْوَابِ الثَّقَبِ ، وَلَنَا الْمَوَاجِئُ فِي الْأَوْتَقِ ،
 وَالصَّبْرُ عَلَى قِتَالِ السُّجُونِ . فَسَلِّ عَنْ ذَلِكَ الْخَلِيدِيَّةَ (٤) وَالْكَتْفِيَّةَ
 وَالْبِلَالِيَّةَ ، وَالْحَزْبِيَّةَ ، وَنَحْنُ أَصْحَابُ الْمَكَابِرِ (٥) ، وَأَرْبَابُ الْبِنَاتِ (٦) ،
 وَقَتْلُ النَّاسِ (٧) جَهَاراً فِي الْأَسْوَاقِ وَالطَّرِيقَاتِ .
 وَنَحْنُ نَجْمُ بَيْنِ السَّلَّةِ وَالْمَرَاخِطِ . وَنَحْنُ أَصْحَابُ الْقَنَا
 الطَّوَالِ مَا كُنَّا رَجَالَةً ، وَالْمَطَارِدِ الْقِصَارِ مَا كُنَّا فَرَسَانًا (٨) . فَإِنْ صَرْنَا
 كُنْنَا (٩) فَالْحُفِّ الْقَاضِي ، وَالسَّمِ الزُّعَافِ (١٠) ، وَإِنْ كُنَّا طَلَائِعَ فَكُنْنَا
 يَقُومُ مَقَامَ أَمِيرِ الْجَيْشِ . نُقَاتِلُ بِاللَّيْلِ كَمَا نُقَاتِلُ بِالنَّهَارِ ، وَنُقَاتِلُ فِي
 الْمَاءِ كَمَا نُقَاتِلُ عَلَى الْأَرْضِ (١١) ، وَنُقَاتِلُ فِي الْقَرْيَةِ كَمَا نُقَاتِلُ فِي
 الْمَحَلَّةِ .

(١) ط : « من الفرار » .
 (٢) مع : « حفرة الزوار » بإلغاء المهمله .
 (٣) ب فقط : « والروس القناطر » ، تحريف .
 (٤) مطابقة منسوبة للخليد بن الوليد ، وفي البطلاني : ٤٣٠ - ٤٣١ نقل عن الكندي والخليدي
 والحزبية والبلاية . والظاهر أنهم طوائف من أهل الشيب والفرضي . م ، ط : « الخلية »
 فإن صحت كانت تضم الحاء وفق اللام ، فإن المراد يميز الحذف في فعل مضارع مضموم الفاء باطراد .
 (٥) ط فقط : « المكابرات » بالبدال .
 (٦) وكذا في مع والرسائل . وفي ط فقط : « البنات » .
 (٧) ب فقط : « وقتيل الناس » ، تحريف .
 (٨) (٩) في جميع النسخ : « وبين » ، والوجه ما أثبت من مع والرسائل .
 (٩) المطارد : جمع مطرد ، بالكسر ، وهو الروع القصر .
 (١٠) جمع كمين ، وهم الذين يكتنون ويخفون في الحرب ، وفي ط : « كينا » .
 (١١) الذعاف : الوحي السريع ، ويقال أيضاً الزعاف بالزاي . وفي ب مع : « الزعاف »
 بالزاي .
 (١٢) م فقط : « كما على الأرض » .

ونحن أفنك وأخشب^(١). ونحن أقطع للطريق، وأذكرُ في الثُغور^(٢)،
مع حسن القدود، وجودة الحُرط، ومقادير اللحي، وحسن العمة،
والنفس المُرّة، وأصحاب الباطل والفتوة^(٣)، ثم الخطّ والكتابة،
والفقه والرّواية.

ولنا بغدادُ بأسرها، تسكنُ ماسكنًا، وتتحركُ ما تحركنا. والدنيا
كلُّها معلّقة بها، وصائرةٌ إلى مَغناها^(٤)، فإذا كان هذا أمرها وقدرها
فجميعُ الدنيا تبعُ لها، وكذلك أهلها لأهلها، وفنّاكها لفنّاكها،
وخلّاغها لخلّاغها، ورؤساؤها لرؤسائها، وصلحّاؤها لصلحّاها.

ونحن تربيةُ الخلفاء، وجيرانُ الوزراء^(٥)، وُلدنا في أفتيةٍ
مُلوكنّا^(٦)، ونحن أجنحةُ خلفائنا، فأخذنا بآدابهم، واحتدّينا على
مثالهم، فلسنا نعرفُ سواهم، ولا نتّهمُ بغيرهم^(٧)، ولم يطمع فينا أحدٌ
قطُّ^(٨) من خطّابِ ملكهم، ومن يترشّح للاعتراض عليهم. فمن أحقُّ
بالأثرة، وأولى بالقرّب في المنزلة ممن هذه الخصالُ فيه، وهذه الجلال
لِسه^(٩).

إنّ ذهينا، حفِظك الله، يعقِب هذه الاحتجاجات، وعند مُنقطع

(١) أى أشد غلاظة وعشونة.

(٢) جمع ثغر، وهو الموضع يخاف هجوم العدو منه. ب فقط: «السنور».

تحريف.

(٣) ط فقط: «وأصحاب الفتوة».

(٤) المعنى: المنزل يقام فيه طويلا. مع والرسائل: «معناها» بالعين المهملة.

(٥) ب: «وجيران والوزراء»، تحريف.

(٦) الفناء: ساحة الدار، والجمع أفتية. ب فقط: «أفتية»، تصحيف.

(٧) مع والرسائل: «ولا نعرف بغيرهم».

(٨) في جميع الأصول: «ولم يطمع فينا أحد قطّ أحدًا» صوابه في مع والرسائل.

(٩) بعله في مع والرسائل: بسم الله الرحمن الرحيم

هذه الاستدلالات تستعمل المفاوضة^(١) بمناقب الأتراك ، والمقارنة^(٢) بين خصالهم وخصال كلِّ صنف من هذه الأصناف ، سلكتنا في هذا الكتاب سبيلَ أصحاب الخصومات في كتبهم ، وطريقَ أصحاب الأهواء في الاختلاف الذي بينهم .

وكتابتنا هذا إنما تكلفناه لنؤلف بين قلوبهم إن كانت مختلفة^(٣) ، ولنزيد في الألفة إن كانت مؤتلفة ، ولنخبر عن اتفاق أسبابهم ، لتجتمع كلمتهم ، ولتسلم صدورهم ، وليعرف مَنْ كان لا يعرف منهم موضع التفاوت في النسب كم مقدار الخلاف في الحسب ، لئلا يُغَيَّر بعضهم مغيَّر ، ويُفسدُهُ^(٤) عدوُّ بآباطيل مموهة ، وشبهات مزورة ، فإنَّ المنافق العليم ، والعدوُّ ذا الكيد العظيم قد يصور لمن دونه الباطل في صورة الحق ، ويلبس الإضاعة ثياب الحزم^(٥) .

إلَّا أَنَا عَلَى حَالٍ^(٦) ، سنذكر جملاً من أحاديث روينها ، وأموراً^(٧) رأيناها وشاهدناها ، وقصصاً تلقفناها من أفواه الحكماء وسمعناها .

وسنذكر ما حفظ لجميع الأصناف من الآلات والأدوات ، ثم ننظر أيُّهم لها أشدُّ استعمالاً ، وبها أشدُّ استقلالاً ، وَمَنْ أَثْقَبُ حَسَباً^(٨) ،

- (١) ب : « يستعمل » م ، ط : « تستعمل » ، والوجه ما أثبت من مع والرسائل .
 (٢) في جمع الأصول : « والمقارنة » ، والوجه ما أثبت . وفي مع والرسائل : « الموازنة » .
 (٣) في الرسائل فقط : « التي كانت مختلفة » .
 (٤) ب ، م : « ومفسدة » ، صوابه في ط ، مع والرسائل . وفي الأخيرتين : « فلا يغير بعضهم مغير ، ولا يفسده » .
 (٥) ب ، م : « ثبات الحزم » ، صوابه في ط ، مع والرسائل .
 (٦) مع فقط : « على كل حال » .
 (٧) م ، ط فقط : « وأموراً » .
 (٨) مع والرسائل : « كبتا » . والكيس ، بالفتح : العقل ، وتوقد الذهن .

وأيقظ عينه وأزكى نَفْسَهُ، وأشدُّ غُوراً (١) ، وألمَّ أخواطراً (٢) ، وأكثَرَ انغماساً
 في الحروبِ وضراً ، نوأدركه طُوبَى ، وأغمض الحكيمة ، وأشدُّ احتجاساً ،
 وأطفأ احتيلاً ، حتى يَكُون الخبيرُ في هذا الناطقِ في هذا الكتابِ
 المنصفِ لمعانيه ، والقلبِ لوجوهه ، والمفكرِ في أبوابه ، والمقابلِ لبيِّنِ
 أوَّلِهِ وآخِرِهِ . ولا يَكُون نحنُ ابتجنا شيئاً دونَ شيءٍ ، وتقلدنا تفضل
 بعضُ على بعضٍ ، بل لعَلنا أن لا نُخبر عن خاصَّة ما عندنا بحرفٍ
 واحدٍ . بعضه من كماله لا يملكه غيره . بعضه من كماله لا يملكه غيره .
 وإذا دبونا كتابنا هذا التديبيرُ وكان موضوعاً على هذه الصِّفة كان
 أيقظاً له (٣) من مذهب الجهدان والموازاة ، واستعمال الهوى (٤) .
 وقد ظنُّنا كثيراً أن أسماء أشتاف الأختلاف في الصُّورة والخطأ
 والهجاء ، أن حقايقها ومعانيها على حسب ذلك . وليس الأمر على ما يتوهَّمون (٥)
 ألا تدرى ، أن لاسم الشاكرية (٦) وإنْ خالف في الصُّورة والخطأ والهجاء
 اسم الجندى ، فإنَّ المعنى فيهما ليس يتغيَّر ، لأنَّهم يرجعون إلى معنَى
 واحدٍ ، وعلم واحدٍ (٧) . والذي يرجعون إليه طاعة الخلفاء وتأييد
 السلطان . بعضه من كماله لا يملكه غيره .

وإذا كان (٨) المولى منقولاً إلى العرب في أكثر المعاني ، ومجوعاً

(١) مع والرسائل : « وأشدُّ غُوراً » .
 (٢) م : « غواطراً » تحريف .
 (٣) وكذا في مع والرسائل . وفي م : « كان التذلل » ، وفي ط : « كان التمدل له » .
 (٤) « المراء » م ، ط : « المراء » ، « موازية في مع والرسائل » .
 (٥) ب : « توهَّمون » .
 (٦) الشاكرية : ضرب من الجنود . وفي القاموس : « الشاكرى : الأجير المنفق ،
 مبر » جاك . وانظر الحيوان ٢ : ١٣٠ .
 (٧) مع والرسائل : « وعلم واحد » .
 (٨) م : « وإذا كان » .

منهم في عامة الأسباب لم يكن بأعجب من جعل الخال والد^(١) ،
والحليين من الصميم ، وابن الأخت من القوم^(٢) .
وقد جعل الله بين الملائكة المولود على فراش البعل مشوباً إلى أمه ،
وقد جعل^(٣) إسماعيل وهو ابن أعجميين عربياً ، لأن الله تعالى لما
فتق لسانه بالعربية المبينة على غير التلقين^(٤) والترتيب ، وفطره على
الفضاحة العجينة على غير التشوه والتمرين ، وخلق طبعه من طبائع
العجم ، ونقل إلى بدنه تلك الأجزاء ، وركبه اختراعاً على ذلك التركيب ،
وسواء تلك التسوية ، وصاغه تلك الصيغة ، ثم جمعه من طبائعهم ،
ومتعه من أخلاقهم وشرائطهم ، وطبعه من كرمهم وأنبيئهم وهميهم
على أكرهها وأسنها ، وأشرها وأعلاها ، وجعل ذلك برهاناً على رسالته ،
ودليلاً على نبوته ، وصار أحق بذلك النسب^(٥) كواولي شرف ذلك
الحسب .

وكما جعل إبراهيم أباً لمن لم يلد^(٦) ، فالنبوي خزانة من جهة
الولادة ، والمولى عربي من جهة المدعى والمقاتل .

ولو أحاط علمنا بأن زيداً لم يخلق من نحل عمرو إلا عهراً^(٧)
لنفينا عنه ، وإن أيقنا أنه لم يخلق إلا من ماء ضلبي^(٨) ،
وكما جعل النبي أزواجه أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ ، وهن لم يلدنهم ولا

(١) ب : « جعله الخال والد » .
(٢) م ، ط : « التبعين » ، صوابه في ب . مع الرسائل .
(٣) ب : « هذا النسب » ، وفي مع الرسائل : « فكان أحق بذلك النسب » .
(٤) في الرسائل : « لمن لم يلد » .
(٥) ط : « لم يخلق إلا من نحل عمرو » . فقط وهو تحريف . والنحل : النسل والولادة .

أَرْضَعْتَهُمْ . وفي بعض القراءات: ﴿ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ، وَهُوَ أَبُو لَهُمْ ﴾^(١) على قوله : ﴿ بِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾^(٢) ، وجعل المرأة من جهة الرضاع أماً ، وجعل امرأة البعل أم ولد البعل من غيرها ، وجعل الرَّابَّ والدًا^(٣) . وجعل العم في كتاب الله أباً . وهم عبيده^(٤) لا يتقلَّبون إلا فيما قلبهم فيه .

وله أن يجعل من عباده من شاء عربياً، ومن شاء أعجمياً ، ومن شاء قرشياً ، ومن شاء زنجياً . كما أن له أن يجعل من شاء ذكراً ومن شاء أنثى ، ومن شاء خنثى ، ومن شاء أخرجه من ذلك^(٥) فجعله لا ذكراً ولا أنثى ولا خنثى .

وكذلك خلق الملائكة ، وهم أكرم على الله من جميع الخليفة . ولم يجعل لآدم^(٦) أباً ولا أمّاً ، وخلق من طين ونسبه إليه ، وخلق حواء^(٧) من ضلع آدم ، وجعلها له زوجاً وسكناً . وخلق عيسى من غير ذكر ، ونسبه إلى أمّه التي خلقه منها . وخلق الجان من نار السموم ، وآدم من طين ، وعيسى من غير

(١) هي قراءة أبي وعبد الله بن مسعود في الآية ٦ من سورة الأعراب . انظر تفسير أبي حيان ٧ : ٢١٢ .

(٢) الآية ٧٨ من سورة الحج .

(٣) الراب : فاعل من ربه يريه ربا ، بمعنى ربا حتى يفارق الطفولية ، كان ابنه أو لم يكن .

(٤) ب فقط : « وهم عبيد » ، وفي مع : « وهم عباده » ، وأثبت ما في م ، ط والرسائل .

(٥) مع والرسائل : « أفرد من ذلك » .

(٦) مع في الأصول : « فلم يجعل لآدم » ، والوجه ما أثبت . والذي في مع والرسائل :

« وخلق آدم فلم يجعل له » .

(٧) ب ، م : « حوى » .

نُطْفَةٌ ، وخلق السَّمَاءَ من دُخانٍ ، والأَرْضَ من الماءِ . وخلق إسحاقَ من عاقِرٍ .

وَأَنْطَقَ عَيْسَى فِي الْمَهْدِ ، وَأَنْطَقَ يَحْيَى بِالْحِكْمَةِ وَهُوَ صَبِيٌّ ، وَعَلَّمَ سُلَيْمَانَ مِيقَاتَ الطَّيْرِ ، وَكَلَامَ النَّمْلِ . وَعَلَّمَ الْحَفَظَةَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ جَمِيعَ الْأَلْسِنَةِ حَتَّى كَتَبُوا بِكُلِّ خَطٍّ ، وَنَطَقُوا بِكُلِّ لِسَانٍ . وَأَنْطَقَ ذُنُوبَ أَهْبَانَ ابْنِ أَوْسٍ ^(١) .

والمؤمنون من جميع الأمم إذا دخلوا الجنة ، وكذلك أطفالهم والمجانين منهم ، يتكلمون ساعة يدخلون الجنة بكلام أهل الجنة ، على غير الترتيب والتنزيل ، والتعليم على طول الأيام والتلقين . فكيف يتعجب الجاهلون من إنطاق إسماعيل بالعربية على غير تعليم الآباء ، وتأديب الحواصن ؟ !

وهذه المسألة ربما سأل عنها بعض القحطانية ، ممن لا علم له ، بعض العدنانية ^(٢) ، وهي على حال القحطانية أشد ^(٣) .

فأما جواب العدناني فسليس النظام ، سهل المخرج ، قريب المعنى ؛ لأن بنى قحطان لا يدعون لقحطان نُبوة ^(٤) فيعطيه الله تعالى مثل هذه الأعجوبة .

وما الذي قسم الله بين الناس من ذلك إلا كما صنع الله في طينة

(١) أهبان هذا : أحد الصحابة ، ذكروا أن الذئب كلمه ثم بشره بالرسول . انظر تفصيل ذلك في ثمار القلوب ٣٠٩ . وانظر كذلك الحيوان ١ : ٢٩٨ / ٣ : ٥١٣ / ٤ : ٧ / ٨٠ .

(٢) ب ، م : « لبعض العدنانية » ، صوابه في ط ، مع والرسائل .

(٣) مع : « وهي على القحطاني أشد » .

(٤) ب فقط : « نبوة » بتقديم الباء ، تحريف .

الأرض^(١) ، فجعل بعضها حجراً ، وبعض الحجر ياقوتاً ، وبعضه ذهباً ، وبعضه نحاساً ، وبعضه رصاصاً ، وبعضه صفراً^(٢) ، وبعضه حديداً ، وبعضه تراباً ، وبعضه فخاراً . وكذلك الزجاج ، والمغرة ، والزرنينخ ، والمزتك ، والكبريت ، والقار ، والتوتيا ، والتوشادر^(٣) ، والمرقشيشا^(٤) ، والبيغناطيس^(٥) .

وَمَنْ يُحْصِي عَدَدَ جِوَاهِرِ الْأَرْضِ وَأَصْنَافِ الْفِلِيزِ^(٦) ؟ !

وإذا كان الأمر على ما وصفنا فالبنوي^(٧) خراساني . وإذا كان الخراساني مولياً والمولى عربي^(٨) ، فقد صار الخراساني والبنوي والمولى والعربي^(٩) شيئاً واحداً . وأدنى ذلك أن يكون الذي معهم^(١٠) من خصال الوفائق غامراً لما معهم من خصال الخلاف ، بل هم في معظم الأمر ، وفي كبر الشأن^(١١) وعمود النسب متفقون . فالأثر الخراسانية ،

(١) م فقط : « إلا كما صنع في طينة الأرض ، .

(٢) الصفرة ، بالقسم : النحاس الأصفر .

(٣) انظر حواشي الحيوان ٣ : ٣٧٧ / ٥ : ٣٤٩ .

(٤) المرقشيشا ، هو ما يعرف بحجر الماركزيت ، كما في معجم استينجاس ١٢١٨ . وقد وردت في معجم الرسائل : « المرقشيشا » بالثاء بدل الشين الثانية . كما وردت بالثاء أيضاً في تذكرة داود عرضاً في الكلام على « المنغشيشا » إذ يقول : « حجر كالمرقشيشا » . وعقد له رسماً في المتعمد لابن رسولاً ٣٤٢ بلفظ « مرقشيشا » .

(٥) ذكر داود في تذكرته أنه يسمى حجر المثلود وحجر الحديد . وقال : « وأجوده اللازوردى الرزين الصافي » الجاذب للحديد . ومثله في المتعمد لابن رسولاً .

(٦) الفلز : جميع جواهر الأرض من الذهب والفضة والنحاس وأشباهها . ب فقط : « الفل » ، تحريف .

(٧) ط : « فالبنوي » ، تحريف . وانظر ما سبق في ١٦٧ .

(٨) ط : « عربياً » .

(٩) في جميع الأصول : « والمولى مولى والعرب » ، صوابه في معجم الرسائل .

(١٠) ب فقط : « معه » .

(١١) الكبر ، بكسر الكاف وضمها : الرفعة في الشرف .

وموالى الخلفاء قُصرة^(١) ، فقد صار فضلُ التركِ إلى الجميع راجعاً ،
وصار شرفهم زائداً في شرفهم .

وإذا عرف سائرُ الأجنادِ ذلك سامحت النفوس ، وذهب التعقيد ،
ومات الضغن ، وانقطع سببُ الاستئصال ، فلم يبقَ إلَّا التحاسد والتنافس الذي
لا يزال يكون بين المتقاربين في القرابة ، وفي الصناعة ، وفي المجاورة .
على أنَّ التوازر والتسالم في القرابات وفي بني الأعمام والعشائر
أفشى وأعمُّ من التخاذل والتعادي .

ولحبِّ الناصر والحاجة إلى التعاون انضمَّ بعض القبائل في البوادي
إلى بعض ، ينزلون معاً ، ويظعنون معاً . ومن فارق أصحابه أقلُّ ، ومن
نصر ابن عمه أكثر ، ومن اغتبط بنعمته وتمنى بقاها والزيادة
فيها أكثر ممن بغاها العوائل^(٢) وتمنى انقطاعها وزوالها .

ولا بدُّ في أضعافِ ذلك من بعض التنافس والتخاذل ، إلَّا أنَّ ذلك
قليلٌ من كثير .

وليس يكون^(٣) أن تصفو الدنيا ، وتنقى^(٤) من الفساد والمكروه ،
حتى يموت جميع الخلاق^(٥) ، وتستوى لأهلها ، وتمتهد لسكانها^(٦)
على ما يشتهون ويهوون ؛ لأنَّ ذلك من صفة دار الجزاء ، وليس كذلك
صفة دار العمل .

- (١) قصرة، بضم القاف، أي أدنى إليهم. كما يقال هو ابن عمي قصرة، أي أدنى النسب .
(٢) العوائل : المهلكات . ويقال ببيتك الشيء : طلبته لك وتمنيته . وفي كتاب الله :
« يبغونكم الفتنة » ، أي يبتغونها لكم .
(٣) وكذا في معج . وفي الرسائل : « وليس يجوز » .
(٤) ب : « أن يصفو الدنيا ويبيق » م ، ط : « أن تصفو الدنيا ويبيق » ، صوابها في
معج والرسائل . وفتح الشيء يفتح نقاه : صار نقياً خالصاً .
(٥) في جميع الأصول : « وحى » ، صوابه في معج والرسائل . وفي الرسائل أيضاً :
« جميع الخلاق » .
(٦) في جميع الأصول : « ويستوى لأهلها ويتمهد لسكانها » ، صوابه في معج والرسائل .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذا كتابٌ كتبتُه أيامَ المعتصمِ بالله^(١) رضى الله عنه ونَصَّرَ وجهه ، فلم يصل إليه لأسباب يطول ذكرها^(٢) ، فلذلك لم أعرض للإخبار عنها ، وأحببت أن يكون كتاباً قَصِداً ، ومذهباً عَدَلًا ، ولا يكونَ كتابَ إسرافٍ في مديح قوم ، وإغراقٍ في هجاء آخرين ؛ فإنَّ الكتابَ إذا كان كذلك شابهَ الكذبَ^(٣) وخالطه التزويدُ ، وبُني أساسه على التكلُّفِ^(٤) ، وخرج كلامُه مَخْرَجَ الاستكراءِ والتعلُّيقِ^(٥) .

وأَنْفَعُ المدايحَ للمادح ، وأجداها على المدوح ، وأبقاها أثراً وأحسَّنها ذكراً ، أن يكون المديح صدقاً ، ولظاهرِ حالِ المدوح موافقاً ، وبه لائفاً ، حتَّى لا يكون من المعبرِ عنه والواصفِ له إلَّا الإشارةُ إليه ، والتنبيةُ عليه .

وأنا أقول : إن كان لا يمكنُ ذكرُ مناقبِ الأتراكِ إلَّا بذكرِ مثالبِ سائرِ الأجنادِ ، فتركَ ذكْرَ الجميعِ أصوبُ ، والإضرابُ عن هذا الكتابِ أحزمُ .

(١) هو محمد بن هارون الرشيد ، بويع بالخلافة بعد وفاة أخيه المأمون سنة ٢١٨ . وتوفى بسر من رأى سنة ٢٢٧ . وولى الخلافة بعده ولده هارون الواثق .
 (٢) مع والرسائل : « يطول شرحها » .
 (٣) هذا ما في الرسائل . وفي جميع الأصول : « شانه » فقط . وفي مع : « شانه الكذب » .
 (٤) في جميع الأصول : « في التكلُّف » .
 (٥) التعلُّيق ، المراد به العسر ، كما يفتق الباب تعليقاً . وفي جميع الأصول وكذا في مع والرسائل : « التعلُّيق » ، والوجه ما أثبت .

وذكرُ الكثير من هذه الأصناف بالجميل لا يقوم إلا بالقابل من ذكر بعضهم بالقبيح ، وهو معصية^(١) وبابٌ من ترك الواجب . وقليلُ الفريضة أجدى علينا ، لأن ذكر الأكثر بالجميل نافلة ، وبابٌ من التطوع ؛ وذكر الأقل بالقبيح معصية ، وبابٌ من ترك الواجب . وقليلُ الفريضة أجدى علينا من كثيرِ التطوع .

ولكلُّ الناس نصيبٌ من النَّقص ، ومقدارٌ من الذُّنوب ، وإنَّما يُتفاضلُ بكثرة المحاسن وقلة المساوى . فأما الاشتغالُ على جميع المحاسن ، والسَّلامةُ من جميع المساوى ، دقيقتها وجليتها ، ظاهرها وخفيها ، فهذا لا يعرف فيهم^(٢) .

فإذا كان الخلطاء من جمهور الناس وأهل المعاش^(٣) من دهاء الجماعة^(٤) يرون ذلك واجباً في الأخلاق ، ومصلحةً في المعاش ، وتدبيراً في التعامل ، على ما فيهم من مشاركة الخطأ للصواب ، وامتزاج الضعف بالقوة ، فلسنا نشكُّ أن الإمام الأكبر^(٥) ، والرئيس الأعظم مع الأعراق الكريمة ، والأخلاق الرفيعة ، والتام في الحلم والعلم ، والكمال في العزم والحزم ، مع التمكين والقدرة ، والفضيلة والرياسة والسيادة ، والخصائص التي معه من التوفيق والبصمة ، والتأييد وحسن المعونة - لم يكن الله ليجلِّله لباس الخلافة ، ويحبوه ببهاء الإمامة^(٦) ، وبأعظم نعمة

(١) ب : « لم نصيه » م : « معصية » فقط . وأثبت ماى ط .

(٢) في جميع الأصول : « فهذا ما يعرفونه » ، صوابه في مع والرسائل مع سقوط كلمة « فيهم » منها .

(٣) في جميع الأصول : « وأهل المقاييس » . وفي مع : « وأصحاب المقاييس » ، وأثبت ماى الرسائل .

(٤) ط فقط : « من زعماء الجماعة » .

(٥) ب فقط : « في أن الإمام الأكبر » .

(٦) ب : « بهاء الإمامة » ، وفي مع والرسائل : « يتاج الخلافة » .

وأسيبها ، وأفضل كرامة وأسناها ، ثم وصل طاعته بطاعته ، ومعصيته بمعصيته ، إلا ومعه من الحلم في موضع الحلم ، والعفو في موضع العفو ، والتغافل في موضع التغافل ، مالا يبلغه فضل ذى فضل ، ولا حلم ذى حلم .

ونحن قائلون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، فيما انتهى إلينا من القول في الأثر .

زعم محمد بن الجهم وثمامة بن الأشرس^(١) والقاسم بن سيار^(٢) في جماعة ممن يغشى دار الخلافة^(٣) ، وهي دار العامة^(٤) ، قالوا جميعاً :

بيننا حميد بن عبد الحميد جالساً ومعه إخشيد الصغدئ^(٥) ، وأبو شجاع شبيب بن بخار خدائ^(٦) البلخي ، ويحيى بن معاذ ، ورجال من المعدودين المتقدمين في العلم بالحرب ، من أصحاب التجارب والجراس ، وطول المعالجة والمعاناة بصناعة الحرب ، إذ خرج رسول المأمون فقال لهم : يقول لكم مفترقين ومجتمعين : فليثبت كل

(١) ب : « الأثرث » ، تحريف . وهو ثمامة بن أشرس التهمري مولى بني تميم . كان زعيم القدرية في زمان المأمون والمتصم والوائق . وهو الذي دعا المأمون إلى الاعتزال . انظر الفرق بين الفرق ١٥٧ . وتروى عنه قصص تشير إلى استخفافه بالدين ، من ذلك أنه رأى الناس يوم جمعة يتعادون إلى المسجد الجامع ، لئوفهم من فوت الصلاة ، فقال لرفيق له : انظر إلى هؤلاء الحبير والبقر ! ثم قال : ما صنع ذلك العربي بالناس . تأويل مختلف الحديث ٦٠ . قتل ثمامة في زمان الواثق الذي تولى الخلافة من ٢٢٧ - ٢٣٣ . وقيل مات سنة ٢١٣ . انظر الفرق ١٥٩ ولسان الميزان ٢ : ٨٤ وتاريخ بغداد ٧ : ١٤٥ - ١٤٨ .

(٢) ب : « يسار » ، صوابه في سائر النسخ والحياوان ٤ : ٤٤٢ .

(٣) ط فقط : « ممن يغشون دار الخلافة » .

(٤) ط فقط : « وهي دار الإمامة » .

(٥) مع : « بخشاد الصغدئ » ، وفي الرسائل : « بخشاد الصغدئ » .

(٦) ب : « بخار خدائ » ، وأثبت ما في م ، ط ، مع . وفي الرسائل ١ : ٤٠ : « بخارا خدائ » .

(٧) مع والرسائل : « فليكتب » .

رجل منكم دَعَوَاهُ وَحُجَّتْهُ ، يقول لكم : أَيُّمَا أَحَبُّ إِلَيَّ كُلِّ قَائِدٍ مِنْكُمْ ، إِذَا كَانَ فِي مَائَةٍ مِنْ نَحْبَتِهِ وَثِقَاتِهِ^(١) : أَنْ يَلْقَى بِهِمْ مَائَةٌ تَرْكِيٌّ أَوْ مَائَةٌ خَارِجِيٌّ ؟

فَقَالَ الْقَوْمُ جَمِيعاً : [لِأَنَّ^(٢)] نَلِقَى مَائَةَ تَرْكِيٍّ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ أَنْ نَلِقَى مَائَةَ خَارِجِيٍّ ! وَحَمِيدٌ سَاكِتٌ ، فَلَمَّا فَرَغَ الْقَوْمُ جَمِيعاً مِنْ حُجَّتِهِمْ قَالَ الرَّسُولُ لِحَمِيدٍ : قَدْ قَالَ الْقَوْمُ فَقُلْ وَاكْتُبْ قَوْلَكَ ، وَلَيْكُنْ حُجَّةً لَكَ أَوْ عَلَيْكَ . قَالَ : بَلِ أَلْقَى مَائَةَ خَارِجِيٍّ أَحَبُّ إِلَيَّ ؛ لِأَنِّي وَجَدْتُ الْخِصَالَ الَّتِي فَضَّلَ بِهَا التَّرْكِيُّ جَمِيعَ الْمَقَاتِلَةِ غَيْرَ تَامَةً فِي الْخَارِجِيِّ ، وَوَجَدْتُهَا تَامَةً فِي التَّرْكِيِّ . فَفَضَّلُ التَّرْكِيَّ عَلَى الْخَارِجِيِّ بِقَدْرِ فَضْلِ الْخَارِجِيِّ عَلَى سَائِرِ الْمَقَاتِلَةِ . وَذَلِكَ بِأَنَّ التَّرْكِيَّ بَانَ مِنَ الْخَارِجِيِّ بِأُمُورٍ لَيْسَ فِيهَا لِلْخَارِجِيِّ دَعْوَى وَلَا مُتَعَلِّقٌ . عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ الَّتِي بَانَ بِهَا التَّرْكِيُّ مِنَ الْخَارِجِيِّ أَعْظَمُ خَطِراً وَأَقْلُ نَفْعاً مِمَّا شَارَكَهُ الْخَارِجِيُّ فِي بَعْضِهِ .

ثُمَّ قَالَ حَمِيدٌ : وَالْخِصَالُ الَّتِي يَصُولُ بِهَا الْخَارِجِيُّ عَلَى سَائِرِ النَّاسِ : صِدْقُ الشَّدَّةِ عِنْدَ أَوَّلِ وَهْلَةٍ ، وَهِيَ الدَّفْعَةُ الَّتِي يَبْلِغُونَ بِهَا مَا أَرَادُوا ، وَيَنَالُونَ بِهَا مَا أَمَلُوا .

وَالثَّانِيَةُ : الصَّبْرُ عَلَى الْخَبَبِ^(٣) ، وَعَلَى طُولِ السَّرِيِّ حَتَّى يُصَبِّحُوا الْقَوْمَ الَّذِينَ مَرَّقُوا بِهِمْ غَارِينَ^(٤) ، فِيهِجَمُوا^(٥) عَلَيْهِمْ وَهُمْ بَسُوءٌ^(٦)

(١) ب : « من نجبه » . وق مع والرسائل : « إذا كان في عدته من محبيه وثقاته » .

(٢) هذه من ط والرسائل .

(٣) الخبب : ضرب من العنق السريع . ب : « الخبب » تحريف .

(٤) المروق : المرور بسرعة كما يمرق السهم من الرمية . غارون : غافلون . ب : « غازين » .

(٥) ب فقط : « فهجموا » .

(٦) في الأصول : « بشر » ، ولا وجه له . والوجه ما أثبت من مع والرسائل . وهو

من قولهم : ناقة بسوء ، بفتح الباء : لا تمنع الحالب . وهذا مثل الضعف .

ولحم على وَصَمَ^(١) ، فُجِعَلُوا بهم عن الرُّوْيَةِ^(٢) ؛ وعن رَدِّ النَّفْسِ بعد
الجَوْلَةِ^(٣) والنَّزْوَةِ ، لا يظنون أَنَّ أَحَدًا يَقْطَعُ في ذلك المقدارِ من الزَّمانِ
ذلك المقدارَ من البلاد .

والثالثة : أَنَّ الخارجيَّ موصوفٌ عند الناس بآنَّه إِنْ طَلَبَ أدركَ ،
وإِنْ طَلَبَ فات .

والرابعة : خِفَّةُ الأَزْوادِ^(٤) ، وقَلَّةُ الأَمْتَةِ ، وَأَنَّها تَخْجُبُ الخَيْلَ^(٥) ،
وتركِبُ البِغالِ ، وإن احتاجت أَمَسَتْ بِأَرْضٍ وَأَصْبَحَتْ بِأُخْرَى^(٦) ،
وَأَنَّهُمْ قَوْمٌ حين خرجوا لم يَخْلَفُوا الأَمْوالَ الكثيرةَ ، والجنانَ المُنْتَفَةَ ،
والدُّورَ المشيِّدةَ ، ولا ضياعاً ولا مُسْتَعَلَّاتٍ ، ولا جوارى مَطْهُماتٍ ، وَأَنَّهُمْ^(٧)
لا سَلَبَ لهم ، ولا مالَ معهم ، فيرغبُ الجندُ في لِقائِهِمْ ، وإِنما هم كالطَّيرِ
لا تَدخُرُ ، ولا تَهْمُ^(٨) لعدُوِّ ، ولها في كلِّ أرضٍ من المياهِ والبُرُورِ^(٩)
مَا يَمُوتُها . وإن لم تجد ذلك في بعض البلادِ فَأَجْنَحَتْها تقربَ لها البعيدُ ،
وتسهَّلَ لها الحَزُونُ . وكذلك الخوارج لا يمتنع عليهم القَرَى والطَّعْمُ^(١٠) ،

(١) الوضم : جمع وضمة ، وهو كل شيء يوضع عليه اللحم من خشب أو حصير ،
يوق به الأرض . واللحم على الوضم مثل للضعف وعدم الامتناع .

(٢) في جميع الأصول : « على الروية » ، والوجه ما أثبت من مع والرسائل .

(٣) ب ، م : « بعد الحولة » بالحاء المهملة .

(٤) ب فقط : « الأزواج » تحريف . والأزواد : جمع زاد ، وهو العلم والاسم في
والسفر .

(٥) تجنيها : تقودها إلى جنب البغال . والضمير للخوارج .

(٦) ب فقط : « وأضحيت بأخرى » .

(٧) ب ، م : « أنهم » بدون واو .

(٨) ب : « ولا تهم لعدو » .

(٩) في جميع الأصول : « والبرور » ، ولاوجه له . وفي مع والرسائل . : « والأفوات » .

(١٠) مع والرسائل : « والمعلم » . والعلم ، بالفم : العلم .

فَإِنْ يَمْتَنِعُ^(١) عَلَيْهِمْ فِي بَنَاتِ أَعْوَجَ^(٢) وَبَنَاتِ شَحَاجٍ^(٣) ، وَخِضَّةِ الْأَنْفَالِ ، وَالْقُوَّةِ عَلَى طَوْلِ الْخَبَبِ مَا يَأْتِيهَا بِأَرْزَاقِهَا ، وَأَكْثَرَ مِنْ أَرْزَاقِهَا .
 وَالخامسة : أَنَّ الْمُلُوكَ إِذَا أَرْسَلُوا إِلَيْهِمْ أَعْدَادَهُمْ لِيَكُونُوا فِي خِضَّةِ أَرْوَادِهِمْ وَأَنْقَالِهِمْ ، وَلِيَقْوُوا عَلَى التَّنْقِيلِ كَقَوَّهِمْ^(٤) ، لَمْ يَقْوُوا عَلَيْهِمْ ، لِأَنَّ مِائَةَ^(٥) مِنَ الْجُنْدِ لَا يَقُومُونَ مِائَةَ مِنَ الْخَوَارِجِ . وَإِنْ كَتَفُوا الْجَيْشَ وَضَاعَفُوا الْعِدَّةَ^(٦) ثَقُلُوا عَنْ طَلِبِهِمْ ، وَعَنِ الْغَوَاثِ إِنْ طَلِبَهُمْ عَدُوَّهُمْ . وَمَتَى شَاءَ الْخَارِجِيُّ أَنْ يَتَقَرَّبَ مِنْهُمْ لِيَتَطَرَّقَهُمْ^(٧) ، أَوْ لِيُصِيبَ الْغُرَّةَ^(٨) أَوْ لِيَشْبِتَهُمْ^(٩) ، فَعَلَ ذَلِكَ^(١٠) ، ثِقَةً بِأَنَّهُ يَغْنَمُ^(١١) عِنْدَ الْفُرْصَةِ وَرُؤْيَا الْعَوْرَةِ ، وَيَمْكِنُهُ الْمَرْبُ عِنْدَ الْخَوْفِ ، وَإِنْ شَاءَ كَبَسَهُمْ^(١٢) لِيَقْتَطِعَ نِظَامَهُمْ ، أَوْ لِيَقْتَطِعَ الْقِطْعَةَ مِنْهُمْ .

- (١) فِي الْأَصُولِ : « تَمْتَنِعُ » ، وَأَثْبَتَ مَا فِي مِج . وَفِي الرَّسَائِلِ : « فَإِنْ تَمْتَنِعَ » .
 (٢) ط : « أَعْوَجَ » تَحْرِيفٌ . وَأَعْوَجَ هَذَا : فَرَسٌ كَانَ لَكِنْدَةَ ، فَأَخَذَتْهُ بِنُوسِ لِمٍ فِي بَعْضِ أَيَّامِهِمْ ، فَصَارَ إِلَى بَنِي هِلَالٍ . وَلَيْسَ فِي الْعَرَبِ فَحْلٌ أَشْبَهَ وَلَا أَكْثَرَ نَسْلًا مِنْهُ .
 (٣) بَنَاتِ شَحَاجٍ ، هِيَ الْبِغَالُ ، لِأَنَّهَا تَشْجَعُ بِصَوْتِهَا . وَفِي مِجِ وَالرَّسَائِلِ : « وَبَنَاتِ شَحَاجٍ وَبَنَاتِ صِهَالٍ » . وَبَنَاتِ صِهَالٍ يَعْنِي بِهَا الْخَيْلَ فَإِنَّ الصَّهِيلَ لَهَا . وَبَنَاتِ صِهَالٍ لَمْ تَرُدْ فِي السَّنَنِ وَلَا الْقَامُوسِ ، وَلَكِنْ وَرَدَتْ فِي الْمَزْهَرِ ١ : ٥٢٥ .
 (٤) ب : « كَقَوَّهِمْ » ، صَوَابُهُ فِي م ، ط وَمِجِ وَالرَّسَائِلِ .
 (٥) ب : « لِأَمَايَةَ » تَحْرِيفٌ .
 (٦) مِجِ وَالرَّسَائِلِ : « وَإِنْ كَتَفُوا الْجَيْشَ بِالْجَيْشِ ، وَضَاعَفُوا الْعِدَّةَ بِالْعِدَّةِ .
 (٧) التَّطَرَّقَ : الْإِغَارَةُ مِنْ حَوْلِ الْمَسْكَرِ . ب : « لِيَنْظُرَ فِيهِمْ » . م ، ط : « لِيَتَطَرَّقَهُمْ بِالْقَافِ ، صَوَابُهُ فِي مِجِ وَالرَّسَائِلِ .
 (٨) الْغُرَّةُ ، بِالْكَسْرِ : الْغَفْلَةُ . ب : « الْغُرَّةُ » ، صَوَابُهُ فِي م ، ط ، مِجِ وَالرَّسَائِلِ .
 (٩) أَثْبَتَهُ : جَرَحَهُ جَرَا حَةَ لَا يَقُومُ مَعَهَا . وَفِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ : « وَإِذَا يَمْكُرُ بِكَ الَّذِي نَظَرَ لِيَشْبِتُوكَ أَوْ يَفْتَلُوكَ أَوْ يَخْرُجُوكَ » فِي الْآيَةِ ٣٠ مِنَ الْأَنْفَالِ . وَفِي مِجِ وَالرَّسَائِلِ : « أَوْ لِيَسْلِبَهُمْ » .
 (١٠) ب ، مِجِ : « فَعَلَ » بِالسَّقَاطِ « ذَلِكَ » .
 (١١) فِي الْأَصُولِ : « يَقِيمُ » ، وَأَثْبَتَ مَا فِي مِجِ وَالرَّسَائِلِ .
 (١٢) الْكَيْسُ : الْإِتْحَامُ ، كَالْتَكْيِيسِ وَالتَّكْيِيسِ . ب : « كَيْسَهُمْ » بِالْيَاءِ الْمُفْتَاةِ التَّحْتِيَّةِ ، تَحْرِيفٌ .

قال حميد: فهذه هي مفاخرهم وخصالهم، التي بها كره القواد لقاءهم.
قال القاسم بن سيار: وخصلة أخرى، وهي التي رعبت القلوب^(١)
وحشنتها^(٢)، ونقضت العزائم^(٣) وفسختها، وهو ما تسمع الأجناد
ومقاتلة العوام من ضرب المثل بالخوارج، كقول الشاعر:

إذا ما البخيل والمحاذر للقرى

رأى الضيف مثل الأزرق المجفف^(٤)

هذه زيادة القاسم بن سيار.

فأما حميد^(٥) فإنه قال:

فأما الشدة فالتركي فيها أحمد أثراً، وأجمع أمراً، وأحكم شأناً؛
لأن التركي من أجل أن تصدق شدته ويتمكن عزمه، ولا يكون مشترك
العزم، ومُنقسم الخواطر، قد عودَ يردونه أن لا ينشئ وإن شناه، أن
يملاً فُروجه^(٦)، إلا أن يُديره مرةً أو مرتين، وإلا فإنه لا يدع سننه،
ولا يقطع ركضه^(٧)، وإنما أراد التركي أن يويس نفسه من البدوات^(٨)،

(١) ط فقط: «أرعبت». يقال رعب فلاناً رعباً: خوفه وأزعه، كما يقال أربه إرعاباً.

(٢) أي ملاها من الرعب. وفي م: «وجشيتها»، وفي مع والرسائل: «وعلمتها».

(٣) ب: «ونقضتها العزائم».

(٤) ب: «إذا ما الخيل، تحريف. وفي ط: «إذا ما رأى الخيل المحاذي للقرى».

تحريف أيضاً، صوابه في م، ومع والرسائل. ب، م: «الضيف» بالصاد المهملة، تحريف.
والمجفف: الذي جفف فرسه بالجبفاف، وهو ما جلل به من سلاح وآلة تقيه الجراح. وفي ب:
«المحقق» وفي م، ط: «المجفف» صوابهما في مع والرسائل.

(٥) م، ط: «وأما حميد».

(٦) ط فقط: «فلا يملاً فُروجه» تحريف. والفروج: ما بين قوائم الفرس. وكفى
بملها عن الإسراع وشدة العدو حتى لا تكاد تظهر تلك الفروج للنظر.

(٧) ب فقط: «ركبه» تصحيف.

(٨) ب فقط: «يويس» بالياء، تحريف. والبدوات: الخطرات والآراء تبدو وتظهر.

ط فقط: «البدوات».

ومن أن يعتبره التَّكْذِيبُ^(١) بعد الاعتزام ، لهُول اللقاء ، وَحُبُّ الحياة ، لِأَنَّهُ إِذَا عَلِمَ أَنَّهُ قَدْ صَبِرَ بِرِذْوَنِهِ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ حَتَّى لَا يَنْتَحِي ، وَلَا يَجِيبُهُ إِلَى التَّصَرُّفِ مَعَهُ إِلَّا بِأَنْ يَصْنَعَ شَيْئاً بَيْنَ الصَّفَيْنِ فِيهِ عَطْبُهُ ، لَمْ يُقَدِّمِ عَلَى الشَّدَّةِ إِلَّا بَعْدَ إِحْكَامِ الْأَمْرِ ، وَالبَصْرَ بِالْعَوْرَةِ^(٢) . وَإِنَّمَا يَرِيدُ أَنْ يَشْبِهُهُ نَفْسَهُ بِالْمُحْرَجِ^(٣) الَّذِي إِذَا رَأَى أَشَدَّ الْقِتَالِ لَمْ يَدْعُ جُهْداً وَلَمْ يَدْعُرْ جَيْلَةً ، وَلِيَنْفِي^(٤) عَنْ قَلْبِهِ خَوَاطِرَ الْفِرَارِ ، وَدَوَاعِيَ الرَّجُوعِ .

وقال : الخارجيُّ عند الشَّدَّةِ إِنَّمَا يَعْتَمِدُ عَلَى الطَّعَانِ . وَالأْتِرَاكُ تَطْعُنَ طَعْنَ الْخَوَارِجِ ، وَإِنْ شَدَّ مِنْهُمْ أَلْفٌ فَارِسٍ فَرَمُوا رِشْقاً وَاحِداً^(٥) صَرَعُوا أَلْفَ فَارِسٍ ، فَمَا بَمَاءٍ^(٦) جَيْشٍ عَلَى هَذَا النَّوْعِ مِنَ الشَّدِّ^(٧) !
وَالْخَوَارِجُ وَالأَعْرَابُ ، لَيْسَتْ لَهُمْ رَمِيَّةٌ مَذْكُورَةٌ عَلَى ظُهُورِ الْخَيْلِ ، وَالتَّرْكِيُّ يَرِي الْوَحْشَ ، وَالتَّطِيرَ ، وَالبَّرْجَاسَ^(٨) ، وَالنَّاسَ^(٩) ، وَالمَجْشِمَةَ^(١٠) ، وَالمُثَلَّ الْمَوْضُوعَةَ ، وَالتَّطِيرَ الْخَاطِفَ^(١١) ، وَيَرِي وَقَدْ مَلَأَ فُرُوجَ دَابَّتِهِ

(١) التَّكْذِيبُ : الإِحْجَامُ ، يُقَالُ لِلرَّجُلِ إِذَا حَلَّ ثَمَّ وَلَمْ يَعْصِ : قَدْ كَذَبَ عَنْ قَرْنِهِ تَكْذِيباً .

(٢) الْعَوْرَةُ : مَوْضِعُ الْخَلَلِ عِنْدَ الْعَدُوِّ . وَيُقَالُ بِيُوتِ عَوْرَةٍ ، أَيِ مَكْنَةِ السَّرَاقِ ، لَخُلُوعِهَا وَأَهَائِغِهَا حَرِيْرَةً . وَفِي جَمِيعِ الْأَصُولِ : « بِالْعَوْدَةِ » . وَأَثْبَتَ مَا فِي مِجِّ وَالرِّسَالِ .

(٣) فِي جَمِيعِ الْأَصُولِ : « بِالْمُحْرَجِ » ، صَوَابُهُ بِالْحَاءِ الْمَهْمَلَةِ كَمَا فِي مِجِّ وَالرِّسَالِ .

(٤) بَ فِقْطُ : « وَلِيَنْفِي » بِالْقَافِ ، صَوَابُهُ فِي مِجِّ ، ط ، مِجِّ وَالرِّسَالِ .

(٥) الرِّشْقُ بِالْكَسْرِ : الْإِسْمُ مِنَ الرِّشْقِ ، وَرِشْقاً وَاحِداً ، أَيِ وَجْهاً وَاحِداً بِجَمِيعِ مِجِّهِمْ .

(٦) فِي جَمِيعِ الْأَصُولِ ، مِجِّ : « بَمَاءٍ » ، صَوَابُ رِصْمِهِ مِنَ الرِّسَالِ .

(٧) هَذَا مَا فِي بَ . وَفِي مِجِّ ، ط ، مِجِّ وَالرِّسَالِ : « مِنَ الشَّدَّةِ » .

(٨) الْبَرْجَاسُ ، بِضَمِّ الْبَاءِ ، سَبَقَ تَفْسِيرُهُ فِي ص ١٧٩ .

(٩) انْظُرْ مَا سَبَقَتْ فِي ٢٠٦ مِجِّ ٤ .

(١٠) الْمَجْشِمَةُ ، سَبَقَ تَفْسِيرُهَا فِي ص ٣٢ . بَ فِقْطُ : « الْمَجْشِمَةُ » ، تَحْرِيفٌ .

(١١) مِجِّ ، ط : « وَالتَّطِيرَ الْخَاطِفَ » .

مُدْبِرًا وَمُقْبَلًا^(١) ، وَيَمْنَةً وَيَسْرَةً ، وَصُعْدًا وَسُقْلًا ، وَيَرَى بَعِشْرَةَ
أَسْهَمٍ^(٢) قَبْلَ أَنْ يَفُوقَ الْخَارِجِيَّ سَهْمًا وَاحِدًا . وَيَرْكُضُ دَابَّتَهُ مَنْحَلِرًا
مِنْ سَهْلٍ ، أَوْ مَتَسَقِّلًا إِلَى بَطْنٍ وَإِذْ بَأَكْثَرَ مِمَّا يُمْكِنُ الْخَارِجِيُّ عَلَى بَسِيطِ
الْأَرْضِ .

والتركيُّ له أربعة أعين^(٣) : عينان في وجهه ، وعينان في قفاه .
وللخارجيِّ عيب في مستدبر الحرب ، وللخراسانيِّ عيب في مُستقبل
الحرب .^(٤)

فعب الخراسانيَّة أنَّ لها جولةً عند أوَّل الالتقاء^(٥) ، فإنَّ ركبوا
أكسَاءهم^(٦) كانت هزيمتهم ، وكثيراً ما يُشويبون ، وذلك بعد الخُطار
بالعسكر ، وإطماع العدوِّ في الشدَّة .

والخوارج إذا وُلُّوا فقد وُلُّوا ، وليس لهم بعد الفرِّ كَرٌّ إلَّا ما لا يُعَدُّ .
والتركيُّ ليست له جولةُ الخراسانيِّ ، وإذا أدبرَ فهو السَّمُّ الناقع ،
والحَتْفُ القاضى ، لأنَّه يُصِيبُ بسهمه وهو مُدْبِرٌ ، كما يُصِيبُ بسهمه
وهو مقبلٌ ، ولا يُؤْمِنُ وَهَقُّهُ^(٧) .

(١) انظر ما سبق في ص ٢٠١ .

(٢) ب : « لعشرة أسهم » محرف ، م : « العشرة أسهم » ؛ وهو خطأ ، وفي ط :
« العشرة الأسهم » ، وأثبت ما في مع والرسائل .

(٣) مع والرسائل : « وللتركي أربعة عين » . وقد وردت « أربعة » مؤنفة مع العين المؤنفة ،
وهو وجه جائز في العربية مذكور في المطولات . وانظر الصبان ٤ : ٦٢ حيث ذكر ابن هشام
أن ما كان لفظه مذكوراً ومعناه مؤنفاً ، أو بالعكس ، فإنه يجوز فيه وجهان .

(٤) م : « الألفاء » ، صوابه في ب ، ط .

(٥) الأكسَاء : جمع كسء ، بالفم ، وهو مؤخر كل شيء . يقال ركب كسأه : وقع
على قفاه . والمراد : أدبروا وتآخروا . ب فقط : « كسأهم » ، بالإفراد .

(٦) الوهق ، بالتحريك : حبل شديد الفتل يرمى وفيه أنشوطة ، فتؤخذ فيه الدابة
والإنسان . ب فقط : « رهقه » ، تحريف .

قال : وهم علّموا الفُرسانَ حملَ قوسين وثلاثِ قِسيٍّ ، ومن الأوتار على حَسَبِ ذلك ^(١) .

والتركيُّ في حال شدّته معه كلُّ شيءٍ يحتاج إليه ، لنفسه ، وسلاحه ، ولدابّته ، وأداة دابّته ^(٢) . فأما الصّبر على الحَبِّبِ ^(٣) ومواصله السّير ، وعلى طول السّرى وقَطْعِ البلادِ [فعجيبٌ جداً] ^(٤) .
فواحدة ^(٥) : أنّ فرسَ الخارجيّ لا يصبر صَبْرَ بردونِ التركيِّ .

والخارجيّ لا يحسن أن يعالج فرسه إلاّ مُعالِجَةَ الفُرسانِ لخيوهم ، والتركيُّ أخذقُ من البّيطار ، وأجود تقويماً ليردّونه على ما يريد من الرّاضة ^(٦) ، وهو استنتجّه ، وهو ربّاه فلواً ، ويَتَّبِعُهُ إن سباه ^(٧) ، وإن ركض ركض خلفه ، قد عوّده [ذلك] ^(٨) حتّى عرفه ، كما يعرف الفرس : اجدم ^(٩) ، والناقة : حلى ^(١٠) ، والجمل : جاه ^(١١) ، والبغل : عدّس ، والحمار : ساساً ؛ وكما يعرف المجنون لقبه ، والصبيُّ اسمه .

(١) م ، ط : « على حساب ذلك » .

(٢) ب فقط : « وأداة دابّته » ، تحريف .

(٣) انظر ما معنى في ص ٨٩ . وفي ب : « الجنب » ، تحريف .

(٤) التكلّة من مع والرسائل .

(٥) ط فقط : « فظاهر » .

(٦) الرّاضة : جمع راض ، وهو من يروض الدابة ويسوسها ويذلّها .

(٧) ب ، م والرسائل : « وتبّعه إن سباه » ، وأثبت ما في ط .

(٨) التكلّة من مع والرسائل .

(٩) اجدم ، بوصول الهَمْزة بعدها جيم ودال مهملة ، وهو زجر الفرس ، ومثله « مجدم » بالماء . وفي الأصول : « اجدم » بالذال المعجمة ، صوابه في مع ومعظم أصول الرسائل . انظر :

٤٧ : ١

(١٠) يقال في زجر الناقة : حل ، وحل أيضاً . وأنشدوا لأبي النجم :

« وقد حلوناها بحوب وحل »

(١١) جاه ، بكسر الهمزة ، ومثله جأ ، وشأ ، كما يقال جى جى : أمر لها بورود الماء وهي على الخوض . وجو جؤ : أمر لها بورود الماء وهي بعيدة منه ، أو هو زجر لها لا أمر بورود الماء . وفي م ، ط : « جأ » . وأثبت ما في ب ، مع والرسائل .

ولو حصلت مُدَّةٌ عُمرِ التُّركِيِّ وَحَسَبَتْ أَيَّامَهُ لوجدتَ جُلوسَهُ على ظهر الأرض نادراً^(١). والتركي يركب فحلاً أو رَمَكَةً^(٢)، ويخرج غازياً أو مسافراً، أو متباعداً في طلب صيد، أو سبب من الأسباب، فتتبعه الرَمَكَةُ وَأَفْلاؤُهَا؛ لِنَ أعياء اصطياد الناس اصطاد الوحش، وإن أخفق منها واحتاج إلى طعام فصَدَّ دَابَّةً من دوابه، وإن عطش حَلَبَ رَمَكَةً من رماكه، وإن أراح واحدة ركب أخرى، من غير أن ينزل إلى الأرض.

وليس في الأرض أحدٌ إلَّا وبدئته ينتفض^(٣) عن اقتيات اللحم وحده - غيره، وكذلك دابته تكتفي بالعنقر^(٤) والعشب والشجر، لا يُظِلُّها من شمس، ولا يُكِنُّها من برد.

قال: وأمَّا الصبر على الخبب^(٥) فإنَّ الثغريين^(٦)، والفرانقيين^(٧)، والخصيان، والخوارج، لو اجتمعت قواهم في شخص واحد لما وفوا بتركي واحد. والتركي لا يبقى معه مع طول الغاية إلَّا الصميم من دوابه، والذي يقتله التركي بإتعايه له. ويثنيه^(٨) عند غزاته هو الذي لا يصبر

(١) نادراً، ساقطة من ب. وفي م: «نادر» محرف. وفي مع والرسائل: «لوجدت جلوسه على ظهر دابته أكثر من جلوسه على ظهر الأرض».

(٢) الرمكة، بالتحريك: الأثني من البراذن. وفي جميع الأصول: «فحل أرمাকে»، وأثبت ما في مع والرسائل.

(٣) ينتفض: يفسد وينزل. وفي جميع الأصول: «ينتفض» بالفاء، ولا وجه له.

(٤) العنقر: كصفر: أصل القصب والبردى والبقل مادام أبيض مجتمعاً.

(٥) ب: «الجنب»، تحريف. وانظر ١٩٩.

(٦) الثغريون: نسبة إلى الثغر، وهو واحد ثغور الشام. ومن أشهرها: أنطاكية، وبغراس، والمصيصة. وأصل أهلها من الروم.

(٧) نسبة إلى الفرائق بالضم، يعني بهم عمال البريد، ويبدو أنهم كانوا من غير العرب.

والفرائق: الذي يدل صاحب البريد على الطريق، معرب «بروانك». ب، م: «والفرانقيين» ط: «والفرانقيين»، صوابهما ما أثبت.

(٨) في جميع الأصول: «ويثنيه»، وأثبت ما في مع والرسائل.

معه فرُسُ الخارجي ، ولا يَبْقَى معه كلُّ برذونٍ بخارى^(١) ، ولو سائر خارجياً لاستفرغَ جهده^(٢) قبل أن يبلغَ الخارجي عَفْوَه .

والتركيُّ هو الراعي ، وهو السَّائِسُ ، وهو الرائيضُ ، وهو النخَّاسُ^(٣) ، وهو البَيْطارُ ، وهو الفارِسُ . فالتركيُّ الواحدُ أُمَّةٌ على حدة .

قال : وإذا سارَ التركيُّ في غير عساكرِ الترك فسارَ القومُ عشرةَ أميالٍ سارَ التركيُّ عشرين ميلاً ، لأنَّهُ ينقطعُ عن العسكرِ يمناً ويسرةً ، ويصعدُ في دُزَى الجبال ، ويستبطنُ قعورَ الأودية ، في طلبِ الصيدِ ، وهو في ذلك يرمي كلَّ ما دبَّ ودرج ، وطارَ ووقع .

قال : والتركيُّ لم يَسِرْ في العسكرِ سِيراً مستقيماً قط^(٤) .

قال : وإذا طالت الدُّلجة ، واشتدَّ السيرُ ، وبُعدَ المنزلُ ، وانتصفتِ النَّهارُ ، واشتدَّ التعبُ ، وشغَلَ النَّاسُ الكلالَ^(٥) ، وصمَّتِ المتسايرون فلم يَنطِقوا ، وقَطَعَهُم ما همُّ فيه عن التَّشَاغُلِ بالحديثِ ، وتفَسَّحَ^(٦) كلُّ شَيْءٍ من شدَّةِ [الحرِّ ، وجَمَدِ كلِّ شَيْءٍ من شدَّةِ^(٧)] البَرْدِ ، وتمتَّى كلُّ جليدٍ القويِّ على طولِ السُّرى أنْ تُطوى له الأرضُ ، وكلِّما رأى خيالاً^(٨)

(١) ط فقط : « تجارى » ، تحريف .

(٢) هذا الصواب من م ، مع . وفي الرسائل : « لاستفرغ وسعه » . وفي ب : « لا استفرغ جهده » . وفي ط : « لا استفرغ جهده » ، محرفتان .

(٣) ب ، م : « النخاس » ، تحريف . والنخاس ، بالهاء المعجمة : بائع اللواب ، سمى بذلك لنخسه إياها حتى تنشط .

(٤) ب : « ولا مدار » ، صوابه في م ، ط .

(٥) في جميع الأصول : « الكلام » ، ولا يستقيم مع ما بعده . والصواب من مع والرسائل . والكلال : التعب والإعياء .

(٦) التفسيح : عدم الطاقة وقلة الاحتمال . م فقط : « وتفسيح » ، تحريف .

(٧) التكلية من مع والرسائل ، لكن في الرسائل : « وخذ » بالهاء .

(٨) الخيال : مانصب في الأرض ليعلم أنها حي فلا تقرب . والخيال والحياة أيضاً : ماتشبه لك في اليقظة أو الحلم من صورة

أو علماً استبشّر به ، وظن أنه قد بلغ المنزل ، وإذا بلغه الفارس نزل وهو متفجع^(١) ، كأنه صبي محقون^(٢) ، يشن أنين المريض ، ويستريح إلى الثناؤب^(٣) ، ويتداوى مما به بالتمطى والتضجع . وترى التركي في تلك الحال ، وقد سار ضعف ما ساروا ، وقد أتعب منكبيه كثرة النزح^(٤) ، يرى يقرب^(٥) المنزل غيراً أو طيباً ، أو عرس له ثعلب أو أرنب ، كيف يركض ركض مبتدئ مستأنف ، حتى كأن الذي سار ذلك السير ، وتعب ذلك التعب غيره .

وإن بلغ الناس وادياً فازدحموا على مسلكه أو على قنطرتة ، بطن^(٦) برذونه فأفحمه ثم طلع من الجانب الآخر كأنه كوكب . وإن انتهوا إلى عتبة صعبة ترك السنن^(٧) ، وذهب في الجبل صعدا ، ثم تدلّى من موضع يعجز عنه الوعل ، وأنت تحسبه مخاطراً بنفسه ، للذي ترى من مظهره . ولو كان في كل ذلك مخاطراً لما دامت له السلامة ، مع تتابع ذلك منه .

- (١) متفجع : قد فتح ما بين رجليه ، وذلك من تأثير طول الركوب . ب : « متفجع » م ، ط : « متفجع » بتقديم الجيم على الحاء ، ولا مادة لهذه في العربية ، وصوابها ما أثبت من مع والرسائل .
- (٢) محقون : قد أعطى الدواء بالحققة . وفي جميع الأصول : « مجنون » ، صوابه في مع والرسائل .
- (٣) ب : « الثناؤب » ، م ، ط « الثنواب » ، والصواب ما أثبت من مع والرسائل .
- (٤) النزح في القوس : مد وترها ليري بسهامها .
- (٥) في جميع الأصول : « لقرب » باللام ، والوجه ما أثبت . وفي مع والرسائل : « قرب المنزل » .
- (٦) يطنه يطناً : ضرب يطنه . ب : « فطن » ، بالفاء ، صوابه في م ، ط ، مع والرسائل .
- (٧) السنن ، بالتحريك : نسيج الطريق ومحجته . م ، ط : « السير » تحريف .

قال : وَيَمْخَرُ^(١) الْخَارِجِيُّ بَأَنَّهُ إِذَا طَلَبَ أَدْرَكَ ، وَإِذَا طُلِبَ فَاتَ^(٢) .
والتركيُّ ليس يُخْرَجُ إلى أن يَفُوتَ ، لأنَّه لا يُطَلَبُ ولا يُرَامُ .
وَمَنْ يَرُومُ مالا يُطعم فيه ؟ !

فهذا دليلٌ على أننا قد علمنا أنَّ العِلَّةَ التي عَمَّتْ الْخَوَارِجَ بِالنَّجْدَةِ استواءُ حالاتهم في أشدِّ الديانة^(٣) ، واعتقادهم بأنَّ القتالَ دينٌ ؛ لأنَّنا حين وجدنا السَّجِسْتَانِيَّ ، وَالْجَزْرِيَّ^(٤) ، وَالْيَمَانِيَّ ، وَالْمَغْرِبِيَّ ، وَالْعُمَانِيَّ ، وَالْأَزْرَقِيَّ مِنْهُمْ وَالنَّجْدِيَّ^(٥) ، وَالْإِبَاهِيَّ ، وَالصُّفْرِيَّ^(٦) ، وَالْمَوْلِيَّ ، وَالْعَرَبِيَّ ، وَالْعَجَمِيَّ وَالْأَعْرَابِيَّ ، وَالْعَبِيدَ وَالنِّسَاءَ ، وَالْحَائِكَ وَالْفَلَاحَ ، كُلَّهُمْ يُقَاتِلُ مَعَ اخْتِلَافِ الْأَنْسَابِ ، وَتَبَايُنِ الْبُلْدَانِ - عَلِمْنَا أَنَّ الدِّيَانَةَ هِيَ الَّتِي سَوَتْ بَيْنَهُمْ فِي ذَلِكَ ، كَمَا أَنَّ كُلَّ حِجَّامٍ فِي الْأَرْضِ مِنْ أُمَّةٍ جَنَسٍ كَانَ ، وَمِنْ أَهْلِ أُمَّةٍ بِلَدٍ كَانَ ، فَهُوَ يَحِبُّ النَّبِيذَ . وَكَمَا أَنَّ

(١) في جميع الأصول : « ويمخر » ، صوابه في مع والرسائل .

(٢) مع والرسائل : « لم يدرك » .

(٣) مع والرسائل : « في الديانة » .

(٤) ب : « والخزري » ط : « والخزري » ، وأثبت ما في م ومع والرسائل .

(٥) نسبة إلى نجدة بن عامر ، أو ابن عاصم ، الحنفي . ويقال لهم « النجدات » أيضاً . وكان نجدة من خرج مع ابن الزبير ثم فارقه هو ونافع الأزرق من الخوارج ، فصار نافع إلى البصرة ونجدة إلى العمارة ، وذلك في سنة ٦٤ . الملل والنحل ١ : ١٦٥ والطبري في حوادث ٦٤ . ثم صار إلى الطائف ثم إلى البحرين ، ووجه إليه مصعب بن الزبير بجيلاً بعد خيل فهزمهم ، وظل خمس سنوات هو وعمله بالبحرين والعمارة وعمان وهجر والمرض ، ثم نقم عليه الخوارج فخلعوه بعد أن كان يسمى أمير المؤمنين ، وأقاموا أباً فديك مكاته سنة ٧٣ وقتل نجدة في تلك السنة . الطبري والفرق بين الفرق ٦٧ والمواقف ٦٢٩ .

(٦) الصفورية ، بضم الصاد : طائفة من الخوارج ، وهم أصحاب زياد بن الأصفر ، ويقال لهم الزبادية أيضاً . وقولهم كقول الأزارقة في أن أصحاب الذنوب مشركون ، غير أن الصفورية لا يرون قتل أطفال مخالفهم ونسائهم ، وهم يرون ذلك . انظر آرامم في الملل ١ : ١٨٣ والفرق ٧٠ والسماقي ٣٥٤ والمواقف ٦٤٠ ومفاتيح العلوم ١٦ والكامل ٦٠٤ . ط : « والصفوي » تحريف .

(١٤ - رسائل الجاحظ)

أصحاب الخلقان^(١) ، والسَّامِكِينَ ، والنَّحَّاسِينَ والْحَاكِمَةَ ، في كُلِّ بَلَدٍ ومن كُلِّ جَنَسٍ ، شِرَارَ خَلْقِ اللَّهِ في المِبَايَعَةِ والمَعَامَلَةِ . فَعَلَّمْنَا بِذَلِكَ أَنَّ ذَلكَ خَلْقَةٌ في هَذِهِ الصَّنَاعَاتِ ، وَبِنِيَّةٍ في هَذِهِ التَّجَارَاتِ ، حَتَّى صَارُوا مِن بَيْنِ جَمِيعِ النَّاسِ كَذَلِكَ .

قال : ورَأَيْناهُ في بِلادِهِ لَيْسَ يُقَاتِلُ عَلى دِينِ ، وَلَا عَلى تَأْوِيلِ ، وَلَا عَلى مُلْكٍ وَلَا عَلى خِرَاجٍ ، وَلَا عَلى عَصَبِيَّةٍ ، وَلَا عَلى غَيْرَةٍ دُونَ الحُرْمَةِ ، وَلَا عَلى حِمِيَّةٍ وَلَا عَلى عِدَاوَةٍ ، وَلَا عَلى وَطَنِ وَلَا عَلى مَنعِ دارٍ^(٢) وَلَا مالٍ ، وَإِنَّمَا يُقَاتِلُ عَلى السَّلْبِ والخِيارِ في يَدِهِ . وَلَيْسَ يَخافُ الوَعِيدَ إِنْ هَرَبَ ، وَلَا يَرجو الوَعْدَ إِنْ أبى عَدْرًا . وَكَذَلِكَ هُمُ في بِلادِهِمُ وَغَارَاتِهِمُ^(٣) وَحُرُوبِهِمُ .

وهو الطالب غير المطلوب ، ومن كان كذلك فإنَّما يأخذ العفو من قوَّته ، ولا يحتاج إلى مجهوده ، ثم مع ذلك لا يقوم له شيء ، ولا يطعم فيه أحد ، فما ظنك بمن هذه صِفَتُهُ ، أَنْ لو^(٤) اضطرَّه إِجْرَاجٌ أو غَيْرَةٌ^(٥) ، أو غَضَبٌ أو تَدَلُّينٌ ، أو عَرَضٌ له بَعْضُ ما يَصحبُ المُقاتِلَ المَحايِ من العِللِ والأَسبابِ .

قال : وَقنَاةُ الخارِجِيِّ طَوِيلَةٌ صَمَاءٌ ، وَقنَاةُ التَّرَكِيِّ وَطَرْدٌ أَجَوفٌ^(٦) . وَالقَنَاةُ الجُوفُ القِصارُ أَشَدُّ طَعْنَةً ، وَأَخَفٌ مَحْمَلًا . والعِجْمُ تَجعَلُ القَنَاةُ الطَّوَالَ لِلرَّجَالَةِ ، وَهِيَ قَنَاةُ الأَبْناءِ^(٧) عَلى أَبوابِ الخِناذِقِ والمِضايِقِ .

(١) يراد بهم من يبيعون الخلقان من الثياب ، جمع خلق ، بالتحريك ، وهو البالي . وانظر الحيوان ٢ : ١٠٥ .

(٢) ب فقط : « ومنع دار » .

(٣) في الأصول : « وعاداتهم » ، وأثبت ما في مع الرسائل .

(٤) م ، ب : « أولو » ط : « ولو » ، صوابه في مع الرسائل .

(٥) م ، ب : « إخراج أو غيره » ط : « إخراج أو غيره » ، صوابه من مع الرسائل .

(٦) المطرود ، بكسر الميم : رجع قصير .

(٧) ب : « قنات » ، وإنما يجمع القنات على قنات وقنات ، الأخيرة على وزن فعول .

وفي مع الرسائل : « قنات الأبناء » . والأبناء سبق القول عليهم في ص ١٦٧ .

والأبناء في هذا الباب لا يجرون مع الأتراك والخراسانية ، لأنَّ الغالب على الأبناء المطاعنة على أبواب الخنادق ، وفي المضائق ، وهؤلاء أصحاب الخيل والفرسان ، وعلى أصحاب الخيل والفرسان يدور أمر الفروسية^(١) . لهم الفر والكر . والفراس هو الذي يطوى الجيش طيَّ السَّجَلِ^(٢) ، ويفرقهم فرق الشعر^(٣) . وليس يكون الكين ولا الطليعة ولا الساقة إلا الكبار منهم^(٤) . وهم أصحاب الأيام المذكورة ، والحروب الكبار ، والفتوح العظام .

٢٤ - فصل منها

والشُّحُّ على الوطن ، والحنين إليه ، والصَّبايةُ به ، مذكورٌ في القرآن^(٥) ، مخطوط في الصحف بين جميع الناس ، غير أنَّ التركيَّ للعلل التي ذكرناها أشدُّ حنيناً ، وأكثر نزوعاً^(٦) .

وياب آخر مما كان يدعوهم إلى الرجوع قبل ثنى العزم^(٧) والعادة المنقوضة : وذلك أنَّ التُّركَ قومٌ يشدُّ عليهم الحَصْرُ^(٨) والجُثومُ^(٩) ،

- (١) ب ، م : « الفروس » ، صوابه في ط . وفي مع والرسائل : « تدور الجيوش »
 (٢) السجل : الصحيفة ، والكتاب الكبير ، والسجل : الكاتب أيضاً أو ملك يطوى كتب بني آدم إذا رفعت إليه ، وبها فسرت الآية الكريمة : « يوم نظوى السباه كطى السجل للكتب » في الآية ١٠٤ من الأنبياء . ب : « على السجل » ، صوابه في م ، ط ومع والرسائل .
 (٣) مع والرسائل : « ويفرقهم تفريق الشعر » .
 (٤) في الرسائل فقط : « وليس يكون الكين إلا منهم ولا الطليعة ولا الساقة » .
 (٥) في آيات كثيرة فيها ذكر « الديار » . ينظر لها المعجم المفهرس .
 (٦) النزوع والنزاع أيضاً : الحنين والاشتياق إلى الأهل والوطن . ب : « نزعا » تحريف . وفي مع : « نزاعا » . وأصل النزاع المغالبة ، يقولون : نازعتني نفسي إلى هواها أي غالبتني . كما يقولون نزح إلى أهله ووطنه نزوعاً .
 (٧) ب ، م : « عزم الثاني » ، وأثبت ما في ط . وفي مع والرسائل : « قبل العزم الثابت » .
 (٨) في جميع الأصول وكذا في مع : « الحضر » ، وأثبت ما في الرسائل .
 (٩) جثم جثوماً : لزم مكانه فلم يرحه . وهذه الكلمة ساقطة من ط . وفي ب : « الخنوم »
 وفي م : « الخنوم » ، صوابها من مع والرسائل .

وطول اللَّبَثِ والمُكْتِ ، وقَلَّةُ التصرُّفِ والتحرُّكِ^(١) . وأصلُ بنيتهم
إنَّما وضع على الحركة ، وليس للسُّكون فيهم نصيب ، وفي قُوى أرواحهم
فَضْلٌ على قُوى أبدانهم ؛ لأنَّهم أصحابُ توقُّدٍ وحرارة ، واشتعالٍ وفطنة^(٢) ،
كثيرةٌ خواطرم ، سريعٌ لحظهم . وكانوا يرون الكفاية مَعجزةً ، وطولُ
المُقَامِ بِلدِّه^(٣) ، والرَّاحةُ عَقلةً^(٤) والقناعةُ من قِصرِ الهمةُ ، وأنَّ تركَ
الغزو يورث الذَّلَّةَ .

وقد قالت العرب في مثل ذلك : قال عبد الله بن وهب الرَّاسِي^(٥) :
« حُبُّ الهُوَيْتِي يُكسِبُ النَّصَبَ » .

والعرب تقول : « من غلا دماغه في الصَّيفِ غَلَّتْ قِدْرُهُ في الشِّتَاءِ » .

وقال أكم بن صَيْقٍ : « ما أَحَبُّ أنِّي مكئُّ كلَّ أمرِ الدنيا » ، قيل :
ولم ؟ قال : « أخاف عادةَ المعجِزِ^(٦) » .

فهذه كانت عِللُ التُّركِ في حُبِّ الرُّجوعِ ، والحنينِ إلى الوطنِ .

وَمِنَ أعظَمِ ما كان يدعُوهم إلى الشُّرودِ ، ويبعثهم على الرجوعِ ،
ويُكرِّهه عندهم المُقَامِ ، ما كانوا فيه من جهلِ قُودِهِم بِأقْدارِهِم ، وقَلَّةُ
معرفةِهم بِأخطارِهِم ، وإغفالِهِم موضعَ الرَّدِّ عليهم^(٧) ، والانتفاعِ

(١) ب ، م : « والتحرُّق » ط : « والتحرُّف » ، صوابهما في مع الرسائل .

(٢) هذا ما في ط . وفي ب ، م ومع الرسائل : « واشتغال » بالعين المعجمة .

(٣) البلدة بضم الباء وفتحها : ضد الذكاء والنفاذ والمضاء في الأمور ، ومثلها البلادة .
ط ، ومع الرسائل : « بلادة » .

(٤) عقلة ، بضم العين المهملة : أي تعقل صاحبها وتحمسه عن الانطلاق . ط فقط : « غفلة » .

(٥) الراسي : نسبة إلى راسب بن ميدعان بن مالك بن نصر بن الأزدي . وكان عبد الله هذا قد

خرج على علي في أربعة آلاف ، وبابيه الخوارج لعشر خلون من شوال سنة ٣٧ وقتل يوم
النهروان سنة ٣٨ كما في الطبري . وانظر التنبيه والإشراف ٢٥٦ وجهرة ابن حزم ٣٨٢ .

(٦) م : « عادة المعجِز » . تحريف . وفي الرسائل : « أخاف المعجِز » .

(٧) الرد : النفع ، من قولهم : هذا أُرِدَ من ذلك ، أي أنفع .

بهم ، ولأنهم حين جعلوهم أسوةً أجنادهم^(١) لم يقتنعوا أن يكونوا في الحاشية والحشوة ، وفي غمارِ العامة^(٢) ، ومن عُرض العساكر ، وأُنفوا [من ذلك]^(٣) لأنفسهم ، وذكروا ما يجب لهم ، ورأوا أن الصَّيم لا يليق بهم ، وأنَّ الخمول لا يجوز عليهم ، وأنهم في المُقام على مَنْ لم يعرف حقَّهم أَلُوْمٌ مِّنْ مَّعْهَمِ حَقِّهِمْ . فلما صادفوا مَلِكاً حَكِيماً ، وبأقدار النَّاسِ عليماً ، لا يميل إلى سوءِ عادة ، ولا يَجَنِّحُ إلى هوى ، ولا يتعصَّب لبلدٍ على بلد ، يدور مع التَّدبير حَيْثُما دار^(٤) ، ويقيم مع الحَزْمِ حَيْثُما أقام - أقاموا إقامة من مُنح الحظُّ^(٥) ، ودان بالحقِّ^(٦) ، ونَبَذَ العادة ، وآثر الحقيقة ، ورَحَلَ نفسه لِقَطِيعَةِ وطنه^(٧) ، وآثر الإمامة على مُلك الجَبَرِيَّةِ ، واختار الصَّواب على الإلْفِ .

ثم اعلمُ بعد ذلك كلُّه أنَّ كلَّ أُمَّةٍ وقرنٍ وجيلٍ وبنى أبي وجدَّتْهم قد بَرَعوا في الصناعات ، وقَضَلوا النَّاسَ في البيان ، أو فاقوهم في الآداب^(٨) أو في تأسيس الملك ، أو في البَصْرِ بالحرب^(٩) . فإنَّك لا تجدهم في العاية وفي أقصى النهاية ، إلَّا أنَّ يكون الله تعالى قد سخَّرهم لذلك المعنى بالأسباب ، وقَصَّرهم عليه بالعلل التي تُقَابِلُ تلك

(١) وكذا في مع . وفي الرسائل : « حتى جعلوهم » ، بإسقاط « ولأنهم » .

(٢) الغار : جمع غرّة ، بالفتح ، وهي الزحمة من الناس والماء ، وفي حديث أوبس : « أكون في غمار الناس » ، أي جمعهم المتكاثف . وفي الأصول : « غمارة العامة » صوابه في مع والرسائل .

(٣) التكلة من مع والرسائل .

(٤) ط : « مع التدبير مادار » .

(٥) هذا ما في ط . وفي م : « فهم الخط » ، وفي ب : « فهم الخط » .

(٦) في جميع الأصول : « ودان بالحق » ، وأثبت ما في مع والرسائل .

(٧) رحل نفسه لكذا ، إذا صبر على آذاه . وفي جميع الأصول : « ووصل نفسه بقطيعه وطنه » ، وأثبت ما في مع والرسائل .

(٨) ب ، م : « وأفاقوهم في الآداب » ، وفي ط : « وفاقوهم » . وأثبت ما في مع والرسائل .

(٩) في جميع النسخ : « أو في النصر بالحرب » ، صوابه في مع والرسائل .

الأمر، وتصلح لتلك المعاني، لأن من كان متقسّم الهوى، مُشترَك الرأى، متشعب النفس^(١)، غير موقر على ذلك الشيء، ولا مهيباً له، لم يحذق من تلك الأشياء شيئاً بأسره، ولم يبلغ فيه غايته، كأهل الصين في الصناعات، واليونانيين في الحكيم والآداب، والعرب فيما ذكروه في موضعه، والساسان^(٢) في الملك، والأترك في الحروب.

ألا ترى أن اليونانيين الذين نظروا في العليل لم يكونوا تجاراً ولا صناعاً بأكتفهم، ولا أصحاب زرع وفلاحة، وبناء وغرس، ولا أصحاب جمع ومنع وكد^(٣). وكانت الملوك تفرغهم^(٤)، وتجرى عليهم كفايتهم، فنظروا حين نظروا بأنفسهم مجتمعة، وقوة وافرة، وأذهان فارغة، حتى استخرجوا الآلات والأدوات، والملاهي التي تكون جماماً للنفس، وراحة بعد الكد، وسروراً يداوى قرح المهوم^(٥)، فصنعوا من المرافق، وصاغوا من المنافع، كالقرسطونات^(٦)، والقبانات،

(١) الرسائل فقط: «ومتشعب النفس».

(٢) مع والرسائل: «وآل ساسان».

(٣) في مع والرسائل: «ومنع، وحرص وكد».

(٤) ب، ط: «تفرغهم»، صوابه في م والرسائل.

(٥) القرع، بالفتح والضم: الجرح. ب: «قرح المهوم» م: «قرح المهوم، ط:

«قرح المهوم»، وأثبت ما في مع. وفي الرسائل: «قرح المهوم».

(٦) في التزعة المبيجة لداود الأنطاكي بهامش تذكرة داود ١ : ١٥ : «علم مركز الأفعال مثل القرسطيون، يعني القبان». كما جاء في كتاب التريخ والتدوير ص ١٣٨ ساسي: «وخبرني عن القرسطون كيف أخرج أحد رأسه ثلاثمائة رطل زاد ذلك أم نقص، ووزن جميعه ثلاثون رطلاً زاد ذلك أو نقص». وانظر الحيوان ١ : ٨١. ويبدو أنه ضرب من الميزان القبان.

والأَسْطُرلابات^(١) ، وآلة الساعات ، وكالكونيا^(٢) ، والكسيران^(٣) والبريسكار^(٤) ، وكأصناف المزامير والمعازف ، والطب^(٥) والحساب ، والهندسة ، واللحون ، وآلات الحرب ، وكالمجانيق ، والقرادات^(٦) ، والرتيلات^(٧) ، والدبّابات ، وآلة النّقّاطين ، وغير ذلك مما يطول ذكره^(٨) .

وكانوا أصحابَ حكمة ، ولم يكونوا فَعَلَةً . يصورون الآلة ، ويخرطون الأداة^(٩) ، ويصوغون المثل ولا يحسنون العمل بها^(١٠) ، ويشيرون إليها ولا يمسونها ، يُرغَبون في التعليم^(١١) ، ويرغَبون عن العمل .

فأما سكّان الصّين فإنّهم أصحاب السبّك والصّياعة ، والإفراغ والإذابة ، والأصباغ العجيبة ، وأصحاب الخرط والمنجر^(١٢) والتصاوير ،

(١) الأسطرلاب أو الأسطرلاب : مقياس النجوم ، هو باليونانية : أسطرلابون . وأسطر هو النجم ، ولابون هو المرآة . وقد بهذى بعض المؤلفين بالاشتقاق في هذا المعنى بما لمعنى له ، وهو أنهم يزعمون أن لاب اسم رجل وأسطر جمع سطر . وهذا اسم يوناني ، اشتقاقه من لسان العرب جهل وحنف . انظر مفاتيح العلوم لخوارزمي ص ١٣٤ والحيوان ١ : ٢/٨١ ؛ ٢٤٢ . وقد وقع صاحب القاموس في هذا الوهم الذي تبه عليه الخوارزمي في مادة (لوب) .

(٢) ب ، ط : « وكالكونيا » وفي م : « والكونيا » ، وأثبت مافي مع الرسائل . وجاء في مفاتيح العلوم : « الكونيا » بالواو كما أثبت وقال : « للنجارين يقدرون بها الزاوية القائمة » . (٣) كذا في جميع الأصول . وفي مع : « والكشتوان » ، وفي الرسائل : « وكالشيوان » . (٤) في جميع النسخ « والبوكار » ، صوابه في مع والرسائل . والبركار : آلة هندسية مركبة من سائتين متصلتين ، تثبت إحداها وتدور حولها الأخرى ، ترسم بها الدوائر والأقواس ، وهي في العامية المصرية « البرجل » ، وفي الفارسية : « بركار » .

(٥) مع والرسائل : « وكالطب » .

(٦) العرادة : منجنيق صغير . والمنجنيق : آلة ترمى بها الحجارة ونحوها في القتال . وانظر حواشي البيان ٣ : ١٧ . ط : « والقرادات » ، تحريف .

(٧) انظر ما سبق في حواشي ١ : ٦٩ .

(٨) ب فقط : « يطيل ذكره » ، تحريف .

(٩) م فقط : « الاداة » ، تحريف .

(١٠) في جميع الأصول : « به » ، صوابه في الرسائل . وفي مع : « ويصوغون المثل ولا يحسنون العمل به » .

(١١) مع والرسائل : « في العلم » .

(١٢) مع والرسائل : « والنحت » .

والتَّسْحِ وَالخَطِّ^(١) ، وَرَفِقَ الكَفِّ فِي كَلِّ شَيْءٍ يَتَوَلَّوْهُ وَيُعَانُوهُ ،
وَإِنْ اِخْتَلَفَ جَوْهَرُهُ ، وَتَبَايَنَتِ صِنْعَتُهُ ، وَتَفَاوَتَ ثَمَّتُهُ^(٢) .

فاليونانيون يعرفون العِلال ولا يباشرون العَمَل ، وسكَّان الصَّين
يباشرون العمل ولا يعرفون العِلال ؛ لأنَّ أولئك حكماء ، وهؤلاء فَعَلَة .

وكذلك العرب لم يكونوا تجَّاراً ولا صُنَّاعاً ، ولا أطباءً ولا حُساباً
ولا أصحابَ فِلاحة : فيكونوا مَهْمَةً^(٣) ، ولا أصحابَ زرعٍ ، لخوفهم
صَغَارَ الجِزْيَةِ^(٤) . ولم يكونوا أصحابَ جمعٍ وَكَسَبٍ ، ولا أصحابَ
احتكارٍ لما في أيديهم ، وطلبٍ لما عند غيرهم . ولا طلبوا^(٥) المعاشَ من
السنة الموازين ورغوس المكاييل ، ولا عَرَفُوا الدَّوَانِيْقَ والقراريط ، ولم
يفتقروا الفَقْرَ المُدْفِعَ الذي يَشغَلُ عن المعرفة ، ولم يستغنوا العَنَاءَ الذي
يورث البِلْدَةَ^(٦) ، والثَّرْوَةَ التي تُحدثُ الغِرَّةَ^(٧) ، ولم يحتملوا ذلًّا قَطُّ
فبعيت قلوبهم ، ويصغر^(٨) عندهم أنفسهم . وكانوا سُكَّانَ فِياضٍ ،
وتربية الرِّاءِ ، لا يعرفون العَمَقَ ولا اللَّثِقَ^(٩) ، ولا البَحَّارَ ولا العِلَظَ^(١٠) ،

(١) في الرسائل : « والتسح والخط » .

(٢) ثمته ، ساقطة من م .

(٣) في حديث عائشة : « كان الناس مهنة أنفسهم » ، جمع ما هن ، ككاتب وكتبة ، ويقال
مهان أيضاً ككاتب وكتاب .

(٤) الصغار ، بالفتح : الذل والقيم .

(٥) ب : « ولا طلب » .

(٦) العناء ، بالفتح : ضد الفقر ، وهو العنى بالكسر والقصر . ب : « العناء » م :
« العناء » ، وجهها ما أثبت من معج . وفي ط ، والرسائل : « العنى » . والبيادة : بضم الباء
وفتنها : ضد النفاذ والذكاء والمضاء في الأمور . وفي ط : « البيادة » وفي معج : « التبليد » .

(٧) ب ، م : « العزة » صوابه في ط ومعج والرسائل . والفترة : الغفلة .

(٨) ب : « أو تصغير » صوابه في م ، ط . وفي معج : « أو يصغر » ، وفي الرسائل :

« ويصغر » .

(٩) العمق ، بالتحريك : الندى والرطوبة والوخامة . والثلث : الندى مع سكون الريح .

(١٠) في جميع النسخ : « العلظ » بالطاء المهملة ، صوابه بالطاء المعجمة ، وهو ضد الرقة
في الخلق والطبع والنبش ، والمراد غلظ الهواء .

ولا العَفَنَ ، ولا التَّخَمَ (١) . أذهانٌ حديدية (٢) ، ونفوسٌ منكورة . فحين حملوا حدهم (٣) ، ووجهوا قواهم إلى قول الشعر ، وبلاغة المنطق ، وتشقيق اللغة (٤) ، وتصاريف الكلام ، وقيامَة البَشَر بعد قيامَة الأثر ، وحفظ النَّسَب ، والاهتداء بالنجوم ، والاستدلال بالآثار ، وتعرُّف الأنواء (٥) ، والبصُر بالخَيْل والسَّلاح وآلة الحرب ، والحفظ لكلِّ مسموع ، والاعتبار بكلِّ محسوس ، وإحكام شأن المناقب والمناقب ، بلغوا في ذلك الغاية ، وحازوا كلَّ أمنيَّة . وبيعض هذه العلل صارت نفوسهم أكبر ، وهممهم أرفع ، وهم من جميع الأمم أفخر (٦) ، ولأيامهم أذكُر .

وكذلك الترك ، أصحاب عَمَلٍ ، وسكَّان فيافي ، وأرباب مواشٍ . وهم (٧) أعراب العَجَم ، كما أنَّ هُدَيْلًا أكرأد العرب ، لم تشغلهم الصَّناعاتُ ولا التجارات ، ولا الطبُّ والفلاحة والهندسة ، ولا غِرَاسُ ولا بُنيانٌ ، ولا شقُّ أنهار ، ولا جبايئة غَلَّات ، ولم يكن [همهم غير الغارة والغزو والصَّيد ، وركوب الخَيْل ، ومقارعة الأبطال ، وطلب الغنائم ، وتدويخ البلاد . وكانت (٨)] هممهم إلى ذلك مصروفة ، وكانت هذه المعاني والأسباب مُسَخَّرَةً ، ومقصورةً عليها وموصولةً بها ، أحكموا ذلك الأمر بأسره ، وأتوا على آخره ، وصار ذلك هو صناعتهم وتجارَتهم ، ولذَّتْهم في الحربِ وفخرهم ، وحديثهم وسمرهم .

فلما كانوا كذلك صاروا في الحرب كاليونانيين في الحكمة ،

(١) التخَم : الوشم ، وهو الوباه .

(٢) مع الرسائل : « حداد » .

(٣) ب فقط : « أهدم » ، تحريف .

(٤) ط فقط : « وتفتيق اللغة » ، تحريف .

(٥) ط : « الأنوار » ، تحريف .

(٦) وكذا في مع ، لكن في الرسائل : « وهمهم أرفع من جميع الأمم وأفخر » .

(٧) ب : « والترك » . (٨) التكملة من م ، ط ، مع والرسائل .

وأهل^(١) الصَّينِ في الصناعات ، والأعرابِ فيما عددنا ونزلنا^(٢) ،
وكالسَّاسانِ^(٣) في الملك والسياسة .

ومِمَّا يُسْتَدَلُّ به على أَنَّهُم قد استَقَصَّوا هذا البابَ واستفرغوه ،
وبلغوا أَقصى غايته وتعرَّفوه ، أَنَّ السَّيْفَ إلى أَن يتقلَّده متقلِّدٌ ، أو
يُضْرَب به ضارب^(٤) ، قد مرَّ على أَيِّدٍ كثيرة ، وعلى طبقاتٍ من
الصُّنَّاعِ ، كلُّ واحدٍ منهم لا يعمل عملَ صاحبه ولا يُحسِّنه ، ولا يدَّعيه
ولا يتكلَّمه ؛ لِأَنَّ الذي يُدْبِغ حديدَ السَّيْفِ ويُصَيِّغه ويُهْدِيه ،
غَيْرُ الذي يمدُّه وَيَمْطِطُه^(٥) ، والذي يمدُّه ويمططه^(٦) غيرُ الذي يَطْبَعُه
ويسويُّ منته ، ويقمِّمُ خَشِيبَتَه^(٧) ، والذي يَطْبَعُه ويسويُّ منته غيرُ^(٨)
الذي يَسْقِيه ويُرْهفه ، والذي يسقيه ويُرْهفه ، غيرُ الذي يركَّبُ قبيعتَه ،
ويَسْتَوِثِقُ من سيبلانه^(٩) ، والذي يعملُ مساميرَ السَّيْلانِ ، وشاربِي
القبِيعةِ^(١٠) ونَعْلَ السَّيْفِ^(١١) غيرُ الذي ينحتُ خشبَ غمده . والذي
ينحتُ خشبَ غمده غيرُ الذي يدبِّغُ جلده ، والذي يدبِّغُ جلده غيرُ
الذي يحلِّيه ، والذي يحلِّيه ويركَّبُ نصله غيرُ الذي يَحْرَزُ حماثله .

- (١) ب فقط : « وأصل » ، تحريف .
(٢) ب ، م : « ونزلنا » ط : « ونوعنا » ، صوابها في مع والرسائل .
(٣) مع والرسائل : « وكال ساسان » .
(٤) في جميع النسخ : « ويضربه ضارب » ، صوابه في مع والرسائل .
(٥) المطل : المده واليسط . ط : « ويمططه » .
(٦) ط : « ويمططه » .
(٧) يقال سيف مشقوق الخشبية : عرض حين طبع . ب فقط : « غشايته » .
(٨) ب ، م : « سوي » .
(٩) السيلان ، بالكسر : سنج قائم السيف ، أي أصل مقبضه .
(١٠) القبيعة : ما على مقبض السيف من فضة أو حديد . والشاربان : أنفان طويلان في
أصل مقبض السيف . وفي ب : « وشاذى القبيعة » وفي م ، ط : « وشاذى القبيعة » .
(١١) نعل السيف : الحديدة التي تكون في أسفل جفته من حديدة أو فضة ، وفي الحديث :
« كان نعل سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم من فضة » . مع والرسائل : « ونصل السيف » .

وكذلك السُّرْحُ ، وحالات السَّهْمِ والجَعْبَةِ والرَّمْحِ ، وجميع السلاح مما هو جارح^(١) أو جُنَّة .

والتركيُّ يعمل هذا كله بنفسه ، من ابتدائه إلى غايته ، ولا يستعينُ برقيقٍ ، ولا يَفْرَعُ إلى رأى صديق ، ولا يختلف إلى صانع ، ولا يَشْغَلُ قلبه بمطاله وتسويفه^(٢) ، وأكاذيب مواعيده، وبقرم كرائه^(٣) . وليس في الأرض كلُّ تركيٍّ كما وصفنا ، كما أنه ليس كلُّ يونانيٍّ حكيماً ، ولا كلُّ صينيٍّ حاذقاً ، ولا كلُّ أعرابيٍّ شاعراً فائقاً^(٤) ، ولكن هذه الأمور في هؤلاء أعمُّ وأتمُّ ، وفيهم أظهر وأكثر .

قد قلنا في السَّبب الذي تكاملت به النجدة والفروسية في الترك دون جميع الأمم ، وفي العِلل^(٥) التي من أجلها نظموا جميع معاني الحرب ، وهي معاني تشتمل على مذاهب غريبة ، وخصالٍ عجيبة ، فمنها ما يَقْضَى^(٦) لأهله بالكرم ، ويبعد الهمة ، وطلب الغاية . ومنها ما يدلُّ على الأدب الشديد^(٧) ، والرأى الأصيل ، والفيطنة الثابتة ، والبصيرة النافذة .

ألا ترى أنه ليس بدُّ لصاحب الحرب من الحلم والعلم ، والحزم والعزم ، والصبر والكَيان ، ومن الثقافة وقلة الغفلة ، وكثرة التجربة ؟ ولا بدُّ من البصر بالخيال والسلاح^(٨) ، والخبرة بالرجال والبلاد ،

(١) م ، ط : « خارج » ، صوابه ق ب ، ومع الرسائل .

(٢) م ، ط : « يطله وتسويفه » . والمطل والمطال : التسوية وتأجيل موعد الوفاء بالشيء .

(٣) هذا الصواب من مع الرسائل . وق ب : « وبقرم كرائه » ، وق م : « وبقرم كرائه » وق ط : « وبقرم كرائه » .

(٤) مع الرسائل : « قائقاً » . القائف : الذي يتتبع الآثار ويعرفها ، ويعرف شبه الرجل بأغيبه وأبيه . وأثبت ما في سائر النسخ

(٥) كذا في مع الرسائل . وفي جميع النسخ : « في العِلل » بسقوط الواو .

(٦) في الأصول : « يفشى » بالفاء ، وأثبت ما في مع الرسائل .

(٧) كذا في مع الرسائل . وفي ب : « الأرب الشديد » ، وفي م ، ط : « الأدب الشديد » .

(٨) ب : « في الخيل والسلاح » ، وق مع : « من البصر في الخيول والسلاح » .

والعلم بالمكان والزمان والمكاييد، وبما فيه صلاحُ الأمور كلها^(١).
والمَلِكُ يَحْتَاجُ إِلَى أَوَاخِرِ شِدَادٍ، وَأَسْبَابِ مِثَانٍ، وَمِنْ أَمْنَتِهَا
سَبَبًا، وَأَعْمَهَا نَفْعًا، مَا ثَبَتَهُ فِي نَصَابِهِ^(٢)، وَسَكَّنَهُ فِي قَرَارِهِ، وَزَادَهُ
فِي تَمَكُّنِهِ وَبَهَائِهِ، وَقَطَعَ أَسْبَابَ الْمُطْمَعَةِ فِيهِ، وَمَنَعَ أَيْدِيَ الْبُغَاةِ مِنَ
الإِشَارَةِ إِلَيْهِ، فَضَلَّ عَنْ الْبَسْطِ عَلَيْهِ.

قد قلنا في مناقب جميع الأَصْنَافِ بِجُمْلَةٍ مَا انْتَهَى إِلَيْنَا، وَبَلَّغَهُ
عِلْمُنَا، فَإِنْ وَقَعَ بِالْمُؤَافَقَةِ فَبِتَوْفِيقِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَضُنُوعِهِ، عَزَّ ذِكْرُهُ.
وَإِنْ قَصُرَ دُونَ ذَلِكَ فَالَّذِي قَصَرَ بِنَا^(٣) نُقْصَانُ عِلْمِنَا، وَقَلَّةُ حِفْظِنَا،
وَأَسْبَابُهَا^(٤). فَأَمَّا حُسْنُ [النِّيَّةِ]^(٥)، وَالَّذِي^(٦) نَضْمَرُ مِنَ الْحَبَّةِ وَالْإِجْتِهَادِ
فِي الْقُرْبَةِ، فَإِنَّمَا لَا نَرْجِعُ فِي ذَلِكَ إِلَى أَنْفُسِنَا بِلَا تَمَكُّنٍ. وَبَيْنَ التَّقْصِيرِ
مِنْ جِهَةِ الْعَجْزِ وَضَعْفِ الْقُوَّةِ^(٧) فَرَقٌ.

ولو كان هذا الكتاب من كُتُبِ الْمُنَاقِضَاتِ، وَكُتُبِ الْمَسَائِلِ
وَالْجَوَابَاتِ، وَكَانَ كُلُّ صِنْفٍ مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَافِ يَرِيدُ الْإِسْتِقْصَاءَ عَلَى
صَاحِبِهِ، وَيَكُونُ غَايَتُهُ إِظْهَارَ نَفْسِهِ وَإِنْ لَمْ يَصِلْ إِلَى ذَلِكَ إِلَّا بِإِظْهَارِ
نَقْصِ أَخِيهِ وَوَلِيِّهِ، لَكَانَ كِتَابِنَا كَبِيرًا، كَثِيرَ الْوَرَقِ عَظِيمًا. وَلَكِنَّ
الْقَلِيلَ الَّذِي يَجْمَعُ، خَيْرٌ مِنَ الْكَثِيرِ الَّذِي يَفْرُقُ.

وَنَحْنُ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ هَذَا الْمَذْهَبِ، وَنَسْأَلُهُ الْعَوْنَ وَالتَّسْلِيدَ، إِنَّهُ
سَمِيعٌ قَرِيبٌ، فَعَالٌ لَمَّا يَرِيدُ.

(١) في الرسائل: «صلاح هذه الأمور كلها».

(٢) ب: «ما بثته في نصابه» م: «ما بثته» فقط، صوابها في ط، مع والرسائل.

(٣) ب، م: «فا الذي قصر بنا»، صوابه في ط ومع والرسائل.

(٤) مع والرسائل: «وسببها».

(٥) التكملة من مع والرسائل. وفي م: «وأما حسن» فقط. وفي ط: «وربما حسنه».

(٦) ط: «الذي» بطرح الوار.

(٧) مع والرسائل: «وضعف العزم».

من كتابه في
مُجَمَّعِ النُّبُوَّةِ



٢٥ - فصل (١) من صدر كتابه

في حجج النبوة

الحمد لله الذي عرفنا نفسه ، وعلمنا دينه ، وجعلنا من الدعاة إليه ، والمحتجيين له . فنحن نسأله تمام النعمة ، والعون على أداء شكره ، وأن يوفقنا للحق برحمته ، إنه ولي ذلك ، والقادر عليه ، والمرغوب إليه فيه ، وصلى الله على محمد وآله وسلم .

ثم إننا قائلون في الأخبار ، ومخبرون عن الآثار ، ومفرقون بين أسباب الشبهة ، وأسباب الحجّة ، ثم مفرقون بين الحجّة التي تلزم الخاصة دون العامة ، ومخبرون عن الضرب الذي يكون الخاصة فيه حجّة على العامة ، وعن الموضع الذي يكون القليل فيه أحق بالحجة من الكثير ، ولم شاع الخبر وأصله ضعيف؟ ولم خفي وأصله قوي؟ وما الذي يؤمن من فساده وتبديله مع تقادم عصره ، وكثرة الطاعنين فيه (١) ، وعن الحاجة إلى رواية الآثار ، وإلى سماع الأخبار ، وعن أخلاق الناس وآبائهم ، ومذاهب أسلافهم ، وعن سير الملوك قبلهم (٢) ، وما صنعت الأيام بهم ، وعن شرائع أنبيائهم ، وأعلام رسلهم ، وعن أدب حكمائهم ، وأقاويل أئمتهم وفقهائهم ، وعن حالات من غاب عن أبصارهم في دهرهم ، ولم كان الإخبار على الناس (٣) أخف من الكتابان ؟ ولم

(١) ب فقط : « فصل منها » .

(٢) كلمة « فيه » من ط فقط .

(٣) ب : « وعن سر الملوك قبلهم » ، تحريف .

(٤) ب ، م : « عن الناس » .

كان الصَّمْتُ أَثْقَلَ عَلَيْهِمْ من الكلام ؟ وما الضَّرْبُ الذي يَقْدِرُونَ على كنهانه وطَّيْه ، والضَّرْبُ الذي لا يَقْدِرُونَ إِلَّا على إِذَاعته ونَشْرده ؟ ولم اجتمعتم الأُمم على الصَّدق في أمور ، واختلفت في غيرها ؟ ولم حَيِّطَتْ أُموراً ونسيت سواها ؟ ولم كان الصَّدق أكثر من الكذب ؟ ولم كان الصَّمْتُ أَثْقَلَ والقول أَفْضَل ؟

والعجب من ترك الفقهاء تمييز الآثار ، وترك المتكلمين القول في تصحيح الأخبار ، وبالأخبار يعرف النَّاسُ النَّبيَّ من المتنبِّئ^(١) ، والصَّادق من الكاذب ، وبها يعرفون الشريعة من السنَّة ، والفريضة من النافلة ، والحظر من الإباحة ، والاجتماع من الفرقة ، والشَّدوذ من الاستفاضة^(٢) ، والرَّد من المعارضة ، والنَّار من الجنة . وعامة الفسدة من المصلحة^(٣) .

فإذا نزلتُ الأخبارَ منازلها وقسمتها ، ذكرتُ حجج الرسول صلى الله عليه وسلم ، ودلائله وشرائعه وسننه ، ثم جنست الآثار على أقدارها ، ورتبتها في مراتبها ، وقربتُ ذلك واختصرته ، وأوضحتُ عنه وبينته ، حتَّى يستوى في معرفتها مَنْ قلَّ سماعه وساء حفظه ، ومَنْ كثر سماعه وجاد حفظه ، بالوجوه الجلية ، والأدلة الاضطرارية .

ولم أرْدُ في هذا الكتابِ جمعَ حجج الرسول عليه السلام ، وتفصيلها والقول فيها ، لنقضِ مسها^(٤) ، أو لوْهن كان في أصلها من ناقلها

(١) ب : «المتنبِّئ» بالهز .

(٢) م فقط : «الإفاضة» .

(٣) م ، ط : « والمصلحة » .

(٤) ب : « لجنس سبها » ط : « لبيض مسها » م : « لبيض مسها » ، والوجه ما أثبت .

والمخبرين عنها ، أو لأنَّ طغَنَ الملجدين نَهَكها وفرَّقَ جماعتها ، ونَقَضَ قواها . ولكنْ لأُمرٍ سَأَدَّكرها وأَحْتَجَّ .

وكيف تقصُرُ الحُجَّةُ عن بُلُوغِ الغاية ، وتنقُصُ عن التَّامِ^(١) ، والله تعالى المتوكِّلُ بها ، ومُسَخَّرُ أصنافِ البريةِ ومهيِّجُ النفوسِ على إبلاغها^(٢) ، وقد أخبر بذلك عن نفسه في محكم كتابه عزَّ ذكره^(٣) ، حين قال : ﴿ هو الذي أرسلَ رسولَه بِالهدىِ ودينِ الحقِّ لِيُظهِرَه على الذينِ كُلِّه ولو كرهَ المُشركونَ^(٤) ﴾ . وأدنى منازل الإظهارِ إظهارِ الحُجَّةِ على من ضارَّه وخالفَ عليه .

وقال عزَّ ذكره : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ^(٥) ﴾ .

وأخبرَ أنَّه أَمَرَ الأحمرَ والأسودَ ، ولم يكنْ ليأمرَ الأقصى إلَّا كما يأمرُ الأدنى^(٦) ويأمرُ الغائبَ على الحاضر^(٧) ، قال الله تعالى لنبيه عليه السلام : ﴿ وما أرسلناك إلَّا كافَّةً للناسِ بشيراً ونذيراً^(٨) ﴾ .

فأقول : إنَّ كلَّ مُطيقٍ محجوج^(٩) « والحُجَّةُ حُجَّتَانِ : عيانٌ ظاهرٌ ،

(١) ب : « وينقص عن التمام » ، والوجه ما في م ، ط .

(٢) ب ، م : « عن إبلاغها » .

(٣) ب : « عن ذكره » ، تحريف .

(٤) الآيَةُ : ٣٣ من سورة التوبة . وفي الكتاب العزيز أيضاً : « هو الذي أرسل رسولَه

بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً » . الآيَةُ ٢٨ من سورة الفتح .

(٥) الآيَةُ ٨ من سورة الصف .

(٦) كلمة « إلَّا » ليست في جميع النسخ ، كما أن كلمة : « يكن » ساقطة من ب .

(٧) كذا في الأصول ، والوجه : « إلَّا كما يأمر الحاضر » .

(٨) الآيَةُ ٢٨ من سورة سبأ .

(٩) المطيق : القادر ، والمراد المكلف . وفي ط : « منطبق » . والمنطبق : البليغ ، ولاوجه

له هنا .

وخبَّرُ قاهر. فإذا تكلمنا في العيان وما يفرع منه^(١) فلا بدَّ من التعارف في أصله وفرعه منه . ولا بدَّ من التصادق في أصله ، والتعارُف في فرعه . فالعقل هو المستدلُّ ، والعيان والخبر هما علَّة الاستدلال وأصله ، ومُحالُّ كونُ الفرع مع عدم الأصل ، وكونُ الاستدلال^(٢) مع عدم الدليل . والعقل مضمَّن بالدليل ، والدليل مضمَّن بالعقل ، ولا بدَّ لكلِّ واحدٍ منهما من صاحبه^(٣) ، وليس لإبطال أحدهما وجهٌ مع إيجاب الآخر .

والعقل نوعٌ واحد ، والدليل نوعان : أحدهما شاهدٌ عيانٌ يدلُّ على غائب ، والآخر مجيئٌ خبيرٌ يدلُّ على صدق .

ثم رجَّع الكلام إلى الإخبار عن دلائل النبي صلى الله عليه وسلم وأعلامه ، والاحتجاج لشواهد وبرهانه ، فأقول :

إنَّ السلف الذين جمعوا القرآن^(٤) في المصاحف بعد أن كان متفرقاً في الصدور ، والذين جمعوا النَّاسَ على قراءة زيد ، بعد أن كان غيرها^(٥) مطلقاً غيرَ محظورٍ ، والذين حصَّنوه ومنعوه الزيادة والنقصان لو كانوا جمعوا علامات النبي صلى الله عليه وسلم ، وبرهانه ، ودلائله وآياته وصنُوفَ بدائعه ، وأنواعَ عجائبه في مقامه وطقمه^(٦) ، وعند دعائه واحتجاجه في الجمع العظيم ، وبحضرة العدد الكثير الذي

(١) ب : « وما يفرع » ، تحريف .

(٢) ب ، م : « ويكون » ، صوابه في ط .

(٣) ط فقط : « من صاحب » .

(٤) ب فقط : « جعلوا القرآن » .

(٥) أي غير قراءة زيد .

(٦) الطعن ، بالفتح والتحريك : السير والارتحال . ب فقط : « وطقمه » بالطاء المهملة ،

تحريف .

لا يستطيع الشكَّ في خبرهم إلا الغيُّ الجاهل ، والعدوُّ المائل ، لما استطاعَ اليومَ أن يدفعَ كَوْنَهَا وصحَّةَ مَجِيئِهَا^(١) ، لا زنديقٌ جاحدٌ ، ولا دُهرىٌّ معانِدٌ ، ولا متطرِّفٌ ماجنٌ ، ولا ضعيفٌ مخدوعٌ ، ولا حدِّثٌ مغرورٌ ؛ ولكان مشهوراً في عوامنا كشهرة في خواصنا ، وكان استبصارُ جميعِ أعياننا في حقِّهم كاستبصارهم في باطلِ نصاراهم ومجوسهم ، ولما وجدَ الملحدُ موضعَ طمعٍ في غنيِّ يستمليه^(٢) ، وفي حدِّثٍ يموه له^(٣) .

ولولا كثرةُ ضَعْفائنا مع كثرةِ الدُّخلاءِ فينا ، الذين نَطَقُوا بأستننا ، واستعانُوا بعقولنا على أغبيائنا وأغمارنا ، لما تكلفنا كَشْفَ الظَّاهرِ ، وإظهارَ البارزِ ، والاحتجاجَ الواضحَ .

إِلَّا أَنَّ الَّذِي دَعَا سَلَفَنَا إِلَى ذَلِكَ ، الْإِتِّكَالُ عَلَى ظُهورِهَا واستفناضةَ أمرها .

وإذ كان^(٤) ذلك كذلك فلم يُؤتَ من أُتِيَ من جُهاَلنا وأحدائنا ، وسفهاتنا وثُلَعائنا^(٥) إِلَّا من قِبَلِ ضعفِ العنايةِ ، وقَلَّةِ المبالاةِ ، ومن قِبَلِ الحدائنةِ والفرارةِ ، ومن قِبَلِ أَنَّهُمْ حملوا على عقولهم من دقيقِ الكلامِ قِبَلِ العلمِ بجليله ما لم تبلغه قُوَاهُمْ ، وتَنَسَّعَ له صدورهم ، وتحملهُ أقدارُهُمْ ، فذهبوا عن الحقِّ^(٦) يميناً وشمالاً ، لأنَّ مَنْ لم يَلْزَمْ الجادَّةَ تَحْضِطاً ، وَمَنْ تناولَ الفرعَ قبلَ إحكامِ الأَصْلِ سَقَطَ ، ومن خَرَقَ بنفسه

(١) ب : « وصحة مجيها » ، صوابه في م ، ط .

(٢) في جميع الأصول : « يستمليه » . واستلاده الكتاب : سأله أن يمليه عليه . ولا وجه

له هنا .

(٣) م ، ط : « يموه له » .

(٤) ب ، م : « وإن كان » ، وأثبت ما في ط .

(٥) الخليج : المستهتر بالشرب واللهو ، وأصله الشاطر الخبيث الذي خلته عشرته وتبرموا

منه . ط : « وخلفائنا » ، تحريف .

(٦) ط فقط : « عن الحق » ، بحرف ،

وكلّفها فوق طاقتها^(١) ، ولم ينلْ ما لا يقدر عليه تفلّت منه ما كان يقدر عليه^(٢) .

فإذا كانوا كذلك فإنّما أتوا من قبيل أنفسهم ، ولم يؤتوا من سلفهم ، أو لأنّ الله تبارك وتعالى صرف أسلافنا بنسيانٍ أو غيره ليمتنح بذلك غيرهم في آخر الزمان ، وليعرّضهم لطاعته بالذّب عن دينه ، والاحتجاج لنبيه صلى الله عليه وسلم ، وليجرى هذا الخير على أيديهم ، كما أجرى أكثر منه على أيدي أسلافهم ، لئلا يُبخس أحد خلقته^(٣) من العلماء والفقهاء ، ولأنّ يجعل فضله مقسماً بين جميع الأولياء ، وإن كان الأول أحقّ بالتقديم ، والآخر أحقّ بالتأخير ، للذي^(٤) قدّموا من الاحتمال ، وأعطوا من المجهود ، ولأنّهم أصل هذا الأمر ونحن فرعه ، والأصل أحقّ بالقوة من الفرع . وهم السابقون ونحن التابعون ، وهم الذين وطئوا لنا ، وكلّفونا ما لم نكن لنكلّفه أنفسنا ، فمجرّعوا دُوننا المرار^(٥) ، ومنحونا رُوح الكفاية . ولأنّ الله تعالى اختارهم لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم ، ولأنّ القرآن نطق بفضيلتهم ، والله تعالى أعلمُ بمن بعدهم ، والذي جمّع أسلافنا^(٦) الذين جمعوا النَّاس على قراءة زيد ، دون أبي بن كعب وعبد الله بن مسعود ، والذين رأوا من قول عبد الله في المعوذتين^(٧) ، وقول أبي في سورتي الحفد والخلع^(٨) .

(١) ب ، م : « طاقتها » .

(٢) عليه ، ساقطة من ب .

(٣) ب ، م : « لتلايخس من أحد خلقته » .

(٤) ب ، م : « للذين » ، تحريف .

(٥) المرار ، بالضم : غير مر .

(٦) أي والله تعالى هو الذي جمع الأسلاف .

(٧) انظر في ذلك البرهان ١ : ٢٥١ والإتيان ١ : ١٨٤ . وانظر لتليل عدم كتابته

للمعوذتين ولأم الكتاب في مصحفه ، مقدمه كتاب المبادئ نشرة آرثر جفري ص ، ٩٢ ، ٩٦ - ٩٧ .

(٨) هذا التصويب من الإتيان للسيوطي ١ : ١٨٤ . وفي جمع الأصول =

وَمِنْ تَعَلَّقِ النَّاسِ بِالْإِخْتِلَافِ ، فَكَانُوا لَا يَزَالُونَ قَدْ رَأَوْا الرَّجُلَ
يُرَوِّى الْحَرْفَ الشَّاذَّ ، وَيَقْرَأُ بِالْحَرْفِ الَّذِي لَا يَعْرِفُونَهُ ، فَرَأَوْا أَنَّ
تَحْصِيئَهُ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِحَمْلِ النَّاسِ عَلَى الْمَقْرُوءِ عِنْدَهُمْ ^(١) ، الْمَشْهُورِ فِيهَا
بَيْنَهُمْ ، وَأَنَّهُمْ إِنْ لَمْ يَشُدُّوْا فِي ذَلِكَ لَمْ يَنْقَطِعِ الطَّمَعُ ، وَلَمْ يَنْزَجِرِ
الطَّيْرَ ^(٢) ، لِأَنَّ رَجُلًا مِنَ الْعَرَبِ لَوْ قَرَأَ عَلَى رَجُلٍ مِنْ خَطْبَائِهِمْ وَبُلَغَائِهِمْ
سُورَةً وَاحِدَةً ، طَوِيلَةً أَوْ قَصِيرَةً ، لَتَبَيَّنَ لَهُ فِي نِظَامِهَا وَمَخْرَجِهَا ، وَفِي لَفْظِهَا
وَطَبِيعِهَا ، أَنَّهُ عَاجِزٌ عَنْ مِثْلِهَا . وَلَوْ تَحَسَّدَى بِهَا أْبَلِغَ الْعَرَبِ لَظَهَرَ
عَجْزُهُ عَنْهَا . وَلَيْسَ ذَلِكَ ^(٣) فِي الْحَرْفِ وَالْحَرْفِيِّينَ ، وَالْكَلِمَةِ وَالْكَلِمَتِيِّينَ .

أَلَا تَرَى أَنَّ النَّاسَ قَدْ كَانَ يَتَهَيَّأُ فِي طَبَائِعِهِمْ ، وَيَجْرَى عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ
أَنْ يَقُولَ رَجُلٌ مِنْهُمْ : الْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَإِنَّا لِلَّهِ ، وَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ، وَرَبُّنَا اللَّهُ ،
وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، وَهَذَا كُلُّهُ فِي الْقُرْآنِ ، غَيْرَ أَنَّهُ مُتَفَرِّقٌ غَيْرَ
مَجْتَمِعٍ ؛ وَلَوْ أَرَادَ أَنْ نَطَّقُ النَّاسَ أَنْ يُؤَلِّفَ مِنْ هَذَا الضَّرْبِ سُورَةً
وَاحِدَةً ، طَوِيلَةً أَوْ قَصِيرَةً ، عَلَى نَظْمِ الْقُرْآنِ وَطَبِيعِهِ ، وَتَأْلِيفِهِ وَمَخْرَجِهِ
لَمَا قَدَّرَ عَلَيْهِ ، وَلَوْ اسْتَعَانَ بِجَمِيعِ قَحْطَانَ وَمَعَدِّ بْنِ عَدْنَانَ .

وَرَأَوْا ^(٤) بِفَهْمِهِمْ وَبِتَوْفِيقِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ أَنْ يَحْصِنُوهُ مِمَّا يَشْكُلُ ،
وَيُمْكِنُ أَنْ يُفْتَعَلَ مِثْلُهُ مِنَ الْحَرْفِ وَالْحَرْفِيِّينَ ، وَالْكَلِمَةِ وَالْكَلِمَتِيِّينَ ،

= : « سورق العرب » ووجه ما أثبت من الإيقان . وانظر النصوص فيه . وجاء في كتاب
مقدمتان في علوم القرآن ص ٧٥ : « وأما ما ذكر عن أبي بن كعب أنه عد دعاء القنوت : اللهم
إننا نستعينك إلى آخره ، سورة من القرآن ، فإنه إن صح ذلك عنه فإنه كتبها في مصحفه لا على أنها
من القرآن ، بل ليحفظها ولا ينساها احتياطاً ، لأنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم كان يفتت بها
في صلاة الوتر » .

(١) ب : « المكروه عندهم » م : « المكروه » فقط ، صوابها في ط .

(٢) م فقط : « الطين » .

(٣) ذلك ، ساقطة من ب ، م .

(٤) ب فقط : « فرأوا » .

وقد كانوا عرفوا الابتداعَ الكثير^(١) على البلغاء والشعراء ، وخافوا إن هم لم يتقدموا في ذلك أن يتطرقوا عليه ، كما تطرقوا على الرواية^(٢) ، لأنهم حين رأوا كثرة الرواية في غير ذوى السابقة ، ورأوا كثرة اختلافها ، والغرائب التي لا يعرفونها ، لم يكن لهم إلا تحصين الشيء الذى عليه مدار الأمر ، وإن كانوا يعلمون أن الله بالغ أمره .

فعلى الأئمة أن تحوط هذه الأمة ، كما حاط^(٣) السلف أوطا ، وأن يعملوا^(٤) بظاهر الحيلة ، إذ كان على الناس الاجتهاد^(٥) ، وليس عليهم علم الغيوب . وإنما ذلك كتنحو رجل أبصر نبيا يحيى الموتى فعرف صدقه ، فلما انصرف سأله عنه بعض من لم يَرَ ذلك ولا صحَّ عنده ، فعليه أن لا يكتمه ، وإن كان يعلم أن الله تعالى سيُعَلِّمه ذلك من قبل غيره ، وأنه عز ذكره سيسمعه صحته على حبه وكرهه .

ورأوا أن قراءة زيدٍ أحقُّ بذلك ، إذ كانت آخر العرض ، ولأنَّ أجمع الذين سمعوا آخر العرض أكثر ممن سمع أوله ، فحملوا الناس على قراءة زيد ، دون أبي وعبد الله ، وإن كان الكل حقا ، إذ كان رُبُّ حق في بعض الزمان أقطع للقبيل والقال ، وأجدر أن يُميت الخلاف ، ويحسم الطمع . فتركوا حقا إلى حق العمل به أحق .

ولو أن فقيها رأى إطباق العلماء على صوم يوم عرفة ، واستنكارهم الإفطار فيه ، فأفطر وأظهر ذلك ليعلمهم موضع الفريضة من النافلة ،

(١) ب : « امتناع الكثير » ، م : « المتناع الكثير » وأثبت ما في ط .

(٢) المتطرف : الذى لا يثبت على أمر . وفي الأصول : « أن يتطرقوا عليه كما تطرقوا على

الرواية » ، مع سقوط « على الرواية » من م . والصواب ما أثبت .

(٣) ب ، م : « أحاط » .

(٤) ب ، م : « وأن يعمل » ، صوابه في ط .

(٥) ب ، م : « إذا كان » . وكلمة « على » ساقطة من ب .

أو خاف أن يُلحق الفرص على تطاول الأيام ما ليس فيه - كان مصيباً ، وكان قد ترك حقاً إلى أحق منه .

وللحق درجاتٌ ، وللخلاف درجاتٌ ، وللحرام درجاتٌ . ألا ترى أن لوليَّ المقتول أن يقتل ويصفح ، وأنه إن قتل قتل بحق ، وإن صفح صفح بحق ، والصفح أفضل من القتل .

ولو أن رجلاً أخرج ساكناً بيتاً له ^(١) ، أو اقتضى ديناً له ساعة مَحَلَّهُ ^(٢) ، أو طلق زوجته وما دخل بها ^(٣) - لكان ذلك له ، ولحق فعل ^(٤) . وغير ذلك الحق أولى به .

وكيف لا يكون أولى به وهو أحسن ، والثواب فيه أعظم ، وإلى سلامة الصدور أقرب .

وقد يكون الأمران حسنين ، وأحدهما أحسن . وقد يكون الأمران قبيحين ، وأحدهما أقبح .

وبعد ، فعلى الناس طاعة الأئمة في كل ما أمرُوا به ، إلا فيما تبين أنه معصية . فأما غير ذلك فإنه واجب مفروض ، ولازم غير مرفوع .

وعلموا أيضاً أنهم لا يبقون إلى آخر الزمان ، وأن من يجيء بعدهم لا يقوم مقامهم ، ولا يُفصل الأمور تفصيلهم . ولو عرفوا كمعرفتهم ، وأرادوا ذلك كإرادتهم ، لما أطيعوا كطاعتهم .

وعلموا أن الأكاذيب والبدع ستكثر ، وأن الفتن ستفتح ، وأن

(١) بيتاً ، ساقطة من ب ، م .

(٢) ب ، م : « واقضى » . محل الدين : وقت حلول أدائه . وفي ط : « عند حلول أجله »

(٣) ب ، م : « ولما دخل بها » ووجه هذه : « ولما يدخل بها » .

(٤) ب ، م : « ولحق فعله »

الفساد سيفشوا ، فكرهوا أن يجعلوا للمتطرفين علة^(١) ، ولأهل الزبغ حجة .

بل لا شك^(٢) أنهم لو تركوا الناس عامة يقرءون على حرف فلان وكل ما أجاز فيه فلان عن فلان ، لألحق قوم في آخر الزمان بهم ما ليس منهم ، ولا يجرى مجراهم ، ولا يجوز مجازهم .

٢٦ - فصل منه في الاحتجاج للجمع

على قراءة زيد

ولو كان زيد من آل أبي العاص ، أو من عرض بني أمية ، لوجد ابن مسعود متعلقاً .

ولو كان بدل زيد عبد الرحمن بن عوف لوجد إلى القول سبيلاً .

ولو كان ابن مسعود رجلاً من بني هاشم لوجد للطعن موضعاً .

ولو كان عثمان رضى الله تعالى عنه استبد بذلك الرأي على ابن أبي طالب كرم الله وجهه ، وسعدٍ وطلحة والزبير رحمهم الله ، وجميع المهاجرين والأنصار ، لوجد للثمة مساعاً .

فأما والأمر كما وصفنا ونزلنا ، فما الطاعن على عثمان إلا رجل أخطأ خطئة الحق^(٣) ، وعجل على صاحبه . ولكل بني آدم من الخطأ نصيب ، والله عز ذكره يغفر له ويرحمه .

(١) في جمع الأصول : « للمتطرفين » . وانظر ماسبق في حواشي ٢٣٠ .

(٢) ب : « بل شك » ، صوابه في م ، ط .

(٣) ب ، م : « أخطأ خطئه » مع سقوط كلمة « الحق » ، والصواب في ط .

والذى يخطئُ عثمان في ذلك فقد خطأَ علياً وعبدَ الرحمن وسعداً ،
والزُبَيْرَ وطلحة ، وعليه الصحابة (١) .

ولو لم يكن ذلك رأىً على لغيره ، ولو لم يمكنه التغيير لقال فيه ،
ولو لم يمكنه في زمن عثمان لأمكنه في زمن نفسه ، وكان لا أقل من
إظهار الحجّة إن لم يملك تحويل الأمة ، وكان لا أقل من التجربة
إن لم يكن من النجح على ثقة ، بل لم يكن لعثمان في ذلك ما لم يكن
لجميع الصحابة ، وأهل القَدَم والقُدوة . ومع أنّ الوجه فيها صنعوا واضح ،
بل لا نجدُ لما صنعوا وجهاً غير الإصابة والاحتياط ، والإشفاق والنظر
للعواقب ، وحُسن طعن الطاعن .

ولو لم يكن ما صنعوا لله تعالى فيه رضاً (٢) لما اجتمع عليه أولُ
هذه أول الأمة وآخِرُها . وإنّ أمراً اجتمعت عليه المعتزلة والشيعة ،
والخوارج والمُرَجئة ، لظاهر الصواب ، واضح البرهان ، على اختلاف
أهوائهم ، وبغيتهم لكل ما ورد عليهم .

فإن قال قائل : هذه الروافض بأسرها تأبى ذلك وتنكره ، وتظعن
فيه ، وترى تغييره (٣) .

قلنا : إنّ الروافض ليست مِنّا بسبيل ، لأنّ من كان أداته غيرَ
أذاننا ، وصلاته غيرَ صلاتنا ، وطلاقه غيرَ طلاقنا ، وعقده غيرَ عقيدتنا ،
وحجته غيرَ حجتنا ، وفقهاؤه غيرَ فقهاءنا (٤) وإمامه غيرَ إمامنا ،

(١) ط : « وما عليه الصحابة » .

(٢) م فقط : « فيما صنعوا » مع سقوط كلمة « فيه » من ب ، م . وأثبت ما في ط .

(٣) ب ، م : « لغيره » ، والوجه ما أثبت من ط .

(٤) غير فقهاءنا ، ساقط من ب ، م .

وقراءته غَيْرَ قِراءَتنا ، وحلالُه غَيْرَ حِلالنا ، وحرامه غَيْرَ حِرامنا ، فلا نحنُ منه ولا هو مِننا^(١) .

ولأَيِّ شَيْءٍ حَامَتِ^(٢) عن قِراءة ابن مسعود ، فو الله ما كان أحدٌ أفرطَ في العِمرِيَّةِ منه ، ولا أشدَّ على الشَّيعةِ منه ، ولقد بَلَغَ من حُبِّه لعمر رضَى الله عنه أن قال : لقد خَشِيتُ اللهَ تعالى في حُبِّي لعمر . فلم يُحَامُونُ عنه وهو كان شِجَاهِمُ^(٣) لو أدركهم .

٢٧ - فصل منه

فأمَّن اللهُ رجلاً فارَقهم ولزم الجماعة ، فإنَّ فيها الأَنسَةَ والحُجَّةَ^(٤) ، وتَرَكَ الفُرقةَ فإنَّ فيها الوَحْشَةَ والشُّبُهَةَ . والحمد لله الذي جَعَلنا لا نَفْرُقَ بين أنمتنا ، كما جعلنا لا نَفْرُقَ بين أنبيائنا .

٢٨ - فصل منه

والذي دعانا إلى تَأليفِ حُججِ الرِّسُولِ ونَظْمِها ، وجَمْعِ وجوهِها وتدوينِها - أَنَّها متى كانت مجموعةً منظومةً ، نَشِطَ لحفظها وتفهُمِها مَنْ كان عسى أن لا يَنْشِطَ لجمعِها ، ولا يقدِرُ على نَظْمِها ، وجمعِ متفرِّقِها ، وعلى اللَّفْظِ المُؤثِّرِ عنها^(٥) ، ومَنْ كان عسى أن لا يعرف وجهَ مَطْلَبِها ، والوَقوعِ عليها .

(١) ب ، م : « ولا نحن منه ولا هو منا » ، صوابه في ط .

(٢) في جميع الأصول : « جانب » ، والوجه ما أثبت . وانظر ما سياتي .

(٣) أصل الشجاء : ما يترس في خلق الإنسان والدابة من عظم أو عود أو غيرها ، ومنه قول سويد بن أبي كاهل في المفضليات ١٩٨ :

وراني كالشجا في حلقه
عسراً مخرجه ما يتزع

وفي م فقط : « سخام » تحريف .

(٤) الأَنس ، بالفم ، والأَنسَة ، بالتحريك : الطمأنينة . ط فقط : « الأَنس » .

(٥) كذا في جميع النسخ . وأراها « المأثور عنها » . يقال أُرُ الحديث أُرًا : نقله ورواه

عن غيره ، فهو مأثور .

ولعلَّ بعض الناس يعرف بعضها ويجهل بعضها .

ولعلَّ بعضهم وإن كان قد عرفها بحقها وصِدقها فلم يعرفها من أسهل طرقها ، وأقرب وجوهها .

ولعلَّ بعضهم أن يكون قد عَرَفَ فَنَسِيَ ، أو تهاون بها فَعَمِيَ ، بل لا نشكُّ أنَّها إذا كانت مجموعة محبِّرة^(١) ، مستقصاةً مفصَّلةً ، أنَّها ستزيد^(٢) في بصيرة العالم ، وتجمع الكلِّ لمن كان لا يعرف إلاَّ البعض ، وتذكر النَّاسِي ، وتكون عُدَّةً على الطاعن^(٣) .

ولعلَّ بعض من أَلْحَدَ في دينه ، وعمِيَ عن رُشْدِهِ ، وأخطأ موضعَ حَظِّهِ^(٤) أن يدعوهُ العُجْبُ بنفسه ، والثَّقَةُ بما عنده ، إلى أن يلتبس قراءتها ، ليتقدَّم^(٥) في نَقْضِها وإفسادها ، فإذا قرأها فهمها ، وإذا فهمها انتبه من رَقْدَتِهِ^(٦) ، وأفاق مِنْ سكرته^(٧) ، لعزِّ الحقِّ ، ودُلِّ الباطل ، وإشراف الحجَّة على الشُّبْهِة^(٨) ، ولأنَّ من تفرَّد بكتابٍ فقرأه ليس كمن نازع صاحبه وجائاه^(٩) ، لأنَّ الإنسان لا يُباهي بنفسه^(١٠) ،

(١) من تعبير الخط والشعر ونحوهما ، أى تحسينه ، ب ، م : « خيرة » صوابه في ط .

(٢) ب ، م : « سيزيد » ، صوابه في ط .

(٣) في جميع الأصول : « ويجمع » و « يذكر » و « يكون » ، صوابها كلها بالناء كما أثبت .

(٤) ب فقط : « خطه » ، تحريف .

(٥) ب ، م : « ليقدم » ، صوابه في ط .

(٦) م فقط : « فإذا قرأها وفهمها انتبه من رقدته » .

(٧) ب ، م : « عن سكرته » .

(٨) ب فقط : « وإشراف » بالقاف .

(٩) المجائفة : أن يجلس مع خصمه على ركبتيه لخصومة . وفي البيان والتبيين ٣ : ٦ : « وبالأرجاز عند المتج وعند مجائفة الخصم » . وفي ب ، م : « وحائاه » ، وفي ط : « وجافاه » صوابها ما أثبت .

(١٠) ب ، م : « نفسه » ، صوابه في ط .

والحقُّ بعدُ قاهرٌ له . ومع التّلاقى يحدثُ التّباهى ، وفي المحافل يقلُّ الخُضوع ، ويشتدُّ التّزوع .

ثمّ رجّح الكلامُ إلى حاجة النّاس إلى استماع الأخبار ، والتفكُّه في تصحيح الآثار ، فأقول : إنّ النّاس لو استغنّوا عن التّكرير^(١) ، وكفّوا مئونة البحث والتّنقير^(٢) لقلّ اعتبارهم^(٣) . ومن قلّ اعتباره قلّ علمه ، ومن قلّ علمه قلّ فضله ، ومن قلّ فضله كثر نقصه ، ومن قلّ علمه وفضله وكثر نقصه لم يُحمد على خيرٍ أتاه ، ولم يُدّم على شرٍّ جناه ، ولم يَجِدْ طعمَ العزِّ ، ولا سُرورَ الظّفَر ، ولا رُوحَ الرّجاء ، ولا برّدَ اليقين ، ولا راحة الأمان .

وكيف يُشكر من لا يقصد ، وكيف يُلام من لا يتعمّد ، وكيف يُقصد من لا يعلم . وما عسى أن يبلِّغ قدرُ سرورٍ من لا يحسن من السُّرور إلا ما سرّ به حواسه^(٤) ومسه جلده^(٥) .

وكيف يأتي أربح الأفعال ، وأبعد الشّريين من ركّب في شراسة السباع^(٦) وعباوة البهائم ، ثمّ^(٧) لم يُعط الآلة التي بها يستطيع التفرقة^(٨) بين ما عليه وله ، والعلمُ بمصالحه ومفاسده ، فيقوى بها على عصيان طبائعه ، ومخالفة شهواته ، وبها يعرف عواقب الأمور ، وما تأتي به

(١) في جميع الأصول : « قد استغنوا عن التكرير » ، والصواب ما أثبت .

(٢) ب فقط : « وكفوا عن مئونة البحث والتنقير » .

(٣) ب ، ط : « لقلّة اعتبارهم » ، صوابه في م .

(٤) ب ، م : « وحواسه » ، والوجه حذف الواو كما في ط .

(٥) ب فقط : « ومسه جلده » .

(٦) ب ، م : « من ركّب في شراسة السباع » ، ط : « من ركّب شراسة السباع »

صوابهما ما أثبت .

(٧) ثمّ ، سابقه من ب .

(٨) ب ، م : « تفرقة » .

الدُّهور^(١)، وفضل^(٢) لَذَّةِ القلبِ على لَذَّةِ البدنِ .

وإنَّ سرورَ الجاهلِ لا يَحسُنُ في جَنبِ سرورِ العالمِ ، وإنَّ لَذَّةَ البهائمِ لا تَعشُرُ^(٣) لَذَّةَ الحكيمِ العالمِ .

وأىُّ سرورِ كسرورِ العزِّ والرِّياسَةِ ، واتِّساعِ المعرفةِ ، وكثرةِ صوابِ الرُّأى ، والتُّججِ الذى لا سَبَبَ له إِلَّا حُسْنُ النَّظَرِ والتَّقَدُّمِ^(٤) فى التدبيرِ ، ثمَّ العلمُ باللهِ وحده ، وأنَّكَ بعرضِ ولايتهِ والجاوِ عنده ، وأنَّه الذى يربعاك ويكفيك ، وأنَّكَ إذا عملتَ اليسيرَ^(٥) أعطاك الكثيرِ ، ومتى تركتَ له الفائزَ أعطاك الباقي ، ومتى أدبرتَ عنه دعاك ، ومتى رجعتَ إليه اجتياك ، ويحمدك على حقك ، ويُعطيك على نظرك ، لنففسك ولا يُغنيك إِلَّا لِيُبْقِيكَ^(٦) ، ولا يُميتُكَ إِلَّا لِيحييَكَ ، ولا يَمْنَعُكَ إِلَّا ليعطيك . وأنَّه المبتدئُ بالنعمةِ قبلَ السؤالِ ، والناظرُ لك فى كلِّ حالِ .

وهذا كلُّه لا يُنالُ إِلَّا بغريزةِ العقلِ . على أنَّ الغريزةَ لا تنالُ ذلك بنفسها ، بما باشرتهِ حواسُّها ، دونَ النَّظَرِ والتَّفكُّرِ ، والبحثِ والتَّصفُّحِ . ولن ينظرَ ناظرٌ ولا يفكرَ مفكِّرٌ^(٧) دونَ الحاجةِ التى تبعثُ على

(١) ب : « وما يأتي به الدهور » .

(٢) الفضل : الزيادة . وفى ب ، م : « وفضل » ، وإنما الفضلة والفضالة : البقية من الشيء ، فالوجه ما أثبت من ط .

(٣) تعشروا : تبلغ عشرا . ب ، م : « لا يعشروا » ، صوابه ما أثبت . وفى ط : « لاتمادل » .

(٤) فى جميع الأصول : « والتقديم » .

(٥) ب : « علمت اليسير » .

(٦) ب ، ط : « ولا يغنيك » ، وأثبت ما فى م . وفى جميع الأصول : « إلا ليقيك » . والمراد بالإبقاء هنا الإبقاء الأبدي فى الآخرة .

(٧) ب : « ولم ينظرنا ولا فكر مفكرا » ، صوابه فى م ، ط .

الفكرة^(١)، وعلى طلب الحيلة. ولذلك وضع الله تعالى في الإنسان طبيعة الغضب، وطبيعة الرضا، وطبيعة البخل والسخاء، والجزع والصبر، والرياء والإخلاص، والكبر والتواضع، والسخط والقناعة، فجعلها عروفاً. ولن تفي^(٢) قوة غريزة العقل بجميع^(٣) قوى طبائعه وشهواته، حتى يقيم ما اعوج منها^(٤)، ويسكن ما تحرك، دون النظر الطويل الذي يشدها، والبحث الشديد الذي يشحدها، والتجارب التي تحنكها^(٥)، والفوائد التي تزيد فيها^(٦). ولن يكثر النظر حتى تكثر الخواطر^(٧)، ولن تكثر الخواطر حتى تكثر الحوائج^(٨)، ولن تبعد^(٩) الرؤية إلا لبعدها غاية وشدة الحاجة.

ولو أن الناس تركوا وقدر قوى غرائزهم^(١٠)، ولم يهاجوا بالحاجة على طلب مصلحتهم والتفكر في معاشهم، وعواقب أمورهم، وألجئوا إلى قدر خواطرهم التي تولدها مباشرة حواسهم، دون أن يسمعهم الله تعالى خواطر الأولين، وأدب السلف المتقدمين، وكتب رب العالمين، لما أدركوا من العلم إلا اليسير^(١١)، ولما ميزوا من الأمور إلا القليل.

(١) ب فقط : « على الفكر » .

(٢) ب فقط : « ولم يفي » ، تحريف .

(٣) يقال هذا الشيء لا يفي بذلك ، أى يقصر عنه ولا يوازيه . وفى جميع النسخ :

« لجمع » ، والصواب ما أثبت .

(٤) ب ، م : « ما عدا منها » ، صوابه فى ط .

(٥) يقال حنكته التجارب : حنكا ، بالفتح ، وحنكا بالتحريك ، وأحنكته وحنكته تحنكاً ، وأحنكته : أى هذبته وأحنكته . ب : « الذى يحنكها » م : « التى يحنكها » ، صوابها فى ط .

(٦) ب ، م : « التى يزيد فيها » ، صوابها فى ط .

(٧) ب ، م : « يكثر الخواطر » ، وأثبت ما فى ط .

(٨) ب : « ولم يكثر » صوابه فى م ، ط ، وفى ب ، م : « حتى يكثر الحوائج » ، وأثبت ما فى ط .

(٩) ب : « ولن يبعد » صوابه فى م ، ط .

(١٠) م : « تركوا قدر غرائزهم » .

(١١) ب : « الستر » م : « التستر » ، صوابهما ط .

ولولا أن الله تعالى أراد تشریف العالم وترتيبه^(١) ، وتسويد العاقل ورفع قدره ، وأن يجعله حكيماً ، وبالعواقب عليماً ، لما سخر له كل شيء ، ولم يسخره لشيء ، ولما طبعه الطبع الذي يحيى منه أريب حكيم ، وعالم حلیم .

كما أنه عز ذكره لو أراد أن يكون الطفل عاقلاً ، والمجنون عالماً ، لطبعهم طبع العاقل ، ولسواهم تسوية العالم ، كما أراد أن يكون السبع وثأباً ، والحديد قاطعاً ، والسم قاتلاً ، واليذاء مقيماً ؛ فكذلك أراد^(٢) أن يكون المطبوع على المعرفة عالماً ، والمهيباً للحكمة حكيماً ، وذو الدليل مستديلاً ، وذو النعمة مستنفعاً بها^(٣) .

فلما علم الله تبارك وتعالى أن الناس لا يدركون مصالحتهم بأنفسهم ، ولا يشعرون بعواقب أمورهم بغرائزهم ، دون أن يرد عليهم آداب المرسلين ، وكتب الأولين ، والأخبار عن القرون ، والجبايرة الماضين - طبع كل قرن من الناس على أخبار من يليه ، ووضع القرن التالي دليلاً يعلم به صدق خبر الأول ؛ لأن كثرة السماع للأخبار العجيبة ، والمعاني الغريبة ، مشحذة للأذهان ، ومادة للقلوب ، وسبب للتفكير ، وعلة للتنتقير^(٤) عن الأمور .

وأكثر الناس سماعاً أكثرهم خواطر ، وأكثرهم خواطر أكثرهم تفكيراً ، وأكثرهم تفكيراً أكثرهم علماً ، وأكثرهم علماً أرجحهم عملاً . كما أن أكثر البصراء رؤيةً للأعاجيب أكثرهم تجارب^(٥) ، ولذلك

(١) ب ، م : « وترتيبه » .

(٢) أراد ، من ط فقط .

(٣) ب ، م : « والدليل مستدلاً والنعمة مستنفعاً بها » ، صوابه في ط .

(٤) ب ، م : « للتقير » ، صوابه في ط .

(٥) في جمع الأصول : « تجارباً » ، والصواب ما أثبت .

صار البصير أكثر خواطر^(١) من الأعمى ، وصار السميع البصير أكثر خواطر من البصير .

وعلى قدر شدة الحاجة تكون الحركة ، وعلى قدر ضعف الحاجة يكون السكون ، كما أنّ الرجى والخائف دائبان ، والآيس والآمن وإدعان .

وإذا كان^(٢) الله تعالى لم يخلق عباده في طبع عيسى بن مريم ، ويحيى بن زكريا ، وآدم أبن البشر ، صلوات الله عليهم أجمعين ، وخلقتهم منقوصين^(٣) ، وعن ذلك مصالحتهم عاجزين ، وأراد منهم العبادة ، وكلّفهم الطّاقة^(٤) ، وترك العنان^(٥) للأمل البعيد ، وأرسل إليهم رسله ، وبعث فيهم أنبياءه ، وقال : ﴿ لَيْثًا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾^(٦) ، ولم يشهد أكثر عباده حجج رسله^(٧) عليهم السلام ، ولا أحضرهم عجائب أنبيائه^(٨) ، ولا أسمعهم احتجاجهم ، ولا أراهم تدبيرهم - لم يكن بد من أن يُطّلع^(٩) المُعائنين على أخبار الغائبين ، وأن يسخر أسباع^(١٠) الغائبين لأخبار المعاندين ، وأن يخالف بين طبائع

(١) ب ، م : « خواطر » في هذا الموضع وتاليه ، صوابه في ط .

(٢) ب : « وإن كان » ، تحريف .

(٣) ط فقط : « ناقصين » .

(٤) كذا في جميع النسخ . والمراد : ما يطيقون . لا يكلف الله نفسا إلا وسعها .

(٥) العنان : السير أو الجمل الذي تمسك به الدابة . وإطلاق العنان هنا كناية عن اتساع مدى

الأمل . وفي جميع الأصول : « العيان » ، والوجه ما أثبت .

(٦) الآية ١٦٥ من سورة النساء .

(٧) ب ، م : « وحجج رسله » ، صوابه في ط .

(٨) ب : « ولا أخبر » م : « ولا أغضر » ، صوابهما في ط .

(٩) ب ، م : « يطّلع » ، وجهه في ط .

(١٠) ب ، م : « يسخر » ، صوابه في ط .

المُخْبِرِينَ ، وَعَلَّلَ النَّاqَلِينَ ^(١) ، لِيَدلَّ السَّامِعِينَ ، وَمَنْ يَجِيبُ مِنَ النَّاسِ ^(٢) .

على أَنَّ العَدَدَ الكَثِيرَ المِخْتَلِقَ العِللَ ، المِضَادِّ الأَسْبَابَ ، المِتَفَاوِقَ المِجْمَ ، لَا يَتَّفِقُونَ على تَخْرُصِ الخَبِيرِ فِي المَعْنَى الوَاحِدِ ^(٣) ، وَكَمَا لَا يَتَّفِقُونَ على الخَبِيرِ الوَاحِدِ على غَيْرِ التَّلَاقِ وَالتَّرَاسُلِ إِلاَّ وَهُوَ حَقٌّ . فَكَذَلِكَ ^(٤) لَا يَمَكُنُ مِثْلُهُمْ فِي مِثْلِ عِلْمِهِمُ التَّلَاقِ عَلَيْهِ ، وَالتَّرَاسُلُ فِيهِ . وَلَوْ كَانِ تَلَاقِيهِمْ مَمكِنًا ، وَتَرَسُلُهُمْ جَائِزًا لَظَهَرَ ذَلِكَ وَفِشَا ، وَاسْتِفَاضَ وَبِدَا .

وَلَوْ كَانِ ذَلِكَ أَيْضًا مَمكِنًا ، وَكَانِ قَوْلًا مَتَوَهَّمًا لِبَطَلَتِ الحِجَّةُ ، وَلِتَقَيَصَّتِ العَادَةُ ^(٥) ، وَلِفَسَدَتِ العِبْرَةُ ، وَلِعَادَتِ النَّفْسُ بِعِلَّةِ الإخْبَارِ جَاهِلَةً ، وَلَكَانَ لِلنَّاسِ ^(٦) على اللَّهِ أَكْبَرُ الحِجَّةُ . وَقَدْ قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ : ﴿ لَيْسَ لِشَيْءٍ لِيَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ ^(٧) ، إِذْ كَلَّفَهُمْ ^(٨) طَاعَةَ رُسُلِهِ ، وَتَصَدِيقَ أَنبِيَائِهِ وَرِسَلِهِ وَكُتِبَ ^(٩) ، وَالإِيمَانَ بِجَنَّتِهِ وَنَارِهِ ، وَلَمْ يَصِّحْ لَمْ دَلِيلًا على صِدْقِ الأَخْبَارِ ، وَامْتِنَاعِ العَلَطِ فِي الأَثَارِ ، تَعَالَى اللَّهُ عَنِ ذَلِكَ علْوًا كَبِيرًا .

(١) ب الففط : « وعل الناقلين » ، تحريف .

(٢) ط فقط : « ومن يجيب » .

(٣) التخرص ، المراد به الحزر والتقدير والفهم . وسيأتي في ٢٤٨ س ١٢ : « لا ينفقون

على تخرص الخبر الواحد في المعنى الواحد في الزمن الواحد » .

(٤) ب ، م : « فلذلك » ، صوابه في ط .

(٥) ب ، م : « ولا نقضت » ، تحريف .

(٦) ب : « الناس » ، بحرفة .

(٧) من الآية ١٦٥ من سورة النساء .

(٨) ط : « إذا كلفهم » .

(٩) ب : « أنبيائه وكتبه » م : « أنبيائه ورسله » ، وأثبت النص كاملًا من ط .

واعلمُ أنَّ الله تعالى إنَّما خالف بين طبائع الناس ليوفِّق بينهم ، ولم يحبَّ أن يوفِّق بينهم فيما يخالف مصلحتهم ؛ لأنَّ النَّاسَ لو لم يكونوا مسخَّرين بالأسباب المختلفة ، وكانوا مجبَّرين^(١) في الأمور المتَّفِقة والمختلفة ، لجاز أن يختاروا بأجمعهم التجارة والصناعة ، ولجاز أن يطلبوا بأجمعهم المُلْك والسِّياسة^(٢) . وفي هذا ذهابُ العيش ، وبُطْلان المصلحة ، والبوار والتواء^(٣) .

ولو لم يكونوا مسخَّرين بالأسباب ، مُرتَهَنين بالعلل لرغبوا عن الحِجامة أجمعين ، والبيطرة ، والقِصابة ، والدِّباجة . ولكنَّ لكلِّ صنْفٍ من النَّاسِ مُزِينٌ عندهم ما هم فيه ، ومُسَهِّلٌ ذلك عليهم . فالحائك إذا رأى تقصيراً من صاحبه أو سوءَ جذْيٍ أو خرقاً^(٤) قال له : يا حجَّام ! والحجَّام إذا رأى تقصيراً من صاحبه قال له : يا حائك ! ولذلك لم يُجمِعوا على إسلام أبنائهم في غير الحياكة والحِجامة ، والبيطرة والقِصابة .

ولولا أنَّ الله تعالى أراد أن يجعل الاختلاف سبباً للاتِّفاق والائتلاف ، لما جعل واحداً قصيراً والآخَرَ طويلاً ، وواحداً حسناً وآخَرَ قبيحاً ، وواحداً غنياً وآخَرَ فقيراً^(٥) ، وواحداً عاقلاً وآخَرَ مجنوناً ، وواحداً ذكياً وآخَرَ غيبياً . ولكنَّ خالفَ بينهم ليختبرهم ، وبالاختبار يُطيعون وبالطَّاعة يسعدون . ففرَّقَ بينهم ليجمعهم ، وأحبَّ أن يجمعهم على

(١) ب فقط : « مجبرين » تحريف .

(٢) ط : « لجاز أن يختاروا بأجمعهم الملك والسياسة » يسقط ما قبل « بأجمعهم » الثانية .

(٣) التوى ، مقصور : الهلاك ، كما في اللسان والقاموس . وفي ب : « التواء » ،

وفي م ، ط : « التواء » ، صوابهما ما أثبت .

(٤) الخرق ، بالضم ، وبالتحريك : ضد الرفق ، وأن لا يحسن الرجل العمل .

(٥) ب ، م : « والآخَرَ فقيراً » .

الطاعة ليجمهم على المثوبة . فسبحانه وتعالى ، ما أحسن ما أبلى وأولى ، وأحكم ما صنع ، وأتقن ما دبّر ! لأنّ الناس لو رغبوا كلهم عن عاز الحياة^(١) لبقينا عُراءً . ولو رغبوا بأجمعهم عن كدّ البناء لبقينا بالعراء . ولو رغبوا عن الفلاحة لذهبت الأقوات ، ولبطل أصلُ المعاش . فسخرهم على غير إكراه ، ورغبتهم من غير دعاء .

ولولا اختلاف طبائع الناس وعيّلهم لما اختاروا من الأشياء إلّا أحسنها ، ومن البلاد إلّا أغدّلها ، ومن الأمصار إلّا أوسطها . ولو كانوا كذلك لتناجزوا على طلب الأواسط^(٢) ، وتشاجروا على البلاد العُليا ، ولما سيّمتهم بلدٌ ، ولما تمّ بينهم صلح . فقد صار بهم التسخير إلى غاية القناعة .

وكيف لا يكون كذلك وأنت لو حولت ساكني الآجام إلى الفياق ، وساكني السهل إلى الجبال ، وساكني الجبال إلى البحار ، وساكني الوبر إلى المتر ، لأذاب قلوبهم الممّ ، ولأقن عليهم فرط النزاع . وقد قيل^(٣) : « عمّر الله البلدان بحبّ الأوطان » .

وقال عبد الله بن الزبير رحمه الله تعالى : « ليس الناس بشيء من أقسامهم أقنع منهم بأوطانهم » .

وقال معاوية في قومٍ من اليمن رجّعوا إلى بلادهم بعد أن أنزلهم من

(١) ب فقط : « لوغربوا » تحريف . وفي ب ، م : « من عار الحياة » ، صوابه في ط .

(٢) في اللسان : « تناجز القوم : تسافكوا دمامهم ، كأنهم أسرعوا في ذلك » . ب ، ط : « طلب الواسط » ، وأثبت ما في م .

(٣) وكذا في الحيوان ٣ : ٢٢٧ . ونسب القول إلى عمر رضي الله عنه في رسالة الخمين إلى الأوطان . انظر رسائل الجاحظ ٢ : ٣٨٩

الشام منزلاً خصباً ، وقَرَضَ لهم في شَرَفِ العطاء^(١) : « يصلون أوطانهم
بقطيعة أنفسهم » .

وقال الله جلَّ وعز : ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ
اتَّخِذُوا مِن دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ^(٢) ۝ ففقرن الصَّنَّ بالأوطان
إلى الصَّنِّ بمهيج النفوس^(٣) .

وليس على ظهرها إنسانٌ إلا وهو مُعْجَبٌ بعقله ، لا يسره أن له
بجميع ما لهُ ما لغيره ، ولولا ذلك لمانوا كمداً ، ولدأبوا حسداً ، ولكن
كلُّ إنسانٍ وإن كان يرى أَنَّهُ حاسدٌ في شيء فهو يرى أَنَّهُ محسودٌ في
شيء^٤ .

ولولا اختلافُ الأسبابِ لتنازعا بلدةٌ واحدةً ، واسماً واحداً ،
وكنيةً واحدةً . فقد صاروا كما ترى مع اختيار الأشياءِ المختلفة^(٥) إلى
الأسماءِ القبيحة ، والألقابِ السُّمِّجة^(٦) . والأسماءِ مبدولةً ، والصناعاتِ
مُبَاحةً ، والمتاجرِ مُطلقةً ، ووجوهِ الطُّرُقِ مُخَلَّاةً^(٧) ، ولكنها مُطلقةً في
الظاهر ، مقسمةً في الباطن ، وإن كانوا لا يشعرون بالذي دبرَ الحكيم
من ذلك ، ولا بالمصلحة فيه .

فسبحانَ من حَبَّبَ إلى واحدٍ أَنْ يسميَ ابنه محمداً ، وحَبَّبَ إلى
آخرٍ أَنْ يسميَه شيطاناً^(٨) ، وحَبَّبَ إلى آخرٍ أَنْ يسميَه عبدَ الله ، وحَبَّبَ

(١) ب ، م : « في شوف العطاء » ، ط : « في شون العطاء » . والوجه ما أثبت .

(٢) من الآية ٦٦ من سورة النساء .

(٣) ب ، م : « الظن » في الموضعين ، صوابه في ط .

(٤) كلمة « الأشياء » من ط فقط . وفي م : « مع اختبار مختلفة » . وصواب الكلام في ط .

(٥) السج ، بالفتح ، وككتفت : القبيح . ب فقط : « السمعة » تحريف .

(٦) ب : « مخلاة » ، صوابه في م ، ط .

(٧) ب ، م : « شيطان » .

إلى آخر أن يسميه حماراً^(١) ، لأنَّ الناس لو لم يُخالف بين عُلَّهم في اختيار الأسياء والكُنَى، جاز^(٢) أن يجتمعوا على شيء واحد، وكان^(٣) في ذلك بطلان العَلَامَاتِ، وفسادُ المعاملات .

وأنت إذا رأيت ألوَّانهم وشائلتهم واختلافَ صُورهم ، وسِعت لغائتهم ونغمهم^(٤) علمت أنَّ طبائِعهم وعُلَّهم المحجوبة الباطنة، على حَسَبِ أمورهم الظاهرة .

وبعضُ الناس وإن كان مسخراً للحياكة^(٥) فليس بمسخرٍ للفِسق والخيانة^(٦)، وللإحكام^(٧) والصدِّق والأمانة .

وقد يسخرُ اللهُ الملك^(٨) لقومٍ بأسبابٍ قديمةٍ وأسبابٍ حديثةٍ ، فلا يزال ذلك الملكُ مقصوراً عليهم ، ما دامت تلك الأسبابُ قائمةً ، إذا كانوا للملِكِ مسخرين^(٩) ، وكان النَّاسُ لهم مسخرين ، بالجبرية^(١٠) والنَّخوة ، والفظاطةِ والقسوة ، ولطُول الاحتجاب والاستتار ، وسوء اللِّقاء والتضييع .

(١) ب فقط : « حمار » . ومن سمي به « معقر بن حمار البارق » ، ومن لقب بذلك « مروان الحمار » .

(٢) ط : « وجاز » بزيادة واو .

(٣) ط : « كان » بدون واو .

(٤) م : « ونغائهم » .

(٥) ب : « وإن كانوا مسخراً للحياكة » ط : « وإن كانوا مسخرين للحياكة » . والوجه ما أثبت من م .

(٦) ب : « للتفسيق والخيانة » .

(٧) ب ، ط : « والأحكام »

(٨) ط : « يسخر الملك » ب ، م : « يسخر الملك » ووجه هذه الأخيرة ما أثبت .

(٩) ب : « فليس إذا كانوا » م ، ط : « فليس إذا كانوا » . والوجه حذف « فليس » .

وفي ب ، م : « المسخرين » .

(١٠) الجبرية : الكبرياء . وانظر لغاتها الثلاث عشرة في القاموس . وفي ب ، م : « الجبرية » .

وقد يكون الإنسان مسخراً لأمرٍ ، ومخيراً في آخر .
ولولا الأمر والنهي لجاز التسخير في دقيق الأمور وجليلها ، وخفيها
وظاهرها ؛ لأنَّ بنى الإنسان^(١) إنما سُخِّروا له إرادة العائدة عليهم^(٢) ،
ولم يسخِّروا للمعصية ، كما لم يسخِّروا للمفسدة .

وقد تستوى الأسباب في مواضع ، وتفاوت في مواضع^(٣) . كلُّ
ذلك ليجمع الله تعالى لهم مصالح الدنيا ، ومرائد الدين .

ألا ترى أنَّ أُمَّةً قد اجتمعت على أنَّ عيسى عليه السلام هو الله ،
وأُمَّةً قد اجتمعت على أنَّه ابن الله ، وأُمَّةً اجتمعت على أنَّ الآلة ثلاثة ،
عيسى أحدها . ومنهم يتبدد^(٤) ، ومنهم من يتدهر^(٥) ، ومنهم
من يتحوَّل نسطورياً بعد أن كان يعقوبياً ، ومنهم من أسلم بعد أن كان
نصرانياً . ولست وأجد^(٦) هذه الأُمَّة مع اختلاف مذاهبها ، وكثرة
تنقلها ، انتقلت مرَّةً واختلفت مرَّةً ، متعمدة أو ناسيةً ، في يومٍ واحد ،
فجعلته - وهو الجمعة - يومَ السبت ، ولم تحطب في يومٍ جمعةٍ
بخطبة يوم خميس ، ولا غلِطت في كانون الأول فجعلته كانون
الآخر ، ولا بين الصوم والإفطار ؛ لأنَّ الباب الأول في باب الإمكان

(١) ب ، م : « لأنَّ الإنسان » ، تحريف .

(٢) م : « الفائدة عليهم » .

(٣) ب : « وقد يستوى » و « يتفاوت » ، صوابهما في م ، ط .

(٤) يريد : يبدد ، بالضم ، وهو الصم . ب : « يتبدد » م : « يتدر » ط :
« يتذبذب » . وأرى أن الجاحظ قد اشتق هذا الفعل من « البد » ، كما اشتق الفعل التالي من الدهر ،
وكلاهما لم تذكره المعاجم .

(٥) يتدهر ، أراد يدين بذهب الدهرية ، بضم الدال نسبة غير قياسية إلى الدهر بالفتح .
وانظر آرامم المنفرقة في الحيوان ١ : ٢/١٧ : ٤/١٣٩ : ٨٥ : ٥/٤٣٢ : ٤٠ : ٦/٣٢٧ :
٢٧٠ ، ٢٦٩ : ٦/٣٢٧ بالإضافة إلى مادة (الدهرية) في دائرة المعارف الإسلامية ٩ : ٣٣٧/٣٤٠

(٦) م فقط : « وأجدة » تحريف .

وتعديل الأسباب والامتحان ، والباب الثاني داخل في باب الامتحان
وتسخير النفوس وطرح الامتحان .

وقد زعم ناس من الجهال ، ونفر من الشكك ، ممن يزعم أن الشك واجب في كل شيء ، إلا في العيان ، أن أهل المنصورة^(١) واقوا مصلاًهم يوم خميس على أنه يوم الجمعة ، في زمن منصور بن جمهور^(٢) وأن أهل البحرين جلسوا عن مصلاًهم^(٣) يوم الجمعة على أنه يوم خميس ، في زمن أبي جعفر ، فبعث إليهم وقومهم .

وهذا لا يجوز ولا يمكن في أهل الأمصار ، ولا في العدد الكثير من أهل القرى ، لأن الناس من بين صانع لا يأخذ أجرته ولا راحة له دون الجمعة ، وبين تجار قد اعتادوا الدعة في الجمع^(٤) ، والجلوس عن الأسواق . ومن معلم كتاب لا يصرف غلمانه إلا في الجمع . وبين معنى بالجمع يتلاقى هناك مع المعارف^(٥) والإخوان والجلساء . وبين معنى بالجمع حرصاً على الصلاة ، ورغبة في الثواب . ومن رجل عليه موعد ينتظره . ومن صيرفي [يصرف ذلك اليوم سفاتجه^(٦) وكتبه

(١) المنصورة هذه كانت قصبة السند ، واسمها القديم « هنياباد » قال المسعودي : سميت المنصور منصور بن جمهور عامل بنى أمية . وقال هشام : بناها فسميت به ، وكان قد خرج مخالفاً لهارون وأقام بالسند . وانظر معجم البلدان .

(٢) ب : « منصور بن جمهور » ، وفي ط : « منصورى » فقط . ولمنصور هذا أخبار في تاريخ الطبري اثبت بهزيمته وموته عطشاً حين وجه إليه أبو العباس السفاح جيشاً إلى الهند بقيادة موسى بن كعب . وذلك في سنة ١٣٤ . وكان أول ظهور أمره سنة ١٢٥

(٣) أى لم يذهبوا إلى المسجد يوم الجمعة . ب فقط : « على مصلاًهم » ، تحريف .

(٤) ب ، م : « المداعاة في الجمع » ، صوابه في ط . وما بعده إلى « الجمع » التالية ساقط من م .

(٥) ب ، م : « تلقى هناك من المعارف » .

(٦) جمع سفنجة ، بضم السين وفتح التاء ، وهي كما في المصباح : كتاب صاحب المال لوكيله أن يدفع مالا قرصاً لآخر فيأمن بذلك على ماله من خطر الطريق . وفي القاموس : أن يعطى مالا لآخر ، وللآخر مال في بلد المعطى فيوفيه إياه ثم ، فيستفيد أمن الطريق . المعطى يضبط =

أصحابه . ومن جنديٍّ فهو^(١) [يعرف بذلك نوبته^(٢)] . وبعض كالسؤال
والمساكين والقصاص ، الذين يمدون أعناقهم للجمعة انتظاراً للصدقة
والفائدة ، في أمور كثيرة ، وأسباب مشهورة .

ولو جاز ذلك في أهل البحرين والمنصورة لجاز ذلك على أهل
البصرة والكوفة ، ولو جاز ذلك في الأيام لكان في الشهور أجوز ، ولو
جاز ذلك في الشهور لكان في السنين أجوز . وفي ذلك فسادُ الحجِّ ،
والصوم ، والصلاة ، والزكاة ، والأعياد .

ولو كان ذلك جائزاً لجاز أن يتفق الشعراء على قصيدة واحدة ،
والخطباء على خطبة واحدة ، والكتّاب على رسالة واحدة ، بل جميع
الناس على لفظة واحدة .

وإنما نزلت لك حالات الناس ، وخبرتك عن طبائعهم ، وفسرت
لك عليهم لتعلم أن العدد الكثير لا يتفقون على تحرّص الخبير الواحد
في المعنى الواحد في الزمن الواحد^(٣) ، على غير الشاعر^(٤) ، فيكون
باطلاً . وسأوجدك موضع اختلافهم واتفاقهم^(٥) ، وأنه لم يخالف
بينهم في بعض الوجوه إلا إرهاساً لمصلحتهم^(٦) ، ولتصح أخبارهم .

= اسم الفاعل . وثم ، أي هناك . واللفظ فارسيّ معرب ، وقد فسرت حديثاً بأنها حوالة صادرة من دأب
يكلف فيها مديته دفع مبلغ معين في تاريخ معين لأذن شخص ثالث ، أو لإذن الدائن نفسه ،
أو لإذن صاحب الحوالة .

(١) هذه التكملة من م ، ط . لكن في م : « يعرف » موضع « يصرف » . مع سقوط كلمة
« اليوم » وكلمة « أصحابه » .

(٢) ب ، م : « ذلك بنوبته » .

(٣) التخرص ، سبق تفسيره في ٢٤١ .

(٤) الشاعر : تفاعل من قولهم شعر بكذا : أحس به . وانظر العمانية ص ٣ .

(٥) يقال أوجده الشيء : جعله يجده ويظفر به ، كما في اللسان والقاموس . ووزن ط

« وسأبين لك » .

(٦) الإرهاس : الإرضاد ، والإثبات ، والتأيس .

ألا ترى أن أحداً لم يبيع قطُّ سلعةً بدرهمٍ إلا وهو يرى أن ذلك الدرهم خيرٌ له من سلعته . ولم يشتري^(١) أحدٌ قطُّ سلعةً بدرهمٍ إلا وهو يرى أن تلك خيرٌ له من درهمه . ولو كان صاحب السلعة يرى في سلعته ما يرى فيها صاحب الدرهم ، وكان صاحب الدرهم يرى في الدرهم ما يرى فيه^(٢) صاحب السلعة ما اتَّفَقَ بينهما شراءً أبداً ، ولا بيعاً أبداً . وفي هذا جميع المُفسدة ، وغايةُ الهلكة .

فسيحان الذي حَبَّبَ إلينا ما في أيدي غيرنا ، وحَبَّبَ إلى غيرنا ما في أيدينا ، ليقع التَّبَاعُ . وإذا وقع التَّبَاعُ وقع التَّرَائِحُ ، وإذا وقع التَّرَائِحُ وقع التَّعَائِشُ .

ويدلُّك أيضاً على اختلاف طبائعهم وأسبابهم : أنَّك تجد الجماعة وبين أيديهم الفاكهة والرُّطْبَ ، فلا تجدُ يدين تلتقيان^(٣) على رُطْبَةٍ بعينها ، وكلُّ واحد من الجميع يرى ما حَوَاهُ الطَّبِقُ ، غير أنَّ شهوته وقَعَتْ على واحدةٍ غير التي آثَرَهَا صاحبه^(٤) . ولربَّما سَبَقَ الرجلُ إلى الواحدة ، وقد كان صاحبه يريدُها في نفسه ، غير أنَّ ذلك لا يكون إلا في الفَرُطِ ، ولو كانت^(٥) شهواتهم ودواعيهم تتَّفَقُ على واحدةٍ بعينها لكان في ذلك التَّمَانُعُ والتَّجاذبُ^(٦) ، والمبادرةُ وسوءُ المخالطة والمؤاكلة . وكذلك هو في شهوة النساء والإماء ، والمراكيب والكُتبي . وهذا كثيرٌ ، والعلم به قليل . وبأقلِّ ممَّا قلنا^(٧) يعرف العاقلُ صوابَ مذهبنا . والله تعالى نسألُ التوفيق .

(١) ب : « ولم يشتر » ، صوابه في م ، ط .

(٢) فيه ، سأقطة من ب . وفي م : « فيها » ، تحريف .

(٣) ب فقط : « فلا تجد » بالنون . وفي ب ، م : « يلتقيان » ، واليد أنى .

(٤) ب ، م : « صاحبها » .

(٥) ب فقط : « كان » .

(٦) م فقط : « التحارب » .

(٧) ب : « وبأقل ما قلنا » .

وهو الذى ^(١) خالفت بين طبايعهم وأسبابهم ، حتى لا يتفق على
تخرص خبير واحد ^(٢) ، لأن في اتفاق طبايعهم وأسبابهم في جهة الإخبار
فساداً أمورهم ، وقلة فوائدهم واعتبارهم ، وفي فساد أخبارهم فساداً
متاجرهم والعلم بما غاب عن أبصارهم ، وبطلان المعرفة بأنبيائهم
ورسلهم عليهم السلام ، ووعدهم ووعيدهم ، وأزهرهم ونبيهم وزجرهم ،
ورغبتهم ، وخطودهم ، وقصاصهم الذى هو حياتهم ، والذى يعدل
طبايعهم ، ويسوى أخلاقهم ، ويقوى أسبابهم ^(٣) ، والذى به يتأمنون
من توائب السباع ^(٤) ، وقلة احتراس البهائم ، وإضاعة الأعمار . وبه
تكثر خواطيرهم وتفكيرهم ، وتحسن معرفتهم ^(٥) .

ولم نقل إن العدد الكثير ^(٦) لا يجتمعون على الخبر الباطل ،
كالكذيب والتصديق ، ونحن قد نجد اليهود والنصارى ، والمجوس
والزنادقة ، والدهرية وعباد البدعة ^(٧) يكذبون النبي صلى الله عليه
وسلم ، وينكرون آياته وأعلامه ، ويقولون : لم يأت بشيء ، ولا بان
بشيء . وإنما قلنا : إن العدد الكثير ^(٨) لا يتفقون على مثل إخبارهم
أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، التهاى الأبطحى عليه السلام
خرج بمكة ، ودعا إلى كذا ، وأمر بكذا ، ونهى عن كذا ، وأباح كذا ،

(١) ب ، م : « والذى » .

(٢) انظر ما سبق في ص ٢٤١ ، ٢٤٨ .

(٣) ب ، م : « ويقوم أسبابهم » .

(٤) ب ، م : « توائب » ، صوابه في ط .

(٥) ب ، ط : « ويمين معرفتهم » .

(٦) ب ، م : « ولم يقل إن العدد كثير » ، تحريف ما في ط .

(٧) البدعة : جمع بد ، بالضم ، وهو الضم ، معرب بت ، ويجمع أيضاً على أبداد .

وفي ب ، م : « البدرة » ، وفي ط : « المبدرة » ، صوابها ما أثبت .

(٨) ب ، م : « كثير » ، صوابه في ط .

وجاء بهذا الكتاب الذي نقرؤه ، فوجب العمل بما فيه ، وأنه تحدى
البلغاء^(١) والخطباء والشعراء ، بنظمه وتأليفه ، في المواضع الكثيرة ،
والمحافل العظيمة . فلم يرُم ذلك أحدٌ ولا تكلفه ، ولا أتى ببعضه
ولا شبيهه منه ، ولا ادعى أنه قد فعل ، فيكون ذلك الخبرُ باطلاً .

وليس قولُ جَمْعهم إنه كان كاذباً^(٢) معارضةً لهذا الخبر ، إلا أن
يُسَموا الإنكار معارضة . وإنما المعارضة مثلُ الموازنة والمُكايَلة ، فمتى
قابلونا بأخبارٍ في وزن أخبارنا ومخرجها ومجيئها ، فقد عارضونا
ووازنونا وقابلونا ، وقد تكافينا^(٣) وتدافعنا . فأما الإنكار فليس بحجة ،
كما أنَّ الإقرار ليس بحجة ، ولا تصديقنا النبيَّ صلى الله عليه وسلم
حُجَّةً على غيرنا ، ولا تكذيبُ غيرنا له حُجَّةٌ علينا ، وإنما الحُجَّةُ في
المجيء الذي لا يمكن في الباطل مثله .

فإن قلتَ : وأى مجيء أثبتَ خبر النَّصارى عن عيسى بنِ مريمَ
عليه السلام ؟ وذلك أنك لو سألتَ النَّصارى مجتمعين ومتفرقين
لخبروك عن أسلافهم أنَّ عيسى قد قال : إني إله .

قلنا : قد علمنا أنَّ نصارى عصرنا لم يكذبوا على القرن الذي كان
قَبْلهم ، والذين كانوا يَلُونهم . ولكنَّ الدليل على أنَّ أصلَ خبرهم ليس
كفرعه ، أنَّ عيسى عليه السلام لو قال : إني إله - لما أعطاه الله تعالى
إحياة الموتى ، والمشى على الماء . على أنَّ في عيسى عليه السلام^(٤) دلالةً
في نفسه ، أنه ليس بإله ، وأنه عبدٌ مدبرٌ ، ومقهورٌ ميسرٌ ، وليس

(١) ب : « تجد » م : « تحد » صوابها في ط .

(٢) ب : « أنه كذا كان كاذباً » م : « أنه كان كاذبة » ، صوابها في ط .

(٣) ب : « تكافنا » بالهمز .

(٤) ب فقط : « على أن عيسى عليه السلام » .

خبرهم هذا إلا كإخبار النصارى عن آباءهم والقرن الذي يليهم أن بولس^(١) قد كان^(٢) جاء بالآيات والعلامات. وإخبار المانية^(٣) عن القرن الذي كان يليهم منه^(٤) أن ماني قد كان جاءهم بالآيات والعلامات. وإخبار المجوس عن آباءهم الذين كانوا يلونهم أن زرادشت قد جاءهم بالآيات والعلامات. وقد علمنا أن هؤلاء النصارى لم يكذبوا على القرن الذي كان يليهم ، ولا الزنادقة ولا المجوس . ولكن الدليل على أن أصل خبرهم ليس كفرعه^(٥) أن^(٦) الله جل وعز لا يعطي العلامات من لا يعرفه ، لأن بولس إن كان عنده أن عيسى عليه السلام إله فهو لا يعرف الله تعالى ، بل لا يعرف الربوبية من العبودية ، والبشرية من الإلهية .

٢٩ - فصل منه

وللنصارى خاصّة رياء عجيب^(٧) ، وظاهر زهد ، والناس أبطأ شئ عن التصفّح ، وأسرع شئ إلى تقليد صاحب السنّ والسّمّت ، وظاهر العمل أدعى لهم من العلم .

(١) بولس : أحد الخواريين ، وقد قام نيرون ملك الروم بقتله هو وبطرس بمدينة رومية وصلبهما متكسين ، وذلك بعد وفاة المسيح باثنتين وعشرين سنة ، وذلك بعد ثلاث عشرة سنة من ملكه . ابن الأثير ١ : ٣٢٥ والتنبية والإشراف ١٠٩ - ١١٠ . وفي م فقط : « يونس » تحريف .

(٢) كان ، ساقطة من ب ، م .

(٣) المانية ، والمانية : أتباع ماني المثني الذي زعم أنه الفارقليط الذي بشر به عيسى عليه السلام ، واستخرج مذهبه من الموحية والنصرانية . وانظر ما كتبت من تحقيق في حواشي الحيوان ٤ : ١ . وفي ط : « المانوية » .

(٤) أي من زمن ماني . وفي ب ، م : « منهم » .

(٥) أن ، ساقطة من ب ، ط .

(٦) ط فقط : « لأن » .

(٧) م : « رثاء » ، وهي لغة قرآنية .

٣٠ - فصل منه على ذكرهم

وكلُّ قومٍ بنوا دينهم على حبِّ الأشكال^(١)، وشبه الرجال^(٢)،
يشتمُّ وجدُّهم به^(٣) وحبُّهم له، حتَّى ينقلب^(٤) الحبُّ عشقاً، والوجدُ
صبايةً، للمشاكله التي بين الطباع، والمناسبة التي بين النفوس .

وعلى قدر ذلك يكون البُغض والحقد، لأنَّ النَّصارى حين جعلوا
ربَّهم إنساناً مثلهم بَخَعَتْ نفوسهم بأشْيَبَةٍ له^(٥) لتوهمهم الربوبية،
وأسمحت بالموذَّة لتوهمهم البشريَّة، فذلك قدَّروا من العبادة على ما لم
يقدِّر عليه من سواهم^(٦). وبمثل هذا السَّبب صارت المشبهة منَّا أعيدي
مُنَّ ينفى التشبيه، حتَّى ربَّما رأيتَه يتنفَّس من الشوق إليه، ويشهق^(٧)
عند ذكر الزيارة، ويبكي عند ذكر الرؤية، ويُعشى عليه عند ذكر رفع
الحُجُب. وما ظنُّك بشوقٍ من طمِع في مجالسة ربِّه عزَّ وجلَّ، ومحادثة
خالقه عزَّ ذكره .

ولقد غالت القومُ عُولاً، ودعاهم أمرٌ، فانظُرْ ما هو؟ وإنَّ^(٨) سألتني
عنه خبرتك: إنَّما هو نتيجةُ أحدِ أمرين: إمَّا تقليدُ الرجال، وإمَّا طلبُ
تعظيمهم. ولذلك السَّبب لم ترض اليهود من إنكار حقِّه بتكذيبه،
حتَّى طلبت قتله وصلَّبه، والمثَّل به، ثم لم ترض بذلك حتَّى زعمت

(١) ط: «بنوا على حب الأشكال» .

(٢) ب، م: «وشبه الرجال» ط: «وشد الرجال»، ولعل وجهه ما أثبت .

(٣) ب: «أشد وجدهم به» م: «أشد وجدهم به»، وأثبت ما في ط .

(٤) ب: «تقرب» م: «يقرب»، صوابهما في ط .

(٥) بخت: خضعت وأقرت. وفي ب: «بخت؛ تحريف. م، ط: «ياهيته له»

والإلهية: الربوبية. وأثبت ما في ب .

(٦) ب، م: «من العبادة ما لم يقدر عليه سواهم» .

(٧) ب، م: «ويشهده» .

(٨) ب: «وإذا» .

أَنَّهُ لغيرِ رِشْدَةٍ ، فلو كانت دون هذه المنزلة منزلةً لما انتهت اليهودُ دونَ بلوغها ، ولو كانت فوق ما قالت النَّصارى منزلةً لما انتهت دونَ غايتها .

وبذلك السَّببِ صارت الرفضة أشدَّ صبايةً وتحرقاً ، وأفرطَ غضباً ، وأدومَ حقدًا . وأحسنَ تواضلاً من غيرهم أيضاً .

وربَّ خيرٍ قد كان فاشياً^(١) فدخل عليه من الليل ما منعه من الشهرة ، وربَّ خيرٍ ضعيف الأصل ، واهن المخرج ، قد تبيأ له من الأسباب ما يُوجب الشهرة .

٣١ - فصل منسه

واعلم أنَّ لأكثر الشعر طمناً^(٢) وحظوظاً ، كالبيت يحظي ويسير ، حتَّى يحظي صاحبه بحظّه ، وغيره من الشعر أجود منه . وكالمثل يحظي ويسير ، وغيره من الأمثال أجود . وما ضاع من كلام النَّاسِ وُضِلَّ أكثرُ ممَّا حُظِرَ وحكى . واعتبر ذلك من نفسك ، وصديقك وجليسك .

وأمر الأسبابِ عجيب . ومن ذلك قتلُ عليِّ بن أبي طالب^(٣) من السَّادة والقادة والحُماة ، ما عسى لو ذكرته لاستكبرته واستعظمته ، فأضرب النَّاسُ عن ذكرهم ، وجَهِلتِ العوامُ مواضعهم ، وأخذوا في ذكر عمرو بن عبدود^(٤) فرفعوه فوق كلِّ فارس مشهور ، وقائلٍ مذكور .

(١) فاشياً : دائماً منتشرأ . ب ، م : « ناسياً » صوابه في ط .

(٢) في الأصول : « طمناً » بالهملة ، صوابه ما أثبت . والظنن : الارتحال والسير .

(٣) ب ، م : « وليس كل ذلك يعرف قبل علي بن أبي طالب » ، تحريف .

(٤) عمرو بن عبدود : أحد أشراف قريش . وقد ظهر أمره في غزوة بدر الكبرى قاتل فيها فأثبته الجراحة ، فلم يشبه يوم أحد ، فلما كان يوم الخندق خرج معلماً ليرى مكانه ، ودعا إلى المبارزة ، فناله علي بن أبي طالب وجاوله حتى قتله . وانظر السيرة ٤٣٦ ، ٦٧٧ ، ٦٩٩ . وفي ب ، م : « وأخذوا في ذلك » . وود : صنم يقال يفتح الواد وضمها ، وفتحها أكثر في اللغة وفي القراءات .

وقد قرأتُ على العلماء كتاب الفجار^(١) الأوَّل ، والثاني ، والثالث .
وأمر المظبيين^(٢) والأحلاف^(٣) ، ومقتل أبي أزيهر^(٤) ، ومجىء الفيل ، وكلُّ
يومٍ جَمَعُ كان لقريش ، فما سمعتُ لعمرٍو هذا في شيءٍ من ذلك ذكرًا .

فإن قلت : إنَّ نُبُلَ القتال زيادة في نُبُلِ المقتول ، فكلُّ من قتله على
ابن أبي طالب رضوان الله عليه أنبَلُ منه وأحقُّ بالشهرة ، ولكن أشعار
ابن دأبٍ^(٥) ، ومناقلة الصَّبيان في الكتابِ هما اللتان أورثتا^(٦)
ما تَرَى وتسمع .

(١) أيام الفجار معروفة في أيام العرب أيام الجاهلية . وصيحت فجاراً لأنها كانت في الأضهر
الحرم ، وكانت قبل مبعث النبي ، صلى الله عليه وسلم ، بست وعشرين سنة . وقال النبي صلى
الله عليه وسلم : « كنت أنبل على أعمامى يوم الفجار وأنا ابن أربع عشرة سنة » أنبل . : أنالهم
النبل ، أمي السهام . وانظر العتد ٥ : ٢٥١ - ٢٥٧ . ب ، م : « الفجار » ، صوابه في ط .
(٢) المظبيون : هم أسد ، وزهرة ، وتميم ، عقدت معهم بنو عبد مناف حلفاً مؤكداً على
ألا يتخاذلوا ، وأن يكونوا يوماً واحدة على أخذ ماقى يدي عبد الدار من الحجابة والرفادة واللواء
والسقاية ، فأخرجت بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيباً فوضعوها في المسجد ، ثم غس القوم
أيديهم فيها جيماً وتعاقدوا ، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً ، فسوا المظبيين . وكان أبو بكر
من المظبيين .

(٣) الأحلاف ، هم خمس قبائل من قريش : عبد الدار ، وجمح ، وسهم ، وغزوم ، وعلى
ابن كعب . تعاقدت معهم بنو عبد الدار حلفاً مؤكداً ألا يتخاذلوا ، فسوا الأحلاف . وكان عمر
ابن الخطاب من الأحلاف . انظر اللسان (حلف) ، وكذلك المجر لابن حبيب ١٦٦ - ١٦٧ .
(٤) في ب ، ط : « ومقتل أبي أزيهر » وفي م : « ومقتل بن أبي أزيهر » ، صوابهما
ما أثبت . وانظر خبر مقتل أبي أزيهر الدومى في كتاب أسماء المفتابين من نوادر المخطوطات
٢ : ١٤٩ . والذي قتله هو هشام بن الوليد بن المغيرة .

(٥) اسمه عيسى بن يزيد بن بكر بن داب ، كان خطيباً شاعراً ناسباً ، وكان يضع الحديث
والشعر كأحاديث السمر . وكان يضع الحديث بالمدينة ، وابن شوكر يضع الحديث بالسند ، وفيهما
يقول خلف الأحر :

أحاديث ألفها شوكر وأخرى مؤلفة لابن داب

وكان كبير الأدب ، عذب الألفاظ ، صاحب خطوة عند الهادى . روى عنه شبابة بن سوار ،
ومحمد بن سلام الجمحي . تاريخ بغداد ٥٨٤٥ ولسان الميزان ٤ : ٤٠٨ . ط : « ابن ود » ،
تحريف .

(٦) ب : « ورثنا » م : « أورثنا » ، وأثبت ماقى ط .

٣٢ - فصل منه في أمر الأخبار

وإنما ذكرت هذا لتعلم أن الخير قد يكون أصله ضعيفاً ثم يعود قوياً ، ويكون أصله قوياً فيعود ضعيفاً ، للذي يعتره من الأسباب ، ويحلُّ به من الأعراض ، من لدن مخرجه وقصوله ، إلى أن يبلغ مدته (١) ، ومنتهى أجله ، وغاية التدبير فيه ، والمصلحة عليه .

فلما كان هذا مخوفاً ، وكان غير مأمون على المتقادم منه وضعَّ الله تعالى لنا على رأس كلِّ فترة علامة ، وعلى غاية كلِّ مدَّة أمانة ، ليُعيد قوَّة الخير ، ويجدد ما قد همَّ بالدُّروس ، بالأنبياء والمرسلين (٢) عليهم السلام أجمعين . لأنَّ نوحاً عليه السلام هو الذي جدَّد الأخبار التي كانت في الدهر الذي بينه وبين آدم عليهما السلام ، حتى مُنعهما الخلل ، وحامها التَّقصان بالشواهد الصادقة ، والأمارات القائمة . وليس أن أخبارهم وحججهم قد كانت دَرَسَتْ واختلَّت ، بل حين همَّت بذلك (٣) وكادت . بعثه الله عزَّ وجلَّ بآياته لثلا تخلو الأرض من حُججه ، ولذلك سموا آخر الدهر الفترة . وبين الفترة والقطعة فرق . فاعرف ذلك .

ثم بعث الله جلَّ وعزَّ إبراهيم عليه السلام على رأس الفترة الثانية التي كانت بينه وبين دهر نوح ، وإنما جعلها (٤) الله تعالى أضولَّ فترة كانت في الأرض ، لأنَّ نوحاً كان ليث في قومه يحتجُّ ويخبر ، ويؤكد ويبين ، ألف سنة لإلخمسين عاماً ، ولأنَّ آخر آياته كانت أعظم الآيات ، وهي الطوفان ، الذي أغرق الله تعالى به (٥) جميع أهل الأرض

(١) ب : « تبلغ مدته » .

(٢) ط : « من أنبياء المرسلين » .

(٣) كلمة « بل » من ط فقط .

(٤) ب ، م : « جملة » ، صوابه في ط .

(٥) ب ، م : « التي غرق الله تعالى » فقط ، صوابه في ط .

غيره وغير شيعته ، وإثماً أفار الماء^(١) من جوف تنور ، ليكون أعجب للآية^(٢) ، وأشهر للقصّة ، وأثبت للحجّة .

ثم ما زالت الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ، بعضهم على إثر بعض في الدهر الذي بين إبراهيم ، وبين عيسى عليهما السلام . فلترادف حججهم ، وتظاهر أعلامهم ، وكثرة أخبارهم ، واستفاضة أمورهم ، ولشدة ما تأكّد ذلك في القلوب ، ورسخ في النفوس ، وظهر على الألسنة ، لم يدخلها الخطل والنقص^(٣) والفساد ، في الدهر الذي كان بين النبي عليه السلام وبين عيسى عليه السلام .

فحين همت بالضعف ، وكادت تنقص عن التمام^(٤) ، وانتهت قوتها ، بعث الله تعالى محمّداً صلى الله عليه وسلم ، فجدد أفاضل آدم ونوح ، وموسى وهارون ، وعيسى ويحيى ، عليهم السلام ، وأموراً بين ذلك ، وهو الصادق ، بالشواهد الصادقة ، وأن الساعة آتية^(٥) ، وأنه ختم الرسل عليهم السلام به ، فعلمنا عند ذلك أن حجته ستم إلى مدتها ، وبلغ أمر الله عز وجل فيها .

٣٣ - فصل

ثم رجع الكلام إلى القول في الأخبار ، فأقول :

إنّ الناس موكّلون بحكاية كلّ عجب ، وميسرون للإخبار عن

(١) يقال فار الشيء : جاش ، وأفرته وفرته أيضاً بالندبة فيما . وأنشد ابن الأعرابي :

وكانوا قموداً حولها يرقبونها وكانت فتاة الحى من يفسرها

ويروى : « يفورها » ويروى : « يغيرها » . ط فقط : « فار الماء » .

(٢) ب : « وليكون » بزيادة واو .

(٣) ب : « لم يدخلها النقص » فقط . م : « لم يدخلها الخلل والنقص » ، وأثبت ما في ط .

(٤) ب : « وكانت تنقص عن التمام » ، صوابه في م ، ط .

(٥) ب ، م : « أن الساعة آتية » .

كلَّ عظيمٍ، وليسوا^(١) للحسنِ أحكى منهم للقميحِ، ولا لما يَنفَعُ أحكى منهم لما يضرُّ، وعلى قدرِ كِبَرِ الشئِ تكونُ حكايتهم له واستأعهم^(٢).

ألا ترى أنَّ رجلاً من الخلفاءِ لو ضربَ عنقَ رجلٍ من العظماءِ لما أمسى وفي عسكره ويُلدته جاهلٌ ولا عالمٌ إلاَّ وقد استقرَّ ذلك عنده وثبت في قلبه^(٣)، لأنَّ الناسَ بين حاسدٍ فهو يحكى ذلك الذى دخَل عليه من الثُكُلِ وقلَّةِ العددِ، وبين واجدٍ^(٤) يعجبُ الناسَ، وبين واعظٍ مُعتبرٍ، وبين قومٍ شأنهم الأراجيفُ بالفسادِ والصالحِ. ولو كانَ ضربَ عنقَه في يومِ عيدٍ، أو حَلَبَةٍ^(٥)، أو استمطارٍ، أو موسمٍ، لكانَ أشدَّ لاستفاضة، وأسرعَ لظهوره.

ولو جاز أن يكتمَ النَّاسُ هذا وشبهه على الإيثارِ للكتمانِ، وعلى جهة النسيانِ، لكنَّنا لندرى: لعلَّه قد كان في زمنِ صِقِّينَ والجمَلِ والنهرِوانِ حربٌ مثلها أو أشدُّ منها، ولكن النَّاسَ آثروا الكتمانَ، واتَّفَقوا على النسيانِ.

فإذا كان قتلُ الملكِ الرَّجَلِ من العُظماءِ بهذه المنزلة من قابِوبِ الأعداءِ، ومن قلوبِ الحكماءِ والعَوَّاءِ، فما ظنُّكَ بمن لو أبصروا رجلاً قد أحياه بعد أن ضربَ عنقَه، وأبانَ رأسَه من جسده، أليس كان يكون تعجبهم^(٦) من إحيائه أشدَّ من تعجبهم من قتله، وكان يكون إخبارهم من خلفوا في منازلهم ومن وَرَدَ عليهم عن القتلِ ليكون سبباً للإخبار عن الإحياء، إذ كان الأولُ صغيراً في جَنبِ الثَّانِي.

(١) ب، م: « وليس هم ».

(٢) ب: « يكون » بالياء. وكلمة « له » من ط فقط.

(٣) ب، م: « ذلك عنده وقلبه » تحريف.

(٤) ب، م: « واحد »، صوابه في ط.

(٥) يوم الحلبية: يوم سباق الخيل. ب، م: « خلية »، صوابه في ط.

(٦) ط فقط: « أليس يكون يكون تعجبهم ».

فهذا يدلُّ على أنَّ أعلامَ الرُّسل عليهم السلام وآياتهم أحقُّ بالظهور والشهرة ، والقهر للقلوب والأسماع ، من مخارجهم وشرائعهم . بل قد نعلم أنَّ موسى عليه السلام لم يُذكر ولم يُشهر إلا لأعاجيبه وآياته . وكذلك عيسى عليه السلام ، ولولا ذلك لما كانا إلا كغيرهما ممن لا يُشعر بموته ولا مولده .

وكيف تتقدم المعرفة بهما المعرفة بأعلامهما^(١) وأعاجيبهما ، وأنت لم تسمع بذكرهما قطُّ ، دون ما ذكر من أعلامهما .

فإذا كان شأنُ النَّاسِ الإخبارَ عن كلِّ عَجِيبٍ ، وحكايةَ كلِّ عَظِيمٍ ، والإطرافَ بكلِّ طريف ، وإيرادَ كلِّ غريبٍ من أمورِ دنيائهم ، فما لا يمتنع^(٢) في طبائعهم ، ولا يُخرَجُ من قوى الخليفة في البطش والحيلة ، أحقُّ بالإخبار والإذاعة ، وبالإظهار والإفاضة ، هذا على أن يُترك الطَّبَاعُ وما يُولَدُ عليه^(٣) ، والنَّفْسُ وما تُنتج^(٤) ، والعللُ وما يسخرُ فكيف إنَّ كان الله عز وجل قد خصَّ أعلامَ أنبيائه وآياتِ رسله عليهم السلام من تبيين الناس على الإخبار عنها^(٥) ، ومن تسخير الأسماع لحفظها ، بخاصَّةٍ لم يجعلها لغيرها^(٦) .

٣٤ - فصل منه

فإن قال قائل : إنَّ الحجَّةَ لا تكون حجَّةً حتى تعجز الخليفة^(٧) ،

(١) ب ، م : « وكيف يتقدم » وبمدها في ب فقط : « المعرفة » . وتتمة الكلام من م ، ط .

(٢) ب ، م : « ولا ما يمتنع » ، صوابه في ط .

(٣) الطَّبَاعُ : الطبع ، ويكون أيضاً جمعاً للطبع ، كما قال الأزهرى . وفي ط :

« وما تولد عليه » ، فلها وجهها .

(٤) ب ، م : « وما ينتج » .

(٥) ب ، م : « عن الإخبار عنها » ، صوابه في ط .

(٦) ب ، م : « خاصة لم يجعلها لغيرها » .

(٧) ب ، م : « حتى يعجز الخليفة » .

وتخرج^(١) من حدّ الطاقة ، كإحياء الموتى ، والمشي على الماء ، وكفلق البحر ، وكإطعام الثّمار في غير أوان الثّار ، وكإنطاق السّباع ، وإشباع الكثير من القليل ، وكلّ ما كان جسماً مُخترعاً ، وجرمماً مُبتدعاً . وكالذي لا يجوز أن يتولّاه إلّا الخالق ، ولا يقدر عليه إلّا الله عزّ ذكره .

فأمّا الأخبار التي هي أفعالُ العباد ، وهم تولّوها ، وبهم كانت ويقولهم حدّثت ، فلا يجوز أن يكون حجّة ، إذ كان^(٢) لا حُجّة إلّا مالا يقدر عليه الخليفة ، وما لا يُتوهم من جميع البرية .

قلنا : إنّنا لم نَزعم أنّ الأخبار حُجّةٌ فيحتجّون علينا بها ، وإنّما زعمنا أنّ مجيئها حجّةٌ ، والمجيء ليس هو أمرٌ يتكلّفه الناس ويختارونه على غيره ، ولو كان كذلك لكانوا متى أرادوه فعلوه وتبيّثوا له ، ولفعلوه في الباطل^(٣) كما يجيء لهم في الحقّ . والمجيء أيضاً ليس هو فعلاً قائماً فيستطيعونه أو يعجزوا عنه^(٤) ، وإنّما هو الإنسان ، يعلم أنّه إذا لقي البصريين فأخبروه أنّهم قد عابنوا بمكة شيئاً ، ثمّ لقي الكوفيين فأخبروه بمثل ذلك ، أنّهم قد صدّقوا^(٥) . إذ كان^(٦) مثلهم لا يتواطأ^(٧) على مثل خبرهم على جهلهم بالغيّب ، وعلى اختلاف طبائعهم وهمهم وأسبابهم .

فليس بين هذا وبين إحياء الموتى والمشي على الماء فرق ، إذ كان الناس لا يقدرّون عليه ، ولا يطمعون فيه ، والمجيء إنّما هو معنى

(١) ب ، م : « ويخرج » .

(٢) ب فقط : « إذا كان » ، تحريف .

(٣) هذا ما في ط . وفي م : « وتبيّثوا لفعله في الباطل » ، وفي ب : « وتبيّثوا لفعلهم في الباطل » .

(٤) ب ، م : « فيستطيعونه أو يعجزون له عنه » .

(٥) في ب : « فأخبروه بمثل ذلك قد صدّقوا » . وتسمّة الكلام من م ، ط .

(٦) ب فقط : « إذا كان » ، تحريف .

(٧) ب ، م : « يتواطأ » ، تحريف .

معقول ، وشيءٌ موهوم . إذ كان^(١) كيف يكون ومعلومٌ أنّ الناس لا يمكنهم أن يقبلوا ، ولا يستطيعون فعله . وإنما مدارُ أمرِ الحجّة على عجز الخليفة . فمتى وجدّت أمراً ووجدت الخليفة عاجزةً عنه^(٢) فهي حجة . ثم لا عليك جوهرًا كان أو عرضًا ، أو موجوداً أو متوهمًا معقولًا . ألا ترى أنّ فلق البحر ليس هو من جنس اختراع النار ، لأنّ الفلق هو انفراج أجزاء ، والنار أجرامٌ حادثة .

وكذلك لو ادّعى رجلٌ أنّ الله عزّ وجلّ أرسله وجعل حجّته علينا^(٣) الإخبار بما أكلنا وأدّخرنا وأضمّنا ، لكان قد احتجّ علينا . فإن قلتم^(٤) : إنّ المنجمين ربّما أخبروا بالضمير ، وبالأمر المستور ، وبيعض ما يكون .

قلنا : أمّا واحدة^(٥) فإنّ خطأ المنجمين كثير ، وصوابهم قليل ، بل هو أقلُّ من القليل . وأنتم لا تقدرون أن تقضونا^(٦) من أخبار المرسلين عليهم السلام في كثير أخبارهم على خطأ واحد^(٧) ، والذي سهّل قليل المنجمين طرفةً ذلك منهم^(٨) ، لأنهم لو قالوا فأخطأوا أبدًا لما كان

(١) م ، ط : « إذا كان » .

(٢) ب : « غيره عجزه » م ؛ « غير عاجزة » ، صوابهما في ط .

(٣) ب : « فجعله حجة علينا » تحريف . وفي ط : « فجعل حجته علينا » ، وأثبت ما في ب .

(٤) ب : « فلم قلتم » تحريف . ط : « فإن قلت » ، وأثبت ما في م .

(٥) بدله في ط : « هناك فرق » .

(٦) ط : « أن تقفون » صوابه في ب ، م .

(٧) ب : « في كثرة أخبارهم » . ب ، ط : « على خطأ واحد » . والملاحظ بميل كثير إلى استعمال « الخطأ » بمعنى الخطأ ، وهو ما ورد هنا في نسخة م . انظر الحيوان ١ : ٢١٣ / ٣ :

٢٥٨ ، ٥٠٠ ، والبيان ٤ : ١٦ ، ٦٧ .

(٨) الطرافة من الطريف ، وهو الشيء الغريب المستحدث . وفي جميع النسخ : « طرفة » بالطاء المعجمة ، والطرافة : الكيس والحقق ، ولا وجه لها هنا .

عَجَبًا ، لِأَنَّهُ لَيْسَ بِعَجَبٍ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ لَا يَعْلَمُونَ مَا يَكُونُ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ ، وَمَنْ أَعْجَبَ الْعَجَبِ أَنَّ يُوَافِقَ قَوْلَهُمْ بَعْضُ مَا يَكُونُ .
وقد نجد المنجمين يختلفون في القضية الواحدة ، ويُخطئون في أكثرها . وقد نجد الرسول يُخبرهم عمّا يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ وَيُدْخَرُونَ وَيُضْمَرُونَ ، في الأمور الكثيرة المعاني ، والمختلفة في الوجوه ، حتّى لا يخطيء في شيء من ذلك . وليس في الأرض منجم ذكر شيئاً^(١) أو وافق ضميراً إلّا وأنت واجد بعض من يزرع^(٢) قد يجيء بمثله وأكثر منه .

فإن قلت : إنَّ الناس يَكْذِبُونَ في الإخبار عن الأعراب والكهّان من كلِّ جيل ؟

قلنا : فهم في إخبارهم عن المنجمين أكذب .

وبعد ، فالناس غير مستعظمين لكثرة كذب المنجمين وخطاياهم وخذعهم ، والناس يستعظمون^(٣) اليسير من الرسائل عليهم السلام . وكلّما كان الرجل في عينك أعظم ، وكان عن الكذب أجزر ، كان كذبه عندك أعظم . وإنّما المنجم عند العوام كالطبيب الذي إنَّ قَتَلَ المریض علاجُه كان عندهم أنّ القضاء هو الذي قتله^(٤) ، وإن برأ كان دو أبرأه . على أنّ صوابهم أكثر ، ودليلهم أظهر .

وقد صار النَّاسُ لا يقتصرون للمنجمين على قدر ما يسمعون منهم ، دون أن يولّدوا لهم ، ويضعوا الأعاجيب عن ألسنتهم .

(١) ب ، م : « قال شيئاً » .

(٢) الزجر : ضرب من الكهانة . وفي جميع النسخ : « ما يزرع » . ووجهه ما أثبت .

(٣) في جميع النسخ : « يستعظمون » ، صوابه ما أثبت .

(٤) ب ، م : « إن قبل المريض » ، و « هو الذي قتله » صوابهما في ط .

وكلُّ ملحدٍ في الأرض للرسول طاعنٍ عليه ، عائبٍ له ، يرى أن يصدق عليه كلُّ كذابٍ يريد ذمّه ، وأن يكذب كلُّ صادقٍ يريد مدحه .
وبعد ، فلو كان خبرُ المنجمين^(١) في الصوابِ كخبر الأنبياء والمرسلين عليهم السلام ، الذي هو حُجَّةٌ ، لما كان خبرُ المنجمين حُجَّةً .

فإن قلت : ولم ذلك ؟

قلت : لأنَّ من كثر صوابُه على غير استدلالٍ ومقايَسة ، وعلى^(٢) غير حسابٍ وتجربة ، أو على نظريٍّ ومُعابنةٍ لم يكن الأمرُ مِنْ قبل الوحي^(٣) ؛ لأنَّك لو قلت قصيدةً في نفسك فحدّثك بها رجل ، وأنت تعلم أنه ليس بمنجم ، وأنشدكها كلّها ، لعلمت أن ذلك لا يكون إلاّ بوحى .

ووثل ذلك رجلٌ اشتدَّ وَجَعُ عينه فعالجه طبيبٌ فبرأ^(٤) ، فلو جعل الطَّبيبُ ذلك حُجَّةً على نُبوته لوجب علينا تكذيبه ، ولو قال رجلٌ من غير أن يمسه أو يدنو إليه : اللهم إن كنت صادقاً عليك فاشفه الساعة ، فبرأ^(٥) من ساعته لعلمنا أنه صادق .

فإن قالوا : وما علمنا أن محمداً عليه السلام لم يكن منجماً ؟

قلنا : إن علمنا بذلك كعلمنا بأنَّ العباسَ وحذرةَ وعلياً وأبا بكرٍ وعمر ، رضوانُ الله عليهم أجمعين ، لم يكونوا منجمين ، ولا أطباءً متكهّنين . وكيف يجوز أن يصير إنسانٌ عالماً بالنجوم من غير أن يختلف

(١) ب فقط : « غير المنجمين » ، تعريف .

(٢) ب ، م : « على » بسقوط الواو .

(٣) ب ، م . : « لم يكن الأمر قبل الوحي » ، وإكالة من ط .

(٤) ط : « فبرئ » ، وهما لغتان : برأ يبرأ ويبرؤ ، وبرئ يبرأ ، أى شفى من مرضه .

(٥) م ، ط : « فبرئ » .

إلى المنجمين ، أو يختلفوا إليه ، أو يكونَ علمُ النجوم فاشياً في أهل بلاده ، أو يكونَ في أهله واحداً معروف به . ولو بلغ إنسانٌ في علم النجوم ، وليست معه عِلَّةٌ من هذه العلة ، وكان ذلك يخفى ، لكان ذلك كبعض الآياتِ والعلامات .

ومتى رأينا حاذقاً بالكلام ، أو بالطبِّ ، أو بالحساب ، أو بالغناء ، أو بالنجوم ، أو بالرُّوض ، خَفِيَ على النَّاسِ موضَعُه وسببُه ؟ !
وجميعُ ما ذكرنا ، فَعنايةُ النَّاسِ به^(١) وعداوتُهُمْ ، وشهرتُهُ في نفسه ، دون محمد صلى الله عليه وسلم .

وهل نصب أحدٌ قطُّ لأحدٍ إلا بدون ما نصبَ له رهطُه^(٢) ، وأداني أهله^(٣) ، ومن معه في بيته وربَّعه .

وما أعرف - يرحمك الله - المعاندَ والمسترشِدَ والمصدِّقَ والمكذِّبَ ، ينكر أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يكن منجماً ولا طبيباً . وإذا قال الجاهل : إنَّه قد كان يعلم الخطَّ فخفَى له ذلك ، وتعلَّم الأسبابَ والقضاءَ في النجوم فخفَى له ذلك ، وتعلَّم البيانَ وقدرَ منه^(٤) على ما يعجز أمثاله عنه وخفَى ذلك ، أليس مع قوله ما يعلمُ خلافه ، يعلمُ أنَّه قد سلَّم له أعجوبةٌ كأعجوبةِ إبراء الأكمه والأبرص ، والمشى على الماء ، إذ كان ذلك لا يجوز ، ولا يمكنُ في الطبائعِ والعقلِ والتَّجربةِ .

وافهم يرحمك الله ما أنا واصفُه لك : هل يجد التَّارك لتصديقه

(١) ب ، م : « عناية النَّاسِ به » .

(٢) نصب له : أظهر له الداء . ط : « وهل نسب أحد قطُّ لأحدٍ إلا دون مانسبه له رهطه » ، تحريف . ويد كلمة « رهطه » في كل من ب ، م وردت لفظه « نعمة » مقحمة .

(٣) الأداني : جمع أدنى ، وهو الأقرب . ب ، م : « وأراني » ، صوابه في ط .

(٤) ب ، م : « وتعلم البيان على قدر منه » ، صوابه في ط .

أَنَّهُ لَا يَدْرِي بِزَعْمِهِ ، لَعَلَّهُ كَانَ أَعْلَمَ الْخَلْقَ بِالنُّجُومِ ، نَاطِرًا لِنَفْسِهِ ،
غَيْرَ مُعَانِدٍ لِحُجَّةِ عَقْلِهِ . وَهُوَ لَمْ يَجِدْ أَحَدًا قَطُّ بَرَعَ فِي صِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ
فَخَفِيَ عَلَى النَّاسِ مَوْضِعُهُ بِكُلِّ مَا حَكَيْنَا وَفَسَّرْنَا .

وَأَنْتَ كَيْفَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي إِخْوَانِكَ مَنْ لَيْسَ بِمَنْجَمٍ ، وَأَنْ فِيهِمْ مَنْ
لَيْسَ بِطَبِيبٍ ، إِلَّا بِمَثَلِ مَا يَعْرِفُ بِهِ رَهْطُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْهُ .

وكيف لم يشتهر ذلك ، ولم لم يحتجَّ به عليه ؟ ولقد بلغ من إسرائفهم
في شتمه ، وإفراطهم عليه ، أَنْ نَافَقُوا وَأَحَالُوا ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ
له : أَنْتَ سَاحِرٌ ، وَأَنْتَ مَجْنُونٌ ! وَإِنَّمَا يُقَالُ لِلرَّجُلِ : سَاحِرٌ ، لِخَلَابَتِهِ
وَحَسَنِ بَيَانِهِ ، وَلُطْفِ مَكَائِدِهِ ، وَجُودَةِ مَدَارَاتِهِ وَتَجَبُّبِهِ . وَيُقَالُ :
مَجْنُونٌ ، لَصُدِّ ذَلِكَ كَلَهُ .

٣٥ - فصل منه

وليس ينتفع الناس بالكلام في الأخبار إلا مع التصادق ، ولا تصادق
إلا مع كثرة السماع ، والعلم بالأصول ؛ لأنَّ رجلاً لو نازع في الأخبار ،
وفي الوعد والوعيد ، والخاص والعام ، والناسخ والمنسوخ ، والفريضة
والتأفلة ، والسنة والشريعة ، والاجتماع والفرقة ، ثم حسنت نيته ،
وناصح عن نفسه ^(١) ، لما عرف حقائق باطل دون أن يكون قد عرف
الوجوه ، وسمع الجمل ^(٢) ، وعرف الموازنة ، وما كان في الطبائع ،
وما يمتنع فيها . وكيف أيضاً يقول في التأويل مَنْ لَمْ يَسْمَعْ بِالتَّنْزِيلِ ؟
وكيف يعرف صدق الخبر من لم يعرف سبب الصدق ^(٣) ؟

(١) في اللسان (نضح) : « ويقال هو يناصح عن قومه وينافع عنهم ، أي يذب عنهم » .
وفي جميع النسخ : « وناصح عن نفسه » ، صوابه ما أثبت .
(٢) ب : « وسمي الجمل » ، صوابه في م ، ط .
(٣) م فقط : « سبب الخبر » .

واعلم أنّ من عود قلبه التشكُّك^(١) اعتراه الضعف ، والنَّفْس عُرُوف^(٢) ، فما عودتها من شيءٍ جرّت عليه .
 والمتخير^(٣) إلى تقوية قلبه وردّ قوته عليه وإفهامه موضع رأيه ،
 وتوقيفه^(٤) على الأمر الذي أثقل صدره^(٥) ، أحوج منه إلى المنازعة
 في فرق ما بين المجيء الذي يكذب مثله ، والمجيء الذي لا يكذب مثله .
 وسنتكلف من علاج دائيه ، وترتيب إفهامه إن أعان على نفسه ،
 بما لا يُبقي سبباً للشك ، ولا علةً للضعف . والله تعالى المعينُ على ذلك ،
 والمحمود عليه .

٣٦ - فصل منه

ومنى سوعنا نبي الله عليه السلام أتكل على عدالته ، وعلى معرفة
 قومه بقديم ظهارته ، وقلة كذبه ، دون أن جاءهم بالعلامات والبرهانات؟
 ولعمري لو لم نجد^(٦) الحافظ ينسى ، والصادق يكذب ، والمؤمن
 يبذل ، لقد كان ما ذهبوا إليه وجهاً .

٣٧ - فصل منه في ذكر دلائل

النبي عليه الصلاة والسلام

وباب آخر يُعرف به صدقه ، وهو إخباره عما يكون ، وإخباره عن

(١) ب : « التشكُّك » ، صوابه في م ، ط .

(٢) ب ، ط : « عزوف » ، صوابها في م .

(٣) في جميع النسخ : « والمتخير » بالحاء المعجمة ، وإنما يراد هنا المتخير المتشكك ، فالوجه ما أثبت .

(٤) في جميع النسخ : « وتوقيفه » ، تحريف ما أثبت .

(٥) ب : « انقل صدره » صواب هذه ما أثبت . وفي م ، ط : « أشغل صدره » ، وهي صحيحة أيضاً . لكن في القاموس : « وأثقله لثة جيدة ، أو قليلة ، أو رديئة » .

(٦) ب ، م : « أن لو نجد » ، صوابه في ط .

ضامتر الناس^(١) ، وما يأكلون وما يدخنون ، ولدعائه المستجاب الذي لا تأخير فيه ، ولا تُخلف له . وذلك أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم حين لقي من قريش والعرب ما لقي من شدة أذاهم له ، وتكذيبهم إياه ، واستعانتهم عليه بالأموال والرجال ، دعا الله جلَّ وعزَّ أن يُجلب بلادهم ، وأن يُدخل الفقر بيوتهم ، فقال صلى الله عليه وآله : « اللهم سينن كسيتي يوسف^(٢) . اللهم اشدِّ وطأتك على مُصر » .

فأمسك الله عزَّ وجل عنهم المطرَ حتى مات الشجر ، وذَهَبَ النَّمْرُ ، وقَلَّتْ المزارعُ ، وماتت المواشي ، وحتى اشتروا القيءَ والعلهز^(٣) .

فبعد ذلك وقد حاجبُ بين زُرارة على كسرى ، يشكو إليه الجَهْدُ والأزل^(٤) ويستأذنه في رعي السَّواد^(٥) ، وهو حين ضمَّنه عن قومه ، وأرهته قوسه . فلما أصاب مَصْرَ خاصَّةَ الجهد ، ونهكهم الأزل ، وبلغت الحجة مبلتها ، وانتهت الموعظةُ منتهاها ، عادَ بفضله صلى الله عليه وسلم ، على الذي بدأهم به ، فسأل ربه الخُصْبَ وإدراج الغيث ، فاتاهم منه ما هلكم بيوتهم ، ومنعهم حوائجهم ، فكلموه في ذلك فقال : « اللهم حوالينا ولا علينا » . فأمطر الله عزَّ وجل ما حولهم ، وأمسك عنهم . وكتب إلى كسرى يدعوه إلى نجاته وتخليصه من كفره ، فبدأ باسمه على اسمه ، فأزف من ذلك كسرى لثِقوته ، وأمر بتعميق الكتاب ،

(١) ب فقط : « ضمير الناس » .

(٢) ب فقط « كسيتي يوسف » ، تحريف . وكانت سنة يوسف سبماً شداداً ذات قحط وغلاء . والحديث من أفراد البخاري . انظر الحديث ٦١٩ من الألف المختارة .

(٣) القد ، بالكسر : سير يقدم من جلد غير مذبوغ . والعلهز ، كزبرج : خليط من الدم وأوبار الإبل ، وقد يخلطون به القردان ، ثم يشوونه بالنار ويأكلونه .

(٤) الأزل ، بالفتح : شدة الزمان ، يقال هم في أزل من العيش وأزل من السنة .

(٥) السواد : جماعة النخل والشجر ، لخضرته واسوداده . وسواد العراق : ما حوالى مدنه من القرى والرياساتيق .

فلَمَّا بلغه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «اللَّهُمَّ مَزِقْ مُلْكَهُ كُلَّ مَزِقٍ» .
 فَمَزَقَ اللهُ جِلَّ وَعَزَّ مُلْكَهُ ، وَجَدَّ أَصْلَهُ ، وَقَطَعَ دَابِرَهُ ، لِأَنَّ كُلَّ مُلْكٍ فِي
 الْأَرْضِ ، وَإِنْ كَانَ قَدْ أُخْرِجَ مِنْ مُعْظَمِ مُلْكِهِ ، فَهُوَ مَقِيمٌ عَلَى بَقِيَّةٍ مِنْهُ ،
 وَذَلِكَ أَنَّ الْإِسْلَامَ لَمْ يَتْرُكْ مُلْكًا بَعِيثَ تَنَالِهِ الْحَوَافِرُ وَالْأَخْفَافُ
 وَالْأَقْدَامُ ، إِلَّا أَرَاكَ عَنْهُ ، وَأَخْرَجَهُ مِنْهُ إِلَى عِقَابٍ يَعْتَصِمُ بِهَا^(١) ،
 وَمَعَاقِلَ يَأْوِي إِلَيْهَا ، أَوْ طَرَدَهُ إِلَى خَلِيجٍ مَنِيْعٍ ، لَا يَقْطَعُهُ إِلَّا السُّفُنُ^(٢) ،
 فَهُمْ مِنْ بَيْنِ هَارِبٍ قَدْ دَخَلَ فِي وَجَارٍ ، أَوْ اخْتَقَى^(٣) فِي غَيْضَةٍ ، أَوْ مَقِيمٍ
 عَلَى فَمِّ شَيْعِبٍ ، وَرَأْسِ مَضِيْقٍ ، قَدْ سَخَتْ نَفْسُهُ عَنْ كُلِّ سَهْلٍ ، وَأَسْلَمَ
 كُلُّ مَرْجٍ أَوْ مُلْكٍ لَا قَرَارَ لَهُ ، وَلَيْسَ بِذِي مَدَرٍ فَيُؤْتَى ، وَإِنَّمَا أَصْحَابُهُ
 أَكْرَادٌ يَطْلُبُونَ النَّجْمَةَ ، أَوْ كُنُخَارِجٌ يَطْلُبُونَ الْيَرَّةَ^(٤) . فَأَمَّا أَنْ يَكُونَ
 مَلِكٌ يُضْجِرُ لَمْ^(٥) ، وَيَقِيمُ بِإِزَائِهِمْ ، وَيَعَادِيهِمْ الْحَرْبَ وَيُؤَسِّسُهُمْ ،
 وَيَسَاجِلُهُمُ الطُّفْرَ وَيَنَاهِضُهُمْ ، كَمَا كَانَتْ مَلُوكُ الطُّوَانِفِ ، وَكَالَّذِي كَانَ
 بَيْنَ فَارَسَ وَالرُّومِ - فَلَا ، وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ
 بِالْمُهْدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾^(٦) إِلَى قَوْلِهِ عَزَّ ذَكَرَهُ :
 ﴿ الْمُشْرِكُونَ ﴾^(٧) . فَلَمْ يَرْضَ أَنْ أَظْهَرَ دِينَهُ حَتَّى جَعَلَ أَهْلَهُ الْعَالِيَيْنِ
 بِالْقُدْرَةِ ، وَالظَّاهِرِينَ بِالْمَنْعَةِ ، وَالْآخِذِينَ الْإِتْمَانَةَ .

(١) العقاب : جمع عقبة ، وهي طريق في الجبل وعرة .

(٢) ب : « لا يمتعه » ، صوابه في م ، ط .

(٣) في جميع النسخ : « واختنق » ، والوجه ما أثبت .

(٤) ب فقط : « المرزة » .

(٥) أصح : يبرز وظهر . ب ، م : « يصخر » ط : « يصهر » ، صوابها ما أثبت .

(٦) الآية ٣٣ من سورة التوبة و ٢٨ من سورة الفتح و ٩ من سورة الصف . وختام الأولى والأخيرة : « ولو كره المشركون » ، وختام الوسطى : « وكل من بالله شهيدا » .

(٧) ب ، م : « الكافرون » ، تحريف ، صوابه في ط .

وكتب كسرى إلى فيروز الدبلي^(١) ، وهو من بقية أصحاب سيف بن ذي يزن : أني أحجل إلى هذا العبد الذي بدأ باسمه قبل اسمي ، واجترأ عليّ ، ودعاني إلى غير ديني ! فأتاه فيروز فقال : إن ربّي أمرني أن أحملك إليه . فقال صلى الله عليه وسلم : « إن ربّي أخبرني أنّه قد قتل ربك البارحة ، فأنتيك عليّ ريثما يأتيك الخبر ، فإن تبين لك صدق ، وإلا فانت على أمرك » . فراع ذلك فيروز وهاله ، وكره الإقدام عليه ، والاستخفاف به ، فإذا الخبر قد أتاه : أن شيرويه قد وثب عليه في تلك الليلة فقتله . فأسلم وأخلص ، ودعا من معه من بقية الفرس إلى الله عزّ ذكره^(٢) فأسلموا .

٣٨ - فصل منه^(٣) في ذكر النبي صلى الله عليه وآله

ثم إن الذي تقدّمه صلى الله عليه وآله من اليشارات في الكتب المتقدمة ، في الأزمان المتباعدة ، والبلدان الموجودة بكلّ مكان ، على شدة عداوة أهلها ، وتعصّب حاملها ، ومع قوّة حسدهم ، وشدة بغيتهم . وما ذلك ببديع منهم ومن آبائهم ، على أنّهم أشبه آبائهم منهم بأزمانهم . وكلّ الناس أشبه بأزمانهم منهم بياباتهم . وآباؤهم الذين قتلوا أنبياءهم عليهم السلام ، وتعتتوا رسلهم صلى الله عليهم ، حتى خلاهم الله عزّ وجل من يده ، وأفقدتهم عصمته وتوفيقه .

(١) فيروز الدبلي ، ويقال « فيروز بن الدبلي » كما في ب ، وهو صحابي يكنى أبا الضحاك ، وأبا عبد الرحمن . وكان من أبناء الأساورة من فارس ، الذين كان كسرى قد بعثهم إلى قتال الحبشة . ووفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعد إسلامه رجع إلى اليمن وأعان على قتل الأسود المنسي الكذاب ، وأتى برأسه إلى النبي صلى الله عليه وسلم . وقد سكن مصر . ومات في خلافة عثمان ، وقيل في خلافة معاوية ، باليمن سنة ٥٣ . الإصابة ٧٠٠٤

(٢) م : « عز وجل » .

(٣) منه ، ساقطة من ب .

ولم استدلَّ على ذكره في التَّوراة والإنجيل والزَّبُور ، وعلى صِفته والبيشارة به في الكُتُب إلاَّ لِأَنَّكَ^(١) متى وجدتَ النَّصرانيَّ واليهوديَّ يُسلم بأرض الشام وجدته يَعْتَلُّ بِأُمُورٍ ، ويحتجُّ بِأَشْيَاءٍ مثلَ الأُمُور التي يحتجُّ بها من أسلم بالعراق . وكذلك من أسلم بالحجاز ، ومن أسلم من اليمن ، من غير تلاقٍ ولا تعارف ، ولا تشاعُر^(٢) . وكيف يتلاقَوْنَ ويتراسلون ، وهم غير متعارفين ولا مُتَشاعرين؟ ولو كانوا كذلك لظهر ذلك ولم ينكتهم ، كما حكينا قَبْلَ هذا . ولو قابلتْ بين أخبارهم واحتجاجهم مع كثرة الألفاظ واختلاف المعاني ، لوجدتها متساوية .

٣٩ - فصل منه

فإن قال قائل : لم كانت أعلام موسى عليه السلام في كثرتها^(٣) مع غيِّ بني إسرائيل ، ونقصان أعلام القبط ، في وزن أعلام محمد صلى الله عليه وسلم وفي قَدْرهما ، مع أعلام قريش ، وعقول العرب . ومتى أحببتَ أن تعرفَ غيِّ بني إسرائيل ونقصان^(٤) أعلام القبط ، ورجحان عقول العرب^(٥) ، وأعلام كنانة^(٦) ، فأت^(٧) يَوادِيهِمْ وِرْبَاعَهُمْ . وانظر إلى بينهم^(٨) وبقاياهم ، كما نظرتَ إلى بني إسرائيل من اليهود^(٩) وغيِّ بني من مضى من القبط - تعتبرُ ذلك وتعرفُ

(١) ب ، م : « بأنك » .

(٢) انظر ما سبق في ص ٢٥٠ .

(٣) ب ، م : « وكثرتها » .

(٤) ط : « ونقص » .

(٥) رجحان ، ساقطة من ب ، م .

(٦) ب ، م : « وأحكام كنانة » .

(٧) ط : « فانظر » .

(٨) ب : « بينهم » ، صوابه في م ، ط .

(٩) ب ، م : « من اليهود عليهم لعنة الله تعالى وعز ويزن من مضى من القبط » .

ما أقول . ثم انظر في أشعار العرب الصحيحة^(١) ، والخطب المعروفة ، والأمثال المضروبة ، والألفاظ المشهورة ، والمعاني المذكورة ، مما نقلته الجماعات عن الجماعات ، وكلام العرب ومعانيهم في الجاهلية . ثم تفقّد ، وسلّ أهل العلم والخبرة عن بنى إسرائيل ، فإن وجدت لهم مثلاً سائراً كما تسمع للقبط والنرس ، فضلاً عن العرب فقد أبطلنا فيما قلنا .

وقد كان الرجل من العرب يقف الواقف ، ويسير عدة أمثال^(٢) ، كل واحد منها ركن يُبنى عليه ، وأصل يتفرّع منه^(٣) .

أو هل تسمع لهم^(٤) بكلام شريف ، أو معنى يستحسنه أهل التجربة ، وأصحاب التدبير والسياسة ، أو حكم^(٥) أو حكمة ، أو حذق في صناعة ، مع تراؤف الملّك فيهم ، وتظاهر الرسالة في رجالهم . وكيف لا تقضى عليهم بالغي والجهل ، ولم تسمع لهم بكلمة فاحرة ، أو معنى نبيه^(٦) ، لا ممن كان في المبدى ، ولا ممن كان في المخضر^(٧) ، ولا من قاطن السواد^(٨) ، ولا من نازل الشام ؟

ثم انظر إلى أولادهم مع طول لبثهم فينا ، وكونهم معنا ، هل غير

(١) هذا ما في م . وفي ب ، ط : « في الأشعار الصحيحة » .

(٢) ب ، م : « ويسير عدة أمثال » ط : « وينشئ عدة أمثال » ، وأثبت الصواب من بينهما .

(٣) ب ، م : « ركن يبنى وأصل لفرع منه » ، صوابه في ط .

(٤) ب ، م : « أهم » ، صوابه في ط .

(٥) ب ، م : « أو حكم » .

(٦) التبيه : الجليل المشهور . ب فقط : « بيته » ، تحريف .

(٧) المبدى : مكان خروجهم في البادية ، خلاف المخضر في الحاضرة . ب : « المبداء »

م ، ط : « المبدأ » ، صوابهما ما أثبت .

(٨) ب فقط : « قاطن السواد » .

ذلك من أخلاقهم وشمايتهم ، وعقولهم ، وأحلامهم ، وآدابهم ، وفطنهم ؟
فقد صلح بنا كثيرٌ من أمور النصارى وغيرهم .
وليس النصارى كاليهود ، لأنَّ اليهود كلُّهم من بني إسرائيل إلاَّ
القليل .

وبعدُ ، فلم يضرب فيهم غيرهم ، لأنَّ مناكحهم مقصورةٌ فيهم ،
ومحبوسةٌ عليهم ، فصور أولم مودةً إلى آخرهم^(١) ، وعقول أسلافهم
مردودةٌ على أخلافهم^(٢) ، ثم اعتبر بقولهم لنبئهم عليه السلام : ﴿ اجعل
لنا إلهًا كما لهم آلهة^(٣) ﴾ حين مروا على قوم يعكفون على أصنام
لم يعبدونها . وكقولهم : ﴿ أرنا الله جهرة^(٤) ﴾ ، وكمكوفهم على عجل
صنع من حلبيهم ، يعبدونه من دون الله ، بعد أن أراه من الآيات ما أراهم .
وكقولهم : ﴿ اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون^(٥) ﴾ ، فكان
الذي جاء به موسى عليه السلام ، مع نقص بني إسرائيل والقبط ، مثل
الذي جاء به محمدٌ صلى الله عليه وسلم ، مع زججان قريش والعرب .

وكذلك وعد محمدٍ عليه السلام بنار الأبد ، كوعيد موسى بنى
إسرائيل بالقاء المهلاس على زروعهم^(٦) ، والهَمَّ على أفئدتهم ، وتسلط
الموتان على ماشيتهم^(٧) ، وبلخراجهم من ديارهم ، وأن يظفر بهم

(١) في جميع النسخ : « قصور أولم مودة إلى آخره » ، وأرى الوجه فيما أثبت .
(٢) الأخلاف : جمع خلف ، بالتحريك ، وهو الولد صالحاً كان أو مطلقاً . ب ، م
« أخلافهم » ، صوابه في ط .
(٣) من الآية ١٣٨ من الأعراف .
(٤) من الآية ١٥٣ من النساء .
(٥) من الآية ٢٤ من المائدة .
(٦) المهلاس ، بالضم : شبه النمل من الهزال . وفي سفر اللاويين ٢٦ : ١٦ : « أسلط عليكم
رعياً وسلاحي تفتى العينين ، وتلف النفس ، وتزرعون باطلا زرعكم فيما آكله أعداؤكم » .
(٧) انظر سفر اللاويين ٢٦ : ٢٢ . والموتان ، بالضم ويفتح : موت يقع في الماشية .

عدوهم . فكان تعجيل العذاب الأذى^(١) في استدعائهم واستألتهم ، وردّعهم عما يريد بهم ، وتعديل طبائعهم ، كتأخير العذاب الشديد على غيرهم ، لأنّ الشديد^(٢) المؤخر لا يزجر إلا أصحاب النّظر في العواقب ، وأصحاب العقول التي تذهب في المذاهب^(٣) .

فسبحان من خالّف بين طبائعهم وشرائعهم ليتفقوا على مصالحهم في دنياهم ، ومرايئهم في دينهم ، مع أنّ محمداً صلّى الله عليه وسلم مخصوصٌ بعلامة لها في العقل موقع ، كموقع قلّق البحر من العين ، وذلك قوله لتريشٍ خاصّة ، وللعرب عامّة ، مع ما فيهما من الشعراء والخطباء والبلغاء ، والدهاة والحلماء^(٤) ، وأصحاب الرأي والمكيدة ، والتجارب والنّظر في العاقبة : إن عارضتموني بسورة واحدة فقد كذبت في دعواي ، وصدّقت في تكذبي .

ولا يجوز أن يكون مثل العرب في كثرة عددهم واختلافِ علمهم ، والكلام كلامهم ، وهو سيّد عملهم ، فقد فاض بيانهم ، وجاشت به صدورهم ، وغلبتهم قوتهم عليه عند أنفسهم ، حتّى قالوا في الحيات والعقارب ، والذباب والكلاب ، والخنافس والجملان ، والحمير والحمام ، وكلّ ما دبّ ودرج ، ولاح لعين ، وخطر على قلب . ولم بعد أصناف النّظم ، وضروب التّأليف ، كالقصيد^(٥) ، والرّجز ، والمزدوج ، والمجانس^(٦) ، والأسجاع^(٧) والمنثور .

(١) ب ، م : « النون » .

(٢) ب فقط : « لأن العذاب » .

(٣) ب فقط : « بالمذاهب » .

(٤) العلماء : ذرو الألباب والعقول . م فقط : « والحكمة » .

(٥) ب فقط : « كالقصة » .

(٦) هو ما عرف به بالجناس في اصطلاح البلاغيين .

(٧) ب ، م : « الأسجاع » ، ط : « الأصحاح » ، صوابها ما أثبت .

(١٨) - رسائل المحاظ

وبعد ، فقد هَجَّوهُ من كلِّ جانب ، وهاجَى أصحابه شعراءهم^(١) ، ونازعوا خطباءهم ، وحاجَّوهُ في المواقف ، وخاصَّمُوهُ في المواسم ، وبادَّوهُ العداوة^(٢) ، وناصَبُوهُ الحرب ، فقتل منهم ، وقتلوا منه ، وهم أثبتُ النَّاسِ حِقْدًا ، وأبعدهم مطلبًا ، وأذكرهم لخير أو لشرٍّ ، وأنفاهم له ، وأمهجهم بالعجز ، وأمدحهم بالقوَّة ، ثمَّ لا يُعارضه معارضٌ ، ولم يتكلَّف ذلك خطيبٌ ولا شاعر .

ومحالٌ في التعارف ، ومستنكرٌ في التصادق ، أن يكون الكلامُ أَخَصَرَ عندهم^(٣) ، وأيسرَ مَثُونَةً عليهم ، وهو أبلغ في تكذيبهم وأنقصُ^(٤) لقوله ، وأجدر أن يعرف ذلك أصحابه^(٥) فيجتمعوا على ترك استعماله ، والاستغناء به ، وهم يبذلون مُهَجُّهُمْ^(٦) وأموالهم ، ويخرجون من ديارهم في إطفاء أمره ، وفي توهين ما جاء به ، ولا يقولون ، بل لا يقول واحدٌ من جماعتهم : لِمَ تقتلون أنفسكم^(٧) ، وتستهلكون أموالكم ، وتخرجون من دياركم ، والحيلةُ في أمره يسيرة ، والمأخذ في أمره قريب ؟ ! ليؤلَّفَ واحدٌ من شعرائكم وخطبائكم كلاماً في نظم كلامه ، كأقصر سورة يُخذلُكم بها ، وكأصغر آيةٍ دعاكم إلى معارضتها . بل لو تُسَّوا ، ما تركهم حتى يذكَّركم ، ولو تغافلوا ما ترك أن ينههم ، بل لم يرض بالتنبيه دون التوقيف .

(١) ب : « وهي أصحابه شعراؤهم » .

(٢) يقال باداه بالعداوة : جاهره بها . وبادره إلى الشيء : عاجله وسابقه . ووردت « العداوة » هنا متدياً إليها الفعل بغير الحرف . وفي ط : « وبادروه العداوة » .

(٣) من الاختصار . وفي اللسان : « الاختصار في الكلام أن تدع الفضول وتستوجز الذي يأتي على المعنى » .

(٤) ب ، م : « وأنقص » بالصاد المهملة .

(٥) ذلك ، من ط فقط .

(٦) ب ، م : « ويبذلون » ب فقط : « مهجهم » ، صوابه في م ، ط .

(٧) ب ، م : « ولم تقتلون أنفسكم » .

فدلَّ ذلك العاقلَ على أنَّ أمرهم في ذلك لا يخلو من أحد أمرين :
 إما أن يكونوا عَرَفُوا عجزهم ، وأنَّ مثلَ ذلك لا يتهيأ لهم ، فرأوا
 أنَّ الإضرابَ عن ذكره ، والتَّعافُلَ عنه في هذا الباب وإن قرَّعهم به ،
 أمثل لهم في التدبير ، وأجدر^(١) أن لا يتكشَّف أمرهم للجاهل والضعيف ،
 وأجدر أن يجلدوا إلى الدعوى سبيلاً ، وإلى اختداع الأنبياء سبباً ، فقد
 ادَّعوا القُدرة بعد المعرفة بعجزهم عنه ، وهو قوله عزَّ ذكره : ﴿ وَإِذَا
 تَتَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا^(٢) ﴾ .

وهل يُدعِينُ الأعرابُ وأصحابُ الجاهليَّة للتفريع بالعجز^(٣) ،
 والتَّوقيف على النقص ، ثم لا يبذلون مجهودهم ، ولا يخرجون مكنونهم^(٤)
 وهم^(٥) أشدُّ خلق الله عز وجل أنفةً ، وأفرطُ حَمِيَّةً ، وأطلبه بطائلة ،
 وقد سيعوه^(٦) في كل منهلٍ وموقِف . والنَّاسُ مُوَكَّلون بالخطَّابات ،
 مُوَلَّعون بالبلاغات . فمن كان شاهداً فقد سمعه ، ومن كان غائباً فقد
 أتاه به من لم يزوده^(٧) .

وإمَّا أن يكونَ غيرَ ذلك .

ولا يجوز أن يُطيقوا^(٨) على ترك المعارضة وهم يقدرون عليها ،

(١) ب ، م : « وأحذرو » ، تحريف ماقى ط .

(٢) الآية ٣١ من سورة الأنفال .

(٣) ب ، م : « والأعراب وأصحاب الجاهلية التفريع بالعجز » . و صواب النص وتماته

في ط .

(٤) ب ، م : « ثم لا يبذل مجهودها ويخرج مكنونها » ، صوابه في ط .

(٥) ب ، م : « وهو » .

(٦) ب ، م : « وقد سمعته » .

(٧) نظر إلى قول طرفة في مملفته :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود

ب ، م : « يروده » ، صوابه في ط .

(٨) ب ، م : « أن يطيقوا » ، تحريف ماقى ط .

لأنه لا يجوز على العدد الكثير من العقلاء والدهاة والحكماء^(١) ، مع اختلاف علمهم ، ويُعد همهم ، وشدة عداوتهم الإطباء على بذل الكثير ، وصون اليسير .

وهذا من ظاهر التدبير ، ومن جليل الأمور التي لا تخفى على الجهال فكيف على العقلاء ، وأهل المعارف^(٢) فكيف على الأعداء ، لأنّ تحجيب الكلام أهون من القتال ، ومن إخراج المال .

ولم يقل^(٣) : إنّ القوم قد تركوا مساءلته^(٤) في القرآن والطعن فيه ، بعد أن كثرت خصومتهم في غيره .

ويدلُّ على ذلك قوله عز وجل^(٥) : ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل علينا القرآن لجملة واحدة^(٦) ﴾ وقوله عز ذكره : ﴿ وإذا نتل عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله^(٧) ﴾ ، وقوله تعالى جل ذكره : ﴿ وقال الذين كفروا إنّ هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون^(٨) ﴾ .

ويدلُّ كثرة هذه المراجعة ، وطول هذه المناقلة ، على أنّ التفرع^(٩) لهم بالعجز كان فاشياً ، وأنّ عجزهم كان ظاهراً .

- (١) ط فقط : « والحكماء » بالكاف . وانظر ما سبق في ٢٧٥ .
- (٢) ب ، م : « وعلى المعارف » ، تحريف ما في ط .
- (٣) م ، ب : « ولم تقل » ، وأثبت ما في ط .
- (٤) م : « مسألته » ، وهي لغة جائزة فيها .
- (٥) ذلك ، ساقطة من ب . وفي ب ، م : « عز ذكره » .
- (٦) الآية ٣٢ من الفرقان . وفي م : « أنزل عليه » تحريف .
- (٧) الآية ١٥ من يونس .
- (٨) الآية ٤ من الفرقان .
- (٩) م ، ط : « التفرع » ، صوابه في ب .

ولو لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم تحدّاهم بالنظر والتأليف^(١) ، ولم يكن أيضاً أزاح علتهم ، حتى قال تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرٍ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ ﴾^(٢) وعارضوني بالكذب ، لقد كان في تفصيله له وتركيبه ، وتقديمه له واحتجاجه ، ما يدعو إلى معارضته ومغالته وطلب مساويه .

ولو لم يكن تحدّاهم من كل ما قلنا ، وقّرّعهم بالعجز عمّا وصفنا - وهل هذا^(٣) إلاّ بمديحه له ، وإكثاره فيه - لكان ذلك سبباً موجباً لمعارضته ومغالته وطلب تكذيبه ، إذ كان كلامهم هو سيّد عملهم ، والمثبوتة فيه أخصّ عليهم ، وقد بدّلوا النُفوس والأموال . وكيف ضاع منهم ، وسقط على جماعتهم ثيفاً وعشرين سنة ، مع كثرة عددهم ، وشيئة عُقولهم ، واجتماع كلمتهم؟! *
وهذا أمرٌ جليلٌ الرأى ، ظاهرٌ التدبير^(٤) .

٤٠ - فصل منه في ذكر امتناعهم من معارضة القرآن لعلمهم بمجزهم عنها^(٥)

والذي منّهم من ذلك هو الذي منع ابن أبي العوّاء^(٦) ، وإسحاق بن

(١) ب ، م : « والتأليف » .

(٢) الآية ١٣ من سورة هود . وبدلها في ب ، م : « فهاتوا مفتريات » ، ويصح هذا الكلام لو لم يكن مسبوقاً بكلمة « تعالى » .

(٣) ب ، م : « قل هذا » .

(٤) بعدد في ب : « لا يجعل من ابتداء القول فيه وساربه » ، وفي م : « لحمل من ابتداء القول فيه وساربه » ، وهاتان العبارةتان لم تردا في ط .

(٥) ط : « في كراهة امتناعهم عن معارضة القرآن لعجزهم عنها » ، صوابه في ب ، م (٦) هو عبد الكريم بن أبي العوّاء ، من بنى عمرو بن ثعلبة بن عامر بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة ، وكان أحد الزنادقة ، صلبه محمد بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس بالبصرة . جمهرة ابن حزم ٣١٦ . وكان خال ممن بن زائدة ، وجمع بين أربعة أنواع من الضلالة : كان يرى في السردين المانوية من الثنوية ، وكان يقول بالتناسخ ، وكان يميل إلى رأي الرافضة في الإمامة ، والرايع قوله بالقدر في أبواب التعديل والتنوير . الفرق بين الفرق ٢٥٥ - ٢٥٦ .

طالوت^(١)، والنعمان بن المنذر، وأشباههم من الأرجاس، الذين استبدلوا بالعرز ذلاً، وبالإيمان كُفراً، والسعادة شقوة^(٢)، وبالحجة شبهة. بل لا شبهة في الزندقة خاصة. فقد كانوا يصنعون الآثار، ويؤلدون الأخبار، ويبثونها في الأمصار، ويطلعون في القرآن، ويسألون عن مُتشابهو، وعن خاصه وعامه^(٣)، ويضعون الكتب على أهله. وليس شيء مما ذكرنا يستطيع دفعه جاهل غبي^(٤)، ولا معانيد ذكي.

٤١ - فصل منه

ولمّا كان أعجب الأمور عند قوم فرعون السحر، ولم يكن أصحابه قط في زمانٍ أشد استحكاماً فيه منهم في زمانه، بعث الله موسى عليه السلام على إبطاله وتوهينه، وكشف ضعفه وإظهاره، ونقص أصله^(٥) لردع الأغبياء من القوم^(٦)، ولم ينشأ على ذلك من السفلة والطغام. لأنّه لو كان أُنّاهم بكلّ شيء، ولم يأتهم بمعارضة السحر حتّى يفصل بين الحجة والحيلة، لكانت نفوسهم إلى ذلك متطلّعة، ولاعتلّ به أصحاب الأشغاب^(٧)، ولشغلوا به بال الضعيف^(٨)، ولكن الله تعالى جدّه، أراد حسم الداء، وقطع المادة، وأن لا يجد المبطلون متعلّقاً،

(١) يبدو أنه أحد الزنادقة، ولم أجده له خيراً.

(٢) ب، م: «شقاوة»، وهما بمعنى ما يقابل السعادة. وفي التنزيل العزيز: «ربنا غلبت علينا شقوتنا»، وقرأ ابن مسعود: «شقوتنا».

(٣) ب: «وعن خاصة وعامة»، صوابه في م، ط.

(٤) ب: «ع»، م: «غ»، صوابهما في ط.

(٥) ب فقط: «ونقص أصله»، تحريف.

(٦) يدل هذا كله في ب: «لأغبياء القوم» وفي م: «الأغبياء القوم».

(٧) الأشغاب: جمع شغب، بالتحريك، وهي لغة ضعيفة في الشغب، وهو تبيج الشر. وفي ب: «الأشغاب» وفي ط: «الأشغال»، وأثبت ما في م.

(٨) ب فقط: «باب الضعيف».

ولا إلى اختداع الضعفاء سبيلاً^(١) ، مع ما أعطى الله موسى عليه السلام من سائر البرهانات ، وضروب العلامات .

وكذلك زمن عيسى عليه السلام كان الأغلب على أهله ، وعلى خاصة علمائه الطّب ، وكانت عوامهم تعظم على ذلك خواصهم ، فأرسله الله عز وجل بإحياء الموتى ، إذ كانت^(٢) غايتهم علاج المرضى . وأبرأ لهم الأكمة^(٣) إذ كانت غايتهم علاج الرّويد^(٤) ، مع ما أعطاه الله عز وجل من سائر العلامات ، وضروب الآيات ؛ لأنّ الخاصّة إذا بَخَعَت بالطّاعة^(٥) ، وقهرتها الحجّة ، وعرفت موضع العجز والقوّة ، وفصل ما بين الآيّة والحيلة ، كان أنجحّ للعامة ، وأجدر^(٦) أن لا يبقى في أنفسهم بقيّة .

وكذلك دهر محمد صلى الله عليه وسلم ، كان أغلب الأمور عليهم ، وأحسنها عندهم ، وأجلها في صدورهم ، حُسن البيان ، وتَنظّم ضروب الكلام ، مع علمهم له ، وانفرادهم به . فحين استحسنت لفهمهم^(٧) وشاعت البلاغة فيهم ، وكثُر شعراؤهم ، وفاق النَّاسَ خطباؤهم ، بعثه الله عز وجل ، فتحداهم بما كانوا لا يشكّون أنّهم يقدرون على أكثر منه .

(١) ب ، م : « للضعفاء سبيلاً » .

(٢) ب فقط : « إذا كانت »

(٣) ب : « وإبرأهم الأكمة » تحريف . وفي ط : « وإبرأه الأكمة » ، وأثبت ما في م . والأكمة : الذي يولد أعمى .

(٤) الرمد : وجع العين وانتفاخها ، وهو أرمد ورمد ، والأئني رمداء . ب ، م : « الرمدى » ، صوابه في ط .

(٥) بَخَعَت : خضعت وأقرت . وفي ط فقط : « نجعت » تحريف وانظر ما مضى في ص .

٢٥٥ .

(٦) ب فقط : « وأجدر » ، تحريف .

(٧) لفهمهم ، ساقطة من ب .

فلم يَزَلْ يَقْرَعُهُمْ بِعَجْزِهِمْ ، وَيَنْتَقِصُهُمْ عَلَى نَقْصِهِمْ ^(١) ، حَتَّى تَبَيَّنَ ذَلِكَ لضعفانهم وعوامهم ، كما تَبَيَّنَ لَأَقْوِيَانِهِمْ وَخَوَاصَّهُمْ . وكان ذلك من أعجب ما آتاه الله نبياً قط ^(٢) ، مع سائر ما جاء به من الآيات ، ومن ضروب البرهانات .

ولكلِّ شيءٍ بابٌ ومَأْتَى ، واختصارٌ وتقريب . فحين أحكم الحكمة إرسال كلِّ نبيٍّ بما يفهم أعجب الأمور عندهم ^(٣) ، ويُبَيِّطُ أقوى الأشياء في ظنهم .

٤٢ - فصل في ذكر أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم

وآيةٌ أخرى لا يَعْرِفُهَا إِلَّا الْخَاصَّةُ ، ومتى ذكرتُ الْخَاصَّةَ فَالْعَامَّةُ فِي ذلك مثلُ الْخَاصَّةِ . وهى الأخلاق والأفعال التى لم تجتمع لبشرٍ قطُّ قبله ^(٤) ، ولا تجتمع لبشرٍ بعده .

وذلك أَنَا لَمْ نَرَ ولم نَسْمَعْ لأحدٍ قطُّ كَصَبْرِهِ ، ولا كجلبه ، ولا كوفائه ، ولا كزُهدِهِ ، ولا كجُوده ، ولا كنجده ، ولا كصدقٍ لهجته ، وكرمِ عِشْرَتِهِ ^(٥) ، ولا كتنواضعه ، ولا كعلمه ، ولا كحِفْظِهِ ، ولا كصمته إذا صَمَّتْ ، ولا كقولِهِ إِذَا قال ، ولا كعجيبِ مَنْشئِهِ ^(٦) ، ولا كقَلَّةِ

(١) انتقصه واستقصه : نسب إليه النقصان . ب ، م : « يقفهم » ، ط : « ينقصهم » ، والوجه ما أثبت .

(٢) لفظ الجلالة ثابت في ط فقط .

(٣) أصل الإنعام الإسكات عن الجواب ، والمراد الفرق والغلبة . ب ، م : « يفهم » صوابه في ط .

(٤) ب ، م : « لبشرى » في هذا الموضع وناليه . وأثبت ما في ط . والبشر : الإنسان ، يطلق على الواحد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث . وقد يجمع على أبتار ، ويعنى كما في قوله تعالى : « أنؤمن لبشرين مثلنا » .

(٥) العشرة : المحالطة والمصاحبة . وفي جميع النسخ : « وعشيرته » ، صوابه ما أثبت . وأما عشيرة الرجل فهم بنو أبيه الأتريون وقبيلته .

(٦) ب ، م : « منشاء » .

تلوُّنه ، ولا كَمَفْوِهِ ، ولا كدوام طريقته ، وقلة امتنانه .

ولم نجد^(١) شجاعاً قطُّ إلا وقد جال جَوْلَةً ، وفرَّ فرَّةً ، وانحاز مرَّةً ، من معدودى شُجَعان الإسلام ، ومشهورى فُرسان الجاهليَّة ؛ كفلان وفلان .

وبعدُ ، فقد نصَّر النبيَّ صلى الله عليه وسلم وهاجرَ معه قومٌ ، ولم نر كنجدهم نَجْدَةً ، ولا كصبرهم صبراً . وقد كانت لهم الجَوْلَةُ والفرَّة^(٢) ، كما قد بلغك عن يوم أحد ، وعن يوم حُنَيْن ، وغير ذلك من الوقائع والأيام .

فلا يستطيع منافقٌ ولا زنديقٌ ولا دُهرىٌّ ، أن يحدث أن محمداً عليه السلام جال جَوْلَةً قطُّ^(٣) ، ولا فرَّ فرَّةً قطُّ ، ولا خَاف عن غَزْوَةٍ ، ولا هاب^(٤) حَرْبٍ من كائنه .

(١) ب ، م : « ولم نجد » بالناء .

(٢) ب ، م : « والفرَّة » ، وليست مرادة هنا .

(٣) ب ، م : « فقط » في هذا الموضع وتاليه ، والصواب في ط .

(٤) ب ، م : « وهاب » .



من كتابه في

حَلَقِ الْقُرْآنِ



١ - فصل من صدر كتابه في خلق القرآن^(١)

بَيَّنْتَكَ اللهُ بِالْحِجَّةِ ، وَحَصَّنَ دِينَكَ مِنْ كُلِّ شُبْهَةٍ ، وَتَوَفَّقَكَ مُسْلِمًا ،
وَجَعَلَكَ مِنَ الشَّاكِرِينَ .

وقد أعجبنى^(٢) ، حفظك الله ، استهدأوك العلمَ وفهمك له ،
وشغفتك بالإنصاف وميلك إليه ، وتعظيمك الحقِّ وموالاتك فيه ،
ورغبتك عن التقليد وزرايتك عليه^(٣) ، ومواترة كُتُبِكَ على بُعدِ
دارِكِ ، وتقطع أسبابِك ، وصبرك إلى أوان الإمكان ، واتساعك عند
تضايق العُذْر .

وفهمتُ ، حفظك الله ، كتابك الأول ، وما حثت عليه من تبادل
العلم^(٤) ، والتعاون على البحث ، والتحاب في الدين ، والنصيحة لجميع
المسلمين .

وقلت : اكتب إلى كتاباً تُقصد فيه إلى حاجات النفوس ، وإلى
صالح القلوب ، وإلى مُتعلجات الشُّكوك ، وخواطر الشُّبهات ، دونَ الذي
عليه أكثر المتكلمين من التطويل ، ومن التعمق والتعقيد ، ومن تكلف
ملا يجب ، وإضاعة ما يجب .

وقلت : كُنْ كالمعلم الرقيق ، والمعالج الشفيق ، الذي يعرف الداء
وسببه ، والدواء وموقعه ، ويصبر على طول العلاج ، ولا يسأم كثرة
الترداد .

(١) هذا العنوان ساقط من ط ، والكلام فيها متصل بما سبق . ومثل ذلك فيما نشره
السندوني في رسائل الجاحظ ١٤٧ وهو مطبوعة النقل من ط .
(٢) ط : « قد أعجبنى » مطرح الواو .
(٣) ط فقط : « ودرايتك عليه » .
(٤) ب ، م : « وما حثت عليه من تبادل العلم » .

وقلت : اجعلْ تجارتك التي إياها تُؤمَلُ ، وصناعتك التي إياها تعتمد - إصلاحَ الفاسدِ ، ورَدَّ الشَّاردِ .

وقلت : ولا بدَّ من استجماع الأصول ، ومن استيفاء الفروع ، ومن حَسْمِ كُلِّ خاطر ، وقَمْعِ كُلِّ ناجم ، وصرفِ كُلِّ هاجس ، ودفعِ كُلِّ شاغلٍ ، حتى تتمكنَ من الحجَّةِ (١) ، وتنهتاً بالنعمة (٢) ، وتجد راحةً الكفائية ، وتُثَلِّجَ ببرد اليقين ، وتُفَضِّيَ إلى حقيقة الأمر . إن كان لا بدَّ من عوارض العجز ، ولواحق التَّقْصير ، فالبرُّ لها أجمل (٣) ، والضرر علينا في ذلك أيسر .

وقلت : ابدأ بالأقرب فالأقرب (٤) ، وبكلِّ ما كان آتقَ في السَّمْعِ ، وأحلَّ في الصِّدْرِ ، وبالباب الذي منه يُؤْتَى الرِّيسُ المتكَلِّف (٥) ، والجسورِ المتعجرف ، وبكلِّ ما كان أكثرَ علماً ، وأنفذَ كَيْدًا .

وسألني بتقبيح الاستبداد (٦) ، والعجلة إلى الاعتقاد ، وصيفة الأناة ومقدارها ، ومقدمات العلوم ومنتهاها . وزعمت أنَّ من اللفظ ما لا يُفهم معناه دون الإشارة ، ودون معرفة السَّببِ والهيئة ، ودون إعادته وكره (٧) وتحريره واختياره (٨) .

(١) ب ، م : « حتى يتمكن من الحجَّة »

(٢) ب : « ويتهتأ بالنعمة » ، م : « ويتهتأ بالنعمة » ، صوابهما في ط .

(٣) ب ، م : « فالفروع لها أجمل » ، صوابه في ط .

(٤) في الأصول : « بالأخوف فالأخوف » ، صوابه ما أثبت . وانظر ما سيأتي في

٢٩٢ ص ١٠ .

(٥) أصله من الرِّيس من الدواب ، وهو الذي لم يقبل الرياضة ولم يهر المشية ولم يذل لراكبه ، فالمراد الذي يسر التفاهم معه . ب ، ط : « المريض » ، م : « الرِّيس » بالياء ، صوابها ما أثبت .

(٦) ب ، م : « بتفتيح الاستناد » ، ط : « بتفتيح الاستناد » ، والوجه ما أثبت .

(٧) ب ، م : « دون إعارته وكسوه » ، ط : « دون إعارته وركته » ويسقوط الواو منهما ،

صوابها ما أثبت . والكر : الإعادة ، يقال كر عليه الحديث : أعاده .

(٨) في جميع النسخ : « وتحديده واحتيازه » ، تحريف ما أثبت .

وقلت : فإن أنت لم تصوّر ذلك كلّ صورة تُغنى عن المشافهة ،
وتكتفى بظاهرها عن المراسلة^(١) - أحوجتنا إلى لقائك ، على بُعد دارك^(٢) ،
وكثرة أشغالك ، وعلى ما تخاف من الضيعة وفساد المعيشة .

فكتب لك كتاباً ، أجهدت فيه نفسي^(٣) ، وبلغت منه أقصى ما يمكن
مثل في الاحتجاج للقرآن ، والرّد على كلّ طعان . فلم أدع فيه مسألة
لرافضي ، ولا لحديثي ، ولا لحشوي ، ولا لكافرٍ مُبادٍ ، ولا لمنافقي مقموع ،
ولا لأصحاب النّظام ، ولمن نَجَمَ بعد النّظام ، ممن يزعم أن القرآن
خلق^(٤) ، وليس تأليفه بحجّة ، وأنه تنزيلٌ وليس بيّرهان ولا دلالة .

فلما ظننت^(٥) أنّي قد بلغت أقصى محبتك ، وأثبتت على معنى
صفتك ، أتاني كتابك تذكر أنّك لم تُرد الاحتجاج لنظم القرآن ،
وإنما أردت الاحتجاج لخلق القرآن . وكانت مسألتك مبهمّة ، ولم
أك أن أحدث لك فيها تأليفاً^(٦) ، فكتب لك أشقّ الكتابين وأثقلهما ،
وأغمضهما معنى وأطولهما .

ولولا ما اعتلتت به من اعتراض الرافضة ، واحتجاج القوم علينا
بذهب معمر^(٧) ، وأبي كلدة^(٨) ، وعبد الحميد ، وثمامة^(٩) ، وكلّ من

(١) ط فقط : « المرسلّة » .

(٢) م فقط : « يد دارك » ، تحريف .

(٣) ب ، م : « أجهدت فيه نفسي » ، صوابه في ط .

(٤) خلق ، أي مخلوق . وفي جميع النسخ : « حق » .

(٥) ب فقط : « فما ظننت » .

(٦) في جميع النسخ : « تأليفه » ، والوجه ما أثبت .

(٧) معمر بن عباد السلمي ، صاحب فرقة المعمرية من المعتزلة . الملل ١ : ٨٣ / ٢ : ١٦

والمواقف ٦٢٣ والفرق بين الفرق ١٣٦ . وهو بتشديد الميم كما في لسان الميزان ٦ : ٧١ .

(٨) أبو كلدة : ذكر الجاحظ بعض آرائه في الحيوان ١ : ٢٣٤ / ٣ : ٣٩٥ / ٤ : ٣٢٢ .

(٩) ثمامة بن أثرس : أحد المعتزلة البصريين . ورد بغداد وأصل بهارون وغيره من

الحنفاء . وله أخبار ونوادير يحكيها عنه أبو عثمان الجاحظ وغير واحد . تاريخ بغداد ٧ : ١٤٥ =

زعم أن أفعال الطبيعة مخلوقة على المجاز دون الحقيقة ، وأن متكلمي الحشوية^(١) والناطقة قد صار لهم مناظرة أصحابنا ، وبقرائة كتبنا بعض الفطنة - لما كتبت لك ، رغبة بك عن أقدارهم ، وضناً^(٢) بالحكمة عن إعتارهم^(٣) ، وإنما يكتب على الخصوم والأكفاء^(٤) ، وللأولياء على الأعداء ، ولن يرى^(٥) للنظر حقاً ، وللعلم قدراً ، وله في الإنصاف مذهب ، وإلى المعرفة سبب .

وزعمت أنك لم تر في كتب أصحابنا إلا كتاباً لا تفهمه ، أو كتاباً وجدت الحجة على واضع الكتاب فيه أثبت .

وقلت : وإنيك أن تتكلم على مقدار ما عندهم ، دون أن تختصر^(٦) قوى باطلهم ، وتوفيقهم جميع حقوقهم ، وإذا تقلدت الإخبار عن خصمك فحطه كحياتك لنفسك ، فإن ذلك أبلغ في التعلم ، وآيس^(٧) للخصوم .

= وانظر البيان : ١٠٥ وعبون الأخبار : ٣ : ٣٧ وتأويل مختلف الحديث : ٦٠ والفرق : ١٥٩ ولسان الميزان : ٢ : ٨٤ .

(١) الحشوية : بفتح الشين وسكونها ، فيالسكون نسبة إلى الحشو ، وبالفتح نسبة إلى الحشا ، لأن الحسن البصري أمر ردهم إلى حشا الحلقة ، أي جانبها ، وهم طائفة اختلف العلماء في تعريفها . فإن تسمية المتوفى سنة ٢٧٦ يذكر في تأويل مختلف الحديث ص ٩٦ أنها من الألقاب التي كان أهل الحديث يلقبون بها . قال : « وقد لقبهم بالحشوية والناطقة والمجبرة » . وقال التوحيدي في كتاب فرق الشيعة ص ٧ : « والبترية أصحاب الحديث منهم سفيان بن سعيد الثوري ، وشريك بن عبد الله ، وابن أبي ليلى ، ومحمد بن إدريس الشافعي ، ومالك بن أنس ، ونظر أؤم من أهل الحشو والجمهور العظيم . وقد سماوا الحشوية . ويطلقون هذا اللفظ أيضاً على « المشبهة » الذين يشبهون الله بخلقه وكذا على المجسمة . انظر شفاء الغليل ٧١ . وفي ب ، م : « الحشوية » ، صوابه ق ط .

(٢) ب ، م : « وضناً » ، صوابه ق ط .
(٣) أعتاره على الأمر : أظلمه عليه . وفي التبريزي العزيز : « وكذلك أعتارنا عليهم » ، أي أظلمنا .

- (٤) ب فقط : « عن الخصوم والأكفاء » .
(٥) ب ، م : « لمن يرى » بسقوط الواو .
(٦) ب ، م : « تقتصر » ، صوابه ق ط .
(٧) ب ، م : « وآيس » .

وقلتَ : وزعموا أَنَّهُ يلزُـمُك أَن تزعم أَنَّ القرآنَ ليس بمخلوقٍ إِلاَّ على المجازِ ، كما ألزم ذلك نَفْسُهُ (١) معمرٌ وأبو كَلْدَةَ وعبدُ الحميدِ وثُمَامَةَ ، وكلُّ مَنْ ذَهَبَ مذهبَهُم ، وقاسَ قياسَهُم .

فتفهّمَ - فهَمَكَ اللهُ - ما أَنَا واصفُهُ لك ، ومُورِثُهُ عليك (٢) :
اعلم أَنَّ القومَ يلزمهم ما ألزموه أَنفُسَهُم ، وليس ذلك إِلاَّ لعجزهم عن التخلُّصِ بحَقَّتِهِم ، وإِلاَّ لَدَهاهم عن قواعد قولهم (٣) ، وفروعِ أَصولهم ، فليس لك أَن تضيف العجز الذي كان منهم إلى أَصلِ مقالتهِم ، وتحمل ذلك الخطأَ على غيرهم (٤) . فلرُبَّ قولٍ شريفٍ الحسبِ ، جِدِّ المُركَّبِ ، وافرِ العِرضِ ، برىءٍ من الغُيوبِ ، سليمٍ من الأَقْنِ ، قد ضيَّعه أَهلُهُ ، وهجَّته المُفْتَرُونَ عليه ، فألزموه ما لا يلزمه ، وأضافوا إليه ما يجوز عليه .

ولو زعم القومُ على أَصلِ مقالتهِم أَنَّ القرآنَ هو الجسمُ دونَ الصَّوتِ والتقطيعِ ، والنَّظْمِ والتأليفِ ، وأَنَّهُ ليس بصوتٍ ولا تقطيعٍ ولا تأليفٍ ، إِذْ كان الصوتُ عندهم لا يُخْتَرَعُ كاختراعِ الأَجسامِ المصوَّرةِ (٥) ، ولا يحتملُ التقطيعَ كاحتمالِ الأَجرامِ المتجسِّدةِ ، والصَّوتُ عَرَضٌ ، لا يحدثُ من جوهرٍ إِلاَّ بدخولِ جوهرٍ آخَرَ عليه ، ومحالٌ أَن يحدثَ إِلاَّ وهناكِ جِسْمَانِ قد صلَّ أحدهما صاحبه ، ولا بدَّ من مكانين : مكانٍ زال عنه ، ومكانٍ آلَ إليه . ولا بدَّ من هواءٍ بين المُصْطَلَكَيْنِ . والجسمُ قد يحدثُ وحدهُ ولا شيءَ غيره ، والصَّوتُ على خلافِ ذلك .

(١) ط فقط : « لفسه » .

(٢) ط فقط : « ومورد عليك » .

(٣) ب ، م : « عواقب قولهم » .

(٤) ب ، م : « ولعلَّ » تحريف . وفي م أيضاً : « الخطأ » تحريف .

(٥) ب ، م : « المصوِّبة » ، صوابه في ط .

والعرض لا يَقُوم بنفسه ، ولا بدُّ من أن يَقُومَ بغيره ، والأعراض من أعمال الأجسام ، لا تكون إلا منها ، ولا تُوجد إلا بها وفيها^(١) . والجسم^(٢) لا يكون إلا من جسم ، ولا يكون إلا من مخترع الأجسام . وليست لكون الجسم من الله علةٌ توجبه ، ولا يحدث إذا حدث إلا اختياراً ، وإلا ابتداءً واختراعاً . والصوت لا يكون إلا عن علةٍ موجبة ، ولا يكون إلا تولدًا ونتيجةً ، ولا يحدث إلا من جرمين ، كاصطكاك الحجرين ، وكفزع اللسان باطن الأسنان ، وإلا من هواءٍ يتضاغط^(٣) ، وريح تختنق^(٤) ، ونارٍ تلهب . والريح عندهم هواءٌ تحرك ، والنار عندهم ریحٌ حارة . هكذا الأمر عندهم .

فلو قالوا : لا يكون الشيء مخلوقاً في الحقيقة ، دون المجازِ وعلى مجازي اللغة ، إلا وقد بان الله عز وجل باختراعه ، وتولاه بابتداعه ، وكان منه على اختيار ، والابتداع^(٥) : الذي يمكن تركه وإنشاء عقيبه بدلاً منه ، على ما كان يوكدّه^(٦) ، ونتيجته من أجسامٍ يستحيل أن يُخلق من أفعالها ، ويجلبها الله تعالى منها^(٧) .

والقرآن على غير ذلك ، جسمٌ وصوت ، وذو تأليفٍ وذو نظم ، وتوقيعٍ وتقطيع ، وخلق قائمٌ بنفسه ، مستغنٍ عن غيره ، ومسموع في الهواء^(٨) ، ومرئي في الورق ، ومفصلٌ وموصل ، واجتماعٌ وافتراق ،

- (١) ب م : « لا يكون » و « ولا يوجد » بإياء فيهما ، والصواب من ط .
 (٢) ب فقط : « من الجسم » ولا وجه له .
 (٣) ب م : « والأمر هواء يتضاغط » ، تحريف .
 (٤) ب : « تحيق » ، م « تحنق » بحرف .
 (٥) ب : « والابتداء » ، صوابه في م ، ط .
 (٦) ب : « بولده » م : « تولده » ، وأثبت ما في ط .
 (٧) م : « ويجلبها » ط : « ويحلبها » ، وأثبت ما في ب .
 (٨) ب م ط : « في الهوى » ، صوابه في م .

ويحتمل الزيادة والتقصان، والفنأة والبقاء، وكل ما احتملته الأجسام،
ووصفت به الأجرام. وكل ما كان^(١) كذلك فمخلوق في الحقيقة دون
المجاز وتوسع أهل اللغة.

فلو كانوا قالوا ذلك لكانوا أصابوا في القياس، ووافقوا أهل
الحق، وكانوا مع الجماعة، ولم يضاهوا أهل الخلاف والفرقة، ولم
يصموا أنفسهم^(٢) بقول المشبهة، إذ كان ظاهر قولهم على التشبيه
أدل، وبه أشبه.

ولا يجوز أن أذكر موافقتي لهم، ومخالفتي عليهم في صدر هذا
الكتاب، لأن التدبير في وضع الكتاب، والسياسة في تعليم الجهال أن
يبدأ بالأوضح فالأوضح، والأقرب فالأقرب، وبالأصول قبل الفروع،
حتى يكون آخر الكتاب لآخر القياس.

وأخر الكلام لا يفهم - أرسدك الله - ولا يشوهم إلا على ترتيب
الأمر، وتقليد الأصول. فإذا رتبنا الأمور، وقدمنا الأصول صارت
أواخر المعاني في الفهم كأوائلها، ودقيقها كجليها^(٣).

٢ - فصل منه

وقد علمنا أن بعض ما فيه الاختلاف بين من ينتحل الإسلام
أعظم فرية^(٤)، وأشد بلية، وأشنع كُفراً، وأكبر إثمًا من كثير مما
أجمعوا على أنه كفر.

(١) ب، م: « وكلما كان » خطأ كتابي. وفي ط: « كل ما » بدون واو.
(٢) في جميع النسخ: « ولم يفهموا أنفسهم ».
(٣) ط فقط: « ورقيقها كجليها »، تحريف.
(٤) الفرية، بكسر الفاء: الاسم من الاقتراء، وهو الاختلاق والكذب. ب فقط:
« قرية » محرف.

وبعد، فنحن لم نكفر إلا من أوسعناه حجة، ولم نمتحن إلا أهل التهمة، وليس كشف المتهم من التجسس^(١)، ولا امتحان الظنين من هنك الأستار. ولو كان كل كشف هتكاً، وكل امتحان تجسساً^(٢)، لكان القاضي أهلك الناس لستر، وأشد الناس كشفاً لعورة.

والذين خالفوا في العرش إنما أرادوا نفي التشبيه فغلطوا، والذين أنكروا أمر الميزان^(٣) إنما كرهوا أن تكون الأعمال أجساماً وأجراماً غلاظاً. فإن كانوا قد أصابوا فلا سبيل عليهم، وإن كان قد أخطئوا فإن خطأهم لا يتجاوز بهم إلى الكفر. وقولهم وخالقهم بعد ظهور الحجّة تشبيه الخالق بالخلق^(٤)، فبين المذهبين أبين الفرق^(٥). وقد قال صاحبكم للخليفة المعتصم، يوم جمع الفقهاء والمتكلمين والقضاة والمخلصين، إذاراً وإذاراً: امتحنتي وأنت تعرف ما في المحنة، وما فيها من الفتنة، ثم امتحنتي من بين جميع هذه الأمة! قال المعتصم: أخطأت، بل كذبت، وجدت الخليفة قبلي قد حبسك وقيدك، ولو لم يكن حبسك على تهمة لأمضى الحكم فيك، ولو لم يخفك على الإسلام ما عرض لك، فسؤالي إياك عن نفسك ليس من المحنة، ولا من طريق الاعتساف^(٦)، ولا من طريق كشف العورة، إذ كانت حالك هذه الحال، وسبيلك هذه السبيل.

وقيل للمعتصم في ذلك المجلس: ألا تبعث إلى أصحابه حتى يشهدوا إقراره، ويُعابتوا انقطاعه، فينقض ذلك استبصارهم، فلا يمكنه

(١) م: «من التجسس»، وهما بمعنى، وبه فسر قوله تعالى: «ولا تجسسوا».

(٢) م: «تجسساً». وانظر الحاشية السابقة.

(٣) ب، م: «والذين أنكروا معناكم في الميزان»، والوجه ما أثبت من ط.

(٤) ب، م: «خلق بالخلق»، والصواب من ط.

(٥) ب: «المفرق»، تحريف ما أثبت من م، ط.

(٦) ولا من طريق الاعتساف، ساقط من م.

جَعِدُ مَا أَقْرَبَهُ عِنْدَهُمْ^(١)؟ فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَ ذَلِكَ ، وَأَنْكَرَهُ عَلَيْهِمْ ، وَقَالَ :
لَا أُرِيدُ أَنْ أُوتَى بِقَوْمٍ إِنْ أَتَاهُمْ مُمِيزَتْ فِيهِمْ بِسِيرَتِي فِيهِمْ^(٢) ، وَإِنْ
بَانَ لِي أَمْرُهُمْ أَنْفَذْتُ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ ، وَهُمْ مَا لَمْ أُوتَ بِهِمْ^(٣) كَسَائِرِ
الرَّعِيَّةِ ، وَكَثِيرِهِمْ مِنْ عَوَامِ الْأُمَّةِ ، وَمَا مِنْ شَيْءٍ^(٤) أَحَبَّ إِلَيَّ مِنَ السُّتْرِ ،
وَلَا شَيْءٍ أَوْلَى بِي مِنَ الْأَثَاةِ وَالرَّفْقِ .

وما زال به رقيقاً ، وعليه رقيقاً ، ويقول : لِأَنَّ اسْتِحْبَابَكَ بِحَقِّ
أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتَلَكَ بِحَقِّ ! حَتَّى رَأَاهُ يُعَانِدُ الْحِجَّةَ ، وَيَكْذِبُ صُرَاحاً
عِنْدَ الْجَوَابِ . وَكَانَ آخِرَ مَا عَانَدَ فِيهِ ، وَأَنْكَرَ الْحَقَّ وَهُوَ يَرَاهُ ، أَنَّ
أَحْمَدَ بْنَ أَبِي دُوَّادٍ^(٥) قَالَ لَهُ : أَلَيْسَ لَا شَيْءَ إِلَّا قَدِيمٌ أَوْ حَدِيثٌ ؟
قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : أَوْ لَيْسَ الْقُرْآنُ شَيْئاً ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : أَوْ لَيْسَ
لَا قَدِيمٌ^(٦) إِلَّا اللَّهُ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : فَالْقُرْآنُ إِذَا حَدِيثٌ ؟ قَالَ :
لَيْسَ أَنَا مِتَّكَلِّمٌ^(٧) .

وكذلك كان يصنع في جميع مسأله ، حَتَّى كَانَ يَجِيبُهُ فِي كُلِّ
مَا سَأَلَ عَنْهُ ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ الْمُحْتَقَّ^(٨) ، وَالْمَوْضِعَ الَّذِي لِيْنُ قَالَ فِيهِ
كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ بَرِيٌّ مِنْهُ أَصْحَابُهُ قَالَ : لَيْسَ أَنَا مِتَّكَلِّمٌ !

(١) ب ، م : « جَعِدُهَا أَقْرَبَهُ عِنْدَهُمْ » ، صَوَابُهُ فِي ط .

(٢) ب ، م : « فِيهِ » .

(٣) ب ، م : « مَا لَمْ أُوتَ بِهِمْ » ، صَوَابُهُ فِي ط .

(٤) م ، ط : « وَمَا شَيْءٌ » .

(٥) فِي جَمِيعِ النُّسخِ : « أَبِي دَاوُدَ » ، تَحْرِيفٌ .

(٦) ب : « أَوْ لَيْسَ إِلَّا قَدِيمٌ » .

(٧) كَذَا فِي جَمِيعِ الْأَصُولِ ، فِي هَذَا الْمَوْضِعِ وَتَالِيهِ فِي آخِرِ هَذِهِ الصَّفْحَةِ .

(٨) فِي اللِّسَانِ : « يَقَالُ بَلَغَ مِنْهُ الْحَقُّ ، وَأَخَذَتْ بِمِخْنَقِهِ ، أَيْ مَوْضِعِ الْخَنَاقِ . وَأَنْشَدَ ابْنُ بَرِي

لَأَبِي النَّعَمِ :

• وَالنَّفْسُ قَدْ طَارَتْ إِلَى الْحَقِّ • .

وَفِي م ، ط : « الْمُحْتَقُّ » ، تَحْرِيفٌ .

فلا هو قال في أول الأمر : لا علم لي بالكلام ، ولا هو حين تكلم فبلغ موضع ظهور الحجّة (١) ، خضع للحق . فمقته الخليفة ، وقال عند ذلك : أف لهذا الجاهل مرة ، والمعايد مرة .

وأما الموضوع الذي واجه فيه الخليفة بالكذب ، والجماعة بالقيحة (٢) ، وقلة الاكثرات وشدة التصميم ، فهو حين قال له أحمد بن أبي دؤاد (٣) : تزعم أن الله رب القرآن ؟ قال : لو سمعت أحدا يقول ذلك لقلت . قال : أفما سمعت ذلك قط من حالف (٤) ولا سائل ، ولا من قاص ، ولا في شعر ، ولا في حديث ؟ !

قال : فعرف الخليفة كذبه عند المسألة ، كما عرف عنوده (٥) عند الحجّة .

وأحمد بن أبي دؤاد (٦) - حفظك الله - أعلم بهذا الكلام ، وبغيره من أجناس العلم ، من أن يجعل هذا الاستفهام مسألة ، ويعتمد عليها في مثل تلك الجماعة . ولكنه أراد أن يكشف لهم جرأته (٧) على الكذب ، كما كشف لهم جرأته (٨) في المعاندة . فعند ذلك ضرب به الخليفة .

وأية حجة لكم في امتحاننا إيتاكم ، وفي إكفارتنا لكم .

وزعم يومئذ أن حكم كلام الله كحكم علمه ، فكما لا يجوز أن

- (١) ب ، م : « ظهور الحجّة والحجة » .
 (٢) القصة : الواقعة . ب فقط : « باللقحة » ، تحريف .
 (٣) في جميع النسخ : « داود » ، تحريف .
 (٤) ط ، م : « خالف » بالغاء المعجمة .
 (٥) المنود والناد : الميل عن الحق . ط فقط : « عناده » .
 (٦) في جميع النسخ : « داود » .
 (٧) ب : « جراته » ، وأثبت ما في م ، ط .
 (٨) ب ، م : « جراته » ، وأثبت ما في ط .

يكون علمه مُحدثاً ومخلوقاً ، فكذلك لا يجوز أن يكون كلامه مخلوقاً مُحدثاً . فقال له : أليس قد كان الله يقدر أن يبدل آية مكان آية ، وَيَنْسَخَ آيَةً بآيَةٍ ، وَأَنْ يَذْهَبَ بِهَذَا الْقُرْآنِ ، وَيَأْتِيَ بغيره ، وكلُّ ذلك في الكتاب مَسْطُور ؟ قال : نعم . قال : فهل كان يجوز هذا في العلم ، وهل كان جائزاً أَنْ يَبْدُلَ اللهُ علمه ، ويذهب به ، ويأتى بغيره ؟ قال : ليس (١) .

وقال له : رَوَيْتَنَا فِي تَشْبِيهِتِ مَا نَقُولُ (٢) الْآثَارَ ، وَتَلَوْنَا عَلَيْكَ الْآيَةَ مِنَ الْكِتَابِ ، وَأَرَيْنَاكَ الشَّاهِدَ مِنَ الْقَوْلِ (٣) الَّتِي هِيَ لَزِمَ النَّاسَ الْفِرَاقُ ، وَهِيَ يَفْصَلُونَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، فَعَارَضْنَا أَنْتَ الْآنَ بِوَاحِدَةٍ مِنَ الثَّلَاثِ . فَلِمَ يَكُنْ ذَلِكَ عِنْدَهُ ، وَلَا اسْتَحْزَى مِنَ الْكُذْبِ عَلَيْهِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَجْلِسِ (٤) ، لِأَنَّ عِدَّةَ مَنْ حَضَرَهُ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُطْمَعِ أَحَدًا أَنْ يَكُونَ الْكُذْبُ يَجُوزُ عَلَيْهِ . وَقَدْ كَانَ صَاحِبِكُمْ هَذَا يَقُولُ : لَا تَقِيَّةَ إِلَّا فِي دَارِ الشَّرْكِ . فَلَوْ كَانَ مَا أَقْرَبَهُ مِنْ خَلْقِ الْقُرْآنِ كَانَ مِنْهُ عَلَى وَجْهِ التَّقِيَّةِ فَقَدْ أَعْمَلَ التَّقِيَّةَ (٥) فِي دَارِ الْإِسْلَامِ ، وَقَدْ أَكْذَبَ نَفْسَهُ . وَإِنْ كَانَ مَا أَقْرَبَهُ عَلَى الصَّحَّةِ وَالْحَقِيقَةِ فَلَسْتُمْ مِنْهُ ، وَلَيْسَ مِنْكُمْ . عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَرِ سِيْفًا مَشْهُورًا ، وَلَا ضُرْبَ ضَرْبًا كَثِيرًا ، وَلَا ضُرْبَ إِلَّا ثَلَاثِينَ سَوْطًا مَقْطُوعَةَ الثَّمَارِ (٦) ، مَشْعُتَةَ الْأَطْرَافِ (٧) ، حَتَّى أَفْصَحَ بِالْإِقْرَارِ مَرَارًا . وَلَا كَانَ فِي مَجْلِسِ

(١) ط : « قال : لا » .

(٢) ط فقط : « تقول » بالفاء ، بحرف .

(٣) في جميع النسخ : « المقول » .

(٤) ب ، م : « ولا استخزنا الكذب عليه » ، صوابه في ط . وفي ط : « في هذا المجلس » ،

صوابه في ب ، م .

(٥) ط فقط : « فقد أعملها » .

(٦) ثمرة السوط : غدة طرفه . وفي حديث الخد : « فأني بسوط لم تقطع ثمرة » .

(٧) ط : « مشعبة الأطراف » . وتشعبت الشيء : تفرقه .

ضيق ، ولا كانت حاله حال مؤيسة ، ولا كان مُثَقلاً بالحديد ، ولا خُلِعَ قلبه بِشِدَّةِ الوعيد . ولقد كان يُنَازِعُ بِاللِّينِ الكلام ، وَيُجِيبُ بِأَغْلَظِ الجواب ، وَيَرُزُّونَ وَيَخْفُ ، وَيَحْلُمُونَ وَيَطِيشُ (١) .

وعتَمَ علينا إِكْفَارنا إِياكُمْ ، واحتجاجنا عليكم بالقرآن والحديث . وقلتم : تُكْفِرُوننا على إنكار شيءٍ يحتمله التأويل (٢) ، ويثبت بالأحاديث ، فقد ينبغى لكم أن لا تحتجوا في شيءٍ من القدر والتوحيد بشيءٍ من القرآن ، وأن لا تُكْفِرُوا أحداً خالفكم في شيءٍ وأنتم أسرعُ الناسِ إلى إِكْفَارنا ، وإلى (٣) عداوتنا والنَّصَبِ لنا .

٣ - فصل منه

وأصحابنا - حفظك الله - إذا قاسوا خطأهم ، ومروا على غلطهم فإنما ينقضون به شيئاً من العَرَضِ والجوهر ، وشيئاً من قولهم في المعلوم والمجهول فقط . وهم قومٌ يكفيهم من التنبيه (٤) أقله ، ومن القول أيسره . وخطأُ النَّابِئَةِ وقولُ الرَّافِضَةِ تشبيهه مصرح ، وكُفْرُ مُجَلِّحِ (٥) ، فليس هذا الجنس من ذلك الجنس . والحمد لله .

وأما إِخْبَارهم عن عيبنا إياهم حين لم يقولوا : إنَّ الله تعالى ربُّ القرآن ، وفيها من يقول : إنَّ الله تبارك وتعالى ربُّ الكفرِ والإيمان ،

(١) ب فقط : « ويحملون » ، صوابه في م ، ط .

(٢) ط : « يحتمل التأويل » .

(٣) ب فقط : « أو إلى » .

(٤) في جميع النسخ : « التنبيه » ، والوجه ما أثبت .

(٥) يقال صرح الشيء ، إذا كشف عنه وأظهره ، وصرح هو إذا انكشف ، ومنه قول شبل بن شيبان في الحماسة ٣٤ :

فلمَّا صرح الشر فأسى وهو عسريان
والجلج ، بالبناء للفاعل أيضاً : الجرى ، وهو من التجليح ، وهو الإقدام على الشر
وتكثيف الدائرة وتصريحها ، كما في أساس البلاغة .

فإننا لم نسألهم^(١) عن ذلك من جهة ما يتوهمون ، وإنما سألناهم عنه بجحدهم ما يروون بأبصارهم ، ويسمعون بأذانهم ، في الأشعار المعروفة ، وفي الخطب المشهورة ، وفي الابتهاال^(٢) عند الدعاء ، وعلى السنة العوام والذهماء^(٣) ، وعند اليهود والأيمان ، وعند تعظيم القرآن ، وبما يسمعون من السؤال في الطرقات ، ومن القصاص في المساجد ، لا يروون عائباً^(٤) ، ولا يسمعون زارياً^(٥) . وليس أننا جعلنا هذا مسألة على من أنكر خلق القرآن ، ولكننا أردنا أن نبين للضعفاء معاندتهم ، وفزارهم من البهت ، ومكابرتهم إذا سمعوا أنهم لم يسمعوا الناس يقولون : ورب القرآن ، ورب ياسين ، ورب طه ، وأشباة ذلك .

ولعمري أن لو سمعوا الناس يقولون عند أيمانهم وابتهاالهم إلى ربهم ، على غير قصد إلى خلاف ولا وفاق : ورب الزنى والسرق^(٦) ، ورب الكفر والكذب ، كما سمعهم يقولون^(٧) : ورب القرآن ، ورب يس ، ورب طه ! ثم ألزمتهم خلق القرآن بمثل ما لهم علينا في خلق الزنى - لقد كان ذلك معارضة صحيحة^(٨) ، وموازنة معروفة .

وأما قولهم : إنَّ معنا العامة ، والعباد ، والفقهاء ، وأصحاب الحديث ، وليس معهم إلا أصحاب الأهواء ، ومن يأخذ دينه من أول

(١) ب : « نسأل » ، صوابه في ب ، ط .

(٢) ب ، م : « وفي ابتهاال » .

(٣) والادهاء ، ساقطة من ط .

(٤) م ، ط : « غالباً » بالعين المعجمة ، صوابه في ب .

(٥) زرى عليه وأزرى : عاب . وفي ب : « زاويا » صوابه في م ، ط .

(٦) السرق ، بالتحريك ، وككتف : السرقة . وفي ط : « والسرقة » وفي ب :

« ورب السرقة » .

(٧) ب ، م : « كما سمعوا وهم يقولون » ، وأثبت ما في ط .

(٨) ب : « معارضة صحيحة » .

الرَّجَالِ^(١) ، فَأَيُّ صَاحِبٍ هُوَ - يَرْحَمُكَ اللَّهُ - أَبْعَدُ مِنَ الْجَمَاعَةِ مِنَ الرَّافِضَةِ ، وَهَمَّ فِي هَذَا الْمَعْنَى أَشْقَاؤُهُمْ^(٢) وَأَوْلِيَاؤُهُمْ ، لِأَنَّ مَا خَالَفُوهُمْ فِيهِ صَنِيرٌ فِي جَنْبٍ مَا وافقوهم عليه ، وَالَّذِينَ سَمَّوْهُمُ أَصْحَابَ أَهْوَاءِ هُمْ الْمَكَلَّمُونَ ، وَالْمُصَلِّحُونَ وَالْمُسْتَصَلِحُونَ ، وَالْمُمَيِّزُونَ^(٣) . وَأَصْحَابُ الْحَدِيثِ وَالْعَوَامُّ هُمُ الَّذِينَ يَقْلُدُونَ وَلَا يَحْصُلُونَ ، وَلَا يَنْخَبِرُونَ ، وَالْتَقْلِيدُ مَرْغُوبٌ عَنْهُ^(٤) فِي حِجَّةِ الْعَقْلِ ، مِنْهُيُّ عَنْهُ فِي الْقُرْآنِ^(٥) ، قَدْ عَكَسُوا الْأُمُورَ كَمَا تَرَى ، وَنَقَضُوا الْعَادَاتِ . وَذَلِكَ أَنَّ لَا نَشْكُ أَنَّ مِنْ نَظَرِ وَبَحْثِ ، وَقَابِلِ وَوَاظِنِ^(٦) ، أَحَقُّ بِالتَّبْيِينِ ، وَأَوْلَى بِالْحِجَّةِ .

وَأَمَّا قَوْلُهُمْ : مِمَّا التُّسَاكُ وَالْعِبَادُ ، فَعِبَادُ الْخَوَارِجِ وَحَدَثُهُمْ أَكْثَرُ عِدَدًا مِنْ عِبَادِهِمْ ، عَلَى قَلَّةِ عِدَدِ الْخَوَارِجِ فِي جَنْبِ عَدَدِهِمْ ، عَلَى أَنَّهُمْ أَصْحَابُ نِيَّةٍ^(٧) ، وَأَطْيَبُ طَعْمَةٍ^(٨) ، وَأَبْعَدُ مِنَ التَّكْسِبِ ، وَأَصْدَقُ وَرْعًا ، وَأَقْلُ رِيَاءً^(٩) ، وَأَدْوَمُ طَرِيقَةً ، وَأَبْذَلُ لِلْمُهْجَةِ ، وَأَقْلُ جَمْعًا وَمَنْعًا ، وَأَطْهَرُ زُهْدًا وَجَهْدًا . وَلَعَلَّ عِبَادَةَ عَمْرٍو بْنِ عُبَيْدِ تَفِي بِعِبَادَةِ عَامَّةِ عِبَادِهِمْ . وَأَمَّا قَوْلُهُمْ : إِنَّ لِلْقُرْآنِ قَلْبًا وَسَنَامًا وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ، وَأَنَّهُ يَقْدَسُ وَيُشْفَعُ وَيَمْحَلُ^(١٠) ، فَإِنَّ هَذَا كُلَّهُ قَدْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَثَلًا ، وَيَجُوزُ أَنْ

(١) ب ، م : « من أدل الرجال » .

(٢) في جميع الأصول : « أشقائهم » ، والوجه ما أثبت .

(٣) والمميزون ، ساقط من ط .

(٤) ب ، م : « عليه » ، صوابه في ط .

(٥) ط فقط : « في القراب » ، تحريف .

(٦) ط : « ووزن » ، تحريف .

(٧) ب : « بنة » ، تحريف .

(٨) الطعمة ، بالضم ، وجه المكتسب . وبالكسر : السيرة في الأكل .

(٩) هذا ما في ب . وفي م : « رأيا » ، وفي ط : « زيا » .

(١٠) التقدیس : التطهير والتبريك . ومنه الأرض المقدسة . ويمحَل ، أى يحل بصاحبه ، إذا لم يتبع ما فيه وإذا هو ضميمه ، أى يعرضه للهلكة . وفي الحديث عن ابن مسعود : « إن هذا القرآن شافع مشفع ، وماحل مصدق » . وانظر اللسان (محل ١٤١) .

يجعله الله كذلك إذا كان جسيماً ، والله على ذلك قادر ، وهو له غير مُعْجَز ، ومنه غير مستحيل . وكلُّ فعل لا يكون عيباً ، ولا ظلماً ولا بخلاً ولا كذباً ، ولا خطأً^(١) في التَّدْبِير ، فهو جائز ، والتعجب منه غير جائز .

٤ - فصل منه

وما أَكْثَرَ من يُعْجِب في المسائل ، ويؤلّف الكتب على قدر ما يَسْنَح له في وهمه ، وعلى قدر ما يتصوّر له في حاله تلك ، لا يعمل على أصل^(٢) ، أو لا يشعر^(٣) بالذي انبَنَى عليه ذلك الأصل^(٤) ، وإن كان ممن يعمل على أصل .

وإنما صار علماؤنا إلى ما صاروا إليه لأنهم لا يَقِفون من القول في خلق القرآن على جواب مهذّب ، ومذهب مصفّى ، وعلى قولٍ مفروغ منه ، وعلى جواباتٍ بأعيانها . فقد ردّدوا فيها النّظر ، وامتنحونها بأغلظ اليحّن ، وقلّبوها أكثر التقلّب^(٥) ، وتبَطّطوا معانيها بأبلغ التّفكير ، وتعرفوا كلّ ما فيها ، واعتصروا جميع قواها ، وسهّلوا سبلها ، ودلّلوا العبارة عنها^(٦) ، احتقاراً منهم لمن خالفهم ، واتكالا على طول السّلامة منهم ، وثقة بطول الظّفّر بهم .

ومن تمام أمر صاحب الحقّ أن لا يتكل على عجز الخصم ، وأن لا يُعْجِبَ بظهوره^(٧) على من لاحظ له في العلم .

(١) الخطأ ، كسحاب : الخطأ . ط فقط : « خطأ » .

(٢) ط : « على أصله » .

(٣) في الأصول : « ولا يشعر » ، وجهه ما أثبت .

(٤) ب ، م : « في الذي عليه ذلك الأصل » ، صوابه في ط .

(٥) ط : « وقلّبوها » فقط .

(٦) ط : « وذبوا النّاد عنها » ب : « ودلّلوا العبادة عنها » ، صوابه في م .

(٧) ظهر عليه : غلبه . ب ، م : « يظهر » ، وأثبت ما في ط .

وعلى العلماء أن يخافوا دَوْلَ الْعِلْمِ (١) ، كما يخافُ الملوك دول المُلْك . وقد رأيت البَكْرِيَّةَ (٢) ، والجَبْرِيَّةَ ، والفَضْلِيَّةَ (٣) ، والشَّمْرِيَّةَ (٤) وإِنَّهُمْ لَأَحْفَرُ عِنْدَ الْمُعْتَزَلَةِ مِنْ جُعَلٍ (٥) مما زالوا يَسْتَقْفُونَ (٦) من علمائهم ، ويستمدُّون من كبارهم ، ويَدْرُسُونَ كتبهم ، ويأخذون ألفاظهم في جميع أمورهم ، حتَّى رأيت شَبِيهَتَهُمْ ونابِتَتَهُمْ (٧) ، يَدْعُونَ أَنَّهُمْ أَكْفَاءٌ ، ويجمع بينهم في البَلَاءِ . والنَّابِئَةُ اليَوْمَ في التَّشْبِيهِ (٨) مع الرَّافِضَةِ ، وهم دَائِبُونَ (٩) في التَّأَلُّمِ مِنَ الْمُعْتَزَلَةِ . غدرهم كثير (١٠) ، ونَصَبُهُمْ شديد ، والعوامُ معهم ، والحشورُ يُطِيعُهُمْ (١١) .

الآن (١٢) معك أمران : السُّلْطَانُ وميلُهُم إليه ، وخَوْفُهُمْ منه .
والعاقبة للمتقين .

- (١) الدول : جمع دولة ، وهي الانتقال من حال إلى حال .
(٢) البكرية : أتباع بكر بن أخت عبد الواحد بن زيد . وقد ذكرهم البغدادي في الفرق في فصل مع الجهمية والضرارية . الفرق ١٩٩ والفصل ٤ : ١٩١
(٣) الفضلية الذين ينهم الجاحظ ، هم أتباع الفضل بن عيسى الرقاشي البصري . وهم طائفة من المعتزلة . وهناك فضلية الخوارج ، ينتسبون إلى الفضل بن عبد الله . انظر مفاتيح العلوم ١٩ والبيان ١ : ٣٠٦ .
(٤) الشمرية ، بالشين المعجمة المكسورة والميم المشددة المفتوحة ، كما في السمعاني ٣٣٨ . قال : « والمشهور بهذه النسبة عمرو بن أبي عيَّان الشمرى ، رأس المعتزلة » .
(٥) الجعل : دويبة شبيهة بالخفصاء ، يضرب بها المثل في الحفارة والمهوان ، وفي السوق بالإنسان يتيمه إلى الغائط ، إذ قالوا : « أُلصق من جعل » . حياة الحيوان للديري . و« من جعل » من ط فقط .
(٦) ب ، م : « يسبقون » ، صوابه في ط .
(٧) ب : « شبيهم ونابيتهم » م : « شبيهم ونابيتهم » ط : « شبيهم ونابيتهم » ، والوجه ما أثبت .
(٨) في جميع النسخ : « في التشبيه به » ، وكلمة « به » مقحمة .
(٩) ب : « دايئون » ، صوابه في م ، ط .
(١٠) ط : « عددهم كثير » .
(١١) ب ، م : « يطيعهم » .
(١٢) ب ، م ، « إلا أن » .

١٠

من كتابه في
الرد على النصارى



١ - فصل من صدر كتابه في

الرد على النصارى^(١)

الحمد لله الذي مَنَّ علينا بتوحيده ، وجعلنا ممن ينفي شبهة خَلْقِهِ^(٢) وسياسة عبادِهِ^(٣) ، وجعلنا لا نفرق بين أحدٍ من رُسُلِهِ ، ولا نَجْحِدُ كتاباً أَوْجَبَ علينا الإقرار به ، ولا نُضَيِّفُ إليه ما ليس منه ، إنه حميدٌ مجيدٌ ، فَعَمَّا لِمَا يَرِيدُ .

أما بعدُ فقد قرأتُ كتابكم ، وفهمت ما ذكرتم فيه^(٤) من مسائل النَّصَارَى قَبْلَكُمْ ، وما دخلَ على قلوب أحدائكم وُضْعَفَائِكُمْ مِنَ اللَّبْسِ ، والذي خُضِّمُوهُ على جواباتهم من العَجْزِ ، وما سألتُم من إقرارهم بالمسائل ، ومن حُسْنِ معونتهم بالجواب .

وذكرتم أنَّهم قالوا : إنَّ الدليل على أنَّ كتابنا باطلٌ ، وأمرنا فاسدٌ ، أنَّنا ندعى عليهم ما لا يعرفونه فيما بينهم ، ولا يعرفونه من أسلافهم ، لأنَّا نزرعُ أنَّ الله جلَّ وعزَّ قال في كتابه على لسان نبيِّه محمدٍ صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ آأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ^(٥) ﴾ ، وأنَّهم زعموا أنَّهم لم يَدِينُوا قطُّ بآن

(١) نشر هذا الاختيار من قبل ، بعد ظهوره على هامش الكامل ، في مجموعة يوشع فنكل ، وعنوانها (ثلاث رسائل لأبي عبَّان عمرو بن بحر الجاحظ) وطبعت في المطبعة السلفية سنة ١٣٤٤ . وجعلت هذه المجموعة هدية من مجلة الزهراء التي كان يصدرها الأستاذ محب الدين الخطيب ، إلى قرائها في السنة الثانية . والرسالة التي تليها هي (ذم أخلاق الكتاب) ، ثم (رسالة القيان) . وقد قمت بنشرها بين الأخيرتين في الجزء الثاني من الرسائل في الصفحات ١٣٩ - ٢٠٩ .

(٢) يعنى كونه مخلوقاً .

(٣) إشارة إلى ما يرى المعتزلة من أنه غير خالق لأفعال العباد ، فهم يخلقون أفعالهم ويريدونها ، فيحاسبون على ما فعلوا .

(٤) ب : « من ما ذكرتم » .

(٥) الآية ١١٦ من سورة المائدة .

مریم إله في سِرِّهم ، ولا ادَّعَوْا ذلك قطُّ في علانيَّتِهِم . وأنَّهم زعموا أنَّنا ادَّعينا عليهم ما لا يعرفون ، كما ادَّعينا على اليهود ما لا يعرفون ، حين نطقَ كتابنا ، وشهدَ نبيُّنا : أنَّ اليهود قالوا : إنَّ عزيراً ابن الله ^(١) ، وإنَّ يدَ الله معلولة ^(٢) ، وإنَّ الله فقيرٌ وهم أغنياء ^(٣) . وهذا ما لا يتكلَّم به إنسان ، ولا يُعرف في شيء من الأديان .

ولو كانوا يقولون في عزيرٍ ^(٤) ما نحلَّتمون وادَّعيتموه ، لَمَا جحدوه من دينهم ، ولَمَا أنكروا أن يكونَ من قولهم ، ولما كانوا بإنكار بُنوةِ عزيرٍ أحقَّ منَّا بإنكار بُنوةِ المسيح ، ولَمَّا كان علينا منكم بأسٌ بعد عقْدِ اللَّمَّة ، وأخذِ الجزية .

وذكرتم أنَّهم قالوا : ومَّا يدلُّ على غلطكم في الأخبار ، وأخذكم العلم عن غير الثقات ^(٥) ، أنَّ كتابكم ينطق : أنَّ فرعون قال لهامانَ : ﴿ ابن لي صرحاً ^(٦) ﴾ . وهامانُ لم يكن إلَّا في زمنِ الفُرسِ ، وبعد زمنِ فرعونَ بدهرٍ طويل ، وإنَّ ذلك معروفٌ عند أصحابِ الكُتُبِ ، مشهورٌ عند أهل العلم . وإنما اتَّخذ صرحاً ليكون إذا عَلاه أشرَفَ على الله . وفرعونُ لا يخلو من أن يكون جاحداً لله تعالى ، أو مقرِّاً به . فإن كان دينه عند نفسه وأهلِ مملكته نقيَّ الله وجحدَه ، فما وجهُ اتَّخاذِ الصَّرحِ وطلبِ الإشرافِ ، وليس هناك شيء ولا إله ؟

(١) ب : « عزير ابن الله » .

(٢) إشارة إلى الآية ٦٤ من المائدة .

(٣) إشارة إلى الآية ١٨١ من آل عمران .

(٤) ب فقط : « يقولون في شيء في عزير » .

(٥) في جميع النسخ : « الثقات » ، وهو خطأ فادح في الرسم الذي يوجب رسم تاء جمع المؤنث السام مبسوطة .

(٦) من الآية ٣٦ في غافر .

(٧) م فقط : « لم يكن في زمن الفرس » ، تحريف .

وإن كان مُتَبَرِّئاً بالله عارفاً به ، فلا يخلو من أن يكون مشبهاً أو نافياً
للتشبيه . فإن كان من يَنْبِيءُ الطُّولَ وَالْعَرْضَ وَالْعُمُقَ وَالْحُدُودَ وَالْجِهَاتِ ،
فما وَجَّهَ طلبه له في مكانٍ بعينه ، وهو عنده بكلِّ مكان ؟ وإن كان
مُشَبَّهاً فقد عَلِمَ أَنَّهُ ليس في طاقَةِ بَنِي آدَمَ أن يَبْنُوا بُنْيَاناً ، أو يرفعوا
صَرحاً يَخْرِقُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ بِأَعْمَاقِهِنَّ ، وَالْأَجْزَاءَ الَّتِي بَيْنَهُنَّ ، حَتَّى يَحَاضِيَ^(١)
العرشَ ثم يعلوه .

و فرعونُ وإن كان كافراً فلم يكن مجنوناً ، ولا كان إلى نَقْصِ
العقل من بين الملوك منسوباً . على أن الحكم قد يقوم^(٢) بعمول الملوك
بالفضيلة على عقول الرعية .

وذكرتم أنهم قالوا : تَزَعُمُونَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَ يحيى بن زكريا
يُخَيِّرُ أَنَّهُ ﴿ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَوِيًّا ﴾^(٣) ، وَأَنَّهُمْ يَجِدُونَ فِي كِتَابِهِمْ
وَفِيهَا لَا يَخْتَلِفُ فِيهِ خَاصَّتُهُمْ وَعَامَّتُهُمْ أَنَّهُ كَانَ مِنْ قَبْلِ يحيى بن زكريا
غَيْرُ وَاحِدٍ يُقَالُ لَهُ يحيى ، مِنْهُمْ : يُوحَنَّا بن فروح^(٤) .

و زعمتم أنهم قالوا لكم^(٥) : إِنَّكُمْ ذَكَرْتُمْ أَنَّ اللَّهَ قَالَ فِي كِتَابِهِ
لنبييكم : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ﴾^(٦) ، فَاسْأَلُوا أَهْلَ
الدُّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ^(٧) ، وَإِنَّمَا عَنَى بِقَوْلِهِ : ﴿ أَهْلَ الدُّكْرِ ﴾ :

(١) ب : « يجازى » ، تحريف .

(٢) ب : « قد يقدم » . (٣) من الآية ٧ في سورة مريم .

(٤) لم أجده ذكره في كتب الجاحظ ، كما لم أجده خبراً إلا في سفر إرميا ٤٠ : ٨
و ٤١ : ١١ و ٤٣ : ٦ . واسمه في هذا السفر : يوحانان بن قاربع .

(٥) ب فقط : « لك » صوابه في م ، ط .

(٦) كذا القراءة في الآية ٤٣ من سورة النحل . أما في الآية ٧ من سورة الأنبياء فقراءة
الجمهور فيها : « نوحى إليهم » ، كما ورد في نسخة ب . وقرأها حفص فقط : « نوحى إليهم »
انظر إتحاف فضلاء البشر ٣٠٩ م .

(٧) هي الآية ٤٣ من سورة النحل ، ونصها هو نص الآية ٧ من سورة الأنبياء .

(٢٠ - رسائل الجاحظ)

أهل الثوراة ، وأصحاب الكتب يقولون : إنَّ الله قد بعثَ من النساء نبياتٍ ، منهم مريم بنت عمران^(١) ، وبعث منهنَّ حنَّه^(٢) ، وسارى^(٣) ، ورفقى^(٤) .

وذكرتم أنَّهم قالوا : زعمتم أنَّ عيسى تكلمَ في المهْد ، ونحن على تقدّمنا له ، وتقريبنا لأمره ، وإفراطنا بزعمكم فيه ، على كثرة عدّدنا ، وتفاوت بلادنا ، واختلافنا فيما بيننا ، لا نعرف ذلك ولا ندعيه^(٥) ، وكيف ندعيه ولم نسمعه عن سلفٍ ، ولا ادعاه منا مدّعٍ .

ثم هذه اليهودُ لا تعرف ذلك ، وتزعم أنَّها لم تسمع به إلا منكم ، ولا تعرفه المجوسُ ، ولا الصابئون ، ولا عبّاد البُدّة^(٦) من الهند وغيرهم ،

(١) انظر بقية نسبها في الطبري ١ : ٥٨٦ .

(٢) هي حنة بنت فنوتيل ، من سبط أشير . إنجيل لوقا ٢ : ٣٦ .

(٣) سميت في العهد القديم « سارى » تكوين ١١ : ٢٩ ، ٣٠ / ١٢ / ١١ ، ١٢ / ١٧ : ١٦ - ٩ وجاء في سفر التكوين ١٧ : ٥ في مخاطبة إبراهيم عليه السلام : « فلا يدعى اسمك بعد إبراهيم ، بل يكون اسمك إبراهيم » وفي الفقرة الخامسة عشرة منه : « وقال الله لإبراهيم : سارى امرأتك لاندعو اسمها سارى ، بل اسمها سارا » . وفي حواشي سفر التكوين أن « سارة » بمعنى رئيسة . وسارة هذه هي بنت هاران الأكبر عم إبراهيم ، كما في الطبري ١ : ٢٤٤ ، وفيها الآية الكريمة : « وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب » . وسارة تضبط بتخفيف الراء ، ويخطئ من يشدها ، وإن كانت قد ضبطت بذلك في اللسان (هجر ١١٨ ورقم ١٨٠) وشرح القسطلاني ٤ : ١٠٢ . وعما يعين ضبطها بتخفيف الراء قول جرير في ديوانه ٥٤٣ : فيجمعنا والزمز أولاد سارة أب لابنالب بعده من تمدرا

(٤) ورسمت في الطبري : « رفقا » ، وهو الوجه ، لأن جميع المنتهى بالألف اللينة من الأسماء الأعجمية حقه أن يكتب بالألف ، ماعدا الأسماء الخمسة : موسى ، عيسى ، كسرى ، بخارى ، متى . وهي رفقا ابنة بتويل بن ناحور بن تارخ ، وهي امرأة إسحاق ، كما في الطبري ١ : ٣١٣ . وتسمى أيضاً « رفقة » في التكوين ٢٤ : ١٥ ، ٢٩ / ٢٥ : ٢٠ .

(٥) ب ، م : « لا يعرف ذلك ولا يدعيه » ، صوابه في ط .

(٦) البد ، بالضم : الضم الذي يعيد ، وهو إعراب بت ، بالفارسية يضم الياء أيضاً . والجمع البُدّة . ب : « البُدّة » ط : « المدرّة » ، صوابها في م . وانظر ما سبق في حواشي . ٢٥٢ .

ولا التُّرك والخزر^(١) ، ولا بلَغْنَا ذلك عن أحدٍ من الأمم السالفة ، والقرونِ الماضية ، ولا في الإنجيل ، ولا في ذِكْر صفاتِ المسيح في الكُتُب والبياراتِ به على ألسنة الرُّسل .

ومثلُ هذا لا يجوز أن يجهله الولىُّ والعدوُّ ، وغيرُ الولىِّ وغيرُ العدوِّ ، ولا يُضربَ به مثل ، ولا يُروَّحَ به النَّاسُ ، ثم يُجمع النُّصارى على رده ، مع حُبِّهم لتقوية أمره . ولم يكونوا ليضادوكم^(٢) فيما يرجع عليهم نفعه . وكيف لم يكذبوكم في إحيائه الموتى ، ومُشيه على الماء ، وإبراء الأكمه والأبرص ؟! بل لم يكونوا ليتفقوا على إظهار خلاف دينهم ، وإنكار أعظم حجة كانت لصاحبهم ، ومثل هذا لا ينكم ولا ينفك من يخالف ويُنم^(٣) .

والكلام في المهدي أعجب من كلِّ عجب ، وأغرب من كلِّ غريب ، وأبدع من كلِّ بديع ، لأنَّ إحياء الموتى والمُتَّي على الماء ، وإقامة المُقعد ، وإبراء الأعمى ، وإبراء الأكمه^(٤) قد أتت به الأنبياء ، وعرفه الرُّسل ، ودار في أسماهم . ولم يتكلَّم صبيُّ قطُّ ، ولا مولودٌ في المهدي .

وكيف ضاعت هذه الآية ، وسقطت حجة هذه العلامة من بين كلِّ

علامة ؟ !

وبعد ، فكلُّ أعجوبةٍ يأتى بها الرجال^(٥) ، والمعروفون بالبيان ،

(١) م : « والخزر » ، تحريف . والخزر : جيل من التُّرك كان مقر حكمهم في سوب القوقاز الشمالية . وانظر مادق (بلغار) و (الخزر) في دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) ب ، م : « ولم يكن ليضادوكم » .

(٣) ب فقط : « ويتم » بالناء .

(٤) الأكمه : الذي يولد أعمى ، ومصدره الكمه ، بالتجريك . وربما جاء الكمه في الشعر لعمى العارض ، كما جاء في قول سويد بن أبي كاهل البشكري في المفضليات ٢٠٠ :

كُتبت عيناها لنا ايغتيا فهو يلحن نفسه لنا نزع

(٥) م ، ب : « الرجل » ، وأثبت ما في ط .

والمسويون إلى صواب الرأي ، تكون^(١) الحيلة في الظن إليها أقرب ،
وخوف الخدعة عليها أغلب . والصبي المولود عاجز في الفطرة ، ممتنع من
كل حيلة ، لا يحتاج فيه إلى نظر ، ولا يشبهه من شاهده بدخل^(٢) .

٢ - فصل منه

وستقول في جميع ما ورد علينا من مسائلكم ، وفيما لا يقع إليكم من
مسائلهم ، بالشواهد الظاهرة ، والحجج القوية ، والأدلة الاضطرارية ،
ثم نسألم بعد جوابنا إياهم عن وجوه يعرفون بها انتقاص قولهم ، وانتشار
مذهبهم^(٣) ، وتهاقت دينهم .

ونحن نعوذ بالله من التكلف وانتحال ما لا نحسين ، ونسأله القصد
في القول والعمل ، وأن يكون ذلك لوجهه ، ولتصرة دينه ، لأنه قريب
مجيب .

فأنا مبتدئ في ذكر الأسباب التي لها^(٤) صارت النصرى أحب
إلى العوام من المجوس ، وأسلم صدوراً عندهم من اليهود ، وأقرب
مودة ، وأقل غائلة ، وأصغر كفرة ، وأهون عذاباً .

ولذلك أسباب كثيرة ، ووجوه واضحة ، يعرفها من نظر ، ويجعلها
من لم ينظر .

(١) ب ، م : « فكون » ، صوابه في ط .

(٢) ط فقط : « ولا يشبهه » . والدخل ، بالتحريك وبالفتح أيضاً : الرية والنش .
قال الله تعالى : « تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم » . وفي كلام ابنه الحسن :
ترى الفتيان كالنخل وما يدريك ما الدخل

(٣) انتشار مذهبهم : تفرقه وعدم ترابطه . ويقولون : ضم الله نورك ، بالتحريك ، أى
لم شئتك .

(٤) ب : « التي بها » .

أَوَّلُ ذَلِكَ أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا جِيرَانًا الْمُسْلِمِينَ يَيْثِرُ بِغَيْرِهَا ، وَعَدَاوَةُ الْجِيرَانِ شَبِيهَةٌ بِعَدَاوَةِ الْأَقْرَابِ فِي شِدَّةِ التَّمَكُّنِ وَثَبَاتِ الْحَقْدِ ، وَإِنَّمَا يُعَادِي الْإِنْسَانَ مَنْ يَعْرِفُ ، وَيَمِيلُ عَلَى مَنْ يَرَى ، وَيُنَاقِضُ مَنْ يُشَاكِلُ ، وَيَبْدُو لَهُ عَيُوبٌ مِنْ يُخَالِطُ . وَعَلَى قَدْرِ الْحَبِّ وَالْقُرْبِ يَكُونُ الْبُغْضُ وَالْبُغْدُ ، وَلِذَلِكَ كَانَتْ حُرُوبُ الْجِيرَانِ وَبَنَى الْأَعْمَامُ مِنَ سَائِرِ النَّاسِ وَسَائِرِ الْعَرَبِ أَطْوَلَ ، وَعَدَاوَتُهُمْ أَشَدَّ .

فَلَمَّا صَارَ الْمُهَاجِرُونَ لِلْيَهُودِ جِيرَانًا ، وَقَدْ كَانَتْ الْأَنْصَارُ مُتَقَدِّمَةً الْجَوَارِ ، مَشَارِكَةً فِي الدَّارِ ، حَسَدَتْهُمْ الْيَهُودُ عَلَى النَّعْمَةِ ^(١) فِي الدِّينِ ، وَالْاجْتِمَاعِ بَعْدَ الْإِفْتِرَاقِ ، وَالتَّوَاضُّعِ بَعْدَ التَّقَاطُعِ ، وَشَبَّهُوا عَلَى الْعَوَامِ ^(٢) ، وَاسْتَأْلَوْا الضَّعْفَةَ ، وَمَالَتُوا ^(٣) الْأَعْدَاءَ وَالْحَسَدَةَ ، ثُمَّ جَاوَزُوا الطَّعْنَ وَإِدْخَالَ الشَّبِيهَةِ ، إِلَى الْمَنَاجِرَةِ وَالْمُنَابَذَةِ بِالْعَدَاوَةِ ، فَجَمَعُوا كَيْدَهُمْ ، وَبَدَلُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ فِي قِتَالِهِمْ ، وَإِنْخِرَاجِهِمْ مِنْ دِيَارِهِمْ ، وَطَالَ ذَلِكَ وَاسْتَفْضَخَ فِيهِمْ ^(٤) وَظَهَرَ ، وَتَرَادَفَ لِذَلِكَ الْعَيْظُ ، وَتَضَاعَفَ الْبُغْضُ ، وَتَمَكَّنَ الْحَقْدُ .

وَكَانَتْ النِّصَارَى لِبَعْدِ دِيَارِهِمْ ^(٥) ، مِنْ مَبْعَثِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمُهَاجِرِهِ ، لَا يَتَكَلَّفُونَ طَعْنًا ^(٦) ، وَلَا يُثِيرُونَ كَيْدًا ^(٧) ،

(١) ب ، م : « حسدتهم اليهود النعمة » ، وهي صحيحة أيضاً ، يقال حسده على الشيء ، وحسده إياه ، كما في قول شمر بن الحارث الضري :

فقلت إلى الطمام فقال منهم زعيم تحسد الإنس الطماما

(٢) ط فقط : « الفوام » ، تحريف .

(٣) ب ، م : « وبادلوا » ، صوابه في ط . والمبالاة : المساعدة ، والمشايعة .

(٤) ب ، م : « واستفصخ فيهم » ، صوابه في ط .

(٥) ب ، م : « ديارها » .

(٦) ب ، م : « لا يتكلف ظناً » ، صوابه في ط .

(٧) ب ، م : « ولا يستر كيداً » ، والوجه في ط .

ولا يجمعون على حرب^(١). فكان هذا أول أسباب ما غلظت القلوب على اليهود، ولينها على النصارى.

ثم كان من أمر المهاجرين إلى الحبشة، واعتادهم على تلك الجنبية^(٢) ما حبيهم^(٣) إلى عوام المسلمين. وكلما لانت القلوب لقوم غلظت على أعدائهم، ويقدر ما نقص من بغض النصارى زاد في بغض اليهود. ومن شأن الناس حب من اصطنع إليهم خيراً أو جرى على يديه^(٤)، أراد الله بذلك أو لم يرده، ويقصد^(٥) كان أم باتفاق.

وأمر آخر، وهو من أمتن أسبابهم وأقوى أمورهم، وهو تناويل آية غلظت فيها العامة حتى نازعت الخاصة، وحفظتها النصارى واحتجبت، واستالت قلوب الرعاع والسفلة، وهو قول الله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى^(٦)﴾. إلى قوله: ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ^(٧)﴾. وفي نفس الآية أعظم الدليل على أن الله تعالى لم يعن هؤلاء النصارى ولا أشباههم: المكانية^(٨) واليعقوبية^(٩)، وإنما عني

(١) ب م: «ولا يجمع على حرب»، تحريف.

(٢) الجنبية: الجانب. وفي ط فقط: «الجهة».

(٣) ب فقط: «ماحبهم»، صوابه في م، ط.

(٤) الكلام يهده إلى كلمة «باتفاق» ساقط من ط.

(٥) في الأصل، وهو هنا ب م: «وبعد»، والوجه ما أثبت.

(٦) الآية ٨٢ من سورة المائدة.

(٧) يعني الآيات ٨٢-٨٥ من سورة المائدة.

(٨) ب فقط: «المكانية»، صوابه في م، ط. ويقال ملكانية وملكانية أيضاً بالهجر،

كما في مفاتيح العلوم ٢٣. ويقال أيضاً الملكية، كما في التنبيه والإشراف للسمودي ١٢٣،

١٢٤، ١٣٠، ١٣٢، ١٣١. وجاء في مفاتيح العلوم ٢٣: «وهم منسوبون إلى ملكاء، وهم

أقدمهم»، أي أقدم النصارى. وفي الملل والنحل ٢: ٦٢: «المكانية أصحاب ملكا الذي ظهر

بالروم واستولى عليها». والحق أن الملكانيين منسوبون إلى «ملكاء» ومعناه الملك بالسريانية.

والمراد بهم أتباع مذهب قياصرة الروم التي يسمى أيضاً المذهب الخلقيدوني، الذي أقره المجمع

المعقود في خلقيدونية سنة ٤٥١ م. وفي مفاتيح العلوم: «وأهل الروم كلهم ملكانية». وانظر

تاريخ الأمة القبطية (الجلد الثانية ص ٩١-٩٣).

(٩) اليعقوبية، أو اليعاقية: تالفة فرق قداما النصارى، وهم الملكانية، والنسطورية، =

صَرَبَ بَجِيرًا^(١) ، وَصَرَبَ الرَّهْبَانَ الَّذِينَ كَانَ يَخْدُمُهُمْ سَلْمَانُ^(٢) .
 وَبَيْنَ حَمَلٍ قَوْلُهُ^(٣) : ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ عَلَى الْغَلَطِ مِنْهُمْ
 فِي الْأَسْمَاءِ ، وَبَيْنَ أَنْ نَجْزِمَ عَلَيْهِمْ^(٤) لِأَنََّّهُمْ نَصَارَى - فَرَقٌ .

كما ذكر اليهودُ أَنَّهُ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَمَلُوكُ الْعَرَبِ رَجُلَانِ : عَسَائِيُّ
 وَلَحْمِيُّ ، وَهُمَا نَصْرَانِيَّانِ ، وَقَدْ كَانَتِ الْعَرَبُ تَدِينُ لهُمَا ، وَتَوَدُّ
 الْإِنَاوَةَ إِلَيْهِمَا ، فَكَانَ تَعْظِيمُ قُلُوبِهِمْ لهُمَا رَاجِعاً^(٥) إِلَى تَعْظِيمِ دِينِهِمَا .
 وَكَانَتْ تِهَامَةٌ ، وَإِنْ كَانَتْ لِقَاحاً^(٦) لَا تَدِينُ لِلدِّينِ^(٧) ، وَلَا تَوَدُّ

= واليقونية . وهم ينسبون إلى مار يعقوب . قال الخوارزمي في مفاتيح العلوم : « وهم قليل » .
 وفي الفصل لابن حزم ١ : ٤٩ : « ينسبون إلى يعقوب البرذعاني ، وكان راهباً بالقسطنطينية » .
 وانظر الملل والنحل ٢ : ٦٦ .

(١) بجيرا الراهب ، بفتح الباء ، كما في القاموس ، وقد رسم بالياء في آخره في القاموس
 وشرحه ، والوجه كتابته بالألف كما في الإصابة ٥٩٥ . وهو الذي لقي الرسول صلى الله عليه وسلم
 قبل البعثة في ركب قريش حين نزلوا بصرى من أرض الشام ، فاستضافهم جميعاً ، وعرف رسول
 الله بما كان يعرف من صفته من قبل . السيرة ١١٥ - ١١٧ .

(٢) سلمان الفارسي : صحابي جليل ، أصله من رام هرمز ، وقيل من أصهبان ، وكان قد
 سمع بأن النبي صلى الله عليه وسلم سيبحث ، فخرج في طلب ذلك ، وأسلم ، وشهد بدرأ ،
 وأخى النبي بينه وبين أبي الدرداء . الإصابة ٣٣٥٠ . والسيرة ١٣٦ ، ٦٦٣ ، ٦٧٧ .
 ب : « نجد منهم سلمان » م : « يجذبهم سلمان » وفي ط : « يجذبهم سلمان » ، والصواب ما أثبت .
 وقد وجدت نصاً صريحاً في سيرة ابن هشام ١٣٨ يقول فيه سلمان لأسقف الكنيسة في الشام قبل
 إسلامه : « إنني قد رغبت في هذا الدين فأحبيت أن أكون مملوكاً وأخدمك فكيف كنتك » . ثم تروى
 السيرة تنقله في كنائس الموصل ، ونصيبين ، وعمورية ، ومن عمورية انتقل إلى أرض العرب
 حتى كان بالمدينة ولقي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدخل في الإسلام .

(٣) ب ، م : « وبين قوله » بسقوط كلمة « حمل » .

(٤) ب : « تجرم » ط : « تجرى » . وأثبت ما في م .

(٥) ب ، م : « راجعة » ط : « راجع » ، صوابهما ما أثبت .

(٦) يقال حى لقاح ، كسحاب : لم يدينوا للملوك ولم يملكوا ولم يصبهم سبباً في
 الجاهلية . قال ثعلب : مشتق من لقاح الناقة ، لأن الناقة إذا لقحت لم تطاوع الفحل .

(٧) كلمة « الدين » ساقطة من ط . وفي ب ، م : « لا يدين » . صوابهما في ط .

الإناوة ، ولا تليين للملوك ، فإنَّها^(١) كانت لا تمتنع من تعظيم ما عظم الناس ، وتصغير ما صغروا .

ونصرانية النعمان وملوك غسان مشهورة في العرب ، معروفة عند أهل النسب ، ولولا ذلك لدلت عليها^(٢) بالأشعار المعروفة ، والأخبار الصحيحة .

وقد كانت تتجر إلى الشام ، وينفذ^(٣) رجالها إلى ملوك الروم ، ولما رحلت في الشتاء والصيف ، في تجارة مرة إلى الحبشة ، ومرة قبيل الشام ، ومرة يبشرب^(٤) ، ومصيفها بالطائف ، ومرة منيحين مستأنفاً بحمده^(٥) ، فكانوا أصحاب نعمة ، وذلك مشهور مذكور في القرآن ، وعند أهل المعرفة .

وقد كانت تهاجر إلى الحبشة^(٦) ، وتأتي باب النجاشي وافدة ، فيحجوبهم بالجزيل^(٧) ، ويعرف لهم الأقدار ، ولم تكن تعرف كسرى^(٨) ، ولا تأنس بهم . وقبصر النجاشي نصرانيان ، فكان ذلك أيضاً للنصارى ، دون اليهود .

والآخر من الناس تبع لأول في تعظيم من عظم ، وتصغير من صغر .

(١) ب ، م : « وبأنها » ط : « لأنها » ، والوجه ما أثبت
(٢) ب فقط : « عليه » تحريف . (٣) ط فقط : « وتنفذ » .

(٤) ومرة يبشرب ، ساقطة من ط .

(٥) كذا وردت هذه العبارة في ب . م مع سقوطها من ط . لكن في م : « بجهد » . ولعلها
« ومرة ميسين » من أين وبين تيمناً ، إذا أتى البين .

(٦) ب ، م : « تهاجر الحبشة » ، صوابها في ط .

(٧) يحجوبهم ، من الحياء ، وهو العطاء بلا من ولا جزاء . ب ، م : « فيحيوهم » ط :
« فيحييم » ، صوابها ما أثبت .

(٨) ط : « ولم يكن يعرف ذلك كسرى » .

وأخرى^(١) : أنَّ العرب كانت النصرانية فيها فاشية ، وعليها غالبية ، إلاَّ مُضَر ، فلم تغلب عليها يهودية ولا مجوسية ، ولم تَفْشُ فيها النصرانية ، إلاَّ ما^(٢) كان من قومٍ منهم نزلوا الحيرة^(٣) يسمون : العباد ، فإنهم كانوا نَصَارَى ، وهم مَعْمُورُونَ مع نَبْدٍ يسير^(٤) في بعض القبائل . ولم تعرف مُضَرُ إلاَّ دينَ العرب ، ثم الإسلام .

وغلبت النصرانية على مُلُوك العرب وقبائلها : على لخم ، وعتنان ، والحارث بن كعب بنجران ، وقضاة ، وطى ، في قبائل كثيرة ، وأحياء معروفة . ثم ظهرت في ربيعة فغلبت على تغلب وعبد القيس وأفناء بكر^(٥) ، ثم في آل ذى الجدين خاصة .

وجاء الإسلام وليست اليهودية^(٦) بغالبة على قبيلة ، إلاَّ ما كان من ناسٍ من البائية ، ونَبْدٍ يسير^(٧) من جميع إبادٍ وربيعة . ومعظم اليهودية إنما كانت ببشرَب وجمير وتيآء ووادي القري ، في ولدِ هَارُونَ ، دون العرب .

فعطفت قلوبَ كهماء العرب على النصارى المُلُكُ الذي كان فيهم ، والقرابة التي كانت لهم . ثم رأت عوامنا أنَّ فيها مُلُكاً قائماً ، وأنَّ فيهم عرباً كثيرة^(٨) ، وأنَّ بناتِ الروم وكَدَنُ الملوك الإسلام ، وأنَّ في

(١) ط : « وأخرى ، وهي » .

(٢) في الأصول : « إلا من كان » ، ووجه ما أثبت .

(٣) نزلوا الحيرة ، ساقط من ب .

(٤) التبة ، بالفتح : الشيء القليل . ب فقط : « معمورون مع نبذ يسيرة » ، صوابه في ط .

(٥) الأفناء : الأخطاط النزاع من هاهنا وهاهنا ، الواحد فنو ، بالكسر .

(٦) ب ، م : « لليهودية » ، صوابه في ط .

(٧) ب : « ونبذ يسيرة » تحريف . وانظر ما مضى قريباً .

(٨) ب ، م : « غرباً كثيرة » صوابه بالعين المهملة كما في ط .

النصارى متكلمين وأطباء ومنجمين ، فصاروا بذلك عندهم عقلاء وفلاسفة حكماء ، ولم يَرَوْا ذلك في اليهود .

وإنما اختلفت ^(١) أحوال اليهود والنصارى في ذلك لأن اليهود ترى أن النظر في الفلسفة ^(٢) كفر ، والكلام في الدين بدعة ، وأنه مجلبة لكل شبهة ، وأنه لا علم إلا ما كان في التوراة وكتب الأنبياء ، وأن الإيمان بالطب ، وتصديق المنجمين من أسباب الزندقة والخروج إلى الدهرية ، والخلاف على الأسلاف وأهل القدوة ، حتى إنهم ليُبهرجون المشهور بذلك ، ويحرمون كلام من سلك ^(٣) سبيل أولئك .

ولو علمت العوام أن النصارى والروم ليست لهم حكمة ولا بيان ، ولا بُعد روية ^(٤) ، إلا حكمة الكف ، من الخراط والنجر والتصوير ، وحياسة البيروني ^(٥) لأخرجتهم من حدود الأدباء ، ولمحتهم من ديوان الفلاسفة والحكماء ؛ لأن كتاب المنطق والكون والفساد ، وكتاب العلوى ^(٦) ، وغير ذلك ، لأرسطاطليس ^(٧) ، وليس بروي ولا نصراني . وكتاب الميجسطي لبطليموس ^(٨) ، وليس بروي ولا نصراني . وكتاب إقليدس لإقليدس ، وليس بروي ولا نصراني .

(١) ب ، م : « اختلف » .

(٢) ب فقط : « في الفلسفة » .

(٣) ط : « كلام سالك » .

(٤) ب ، م : « روية » .

(٥) البيروني : السنن . قال ابن بري : هو رقيق الديباج . وضبطه صاحب القاموس كجردحل وعصفور ، وصاحب اللسان بالفم فقط . ط : « البيروني » تحريف . وانظر اللسان والقاموس (بزن) .

(٦) ذكره في الحيوان ٦ : ٢٨٠ باسم « الآثار العلوية » . ط فقط : « العلوى » تحريف .

(٧) ب ، م : « لأرسطوطليس » ، وأثبت ما في ط والحيوان .

(٨) انظر حواشي الحيوان ١ : ٨٠ .

وكتاب الطب لجالينوس ، ولم يكن رومياً ولا نصرانياً .

وكذلك كتب ديمقراط وبقراط وأفلاطون ، وفلان وفلان .

وهؤلاء ناس^(١) من أمة قد بادوا وبقيت آثار عقولهم ، وهم اليونانيون ، ودينهم غير دينهم ، وأديبهم غير أديبهم ، أولئك علماء ، وهؤلاء صنّاع أخذوا كتبهم^(٢) بقرب الجوار ، وتداني الدار ، فمنها ما أضافوه إلى أنفسهم ، ومنها ما حولوه إلى بلنتهم . إلا ما كان من مشهور كتبهم ، ومعروف حكمهم ، فإنهم حين لم يقدروا على تغيير أسانئها زعموا أنّ اليونانيين قبيل من قبائل الروم ، ففجروا^(٣) بأديانهم على اليهود ، واستطالوا بها على العرب ، وبلذتوا بها على الهند^(٤) ، حتى زعموا أنّ حكماءنا أتباع حكمائهم ، وأنّ فلاسفتنا اقتلدوا على مثالهم^(٥) ، فهذا هذا . ودينهم^(٦) يرحمك الله - يضاهي الزندقة ، ويناسب في بعض وجوهه قول الدهرية ، وهم من أسباب كل حيرة وشبهة .

والدليل على ذلك أنّنا لم نر أهل ملّة^(٧) قطب أكثر زندقة من النصارى ، ولا أكثر متحيراً أو مترشحاً منهم^(٨) .

وكذلك شأن كل من نظر في الأمور الغامضة بالعقول الضعيفة : ألا ترى أنّ أكثر من قُتل في الزندقة ممن كان ينتحل الإسلام ويُظهره ،

(١) ط فقط : « أناس » .

(٢) ب : « أخذ وكتبهم » ، وهو تحريف كتابي .

(٣) ب ، م : « فجروا » ، صوابه في ط

(٤) البذخ والبذوخ : تناول الرجل بكلامه وافتخاره ، وفعله كفرح يفرح ، وقمعه يقمده .

(٥) ب : « اقتدروا » ، تحريف . ط : « احتفوا » ، وأثبت ما في م .

(٦) ط : « فهذا هو دينهم » ، وإخاله تصرفاً من الناشر . وما أثبت من ب ، م هو لغة الجاحظ .

(٧) ط : « أهل مكة » ، صوابه في ب ، م .

(٨) الترنج : التمايل والاضطراب . وفي جميع الأصول : « متحيزاً » بالزاي ، صوابه ما أثبت .

هم^(١) الذين آباؤهم وأمهاتهم نصارى .

على أنك لو عدت اليوم أهل الطنّة ومواقع التهمة لم تجد أكثرهم إلا كذلك .

ومما عظمهم في قلوب العوام ، وحببهم إلى الطغام ، أن منهم كتاب السلاطين ، وقرائن الملوك^(٢) ، وأطبائ الأشراف ، والعطارين والصيارفة . ولا تجد اليهودي إلا صبغاً ، أو دبغاً ، أو حجماً ، أو قصباً ، أو شعاباً .

فلما رأيت العوام اليهود والنصارى توهمت أن دين اليهود في الأديان كصناعتهم في الصناعات ، وأن كفرهم أفدّر الكفر، إذ كانواهم أفدّر الأمم .

وإنما صارت النصارى أقل مسأخة من اليهود^(٣) ، على شدة مسأخة النصارى ، لأن الإسرائيل لا يزوج إلا الإسرائيل، وكل مناكحهم مردودة فيهم^(٤) ، ومقصورة عليهم ، وكانت الغرائب لا تشوبهم ، وفحولة الأجناس لا تضرب ولا تضرب فيهم ، لم يُنجبوا في عقل ولا أسر ولا ملح^(٥) . وإنك لتعرف ذلك في الخيل والإبل ، والحمير والحمام .

ونحن - رحمك الله - لم نخالف العوام في كثرة أموال النصارى ، وأن فيهم ملكاً قائماً ، وأن ثيابهم أنظف^(٦) ، وأن صناعتهم أحسن .

(١) ب : « وهم » ، والواو مقحمة .

(٢) يراد بالفرائ من يتعهد فرائ البيت وأثامه . وانظر ما كتبت في ذلك في (حول ديوان البحرى) ٣٩ - ٤٠ والحيوان ٣ : ٤٣٥ .

(٣) المسيح من الناس : الذى : الذى لاملاحة له . وقد مسخ مسأخة .

(٤) ب : « وكل مناكحتهم مردون فيهم » ط ، م : « وكل مناكحهم مردودة فيهم » ، صوابهما ما أثبت .

(٥) الأسر : شدة الخلق . وفى التنزيل العزيز : « نحن خلقناهم وشددنا أسرهم » . والملح ، بالكسر : الرضاع واللبن .

(٦) ب : « وأن مايم » م : « مايم » ط : « مايم » ، والوجه ما أثبت . وانظر ما سياتى في ٣٢٥ من قوله : « والنصراني وإن كان أنظف ثوباً » .

وإنما خالفنا في فرق ما بين الكُفْرين والفرقتين ، في شدة المعاندة واللَّجاجة ، والإِصْرادِ لِأهلِ الإسلامِ بكلِّ مَكيدة ، مع لُؤْمِ الأُصول ، وَخُبْثِ الأَعْرَاقِ .

فأما المُلْكُ والصَّنَاعَةُ والمِثْيَةُ ، فقد علمنا أَنَّهُم اتَّخَذُوا البراديين الشُّهْرِيَّةَ^(١) ، والخَيْلَ العِتَاقَ ، واتَّخَذُوا الجَوَاقِثَ^(٢) ، وَصَرَبُوا بالصَّوَالِجَةِ ، وَتَحَدَّثُوا المِدينيَّةَ^(٣) ، وَلَبَسُوا المُلْحَمَ والمِطْبَقَةَ^(٤) ، واتَّخَذُوا الشَّاكِرِيَّةَ^(٥) ، وَتَسَمَّوْا بِالْحَسَنِ والحُسَيْنِ ، والعَبَّاسِ والْفَضْلِ وَعَلِيٍّ ، وَاعْتَنَوْا بِذَلِكَ أَجْمَعِ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يَتَسَمَّوْا بِمُحَمَّدٍ ، وَيَكْتَنُوا بِأَبِي القَاسِمِ . فَرَغِبَ إِلَيْهِمُ المَسْلُومُونَ ، وَتَرَكَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ عَقْدَ الرِّئَاسَةِ ، وَعَقَدَهَا آخَرُونَ^(٦) دُونَ ثِيَابِهِمْ ، وَامْتَنَعَ كَثِيرٌ مِنْ كِبَرَانِهِمْ مِنْ إِعْطَاءِ الجِزْيَةِ ، وَأَنْفَقُوا مَعَ أَقْدَارِهِمْ مِنْ دَفْعِهَا^(٧) وَسَبَّوْا مَنْ سَبَّهَمُ ، وَضَرَبُوا مَنْ ضَرَبَهُمْ .

(١) الشهريَّة ، سبق تفسيرها في ١٢٨ . وكلمة « اتَّخَذُوا » ساقطة من ب ، م .
 (٢) الجوقة : جماعة من الناس ، معربة كما في شفاء الغليل . والمراد فرق الفروسية ونحوها .
 (٣) تحذيف الشعر : تطريه وتسويته . وفي اللسان : « قال النضر : التحذيف في الطرة أن تجعل سكينية كما تفعل النصارى » . فقد وضع التحذف هنا موضع التحذيف . وفي الأصول هنا : « وتحذفوا » ، ولا وجه له .
 (٤) في اللسان : « الملحم : جنس من الثياب » . وفي القاموس : « وككرم : جنس من الثياب » . وألم الناسج الثوب . وفي المثل : « ألم ما أسديت » أي تم ما ابتدأته من الإحسان . والقلمة : بالضم : خيوط النسيج العرضية يلحم بها السدي ، كما في المعجم الوسيط . وفيه أيضاً : « الملحم جنس من الثياب يختلف نوع سداه ونوع لحته ، كالصوف والقطن ، أو الحرير والقطن » ، أي لا يكونان من نوع واحد . أما المطبقة ، فهي من قولهم : طابق بين قيصين : لبس أحدهما على الآخر . فالمراد الثياب المزوجة المتطابقة .
 (٥) الشاكرية ، يراد بهم الجند المستأجرون ؛ لأن الشاكرى معناه كما في القاموس : الأجير المستخدم ، معرب جاكز . وانظر حواشي الحيوان ٢ : ١٣٠ ورسائل الجاحظ ١ : ٣٠ .
 (٦) ب ، م : « وعقدوها آخرون » ، وأثبت ما في ط .
 (٧) ب ، م : « وأنفق مع أقدارهم من دفع » ، صوابه في ط .

وما لهم لا يفعلون ذلك وأكثر منه ، وقضأتنا أو عامتهم^(١) يرون أن دم الجائليق^(٢) والمطران والأسقف وفاة بدم جعفر وعلى والعباس وحمزة .

ويرون أن النصراني إذا قذف أم النبي صلى الله عليه وسلم بالغواية^(٣) أنه ليس عليه إلا التعزير والتأديب^(٤) ، ثم يحتججون أنهم إنمأ قالوا ذلك لأن أم النبي صلى الله عليه وسلم لم تكن مسلمة . فسبحان الله العظيم ! ما أعجب هذا القول^(٥) وأبين انتشاره^(٦) !

ومن حكم النبي صلى الله عليه وسلم : أن لا يسأؤونا في المجلس ، ومن قوله : « وإن سبوكم فاضربوهم ، وإن ضربوكم فاقتلوهم » .

وهم إذا قذفوا أم النبي عليه السلام بالفاحشة لم يكن له عند أمته إلا التعزير والتأديب . وزعموا أن افتراءهم على النبي ليس بنكث للعهد ، ولا بنقض للعقد .

وقد أمر النبي عليه السلام أن يُعطونا الضريبة عن يدينا عالية^(٧) في قبولنا منهم^(٨) ، وعقلينا لذمتهم ، دون إراقة دمهم^(٩) . وقد حكم الله تعالى عليهم^(١٠) بالذلة والمسكنة .

(١) ط فقط : « وعامتهم » .

(٢) الجائليق ، بفتح الجاء : رئيس من رؤساء النصارى ، يكون تحته المطران ، ثم الأسقف ثم القسيس ، ثم الشماس .

(٣) الغواية ، بالفتح : الضلال . ب ، م : « بالغوية » ، صوابه في ط .

(٤) التعزير : التأديب والعقاب .

(٥) ب ، م : « القوم » ، تحريف ما في ط .

(٦) انتشار الأمر : عدم إحكامه . ط فقط : « انتشاره » .

(٧) ب ، م : « عليه » ، وتصح إذا قرئت « عليه » .

(٨) ب ، م : « منه » .

(٩) ب ، م : « وعقدنا له ذمته دون إراقة دمه » .

(١٠) ب ، م : « عليه » .

أَوْ مَا يَنْبَغِي^(١) لِلْجَاهِلِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ الْأُئِمَّةَ الرَّاشِدِينَ ، وَالسَّلَفَ الْمُتَقَدِّمِينَ لَمْ يَشْتَرِطُوا عِنْدَ أَخْذِ الْجِزْيَةِ ، وَعَقْدِ الذِّمَّةِ عَدَمَ الْاِفْتِرَاءِ^(٢) عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأُمَّتِهِ ، إِلَّا^(٣) لِأَنَّ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ أَعْظَمُ فِي الْعِيُونَ ، وَأَجَلٌ فِي الصُّدُورِ مِنْ أَنْ يَحْتَاجُوا إِلَى تَخْلِيدِهِ فِي الْكُتُبِ ، وَإِلَى إِظْهَارِ ذِكْرِهِ بِالشَّرْطِ ، وَإِلَى تَنْبِيْهِتِهِ بِالْبَيِّنَاتِ^(٤) ، بَلْ لَوْ فَعَلُوا ذَلِكَ لَكَانَ فِيهِ الْوَهْنُ عَلَيْهِمْ ، وَالْمَطْمَعَةُ فِيهِمْ ، وَلِظَنُّوْنَا أَنَّهُمْ فِي الْقَدْرِ الَّذِي يُحْتَاجُ فِيهِ^(٥) إِلَى هَذَا وَشَبِيهِهِ .

وإِنَّمَا يَتَوَاتَقُ النَّاسُ فِي شُرُوطِهِمْ ، وَيُفَسِّرُونَ فِي عُهُودِهِمْ مَا يُمَكِّنُ فِيهِ الشُّبْهَةَ ، أَوْ يَقَعُ فِيهِ الْغَلَطُ ، أَوْ يُغَيَّبُ عَنْهُ الْحَاكِمُ^(٦) ، وَيَنْسَاهُ الشَّاهِدُ ، وَيَتَعَلَّقُ بِهِ الْخَصْمُ ، فَأَمَّا الْوَاضِحُ الْجَلِيلُ^(٧) ، وَالظَّاهِرُ الَّذِي لَا يُخَيَّلُ^(٨) فَمَا وَجِهَ اشْتِرَاطَهُ ، وَالتَّشَاغُلَ بِذِكْرِهِ .

وَأَمَّا مَا احْتَجَّاجُوا إِلَى ذِكْرِهِ فِي الشُّرُوطِ ، وَكَانَ مِمَّا يَجُوزُ أَنْ يَظْهَرَ فِي الْعَهْدِ فَقَدْ فَعَلُوهُ ، وَهُوَ كَالذَّلَّةِ وَالصَّغَارَةِ^(٩) ، وَإِعْطَاءِ الْجِزْيَةِ ، وَمُقَامَسَةِ الْكِنَائِسِ ، وَأَنْ لَا يُعِينُوا بَعْضَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى بَعْضٍ ، وَأَشْبَاهَ ذَلِكَ . فَأَمَّا

(١) ط فقط : « وما ينبغي » .

(٢) كلمة « عدم » من ط .

(٣) إلا ، ساقطة من ب .

(٤) ط : « وتبينته بالبينات » .

(٥) ب ، م : « فيهم » .

(٦) غيبي عنه غياه وغياوة : لم يظن له . ب ، م : « يغني » بالنون . ط : « يعيا » ، صوابهما ما أثبت .

(٧) الجلي : الظاهر . ب ، م : « الجليل » .

(٨) لا يخيل على أحد : لا يشكل . ط : « لا يخيل غيره » ، تحريف .

(٩) الصغارة ، كصحابة : صغر القدر . وفي اللسان : « ابن سيده : الصغر والصغارة : خلاف العظم . وتقل الصغر في الجرم والصغارة في القدر » . ب ، م : « والصغيرة » ط : « الصغارة » بالفاء ، ووجهها ما أثبت .

أن يقولوا لمن هو أذلُّ من الدَّليل، وأقلُّ من القليل، وهو الطالبُ الراغبُ في أخذِ فديته، والإنعامِ عليه بقَبْضِ جِزِيته وَحَقْنِ دمه: تُعاهدك على أن لا تفتري^(١) على أُمَّة^(٢) رسول ربِّ العالمين، وخاتمِ النبيين، وسيدِّ الأولين والآخِرِينَ^(٣) فهذا ما لا يجوز^(٤) في تدبيرِ أوساطِ الناس، فكيف بالجلَّةِ والعُلَماءِ، وأئمةِ الخليفة، ومصابيحِ الدجى، ومَنارِ الهُدَى، مع أنْفَعِ العربِ، وبِأَوْ السُّلطانِ^(٥)، وَعَلَبَةِ الدولة، وعزِّ الإسلامِ، وظهورِ الحجَّةِ، والوعدِ بالنُّصرة.

على أنَّ هذه الأُمَّة لم تُبتَلْ باليهود، ولا المجوس، ولا الصابئين كما ابتليتْ بالنصارى^(٦). وذلك أنَّهم يَتَّبِعُونَ التناقض من أحاديثنا، والضعيفِ بالأَسناد من روايتنا، والمشابهة من آيِ كتابنا، ثم يَحْلُونَ بضعفائنا، ويسألون عنها عوامنًا، مع ما قد يعلمون من مسائلِ المُلحدِين، والزنادقةِ الملاحين، وحتَّى مع ذلك ربَّما تبرَّءوا^(٧) إلى علمائنا، وأهلِ الأقدارِ مِنَّا، وَيَشْعَبُونَ على القوى^(٨)، ويُلْبِسُونَ على الضَّعيفِ.

ومن البلاءِ أنَّ كلَّ إنسانٍ من المسلمين يرى أنَّه متكلم، وأنَّه ليس أحدٌ أحقُّ بِمِجَاجَةِ الملحدِين من أحد.

وبعد، فلولا متكلمو النصارى وأطبائهم ومنجموهم ما صار إلى

(١) ب، م: «يعاهدك أن لا يفتري»، ومع سقوط «على»، وصوابه في ط.

(٢) ب، م: «على أم».

(٣) ب، م: «وعزير سيد الأولين والآخِرِينَ»، تحريف.

(٤) ب، م: «فهذا ما يجوز»، تحريف.

(٥) البأو: الكبر والفخر والعلوية. ب: «وبأبو»، ط: «وشأ»، صوابها في ب.

(٦) ط: «كما ابتليت بالنصارى»، صوابه في ب، م.

(٧) ب: «تبرءوا».

(٨) ب، م: «على القوم»، صوابه في ط.

أغبيائنا^(١) وظر فائنا ، ومجاننا وأحدائنا^(٢) شئ^٣ من كتب المنائية^(٣) ،
والديصانية^(٤) ، والمرقونية^(٥) ، والفلانية^(٦) ، ولما عرفوا غير كتاب
الله تعالى ، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، ولكانت تلك الكتب مستورة
عند^(٧) أهلها ، ومخلدة^(٨) في أيدي ورثتها . فكلُّ سُخْنَةٍ عَيْنٍ^(٩)
رأيناها في أحدائنا وأغبيائنا فحين قبلهم كان أولها .

وأنت إذا سمعتَ كلامهم في العفو والصفح ، وذكرهم للسياحة ،
وزرايتهم على كلِّ من أكل اللحمان^(١٠) ، ورغبتهم في أكل الحبوب ،
وترك الحيوان ، وتزهدهم في النكاح ، وتركهم لطلب الولد ، ومديحهم
للجائليق والمطران والأسقف والرهبان ، يترك النكاح وطلب النسل ،
وتعظيمهم الرؤساء - علمت أن بين دينهم وبين الزندقة نسباً ، وأنهم
يحنون إلى ذلك المذهب .

(١) م : « أغفائنا » ب ، ط : « أغفائنا » ، صوابها ما أثبت . وانظر ما ساقى في
في السطر الخامس .

(٢) الجان : جمع ماجن . ب ، م ، « وثماننا » ، صوابه في ط . والأحداث : جمع حدث .
وفى ب ، م : « وأحدائنا » ط : « وأحدائنا » ، صوابها ما أثبت .

(٣) المنائية : أتباع ماني . وانظر ما سبق في ٢٥٤ .

(٤) الديصانية : فرقة من الجوس . قال ابن النديم : « إنما سمى صاحبهم بديصان باسم
نهر ولد عليه . هو قبل ماني . والمذهبان قريب بعضهما من بعض ، وإنما بينهما خلف في
اختلاط النور بالظلمة » . وانظر الملل ٢ : ٨٨ والفهرست ٤٧٤ والحيوان ٥ : ٤٦ .

(٥) المرقونية : فرقة من الجوس ، أتباع مرقون . أثبت قديمين أصليين متضادين أحدهما
النور والآخر الظلمة ، وأثبتوا أصلاً ثالثاً هو المدلل الجامع . وفي مفاتيح العلوم ٢٥ :
« المرقونية » . وهي في جميع الأصول : « المرقونية » ، تحريف . وانظر الملل والنحل ٢ : ٨٩
ومعجم استنبجاس . ١٢١٨ .

(٦) لعله كناية عن أي فرقة كانت .

(٧) ب فقط : « مسطورة » .

(٨) مخلدة : متروكة . وفي جميع الأصول : « مخلدة » بالماء المهملة .

(٩) سخنة العين : نقض قرنها ، وذلك من حرارة الحزن . وفي ب فقط : « سخنة »

بالمهملة ، تحريف .

(١٠) الزراية : العيب والإتكار . ب : « وذرايتهم » ، صوابه في م ، ط
(٢١ - رسائل الجاسط)

والعجب أنَّ كلَّ جاثليقٍ لا ينكح ، ولا يَطْلُبُ الولد . وكذلك كلُّ مطرانٍ ^(١) ، وكلُّ أسقفٍ . وكذلك كلُّ أصحاب الصوامع من اليعقوبية ، والمقيمين في الديارات ^(٢) والبيوت من النسطورية . وكلُّ راهبٍ في الأرض وراهبية ، مع كثرة الرهبان والرؤاهب ، ومع تشبه أكثر القسيسين بهم في ذلك ^(٣) ، ومع ما فيهم ^(٤) من كثرة الغزاة ، وما يكون فيهم ممَّا يكون في الناس ، من المرأة العاقر ، والرجل العقيم .

على أنَّ من تزوج منهم امرأة لم يقبلوا على الاستبدال بها ، ولا على أن يتزوج أخرى معها ^(٥) ، ولا على التسرى عليها . وهم مع هذا قد طبَّقوا الأرض ، وملثوا الآفاق ، وغلبوا الأمم بالعدد ، وبكثرة الولد . وذلك ممَّا زاد في مصائبنا ، وعظمت به محتنتنا .

وممَّا زاد فيهم ، وأتمى عددهم ، أنَّهم يأخذون من سائر الأمم ، ولا يُعطونهم ، لأنَّ كلَّ دينٍ جاء بعد دين ، أخذ منه الكثير ، وأعطاه القليل .

٣ - فصل منه

وممَّا يدلُّ على قلة رحمتهم ، وفساد قلوبهم أنَّهم أصحاب الخِصاء من بين جميع الأمم ، والخِصاء أشدُّ المثلَّة ، وأعظم ما رُكب به إنسان ^(٦) ثمَّ يفعلون ذلك بأطفالٍ لا ذنب لهم ، ولا دَفَعٌ عندهم .

(١) المطران ، بفتح الميم وكسرهما ، كما في القاموس .

(٢) ط : « الديورات » تحريف . ويراد بالديارات أديار النصارى . والديارات معروفة في جموع الدار إذ هو جمع جمع لها ، فهي جمع للديار . وانظر مقدمة كتاب « الديارات » للشاسي . وأما الجمع المعروف للدير ، بالفتح ، فهو الأديار والأديرة .

(٣) ب ، م : « فزلل » ، صوابه في ط .

(٤) ب ، م : « وقع مع ما فيهم » ، صوابه في ط .

(٥) ع ، ساقطة من ب . وفي ب ، م : « يزوج » .

(٦) ط . فقط : « ركبه إنسان » .

ولا تَعْرِفُ قَوْمًا يُعْرِفُونَ بِخِصَاءِ النَّاسِ حَيْثُ مَا كَانُوا إِلَّا بِبِلَادِ
الرُّومِ وَالْحَبَشَةِ ، وَهُمْ فِي غَيْرِهِمَا قَلِيلٌ ، وَأَقْلُ قَلِيلٌ ^(١) .

على أَنَّهُمْ لَمْ يَتَعَلَّمُوا إِلَّا مِنْهُمْ ، وَلَا كَانَ السَّبَبُ فِي ذَلِكَ غَيْرَهُمْ ،
ثُمَّ تَخَصَّوْا أَبْنَاءَهُمْ وَأَسْلَمُوهُمْ فِي بَيْعِهِمْ . وَلَيْسَ الْخِصَاءُ إِلَّا فِي دِينِ
الصَّابِئِينَ ، فَإِنَّ الْعَابِدَ رَبِّمَا حَصَى نَفْسَهُ ^(٢) ، وَلَا يَسْتَحِلُّ خِصَاءَ
ابْنِهِ ^(٣) . فَلَوْ تَمَّتْ إِرَادَتُهُمْ فِي خِصَاءِ أَوْلَادِهِمْ فِي تَرْكِ النُّكَاحِ وَطَلَبِ
النَّسْلِ كَمَا حَكِيَتْ لَكَ قَبْلَ هَذَا - لَانْقَطَعَ النَّسْلُ ، وَذَهَبَ الدِّينُ ،
وَفُتِنَ الْخَلْقُ .

وَالنَّصْرَانِيُّ وَإِنْ كَانَ أَنْظَفَ ثَوْبًا ، وَأَحْسَنَ صِنَاعَةً ، وَأَقْلَ مَسَاخَةً ^(٤) ،
فَإِنَّ بَاطِنَهُ أَلْأَمُّ وَأَقْدَرُ وَأَسْمَجُ ، لِأَنَّهُ أَقْلَفٌ ، وَلَا يَغْتَسِلُ مِنَ الْجَنَابَةِ ،
وَيَأْكُلُ لَحْمَ الْخَنْزِيرِ ، وَامْرَأَتُهُ جُنْبٌ لَا تَطْهَرُ مِنَ الْحَيْضِ ، وَلَا مِنَ
النَّفَاسِ ، وَيَعْتَشَاهَا فِي الطَّمْثِ ، وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ غَيْرُ مَخْتُونَةٍ .

وَهُمْ مَعَ شَرَارَةِ طَبَائِعِهِمْ ^(٥) ، وَعَلَبَةِ شَهَوَاتِهِمْ لَيْسَ فِي دِينِهِمْ مَزَاجِرٌ
كَنَارِ الْأَبِيدِ فِي الْآخِرَةِ ، وَكَالْحُدُودِ وَالْقَوَدِ وَالْقَصَاصِ فِي الدُّنْيَا ، فَكَيْفَ
يُجَانِبُ مَا يَفْسُدُهُ ، وَيُؤَثِّرُ مَا يَصْلِحُهُ مِنْ كَانَتْ حَالُهُ كَذَلِكَ . وَهَلْ
يُصْلِحُ الدُّنْيَا مَنْ هُوَ كَمَا قَلْنَا ^(٦) ؟ وَهَلْ يَهْبِجُ عَلَى الْفَسَادِ إِلَّا مَنْ وَصَفْنَا ^(٧) ؟

(١) انظر الحيوان ١ : ١١٩ ، ١٢٤ .

(٢) انظر الحيوان ١ : ١٢٥ .

(٣) ب ، م : « خِصَاءُ نَفْسِهِ » ، صوابه في ط .

(٤) انظر ما مضى في ص ٣١٨ .

(٥) يقال : شر يشر ويشر شراً ، وشرارة ، فهو شرير كَأبِيرٍ ، وشرير كسكيت .
وفي جميع الأصول : « شرار » ، والوجه ما أثبت . وانظر الحيوان ٤ : ٢٩٧ / ٦ : ٤٦٠ .
وأما الشرار ، بالكسر وكجبل ، فهو ما ينتظر من النار ، واحدهما بها .

(٦) ب ، م : « يجانب ما يفسده » ، صوابه في ط .

(٧) ب ، م : « وهل يصلح الدنيا كذا قالوا » ، صوابه في ط .

(٨) ب ، م : « وهل يهيج على الفساد إلا كما وصفوا » ، صوابه في ط .

ولو جَهِدَتْ بِكُلِّ جَهْدِكَ ، وجمعتَ كُلَّ عقلِكَ أَنْ تفهم قولهم في المسيح ، لما قدرتَ عليه ، حتَّى تعرف به حدَّ التصرائية ، وخاصَّةً قولهم في الإلهية .

وكيف تقدر^(١) على ذلك وأنت لو خلوتَ ونصرانيَّ نِسْطوريَّ فسألته عن قولهم في المسيح لقال قولاً ، ثم إنْ خلوتَ بأخيه لأمه وأبيه وهو نِسْطوريٌّ مثله فسألته عن قولهم في المسيح لأتاك بخلاف أخيه وصنوه . وكذلك جميع المُلكانية واليعقوبية^(٢) . ولذلك صرنا لا نعقل حقيقةَ النصرانية ، كما نعرف^(٣) جميع الأديان .

على أنَّهم يزعمون أنَّ الدين لا يخرُج في القياس ، ولا يقوم على المسائل^(٤) ، ولا يثبت في الامتحان ، وإنما هو بالتسليم لما في الكتب ، والتقليد للأسلاف . ولعمري ، إنَّ^(٥) من كان دينه دينهم ليجبُ عليه أن يعتذر بمثلُ عُذرهم .

وزعموا أنَّ كلَّ من اعتقدَ خلاف النصرانية من المجوس والصابئين والزنادقة فهو معذور ، ما لم يتعمد الباطل ، ويُعايد الحقَّ . فإذا صاروا إلى اليهود قَضُوا عليهم بالمعاندة ، وأخرجوهم من طريق الغلط والشبهة .

٤ - فصل منه

فأمَّا مسألتهم في كلام عيسى في المهدي : أنَّ النصراني مع حبيهم لتقوية أمره لا يُثبتونه ، وقولهم : إننا تقولناه وروينا عن غير الثقات^(٦) ،

(١) ب ، م : « يقدر » .

(٢) انظر مامني في ص ٣١٢ .

(٣) م فقط : « يعرف » .

(٤) في جميع الأصول : « السائل » ، والوجه ما أثبت .

(٥) إن ، ساقطة من ط .

(٦) في جميع النسخ : « الثقات » ، وهو خطأ في الرسم ، لأنه جمع ثقة .

وَأَنَّ الدليل على أَنَّ عيسى لم يتكلم في المهد أَنَّ اليهود لا يعرفونه ، وكذلك المجوس ، وكذلك الهند والحَزْرُ والديلم . فنقول في جواب مسألتهم عند إنكارهم كلام المسيح في المهد مولوداً .

يقال لهم : إِنَّكُمْ حين سَوَّيْتُمُ المسألة ومَوَهَّمْتُمُها ، ونظَّمْتُمُ ألفاظها ، ظننْتُمُ أَنَّكُمْ قد أَتَجَّهْتُمُ (١) ، وبلغتُمُ غايتكم . ولعمري لئن حَسُنَ ظاهرها ، وراعَ الأسماعَ مَخْرَجها (٢) ، إِنَّها لقبِيحةُ المفتشِ ، سيئةُ المعرى .

ولعمري أَنَّ لو كانت اليهود تقرأ لكم بإحياء الأربعة الذين تَزعمون (٣) ، وإقامة المقعد الذي تدعون ، وإطعام الجمع الكثير من الأرعنة البسيرة ، وتصيير الماء جَمِداً (٤) ، والمشى على الماء ، ثم أنكرتِ الكلام في المهد من بين جميع آياته وبراهينه (٥) لكان لكم في ذلك مقال ، وإلى الطعن سبيل . فلما وهم يجحدون ذلك أجمع ، فمرة يضحكون ، ومرة يبتاطون ويقولون : إِنَّه صاحبُ رُفَى ونيرجات (٦) ، ومداوى (١) أئيج : صار ذا نيج وطفير . ويقال أيضاً نيج ، إذا أصاب طلبته . ط فقط : « نجتم » وأثبت ما في ب ، م .

(٢) ب فقط : « نخرجها » ، تحريف .

(٣) ب ، م : « يزعمون » . وهؤلاء الأربعة فيما يذكر المفسرون هم : « عازر » ، وكان صديقاً له ، أحياء بعد ثلاثة أيام فقام من قبره ينظر ودكه وبقى إلى أن ولد له . والثاني : ابن المجوز أحياء وهو على سرير الموت ، فنزل عن أعناق الرجال وحل سريره ، وبق إلى أن ولد له . والثالث : بنت المشار ، وقد تمت بولدها بعد ما حبيت . والرابع : سام بن نوح عليه السلام . سألوه أن يجيبه ليخبرهم عن حال السفينة . فخرج من قبره . هذا ما ذكره أبو حيان في تفسيره ٢ : ٤٦٧ .

(٤) الجملة ، بالتحريك ، وكذا بالفتح : الماء الجامد . وقيل : هو بالتحريك يكون

جماً جامداً ، مثل خادم وعديم . ب فقط : « جامداً » .

(٥) ب ، م : « وبرهانه » ، صوابه في ط .

(٦) كذا في ب والحيوان ٤ : ٣٧٠ . في م ، ط : « نيرجات » ، وهما لغتان في التعريب قال صاحب القاموس : « والنيرنج ، بالكسر : أخذ كالسحر وليس به . وعقب عليه الزبيدي بقوله : « هكذا في سائر النسخ . والمقول عن نص كلام الليث : النيرج ، بإسقاط النون الثانية . وجاء في كتاب المعارف لابن قتيبة ١٧٨ : « وكان صاحب نيرجات » . وأقول : هو بالفارسية « نيرتك » .

مجانين، ومتطّيب، وصاحب جيلٍ وتربّص خُدع^(١)، وقرّاة كتب، وكان لسناً مسكينا^(٢)، ومقتولاً مرحوماً، ولقد كان قبل ذلك صياداً سمك، وصاحب شبك، وكذلك أصحابه. وأتته خرج على مواطنٍ منهم له، وأنه لم يكن لرشدة^(٣).

وأحسنهم قولاً، وألينهم مذهباً من زعم أنه ابن يوسف النجار^(٤). وأنه قد كان واطاً ذلك المُشعَد قبل إقامته بسنين، حتى إذا شهّره بالقبلة^(٥)، وعُرف موضعه في الزمّنى، مرّ به في جمع من الناس كأنه لا يريد، فشكا إليه الزمّانة وقلة الحيلة، وثيدة الحاجة، فقال: ناولني يدك. فناوله يده، فاجتذبه فأقامه، فكان تجمّع^(٦) لطول القعود، حتى استمر بعد ذلك.

وأنه لم يُحي^(٧) ميتاً قط، وإنما كان داوى رجلاً يقال له «لا عازر»^(٨)، إذ: أُغصى عليه يوماً وليلة، وكانت أمه^(٩) ضعيفة العقل، قليلة المعرفة، فمرّ بها^(١٠)، فإذا هي تصرّخ وتبكي، فدخل إليها

(١) التربص: الملك والانتظار. ب، م: «وترمض». وفي ط: «وصاحب وأرى الوجه فيها أثبت.

(٢) ب، م: «سكينا»، وأثبت ما في ط.

(٣) يقال هو لرشدة بالكسر وقد يفتح: نقيض قولم: لزنية أولنير رشدة. والرشدة: النكاح الصحيح. ط: «لم يكن له شدة»، تحريف.

(٤) ط: «وأغصم قولاً والأهمهم مذهباً»، تحريف.

(٥) القبلة، بالكسر: ضرب من القعود.

(٦) ط فقط: «تجمد».

(٧) ب، م: «لم يحي»، تحريف.

(٨) في جميع الأصول: «لا عازر»، وإنما هو «لعازر» المذكور في إنجيل يوحنا ١١: ٤٣.

(٩) ب فقط: «إذا».

(١٠) في إنجيل يوحنا ١١: ه أنها أخته وأسمها «مرثا». وفيه أيضاً أن يسوع كان يحب مرثا وأختها ولعازر. ويفهم من هذا أيضاً أن له أختين.

(١١) ط فقط: «بها».

يُسَكِّنَهَا وَيُعَزِّيَهَا ، وَجَسَّ عِرْقَهُ فَرَأَى فِيهِ عِلَامَةَ الْحَيَاةِ ، فِدَاوَاهُ حَتَّى أَقَامَهُ ، فَكَانَتْ لِقَلَّةٍ مَعْرِفَتِهَا (١) لَا تَشْكُ أَنَّهُ قَدَامَات ، وَلَفْرَحِهَا بِحَيَاتِهِ تُثْنِي عَلَيْهِ بِذَلِكَ ، وَتَتَحَدَّثُ بِهِ .

فَكَيْفَ تَسْتَشْهَدُونَ قَوْمًا هَذَا قَوْلُهُمْ فِي صَاحِبِكُمْ ، حِينَ قَالُوا : كَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يَتَكَلَّمَ صَبِيٌّ فِي الْمَهْدِ مَوْلُودًا (٢) ، فَيَجْعَلُهُ (٣) الْأَوْلِيَاءُ وَالْأَعْدَاءُ . وَلَوْ كَانَتْ الْمَجُوسُ تَقْرُرُ لِعَيْسَى بِعِلَامَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَبِأَدْنَى أُعْجُوبَةٍ ، لَكَانَ لَكُمْ أَنْ تَنْكَرُوا عَلَيْنَا بِهِمْ (٤) ، وَتَسْتَعِينُوا بِإِنْكَارِهِمْ . فَأَمَّا وَحَالُ عَيْسَى فِي جَمِيعِ أَمْرِهِ عِنْدَ الْمَجُوسِ كَحَالِ زَرَّادُشْتِ فِي جَمِيعِ أَمْرِهِ عِنْدَ النَّصَارَى فَمَا اعْتَلَاهُمْ بِهِمْ ، وَتَعَلَّقَهُمْ فِي إِنْكَارِهِمْ ؟

وَأَمَّا قَوْلُكُمْ : وَكَيْفَ لَمْ تَعْرِفِ الْهِنْدُ وَالْخَزَرُ وَالْتُرْكُ ذَلِكَ ؟ فَمَتَى أَقْرَتِ الْهِنْدُ لِمُوسَى بِأَعْجُوبَةٍ وَاحِدَةٍ ، فَضَّلًا عَنْ عَيْسَى ؟ وَمَتَى أَقْرَتِ لِنَبِيِّ بَيَّاتَةٍ ، أَوْ رَوَتْ لَهُ سِيرَةَ ، حَتَّى تَسْتَشْهَدُوا (٥) الْهِنْدَ عَلَى كَلَامِ عَيْسَى فِي الْمَهْدِ ؟

وَمَتَى كَانَتْ التُّرْكُ وَالذَّيْلِمُ وَالْخَزَرُ وَالْيَبَرُ (٦) وَالطَّبِلِسَانُ (٧) مَذْكُورَةً فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ ، مُحْتَجًّا بِهَا عَلَى هَذَا الضَّرْبِ ؟

(١) ب ، م : « بقلة معرفتها » .

(٢) ب ، م : « مولود » .

(٣) ب فقط : « فيجعله » .

(٤) ب ، م : « تنكروا علينا بهم » .

(٥) ب ، م : « حتى يستشهدوا » .

(٦) اليبير ، بباين : أمة قديمة يبدو أنها من أمم الترك ، وتقرن بالطبيلسان ، كما في البيان ١ : ١٣٧ . وجاء في الطبري ٤ : ٢٤٦ : « فبعث عبد الله بن شيبان بن عوف الأحمسي في أربعة آلاف ، فأغار على أهل موقان واليبير والطبيلسان » ، ب : « والسرو » م « والنسر » ط : « والتتر » ، صوابهما جميعاً ما أثبت . ولم ترد « التتر » في أثر من آثار الجاحظ ، كما أن معرفة العرب بالتتر جاءت متأخرة ، إذ لم يرد ذكرهم في الكامل لابن الأثير قبل سنة ٣٤٥ .

(٧) الطبيلسان : إقليم واسع كثير البلدان والسكان من نواحي الديلم والخزر ، افتتحه الوليد بن عقبة في سنة ٣٤٤ . معجم البلدان . وانظر الحاشية السابقة .

فإن سألونا عن أنفسهم فقالوا : ما لنا لا نعرف ذلك ولم يبلغنا عن أحدٍ بئته ؟ أجبناهم بعد إسقاط نكيرهم^(١) وتشنيعهم ، وتزوير شهودهم . وجوابنا^(٢) : أنهم إنما قبلوا دينهم^(٣) عن أربعة أنفس : اثنان منهم من الحواريين يزعمهم^(٤) : يوحنا ، ومثى . واثنان من المستجيبة^(٥) وهما : مارقش ولوقش^(٦) ، وهؤلاء الأربعة لا يؤمن عليهم الغلط ولا النسيان ، ولا تعمد الكذب ، ولا التواطؤ^(٧) على الأمور ، والاصطلاح على اقتسام الرياسة^(٨) ، وتسليم كل واحدٍ منهم لصاحبه حصته التي شرطها له .

فإن قالوا : إنهم كانوا أفضل من أن يتعمدوا كذباً ، وأحفظ من أن ينسوا شيئاً ، وأعلى^(٩) من أن يغلطوا في دين الله تعالى ، أو يضيعوا عهداً .

قلنا : إن اختلاف رواياتهم في الإنجيل ، وتضادها في كتبهم^(١٠) ، واختلافهم في نفس المسيح ، مع اختلاف شرائعهم ، دليل على صحة قولنا فيهم^(١١) ، وغفلتكم عنهم .

(١) في الأصول : « تكثيرهم » .

(٢) ط فقط : « جوابنا » .

(٣) قبلوا دينهم : أخذوه وتلقوه ، كما يقبل الرجل الدلو من المستق والقابلة الولد من

الوالدة .

(٤) ب فقط : « يزعمهم » ، تحريف .

(٥) ب فقط : « من المسيحية » ، تحريف .

(٦) هـا مرقس ولوقا .

(٧) ب ، م : « ولا التواطى » ، صوابها في ط .

(٨) ب ، م : « والاصلاح على أقسام الرياسة » ، صوابه في ط .

(٩) ب ، م : « وأعلى » ، تحريف ماقى ط .

(١٠) ب ، م : « وتضاد معاني كتبهم » .

(١١) الكلام بعده إلى نهاية هذه الرسالة بجميع فصولها ، ساقط من ط .

وما يُنكَر من مثل لَوْقَشَ أَنْ يَقُولَ باطلاً ، وليس من الحواريين ، وقد كان يهودياً قبلَ ذلك بأيّامٍ يسيرة ، ومن هو عندكم من الحواريين خيراً من لوقش عند المسيح في ظاهر الحكم بالطهارة ، والطباع الشريفة ، وبراعة السّاحة .

٥ - فصل منه^(١)

وسألتم عن قولهم : إذا كان تعالى قد اتَّخذ عبداً من عباده خليلاً ، فهل يجوز أن يتَّخذ عبداً من عباده ولداً ، يريد بذلك إظهار رحمته له ، ومحبتّه إياه ، وحسن تربيته وتأديبه له ، ولطيف منزلته منه ، كما سمى عبداً من عباده خليلاً ، وهو يريد تشريفه وتعظيمه ، والدلالة على خاص حاله عنده .

وقد رأيت من المتكلمين من يُعجز ذلك ولا يُنكره ، إذا كان ذلك على التَّبنيّ والتَّربية والإبانة له بلطُف المنزلة ، والاختصاص له بالرحمة والمحبة ، لا على جهة الولادة ، واتَّخاذ الصاحبة . ويقول^(٢) : ليس في القياس فرقٌ بين اتَّخاذ الولد على التَّبنيّ والتَّربية وبين اتَّخاذ الخليل على الولاية والمحبة .

وزعم أنَّ الله تعالى يحكم في الأسماء بما أحبّ ، كما أنَّ له أن يحكم في المعاني بما أحبّ .

وكان يجوزُ دعوى أهل الكتاب على التَّوراة والإنجيل والرَّبور ، وكتب الأنبياء صلواتُ الله عليهم في قولهم : إنَّ الله قال : « إسرائيل

(١) هذا الفصل وما يليه من الفصول إلى نهاية هذه الرسالة ساقط من ط كاسبق التنبيه .

(٢) ب : « ونقول » م : « ونقول » ، صوابهما ما أثبت .

يُخْرِى^(١) « أَى هُوَ أَوَّلُ مَنْ تَبَيَّنَتْ مِنْ خَلْقٍ . وَأَنَّهُ قَالَ : « إِسْرَائِيلُ بَكَرَى ، وَبَنُوهُ أَوْلَادِي » . وَأَنَّهُ قَالَ لِدَاوُدَ : « سَيُولَدُ لَكَ غَلَامٌ ، وَيُسَمَّى لِي ابْنًا ، وَأُسَمَّى لَهُ أَبًا^(٢) » . وَأَنَّ الْمَسِيحَ قَالَ فِي الْإِنْجِيلِ : « أَنَا أَذْهَبُ إِلَى أَبِي وَأَبِيكُمْ ، وَإِلَهِي وَإِلَهَكُمْ^(٣) » ، وَأَنَّ الْمَسِيحَ أَمَرَ الْحَوَارِيِّينَ أَنْ يَقُولُوا فِي صَلَوَاتِهِمْ : « يَا أَبَانَا فِي السَّمَاءِ ، تَقَدَّسْ اسْمُكَ^(٤) » . فِي أُمُورٍ عَجِيبَةٍ ، وَمَذَاهِبٍ شَنِيعَةٍ^(٥) ، يَدُلُّ عَلَى سُوءِ عِبَادَةِ الْيَهُودِ^(٦) ، وَسُوءِ تَأْوِيلِ أَصْحَابِ الْكُتُبِ ، وَجَهْلِهِمْ مَجَازَاتِ الْكَلَامِ ، وَتَصَارِيفِ اللَّغَاتِ ، وَتَقَلُّ لُغَةٍ إِلَى لُغَةٍ ، وَمَا يَجُوزُ عَلَى اللَّهِ ، وَمَالَا يَجُوزُ . وَسَبَبُ هَذَا التَّأْوِيلِ كُلِّهِ الْعَنَى وَالتَّقْلِيدَ ، وَاعْتِقَادَ التَّشْبِيهِ .

وكان يقول : إِنَّمَا وُضِعَتِ الْأَسْمَاءُ عَلَى أَقْدَارِ الْمَصْلِحَةِ ، وَعَلَى قَدَرٍ مَا يَقَابِلُ مِنْ طِبَاعِ الْأُمَّمِ . فَرَبَّمَا كَانَ أَصْلَحَ الْأُمُورِ وَأَمْتَنَهَا^(٧) أَنْ يَتَّبِعَهَا اللَّهُ أَوْ يَتَّخِذَهَا خَلِيلًا ، أَوْ يُخَاطِبَهُ بِلَا تَرْجُمَانٍ ، أَوْ يَخْلُقَهُ مِنْ غَيْرِ ذَكَرٍ ، أَوْ يُخْرِجَهُ مِنْ بَيْنِ عَاقِرٍ وَعَقِيمٍ . وَرَبَّمَا كَانَتْ الْمَصْلِحَةُ غَيْرَ ذَلِكَ

(١) في سفر الخروج ٤ : ٢٢ : « ففتقول لفرعون : هكذا يقول الرب ، إسرائيل ابني البكر . وفي سفر هوشع ١١ : ١ : « لما كان إسرائيل غلاماً أحببته ومن مصر دعوت ابني » . وفي رسالة بولس إلى أهل رومية ٩ : ٤ : « الذين هم إسرائيليون ، ولم النبي والمجد » .

(٢) في صموئيل الثاني ٧ : ١٢ - ١٤ : « متى كنت أياك واضطجعت مع أبائك أقيم بعدك نسلك الذي يخرج من أحشائك وأثبت ملكه . هو يبني بيتاً لاسمي وأنا أثبت كرسي ملكته إلى الأبد . أنا أكون له أباً وهو يكون لي ابناً » .

(٣) جاء في إنجيل يوحنا ٢٠ : ١٧ في مخاطبة عيسى عليه السلام لمريم المجدلية : « قال لها يسوع : لاتلمسيني لأنني لم أصعد بعد إلى أبي . ولكن اذهبي إلى إخوتي وقولي لهم : إنني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم » .

(٤) في إنجيل متى ٦ : ٩ : « فصلوا أنتم هكذا : أبانا الذي في السموات ليتقدس اسمك » . وانظر أيضاً إنجيل لوقا ١١ : ٢

(٥) ب : « شعبة » م : « شنة » ، والوجه ما أثبت ، وإن كانت « شعة » صحيحة أيضاً .

(٦) ب : « عبارة » ، وأثبت ما في م .

(٧) ب : « وأمه » م : « وأمه » ، ولعل وجه ما أثبت .

كله. وكما تعبدنا أن نسميه جواداً ونهانا أن نسميه سخياً أو سرياً^(١) وأمرنا أن نسميه مؤمناً ونهانا أن نسميه مسلماً، وأمرنا أن نسميه رحيماً ونهانا أن نسميه رقيقاً.

وقياس هذا كله واحد، وإنما يتسع ويسهل على قدر العادة وكثرتها. ولعل ذلك كله قد كان شائعاً في دين هودٍ وصالحٍ وشعيبٍ وإسماعيلٍ، إذ كان^(٢) شائعاً في كلام العرب في إثبات ذلك وإنكاره.

وأما نحن - رحمك الله - فإننا لا نُجيزُ أن يكون لله ولد، لا من جهة الولادة، ولا من جهة التبني، ونرى أن تجويز ذلك جهلٌ عظيم، وإثمٌ كبير؛ لأنه لو جاز أن يكون أباً ليعقوب لجاز أن يكون جدًا ليوסף، ولو جاز أن يكون جدًا وأباً، وكان ذلك لا يُوجب نسباً، ولا يُوهمُ مُشاكلةً في بعض الوجوه، ولا ينقص من عظم، ولا يحط من بهاء، لجاز أيضاً أن يكون عمًّا وخالاً؛ لأنه إن جاز أن يسميه^(٣) من أجل الرحمة والمحبة والتأديب - أباً، جاز أن يسميه آخر من جهة التعظيم والتفضيل والتسويد أخاً^(٤)، ولجاز أن يجد له صاحباً وصديقاً، وهذا ما لا يجوزُه إلا من لا يعرف عظمة الله، وصغر قدر الإنسان.

وليس بحكيم من ابتدَل نفسه في توقير عبده، ووضَع من قدره في التوقُّر على غيره. وليس من الحكمة أن تحيين إلى عبدك بأن تسميه إلى

(١) في النسختين: «سرياً»، والصواب ما أثبت. والسرى: وصف من سر وكشف ودعا ورضى، سراوة وسرواً وسراً وسراء، وهي المروءة في شرف.

(٢) م: «إذا كان».

(٣) الكلام بعده إلى «يسميه» التالية ساقط من م.

(٤) في النسختين: «والتفضيل أخاً والتسويد أخاً»، و«أخاً» الأولى مقحمة.

نفسك ، وتأتي من الفضل ما لا يجب بتضييع ما يجب . وكثيرُ الحمد لا يقوم بقليل الذم^(١) ، ولم يحمد الله ولم يعرف إلميته من جورٍ عليه صفات البشر ، ومُناسبة الخلق ، ومُقاربة العباد .

وبعد ، فلا يخلو المولى في رفع عبده وإكرامه من أحد أمرين : إما أن يكون لا يقدر على كرامته إلا هوانٍ نفسه ، ويكون على ذلك قادراً ، مع وقارة العظمة ، وتمام البهاء .

وإن كان لا يقدر على رفع قدرٍ غيره إلا بأن ينقص^(٢) من قدر نفسه فهذا هو العجز ، وضيق الذرع^(٣) .

وإن كان على ذلك قادراً فآثر ابتدال نفسه والحط من شرفه فهذا هو الجهل الذي لا يحتمل^(٤) .

والوجهان عن الله جلّ جلاله منفيان .

ووجه آخر يعرفون به صحة قولي ، وصواب مذهبي ، وذلك أن الله تبارك وتعالى لو علم أنه قد كان فيما أنزل من كتبه على بنى إسرائيل : إنَّ أبائكم كان بكرى وابني ، وإنَّكم أبناء بكرى - لما كان تعصّب عليهم^(٥) إذ قالوا : نحن أبناء الله ، فكيف لا يكون ابنُ ابنِ الله ابنته^(٦) ،

(١) في النسختين : « ما لا يقول بقليل الذم » ، والصواب حذف « ما » . لا يقوم به : لا يعادله .

(٢) ب : « ينقص » ، صوابه في م .

(٣) الذرع : الطاقة ، وهو أيضاً : بسط اليد . والمراد ضيق الخلق ، على المثل . م : « لزوع » ، تحريف .

(٤) في النسختين : « لا يحتمل » ، والوجه ما أثبت .

(٥) التنفص : الغضب ، واستعار الراعي التنفص لشدة غليان القدر في قوله :

إذا أحشوها بالوقود تنفصت على الغم حتى تترك القم باديا

وفي النسختين : « تمصب » بالعين المهملة ، صوابه ما أثبت . وانظر الآية ١٨ من سورة المائدة .

(٦) ب : « لا يكون ابن ابنه » م : « لا يكون ابن الله ابنته » . والصواب ما أثبت .

وهذا من تمام الإكرام ، وكمال المحبة ، ولا سيما إن كان قال في التوراة : بنو إسرائيل أبناء بكري .

وأنت تعلم أنّ العرب حين زعمت أنّ الملائكة بناتُ الله كيف استعظم الله تعالى ذلك وأكبره ، وغضب على أهله ، وإن كان يعلم أنّ العرب لم تجعل الملائكة بناته على الولادة واتخاذ الصاحبة ، فكيف يجوز مع ذلك أن يكون الله قد كان يُخبر عباده قبل ذلك بأن يعقوب ابنه ، وأن سليمان ابنه ، وأن عزيزاً ابنه ، وأن عيسى ابنه (١) ؟ .

فإن الله تعالى أعظم من أن يكون له أبوة من صماته ، والإنسان أحقر من أن يكون بنوةً لله من أنسابه .

والقول بأن الله يكون أباً وجداً (٢) وأخاً وعمّاً ، للنصارى ألزم ، وإن كان للأخريين لازماً ، لأنّ النصارى تزعم أنّ الله هو المسيح بن مريم ، وأنّ المسيح قال للحواريين : « إخوتي » . فلو كان للحواريين أولاداً لجاز أن يكون الله عمهم !

بل قد يزعمون أنّ مرقس هو ابن شمعون الصفا (٣) ، وأن زوزرى ابنته ، وأنّ النصارى تقرّ أنّ في إنجيل مرقس (٤) : « ما زاد (٥) أمك وإخوتك على الباب » وتفسيراها : ما زاد (٦) معلّم . فهم لا يمتنعون من أن يكون الله تبارك وتعالى أباً وجداً وعمّاً .

(١) وأن عزيزاً ابنه ، ساقط من ب .

(٢) ب : « أباً واحداً » ، صوابه في م .

(٣) في الفصل لآين حزم ٢ : ٢ أن ماركس هو تلميذ شمعون الصفا بن توما .

(٤) في النسختين : « في الإنجيل مرقس » صوابه ما أثبت . وانظر إنجيل مرقس ٣ : ٣٢ .

(٥) ب : « ماذا » بدالين معجمتين . والذي في الإنجيل : « هو ذا » .

(٦) ب : « ماذا » بدالين معجمتين .

ولولا^(١) أَنَّ اللهَ قد حَكى عن اليهود أَنَّهُم قالوا: إِنَّ «عزيراً ابنُ الله»^(٢) ، ﴿وَيُدَّ اللهُ مَغْلُوبَةً﴾^(٣) ، و﴿إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾^(٤) وحكى عن النَّصارى أَنَّهُم قالوا: «المسيحُ ابنُ الله» وقال: ﴿قَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ﴾^(٥) . وقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَلَاثَةٌ﴾^(٦) - لكننتُ لأنَّ أخيراً من السَّاءِ أحبُّ إلى من أن أَلْفِظَ بحرفٍ ممَّا يقولون . ولكنني لا أُصِلُّ إلى إظهار جميع مخازينهم ، وما يُسيرون من فضائحتهم ، إلا بالإخبار عنهم ، والحكاية منهم .

فإن قالوا: خبرونا عن الله ، وعن التوراة ، أليست حقاً^(٧) ؟ قلنا: نعم . قالوا: فإنَّ فيها «إسرائيلُ بكرى»^(٨) وجميع ما ذكرتم عنا معروفٌ في الكُتب .

قلنا: إنَّ القومَ إنما أتوا من قلة المعرفة بوجوه الكلام ، ومن سوء الترجمة ، مع الحكم بما يسبق إلى القلوب . ولعمري أنَّ لو كانت لهم عقولُ المسلمين ومعرفتهم بما يجوز في كلام العرب ، وما يجوز على الله ، مع فصاحتهم بالعبرانية ، لوجدوا لذلك الكلام تأويلاً حسناً ، ومخرجاً سهلاً ، ووجهاً قريباً . ولو كانوا أيضاً لم يُعطلوا في سائر ما ترجموا لكان لقائلٍ مقالٌ ، ولطاعنٍ مدخلٌ ، ولكنهم يخبرون أنَّ

(١) ب: «ولو» .

(٢) إشارة إلى الآية الكريمة: «وقالت اليهود عزير ابن الله» ، وهي الآية ٣٠ من التوبة .

(٣) الآية ٦٤ من سورة المائدة .

(٤) الآية ١٨١ من سورة آل عمران .

(٥) الآية ٣٠ من سورة التوبة . والافتباس هنا بطرح الواو ، فإن نص الآية: «وقالت

النصارى» . وهو أمر جائز كما أشرت إلى ذلك في كتابي تحقيق النصوص ص ٥١ .

(٦) الآية ٧٣ من سورة المائدة .

(٧) في النسختين: «حق» ، صوابه ما أثبت .

(٨) انظر ما مضى في حواشي ص ٣٢٢ .

الله تبارك وتعالى قال في العَشْرِ الآيات^(١) التي كتبتها أصابعُ الله :
 « إِنِّي أَنَا اللهُ الشَّدِيدُ ، وَإِنِّي أَنَا اللهُ الثَّقَفُ^(٢) ، وَأَنَا النَّارُ الَّتِي تَأْكُلُ
 النَّيْرَانَ^(٣) ، أَخَذَ الْإِنْبَاءَ بِحَوْبِ الْآبَاءِ ، الْقُرْنَ الْأَوَّلَ وَالثَّانِي وَالثَّلَاثَ
 إِلَى السَّابِعِ^(٤) . وَأَنَّ دَاوُدَ قَالَ فِي الرَّبِّورِ : « وَافْتَحَ عَيْنَكَ يَا رَبُّ »
 وَ « قُمْ يَا رَبُّ » ، وَ « أَصْغِرْ لِي سَمْعَكَ يَا رَبُّ^(٥) » . وَأَنَّ دَاوُدَ خَبَّرَ أَيْضاً
 فِي مَكَانٍ آخَرَ عَنِ اللهِ تَعَالَى : « وَانْتَبَهَ اللهُ كَمَا يَنْتَبَهُ السُّكْرَانُ الَّذِي قَدْ
 شَرِبَ الْخَمْرَ^(٦) » . وَأَنَّ مُوسَى قَالَ فِي التَّوْرَةِ : « خَلَقَ اللهُ الْأَشْيَاءَ
 بِكَلِمَتِهِ ، وَبِرُوحِ نَفْسِهِ » . وَأَنَّ اللهُ قَالَ فِي التَّوْرَةِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ :
 « بِدِرَاعِي الشَّدِيدَةِ أَخْرَجْتُكُمْ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ^(٧) » . وَأَنَّهُ قَالَ فِي كِتَابِ
 إِشْعِيَاءَ : « أَحْمَدُ اللهُ حَمْدًا جَدِيدًا ، أَحْمَدُهُ فِي أَقْصَى الْأَرْضِ ، يَمَلَأُ الْجَزَائِرَ
 وَسُكَّانَهَا ، وَالْبُحُورَ وَالْقَفَارَ وَمَا فِيهَا ، وَيَكُونُ بَنُو قَيْدَارَ فِي الْقُصُورِ ،
 وَسُكَّانُ الْجِبَالِ^(٨) - يَعْنِي قَيْدَارَ بَنِ إِسْمَاعِيلَ - لِيَصِيحُوا وَيُصَيِّرُوا اللهُ
 الْفَخْرَ وَالْكَرَامَةَ ، وَيَسْبِيحُوا بِحَمْدِ اللهِ فِي الْجَزَائِرِ^(٩) » .

(١) في النسختين : « في العشر آيات » ، والوجه ما أثبت .

(٢) الثقف : الفطن الذك .

(٣) في النسختين : « أكل النيران » .

(٤) في سفر الخروج ٣٤ : ٧ : « مفقذ إثم الآباء في الأبناء وفي أبناء الأبناء في الجيل الثالث والرابع » .

(٥) انظر الزمير ١٧ : ١ و ٢٨ و ٢٤ و ٦١ : ١

(٦) في الزمير ٧٨ : ٦٥ : « فاستيقظ الرب كناثم كجبار معيط من الخمر » . عيط الشارب : قال عيط عيط ، بكسر العين ، وقد عيط تمييطا .

(٧) انظر الخروج ١٣ : ٣ والثنية ٤ : ٣٤ / ٥ : ١٥ والزمير ١٣٦ : ١١ - ١٢ .

(٨) في سفر إشعيا ٤٢ : ١٠ ، ١١ : « غنوا للرب أغنية جديدة تسيبها من أقصى الأرض ، أيها المنحدرون في البحر وملؤه ، والجزائر وسكانها . لترفع البرية ومدنها صوتها الديار التي سكنها قيدار . لتترنم سكان سلع من رموس الجبال » .

(٩) في سفر إشعيا ٤٢ : ١١ - ١٢ : « ليتفوا . ليعطوا الرب مجداً ويخبروا بتسبيحه في الجزائر » . وفي الأصل هنا : « يصيحوا ويصيروا لله الفخر والكرامة ، ويلبسون مجده الله في الجزائر » . وقد أصلحت العبارة في ضوء ما في السفر .

وأَنَّهُ قَالَ عَلَى إِثْرِ ذَلِكَ : « وَيَخْرِجُ الرَّبُّ ^(١) كَالجِبَارِ ، وَكَالرَّجْلِ الشُّجَاعِ المَجْرَّبِ ^(٢) ، وَيَزْجُرُ وَيَصْرُخُ ، وَيَهَيِّجُ الحَرْبَ والحَمِيَّةَ ، وَيَقْتُلُ أعداءه ^(٣) ، يُفْرَحُ السَّمَاءَ والأَرْضَ » .

وَأَنَّ اللهَ قَالَ أَيضاً فِي كِتَابِ إِشْعِيَاءَ : « سَكَتٌ . قَالَ : هُوَ مَتَى أُسَكِتُ ، مِثْلَ المَرْأَةِ الَّتِي قَدْ أَخَذَهَا الطَّلُقُ لِلوَالِدَةِ أَتْلَهْفُ ^(٤) ، وَإِنْ تَرَانِي أُرِيدُ أَحْرَثَ الجِبَالِ والشُّعْبَ ^(٥) ، وَأَتَّخِذُ بالعَرَبِ فِي طَرِيقٍ لَا يَعْرِفُونَهُ ^(٦) » . وَكُلُّهُمْ عَلَى هَذَا اللَّفْظِ العَرَبِيِّ مُجْمِعٌ . وَمَعْنَى هَذَا لَا يَجُوزُهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ ، وَمِثْلَ هَذَا كَثِيرٌ تَرَكْتُهُ لِمَعْرِفَتِكُمْ بِهِ .

وَأَنْتِ تَعْلَمُ أَنَّ اليَهُودَ لَوْ أَخَذُوا القُرْآنَ فَتَرَجَمُوهُ بالعِبْرَانِيَّةَ لَأَخْرَجُوهُ مِنْ مَعَانِيهِ ، وَلِحَوْلِهِ عَنِ وُجُوهِهِ ، وَمَا ظَنَنْكَ بِهِمْ إِذَا تَرَجَّمُوا : ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ ^(٧) ﴾ ، وَ ﴿ لَتَضَعَنَّ عَلَى عَيْنِي ^(٨) ﴾ ، وَ ﴿ السَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ^(٩) ﴾ ، وَ ﴿ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى ^(١٠) ﴾ ، وَ ﴿ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ^(١١) ﴾ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ^(١٢) ﴾ ،

(١) فِي النُّسخَتَيْنِ : « وَيُجِيئُ الرَّبُّ » وَفِي سَفَرِ إِشْعِيَاءَ : « الرَّبُّ كَالجِبَارِ يَخْرِجُ » .

(٢) فِي سَفَرِ إِشْعِيَاءَ : « كَرَجَلٍ حُرُوبٍ يَهْفُضُ غَيْرَتَهُ » .

(٣) فِي سَفَرِ إِشْعِيَاءَ : « يَهْتَفُ وَيَصْرُخُ وَيَقْوَى عَلَى أَعْدَائِهِ » .

(٤) لِأَرْبَابِ أَنَّ فِي العِبَارَةِ تَحْرِيفاً . وَالَّذِي فِي سَفَرِ إِشْعِيَاءَ ٤٢ : ١٤ : « قَدْ صَمِتَ مِنْذُ

الدَّهْرِ ، سَكَتَ تَجَلَدَتْ . كَالوَالِدَةِ أُصْبِحُ أَنْفِيخٌ وَأَنْخَرُ مَمًّا » . سَكَتَ وَتَجَلَدَتْ بِنَاءِ المُكْمَلِ فِيهَا .

(٥) فِي سَفَرِ إِشْعِيَاءَ : « أَخْرَبَ الجِبَالِ وَالآكَامَ وَأَجْفَفَ كُلَّ عَشْبِهَا وَأَجْمَلَ الأَنْهَارَ يَبْسًا وَأَنْشَفَ الأَجَامَ » .

(٦) كَذَا . وَالَّذِي فِي السَّفَرِ : « وَأَسِيرُ العَمَى فِي طَرِيقٍ لَمْ يَمْرِفُوهَا » . أَسِيرٌ مِنَ التَّنْسِيرِ ،

وَالعَمَى : جَمْعُ أَعْمَى

(٧) الآيَةُ ٥٥ مِنْ سُورَةِ الزُّخْرُفِ . (٨) الآيَةُ ٣٩ مِنْ سُورَةِ طه .

(٩) الآيَةُ ٦٧ مِنْ سُورَةِ الزُّمَرِ .

(١٠) الآيَةُ ٥ مِنْ سُورَةِ طه .

(١١) الآيَةُ ٢٢ ، ٢٣ مِنْ سُورَةِ القِيَامَةِ .

(١٢) الآيَةُ ١٤٣ مِنْ سُورَةِ الأَعْرَافِ .

﴿ كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾^(١) ، و ﴿ جَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾^(٢) .
وقد يُعلمُ أَنَّ مفسري كتابنا وأصحاب التناويل مِنَّا أَحسنُ معرفةً ،
وأَعلمُ بوجوه الكلام من اليهود ، ومناوَلُ الكتب ، ونحن قد نجد في
تفسيرهم ما لا يجوز على الله في صفته ، ولا عند المتكلمين في مقاييسهم^(٣) ،
ولا عند النحويين في عربيتهم . فما ظنك باليهود مع غباوتهم وغيثهم ،
وقلة نظريهم وتقليدهم ؟

وهذا بابٌ قد غلِطت فيه العربُ أنفسها ، وفصحاءُ أهل اللُغة إذا
غلِطت قلوبها ، وأخطأت عقولها ، فكيف بغيرهم ممن لا يعلم كعلمها ؟
سمع بعضُ العرب قولَ جميع العرب : « القلوبُ بيد الله » ، وقولهم
في الدعاء : « نواصينا بيد الله » وقوله جل ذكره : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾^(٤) ،
وقولهم : « هذا من أيادي الله ويحييه عندنا » وقد كان من لغتهم أَنَّ الكفَّ
أيضاً يدٌ^(٥) ، كما أَنَّ النعمة يد ، والقدرة يد ، فغلط الشاعر^(٦) فقال :
هَوْنٌ عَلَيْكَ فَإِنَّ الْأُمُورَ بِكَفِّ الْإِلَهِ مَقَادِيرُهَا^(٧)

(١) الآية ١٦٤ من سورة النساء .

(٢) الآية ٢٢ من سورة الفجر .

(٣) في النسختين : « مقاييسهم » .

(٤) الآية ٦٤ من سورة المائدة .

(٥) في النسختين : « الكفر أيضاً يد » ، والوجه ما أثبت . وهو تمهيد للاستشهاد
بالبيت التالي ، الذي أثبت للإله كفاً ، وذلك من سوء أدب الشاعر ، وإنما يعبر باليد في ذات
الله لمعنى النعمة والقدرة .

(٦) هو محمد بن حازم الباهلي كما في المقد ٣ : ٢٠٦ . وصاه « ابن أبي حازم » ، تحريف .
وهو محمد بن حازم بن عمرو الباهلي . كان من ساكني بغداد ، ومولده ومنشؤه بالبصرة . وهو
من شعراء الدولة العباسية . شاعر مطبوع ، إلا أنه كان كثير الهجاء للناس . ولم يلبس من الخلفاء
إلا الأمون . كان يقول المقطعات الصغيرة فيحسن . وهو صاحب البيت المشهور :

يا راقده الليلَ مسروراً بأوله إن الحوادث قد يطرقتن أبحاراً
وقد عاتبه يحيى بن أكرم على اختصاره للشعر ، فأجابه بأشعار حسان .

انظر الأغاني ١٢ : ١٥١ - ١٦٠ والمرزباني ٤٢٩ وتاريخ بغداد ٧٨١ .

(٧) في المقد : * فلا تخرصن فإن الأمور *

وقد كان إبراهيمُ بن سيارٍ النَّظَامُ يجيب بجوابٍ ، وأنا ذاكرُهُ إن شاء الله . وعليه كانت علماء المعتزلة ، ولا أراه مقنعاً ولا شافياً .

وذلك أنَّه كان يجعل الخليلَ مثل الجيب ، مثل الوليِّ ، وكان يقول : خليلُ الرحمن مثل حبيبه ووليِّه وناصره . وكانت الخلَّة والولاية والمحبة سواً .

قالوا : ولما كانت كلُّها عنده سواً جاز أن يسميَ عبداً له ولداً ، لمكان التربية التي ليست بحضانة ، ولمكان الرحمة التي لا تُشقق من الرحم^(١) ، لأنَّ إنساناً لو رحم جرّو كلب قريباً لم يجز أن يسميه ولداً ويسمى نفسه أباً . ولو التقط صبيّاً قريباً جاز أن يسميه ولداً ويسمى نفسه له أباً ، لأنَّه شبيهه ولده ، وقد يؤلّد لمثله مثله . وليس بين الكلاب والبشر أرحام ، فإذا كان شبه^(٢) الإنسان أبعد من الله تعالى من شبه الجرّو بالإنسان ، كان الله أحقَّ بيالاً يجعله ولده ، وينسبه إلى نفسه .

قلنا لإبراهيم النَّظَام عند جوابه هذا وقياسه^(٣) الذي قاس عليه ، في المعارضة والموازنة بين قياسنا وقياسه : أرأيت كلباً ألِفَ كلابه^(٤) ، وحامى وأحمى دونه ، هل يجوز أن يتخذَه بذلك كلبه خليلاً ، مع بُعد التشابه والتناسب ؟

فإذا قال : لا . قلنا : فالعبدُ الصالح أبعدُ شبيهاً من الله من ذلك الكلبِ المحسنِ إلى كلابه ، فكيف جازَ في قياسك أن يكون الله خليلَ

(١) في النسختين : « لا يشق » ، تحريف .

(٢) ب : « شبيه » .

(٣) ب : « وإن قياسه » .

(٤) الكلاب : صاحب الكلاب ، كما أن المكلب صاحبها الذي يعلمها أخذ الصيد ويصطاد

بها . ب : « أرأيت كلاباً » ، صوابه في م .

من لا يشاكله لمكان إحسانه ، ولا يجوز للكلاب أن يسمّى كلبه خليلاً أو ولدًا لمكان حُسن تربيته له ، وتأديبه إيّاه ، ولمكان حُسن الكلب وكُسيه عليه ، وقيامه مقام الولد الكاسب والأخ ، والبار .

والعبد الصالح لا يُشبه الله في وجهه من الوجوه ، والكلب قد يشبه كلابه لوجوه كثيرة ، بل ما أشبهه به بما خالفه فيه ، وإن كانت العلة التي منعت من تسمية الكلب خليلاً وولدًا بُعد شبهه من الإنسان .

فلو قلتم ^(١) : فما الجواب الذي أجبت فيه ، والوجه الذي أرتضيتَه ؟

قلنا : إن إبراهيم صلواتُ الله عليه ، وإن كان خليلاً ، فلم يكن خليلاً بحُلة كانت بينه وبين الله تعالى ، لأنَّ الحُلة والإخاء والصدّاقة والتصافي والخُلة وأشياء ذلك منفيّة عن الله تعالى عزّ ذكره ، فما بينه وبين عباده ، على أنّ الإخاء والصدّاقة داخلتان في الحُلة ، والحُلة أهمُّ الاسمين ، وأخصُّ الحاليتين . ويجوز أن يكون إبراهيم خليلاً بالحُلة ^(٢) التي أدخلها الله على نفسه وماله ، وبين أن يكون خليلاً [بالحُلة وأن يكون خليلاً ^(٣)] بينه وبين ربّه - فرق ظاهر ، وبون واضح . وذلك أنّ إبراهيم عليه السلام اختلّ في الله تعالى اختلالاً لم يختلله أحدٌ قبله . لقد فهم إيّاه في النار ، وذبحه ابنه ، وحمله على ماله في الضيافة والمواساة والأثرة ، وبعداوة قومه ، والبراءة من أبويه في حياتهما ، وبعد موتهما ، وترك وطنه ، والهجرة إلى غير داره ومسقط رأسه . فصار لهذه الشدائد مختلاً في الله ، وخليلاً في الله . والخليل والمختل ^(٤) سواء في كلام

(١) في النسختين : فلم قلتم « ، والوجه ما أثبت .

(٢) الحُلة ، بالفتح : الحاجة والفقر .

(٣) تكله يفقر إليها الكلام .

(٤) في النسختين : « نخول » ، تحريف . وفي اللسان : « ورجل خل ونخل وخليل وأخل :

معلم فقرر » .

العرب . والدليل على أن يكون الخليل من الخلّة كما يكون من الخلّة قولُ زهير بن أبي سُلمَى ، وهو يمدح هَرِمًا :
 وإنَّ أَنَاهُ خَلِيلُ يَوْمَ مَسْعَبَةَ يَقُولُ لَا عَاجِزٌ مَالِي وَلَا حَرِيمٌ^(١)
 وقال آخر :

وَأُنَى إِلَيَّ أَنْ تَسْعَفَانِي بِحَاجَتِي إِلَى آلِ لَيْلَى مَرَّةً لَخْلِيلُ
 وهو لا يمدحه بأنَّ خليله وصديقَه يكون فقيرًا سائلًا ، يأتي يوم
 المسألة ويبسط يده للصدقة والعطية ، وإنَّما الخليل في هذا الموضع من
 الخلّة والاختلال ، لا من الخلّة والجلال .

وكانَّ إبراهيمَ عليه السلام حين صار في الله مختلاً أضافه الله إلى
 نفسه ، وأبانه بذلك عن سائر أوليائه ، فسماه خليلَ الله من بين الأنبياء ،
 كما سمى الكعبة : بيتَ الله من بين جميع البيوت ، وأهل مكة : أهلَ الله
 من بين جميع البلدان . وسمى ناقة صالح عليه السلام : ناقةَ الله من بين
 جميع النوق . وهكذا كلُّ شيء عظمه الله تعالى ، من خيرٍ وشر ، وثوابٍ
 وعقاب . كما قالوا : دَعَهُ فِي لَعْنَةِ اللَّهِ ، وفي نارِ اللَّهِ وفي حَرْقِهِ . وكما قال
 للقرآن : كتابَ اللَّهِ ، وللمحرم : شهرَ اللَّهِ . و [على هذا المثال قيل لحمزة
 رحمةَ اللَّهِ ورضوانه عزَّ ذكره عليه : أسدُ اللَّهِ ، و^(٢) لخالد رحمةَ اللَّهِ
 عليه : سيفُ اللَّهِ تعالى .

وفي قياسنا هذا لا يجوز : أنَّ اللَّهَ خليلُ إبراهيم ، كما يقال : إن
 إبراهيمَ خليلُ اللَّهِ .

(١) ديوان زهير ١٥٣ والبيئى ٤ : ٤٢٩ .

(٢) هذه التكملة من م وإن كانت عبارة الدعاء هذه ليست من أسلوب الجاحظ .

فإن قال قائل : فكيف لم يقدموه على جميع الأنبياء ، إذ كان الله قدّمه بهذا الاسم الذى ليس لأحدٍ مثله ؟

قلنا : إنَّ هذا الاسم اشتقَّ له من عمله وحاله وصفته ، وقد قيل لموسى عليه السلام : كلم الله ، وقيل لعيسى : روح الله ، ولم يُقل ذلك لإبراهيم ، ولا لمحمد صلوات الله عليهما ، وإن كان محمد صلى الله عليه وسلم أرفع درجةً منهم ، لأنَّ الله تعالى كلم الأنبياء عليهم السلام على ألسنة الملائكة ، وكلم موسى كما كلم الملائكة ، فلهذه العلة قيل : كلم الله . وخلق في نطف الرجال أنَّ قدقها^(١) في أرحام النساء على ما أجرى عليه تركيب العالم ، وطباع الدنيا ، وخلق في رحم مريم روحاً وجسداً ، على غير مجرى العادة ، وما عليه المناكحة . فلهذه الخاصة قيل له : روح الله .

وقد يجوز أن يكون في نبيٍّ من الأنبياء خصلةٌ شريفة ، ولا تكون تلك الخصلة بعينها في نبيٍّ أرفع درجةً منه ، ويكون في ذلك النبي خصالٌ شريفة ليست في الآخر . وكذلك جميع الناس ، كالرجل يكون له أبوان ، فيُحسن برهما وتعاهدهما ، والصبر عليهما ، وهو أعرج لا يقدر على الجهاد ، وفقير لا يقدر على الإنفاق . ويكون آخر لا أب له ولا أم له ، وهو ذو مالٍ كثير ، وخلقٍ سوى ، وخلق طاهر ، فأطاع هذا بالجهاد والإنفاق ، وأطاع ذلك ببرٍ والديه والصبر عليهما .

والكلام إذا حرك تشعب ، وإذا ثبت أصله كثرت فنونه ، واتسعت طرقه . ولولا ملالة القارئ ، ومداراة المستمع لكان بسط القول في جميع ما يعرض أتم للدليل ، وأجمع للكتاب ، ولكننا إنما ابتدأنا الكتاب لنقتصر به على كسر النصرانية فقط .

(١) في النسخين : « إذ قدقها » ، ووجه العبارة بما ترى .

٦ - فصل منه

قلنا في جواب آخر: إن كان المسيح إسمًا صار ابنَ الله لأنَّ الله خلقه من غير ذكر، فأدم وحواء^(١) إذ كانا^(٢) من غير ذكر وأنثى أحقُّ بذلك، إن كانت العلة في اتخاذه ولدًا أنَّه خلقه من غير ذكر. وإن كان ذلك لمكان التربية فهل ربَّاه إلا كما ربَّى موسى^(٣)، وداود، وجميع الأنبياء. وهل تأويل: «ربَّاه» إلا عَدَّاه، ورزقه، وأطعمه، وسقاه، فقد فعل ذلك^(٤) بجميع الناس. ولمَّ سمَّيت سَقِيَهُ لِمَ وإطعامه إِيَّاهم تربية؟ ولمَّ ربَّاه وأنتم لا تريدون إلا عَدَّاه ورزقه، وهو لمَّ يَخْضُنْهُ، ولم يباشر تقليبَه، ولم يتولَّ بنفسه سَقِيَهُ وإطعامه، فيكون ذلك سببًا له دون غيره، وإسمًا سقاه لِبَنِ أُمِّه في صِغَرِهِ، وعَدَّاه بالحبوب والماء في كِبَرِهِ.

٧ - فصل منه

والأعجوبة في آدم عليه السلام أُنْذِعُ، وتربيته أكرم، ومُنْقَلِبِهِ أعلى وأشرف، إذ كانت السماء داره، والجنة منزله، والملائكة خُدَّامَهُ. بل هو المقدم بالسُّجُود، والسُّجُود أشدُّ الخضوع. وإن كان يحسِّن التعليم والتثقيف^(٥)؛ فَمَنْ كان الله تعالى يخاطبه، ويتولى مناجاته دون أن يُرْسَل إليه ملائكته ويبعث إليه رسله، أقرب منزلةً، وأشرف مرتبةً، وأحقُّ بشرف التَّأْدِيبِ وفضيلة التعليم.

(١) رسمت في النسختين: «حوى».

(٢) ب: «إذا كان» م: «إذا كان»، والوجه ما أثبت.

(٣) في النسختين «إلا حماد بن موسى»، صوابه ما أثبت، وهو من دقيق التحريف،

حرفت «كا» إلى «حماد» و«ربي» إلى «دين».

(٤) ب: «فهل فعل ذلك»، صوابه في م.

(٥) أي «وإن كان تقدمه بحسن التعليم»، وكلمة «التثقيف» ساقطة من م. وفي النسختين:

«وإن كان يحسن التعليم»، والوجه ما أثبت.

وكان الله تعالى يكلم آدم كما كان يكلم ملائكته ، ثم علمه الأسماء كلها ؛ ولم يكن ليعلمه الأسماء كلها إلا بالمعاني كلها ، فإذا [كان ^(١)] ذلك كذلك فقد علمه ^(٢) جميع مصالحه ومصالح ولده ، وتلك نهاية طباع الآدميين ، ومبلغ قوى المخلوقين .

٨ - فصل منه

فأما قولهم إنا نقول على الناس ما لا يعرفونه ^(٣) ، ولا يجوز أن يدينوا به ، وهو قولنا إن اليهود قالت : إن الله تعالى فقير ونحن أغنياء . وأنها قالت : إن يد الله مغلولة ، وإنها قالت : إن عزيزاً ابن الله ، وهم مع اختلافهم وكثرة عددهم ، ينكرون ذلك ويأبونه أشد الإباء .

قلنا لهم : إن اليهود لعنهم الله تعالى كانت تطعن على القرآن ، وتلمس نقصه ، وتطلب عيبه ، وتخطئ فيه صاحبه ، وتأتيه من كل وجه ، وترصده بكل حيلة ، ليلتبس على الضعفاء ، وتستميل قلوب الأغنياء ^(٤) .

فلما سمعت قول الله تعالى لعباده الذين أعطاهم ، قرضاً ، وسألهم قرضاً على التضعيف ، فقال عز من قائل : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ ^(٥) ﴾ . قالت اليهود ^(٦) على وجه الطعن والعيب والتخطئة والتعنت : تزعم أن الله يستقرض منا ، وما استقرض منا

(١) تكله يفقر إليها الكلام .

(٢) ب : فهل علمه « ، صوابه في م .

(٣) سقطت كلمة « لا » من النسختين ، ولا يستقيم الكلام بدونها .

(٤) ب : « الأغنياء » ، صوابه في م . وفي النسختين : « ويستميل » ، تحريف .

(٥) الآية ٢٤٥ من سورة البقرة . وقراءة نصب « فيضاعف » هي لعاصم وابن عامر ويعقوب .

وقراءة الجمهور « فيضاعفه » بالرفع على الاستئناف . إتحاف فضلاء البشر ١٥٩ .

(٦) ب : « قالت » فقط .

إِلَّا لَفَقْرَهُ وَغِنَانَا ! فَكَفَّرَتْ بِذَلِكَ الْقَوْلِ إِذْ كَانَ^(١) عَلَى وَجْهِ التَّكْذِيبِ
والتَّخْطِئَةِ ، لَا عَلَى وَجْهِ أَنَّ دِينَهَا كَانَ فِي الْأَصْلِ أَنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ ، وَأَنَّ
عِبَادَهُ أَغْنِيَاءُ . وَكَيْفَ يَعْتَقِدُ إِنْسَانٌ أَنَّ اللَّهَ عَاجِزٌ عَمَّا يَقْدِرُ عَلَيْهِ ، مَعَ
إِقْرَارِهِ^(٢) بِأَنَّهُ الَّذِي خَلَقَهُ وَرَزَقَهُ ، وَإِنْ شَاءَ حَرَمَهُ ، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ ،
وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ . وَقَدْرَتُهُ عَلَى جَمِيعِ ذَلِكَ كَقَدْرَتِهِ عَلَى وَاحِدٍ .

ومجاز الآية في اللغة واضح ، وتأويلها بين ؟ وذلك أن الرجل
منهمم كان يُقرض صاحبه لإرفاقه^(٣) ، ليعود إليه مع أضل ماله اليسير
من ربحه ، ثم هو مخاطرٌ به إلى أن يعود في ملكه . فقال لم - بحسن
عادته ومبنته : أسوا فقراءكم^(٤) ، وأعطوا في الحق أقرباءكم ، من المال
الذي أعطيتكم ، والنعمة التي خوّلتمكم ، بأمرى إيتاكم وضمان لكم ،
فأعتده منكم قرضاً وإن كنت أزلّى به منكم ، فأنا مؤفّيكم حقوقكم
إلى ما لا ترتقي إليه همة ولا تبلغه أمنية . على أنكم قد أئمتم من الخطار ،
وسلمتم من التفرير .

والرجل يقول لعبيده^(٥) : أسلفني درهماً ، عند الحاجة تعرّض
له^(٦) ، وهو يعلم أن عبده وماله له . وإنما هذا كلامٌ وفعلٌ يدلُّ على
حسن الملكة ، والتفضل على العبد والأمة ، وإخبار منه لعبيده أنه
سيعيد عليه ما كانت سحّت به نفسه .

(١) ب : « إذا كان » ، صوابه في م .

(٢) في النسختين : « مع قراره » .

(٣) الإرفاق : النفع . وفي م : « لإرفاقه » .

(٤) المؤاساة : مصدر آسأ بما له : أناله منه وجعله فيه أسوة ، فهي المشاركة . وفي الحديث
« ما أحد عندي أعظم يداً من أبي بكر ، آسأني بنفسه وماله » . وفي ب : « وأسوا » على التخفيف ،
وإن ذكر صاحب اللسان أنها لغة ضعيفة ، ففي حديث الحديبية : « إن المشركين وأسونا للصلح » .

(٥) ب : « لعبد » ، صوابه في م .

(٦) في النسختين : « تقرض له » ، تحريف ما أثبت .

وهذا ليس بغلطٍ في الكلام ولا يَضيقُ فيه ^(١) ولكن المتعنت يتعلّق بكلّ سبب ، ويتشَبَّه بكلّ ما وجد .

وأما إخباره عن اليهود أنّها قالت : ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ ^(٢) ، فلم يذهب إلى أنّ اليهود ترى أنّ ^(٣) ساعده مشدودة إلى عنقه بغلّ . وكيف يذهب إلى هذا ذاهبٌ ، ويدينُ به دائن ؟ ! لأنّه لا بدّ أن يكون يذهب إلى أنّه علّ نفسه أو علّه غيره . وأيهما كان ، فإنّه منقُ عن وهمٍ كلّ بالغ يحتمل التكليف ، وعاقِل يحتمل التثقيف ، ولكنّ اليهود قومٌ جَبْرِيَّة ، والجَبْرِيَّة ^(٤) تُبْحَلُ الله مرّةً ، وتظلمه مرّةً ^(٥) ، وإن لم تقرّ بلسانها ، وتُشْهِدُ على إقرارها ، بقولهم : ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ يَعْنُونَ بِرّه وإِحْسَانه ^(٦) . وقولهم : مَغْلُولَةٌ ، لا يَعْنِي ^(٧) [أَنَّ غَيْرَهُ حَبَسَهُ وَمَنَعَهُ ، وَلَكِنْ إِذَا كَانَ عِنْدَهُمْ أَنَّهُ الَّذِي مَنَعَ أَيْدِيَهُ ، وَحَبَسَ نِعَمَهُ ؛ فَهِيَ مَحْبُوسَةٌ بِحَبْسِهِ ، وَمِنْوَعَةٌ بِمَنَعِهِ .

والذي يدلُّ على أنّهم أرادوا باليدين النعمة والإفضال ، دون

(١) في الأصلين : « وهذا ليس يغلط في الكلام ولا يضيّق فيه » .

(٢) الآية ٦٤ من سورة المائدة . (٣) في النسخين : « بأن » تحريف .

(٤) في اللسان : « الجبرية : الذي يقولون : أجبر الله العباد على الذنوب ، أي أكرههم عليه » . والمعروف عند المتكلمين أن الجبر هو نفي الفعل حقيقة عن العبد ، وإضافته إلى الرب تعالى . . . والجبرية أصناف . فالجبرية الخالصة هي التي لا تثبت للعبد فعلاً ولا قدرة على الفعل أصلاً . والجبرية المتوسطة التي تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة . فأما من أثبت للقدرة الحادثة أثرًا ما في الفعل وسعى ذلك كسباً فليس بجبري . والمتوسطة يسمون من لم يثبت للقدرة الحادثة في الإبداع والإحداث استقلالاً - جبرياً . الملل والنحل ١ : ١٠٨ .

(٥) في اللسان (ظم ٢٦٧) : « وظلمه (بالتشديد) : أنبأه أنه ظالم ، أو نسيه إلى الظلم » وأنشد :

أست تظالمني ولست بظالم وتبني نبأ ولست بنام

وقب : « وتظلمه » ، صوابه ما أثبت من م .

(٦) يره ، ساقطة من ب . وهي في م : « يده » ، ووجه هذه ما أثبت .

(٧) تكله يفترق إلى مثلها الكلام .

السَّاعِدِ وَالذَّرَاعِ ، جَوَابُ كَلَامِهِمْ حِينَ قَالَ : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾^(١) . دليلاً على ما قلنا ، وشاهداً على ما وصَّفتنا .

فإن قالوا : فكيف لم نقل إن اليهود بَخَلَّت اللهُ وَجَّحَدَتْ إِحْسَانَهُ ، دون أن يقال إن يد الله مغلولة ؟

قلنا : إن أراد الله الإِخْبَارَ عن كُفْرِ قَوْمٍ^(٢) وَسَخَطِ عَلَيْهِمْ ، فليس لهم عليه أن يعبر عن دينهم وعبوبهم بأحسنِ المَخَارِجِ ، ويجلبها^(٣) بأحسنِ الألفاظ . وكيف وهو يريد التَّنْفِيرَ عن قَوْمٍ ، وأن يَبْغِضَهُمْ إلى مَنْ سَمِعَ ذَلِكَ عَنْهُمْ .

ولو أراد الله تعالى تَلْيِينَ الأَمْرِ وَتَصْغِيرَهُ وَتَسْهِيلَهُ ، لقال قولاً غَيْرَ هذا . وكل^(٤) صدقُ جَائِزٌ في الكلام . فهذا مجازُ مسألتهم في اللُّغَةِ ، وهو معروفٌ عند أهل البيان والفصاحة .

وأما قولهم : إن اليهود لا تقول إن عزيزاً ابنُ الله . فإن اليهود في ذلك على قولين : أحدهما خاصٌ ، والآخر عامٌ في جماعتهم .

فأما الخاصُّ ، فإن ناساً منهم لما رأوا عُزَيْراً أعاد عليهم التَّوْرَةَ من تلقاء نفسه ، بعد دُرُوسِهَا وَشَتَاتِ أَمْرِهَا غَلَوُوا فِيهِ ، وقالوا ذلك ، وهو مشهور^(٥) من أمرهم . وإن فريقاً من بقاياهم لباليمن والشَّامِ وداخلِ بلادِ الرُّومِ . وهؤلاء بأعيانهم يقولون : إن إسرائيلَ اللهُ ابنُه^(٦) ، وإذا كان ذلك على خلافِ تناسُبِ الناسِ ، وصار^(٧) ذلك الاسمَ لِعُزَيْرِ

(١) من الآية ٦٤ في سورة المائدة .

(٢) ب : « على كفر قوم » ، صوابه في م .

(٣) م : « ويجلبها » .

(٤) في النسختين : « وحل » ، ووجهه ما أثبت . (٥) ب : « مشهود » .

(٦) انظر ما سبق في ص ٣٣١ - ٣٣٢ . وهو ترجمة لكلمتي « إسرأ » و « إيل » . وفي

تفسير أبي حيان ١ : ١٧١ أن « إسرأ » بمعنى العبد ، في العبرانية .

(٧) ب : « وسار » بالسين .

بالطاعة والعلامة ، والمرتبة لأنه^(١) من ولد إسرائيل .
والقول الذى هو عام فيهم ، أن كلَّ يهودى^(٢) ولدَه إسرائيل ،
فهو ابنُ الله ، إذ لم يجدوا ابنَ ابنِ قَطُّ إلا وهو ابن .

٩ - فصل منه

فإن قالوا : ليس المسيحُ روحَ الله وكلمته ، كما قال عزَّ ذكره :
﴿ وكلمته ألقاها إلى مريمَ رُوحٌ منه^(٣) ﴾ أو ليس قد أخبر عن نفسه
حين ذكر أمه أنه نفخ فيها من رُوحه ؟ أو ليس مع ذلك قد أخبر
عن حصانة فرجها وطهارتها^(٤) ؟ أو ليس مع ذلك قد أخبر أنه لا أب
له ، وأنه^(٥) كان خالفاً ، إذ كان يَخْلُق من الطين كهيئة الطير ، فيكون
حيًّا طائرًا ؟ فأى شئٍ بَقِيَ^(٦) من الدلالات على مخالفته لمشاكلة^(٧)
جميع الخلق ، ومباينة جميع البَشَر ؟

قلنا لهم : إنكم إنما سألتمونا عن كتابنا ، وما يجوزُ في لغتنا
وكلامنا ، ولم تسألونا عما يجوزُ في لغتكم وكلامكم . ولو أننا جوزنا
ما في لغتنا مالا يجوز ، وقلنا على الله تعالى مالا نعرف ، كُنَّا بذلك عند
الله والسامعين في حدِّ المكائرين ، وأسوأ حالاً من المنقطعين ، وكُنَّا قد
أعطيناكم أكثرَ مما سألتم ، وجُرنا بكم فوق أمنيَّتكم .

(١) ب : « لا لأنه » . و « لا » مقحمة تفسد الكلام .

(٢) في النسخين : « أن يكون يهودى » .

(٣) الآية ١٧١ من سورة النساء .

(٤) في الأصل : « أوليس مع ذلك قد أخبر عن حصانة فرجها وطهارتها ، أخبر أنه نفخ فيها

من روحه » وفي هذا تكرار لاوجه له .

(٥) ب : « وأن » ، صوابه في م .

(٦) في النسخين : « نقي » ، تحريف .

(٧) في النسخين : « بمشاكلة » . والمقصود نقي المشاكلة .

ولو كننا إذا قلنا : عيسى رُوح الله وكلمته ، وجب علينا^(١) في لغتنا أن يجعله الله ولداً ، وتَجَلَّه^(٢) مع الله تعالى إلهاً ، ونقول^(٣) : إنَّ روحاً كانت في الله فانفصلت منه إلى بدن عيسى وبتن مريم . فكنا إذا قلنا : إنَّ الله سمى جبريلَ رُوحَ الله ورُوحَ القدس ، وجب علينا أن نقول فيه ما يقولون في عيسى . وقد علمت أن ذلك ليس من ديننا ، ولا يجوز ذلك بوجه من الوجوه عندنا ، فكيف نُظهر للناس قولاً لا نقوله ، وديناً لا نرتضيه .

ولو كان قوله جلَّ ذكره^(٤) : ﴿ فَتَفَخَّنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ﴾^(٥) يُوجبُ نفخاً كنفخ الرُّقِّ ، أو كنفخ الصَّانغ في المنفاخ ، وأنَّ بعض الرُّوح التي كانت فيه انفصلت فاصلةً إلى بطنه وبتن أمه^(٦) ، لكان قوله في آدم يوجب له ذلك ؛ لأنه قال : ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ ﴾^(٧) . . . إلى قوله : ﴿ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ﴾^(٨) وكذلك قوله : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتَ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾^(٩) .

والنفخ يكون من وجوه ، والروح يكون من وجوه :

فمنها ما أضافه إلى نفسه ، ومنها ما لم يُضِفْهُ إلى نفسه . وإنما

(١) ب : « وجب علينا » ، تحريف ، ما في م .

(٢) في النسخين : « ويجعله » ، محرف .

(٣) في النسخين : « ويقول » .

(٤) في النسخين : « ولو قال جل ذكره » . فيقطع الكلام عما بعده .

(٥) من الآية ٩١ من الأنبياء و ١٢ من التحريم .

(٦) في النسخين : « بعض روح » .

(٧) في النسخين : « بطنها وبتن أمها » .

(٨) الآيات ٧ ، ٨ من سورة السجدة .

(٩) الآية ٩ من سورة السجدة .

(١٠) الآية ٢٩ من الحجر و ٧٢ من آس .

يكون ذلك على قَدْر ما عَظُم من الأمور ، فمما سَمِيَ رُوحاً وأُضافه إلى نفسه ، جِبْرِيلُ الرُّوحِ الأَمِينُ ، وعيسى بنُ مريمَ . والتوفيقُ كقول موسى حين قال : إِنَّ بَنِي فِلاَن أَجابوا فِلاَناً النَّبِيَّ ولم يُجيبوك . فقال له ^(١) : « إِنَّ رُوحَ اللَّهِ مَعَ كُلِّ أَحَدٍ » ^(٢) .

وأما القرآنُ فَإِنَّ اللَّهَ سَمَّاهُ رُوحاً ، وجعلَه يُقِيمُ لِلنَّاسِ مِصالِحَهُم في دِيارِهِم وأبدانِهِم ، فلما اشتبها من هذا الوجه أَرَمَهُما اسْمَهُما فقال لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا ^(٣) ﴾ وقال : ﴿ تَنْزِيلُ الْمَلائِكَةِ وَالرُّوحُ ^(٤) ﴾ .

١٠ - فصل منه

قد جعلنا في جواباتهم وقدمنا مسائلهم ^(٥) ، بما لم يكونوا ليبلغوه لأنفسهم ، ليكون الدليلُ تاماً ، والجوابُ جامعاً ؛ وليعلمَ من قرأ هذا الكتابَ ، وتدبرَ هذا الجوابَ ، أننا لم نَعْتَمِدْ عَجْزَهُم ، ولم ننتهزْ عِزَّتَهُم ، وأنَّ الإِدلالَ بالحِجَّةِ ، والثُّقَّةَ بالفَلِجِ والنُّصْرَةَ ، هو الذي دعانا إلى أن نُخَيِّرَ عنهم بما ليس عندهم ، وألَّا نقولَ في مسائلهم بمعنىً لم ينتبه له مُنتَبِهٌ ، أو يُشِيرُ إليه مشيرٌ ^(٦) ، وألَّا يُوردوا فيا يستقبلون ، على

(١) ب : « فقالوا له » ، تحريف .

(٢) إشارة إلى ما جاء في سفر العدد ١١ : ٢٧ - ٢٩ : « فركض غلام وأخبر موسى وقال : ألداد وميداد يتنبآن في الخلة . فأجاب يشوع بن نون خادم موسى من حدائنه وقال : يا سيدي موسى ، اردعهما . فقال له موسى : هل تغار أنت في ، ياليت كل شعب الرب كانوا أنبياء إذا جعل الرب روحه عليهم » .

(٣) الآية ٥٢ من الشورى .

(٤) الآية ٤ من المارج .

(٥) م : « وقومنا مسائلهم » .

(٦) في النسخين : « أو يشير » ، وإنما هو عطف على : « لم ينتبه » .

صُعْفَانِيَا وَمَنْ قَصُرَ نَظْرُهُ مِنَّا، شَيْئاً إِلَّا وَالْجَوَابُ قَدْ سَلَفَ فِيهِ،
وَأَلَسْتُمْ قَدْ مَدَلْتُمْ بِهِ (١).

وسنسلّم إن شاء الله، ونجيب عنهم، ونستقصى لهم في جواباتهم،
كما سألتناهم أنفسنا (٢)، واستقصينا لهم في مسائلهم
فيقال لهم: هل يخلو المسيح أن يكون إنساناً بلا إله، أو إلهاً بلا
إنسان؟ أو أن يكون إلهاً وإنساناً؟

فإن زعموا أنه كان إلهاً بلا إنسان، قلنا لهم: فهو الذي كان
صغيراً فسبّ والتحق (٣)، والذي كان يأكل ويشرب، ويتجو
ويبول، وقُتِلَ بِزَعْمِكُمْ وَصَلِبَ، وولدتُه مريمُ وأرضعته، أم غيره هو
الذي كان يأكل ويشرب على ما وصفنا؟ فأى شيء معنى الإنسان
إلا ما وصفنا وعددنا؟

وكيف يكون إلهاً بلا إنسان، وهو الموصوفُ بجميع صفات
الإنسان. وليس القول في غيره بمن صفته كصفته إلا كالقول فيه
كاشتهاها على غيره؟

وإن زعموا أنه لم ينقلب عن الإنسانيّة ولم يتحوّل عن جوهر
البشريّة، ولكن لما كان اللاهوت فيه، صار خالقاً وسُمّي إلهاً. قلنا
لهم: خبرونا عن اللاهوت. أكان فيه وفي غيره (٤)، أم كان فيه دون
غيره؟

(١) مدلت به: أذاعته وأفضته، وأصل المدل إشاعة السر. قال قيس بن الخطيم:

فلا تمذل بترك كل سر إذا ما جاوز الاثنين فإني

ب: «قد دلت به» م: «قد زلت به»، والوجه ما أثبت.

(٢) ب: «كما سألتناهم أنفسنا»، صوابه في م.

(٣) التحي: ظهرت لحته. ب: «والتحي» بالميم، تحريف.

(٤) ب: «أكان فيه وفي غيره» فقط، وبقية العبارة من م مع سقرط كلمة «فيه»
الثانية، وقد أثبتنا تكلمة للقول.

فإن زعموا أنه كان فيه وفي غيره ، فليس هو أولى بأن يكون خالقاً ويتسمى إلهاً من غيره . وإن كان فيه دون غيره ، فقد صار اللاهوتُ جسماً .

وسنقول في الكسر عليهم إذا صرنا إلى القول في التشبيه ، وهو قولُ مُعْظَمِهِمْ^(١) ، والذي كان عليه جماعتهم ، إلا من خالفهم من متكلميهم ومتفلسفيهم ، فإنهم يقولون بالتشبيه^(٢) والتجسيم ، فراراً من كثرة الشناعة ، وعجزاً عن الجواب . وكفى بالتشبيه قبحاً ، وهو قولُ يعمُّ اليهود وإخوانهم من الرافضة ، وشياطينهم من المشبهة والحشوية^(٣) والناطقة^(٤) ، وهو بعد متفرق في الناس . والله تعالى المستعان .

(١) ب : « قول منع لهم » م : « متعلم » ، وأثبت مارأيته الصواب .

(٢) في النسختين : « في التشبيه » .

(٣) انظر ما سبق من الكلام على الحشوية في ص ٢٨٨

(٤) في النسختين : « الناطقة » ، وأثبت واواً قبلها لأن هؤلاء غير هؤلاء . وانظر للناطقة

رسائل الجاحظ ٢ : ٥٠ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢١ .

فهرس الكتب والرسائل

	صفحة
الحاسد والحسود .	٣
المعلمين .	٢٥
التربيع والتدوير .	٥٣
في مدح النبيذ وصفة أصحابه .	١١١
طبقات المغنين .	١٢٩
النساء .	١٣٧
مناقب الترك .	١٦١
حجج النبوة .	٢٢١
خلق القرآن .	٢٨٣
الرد على النصارى .	٣٠١